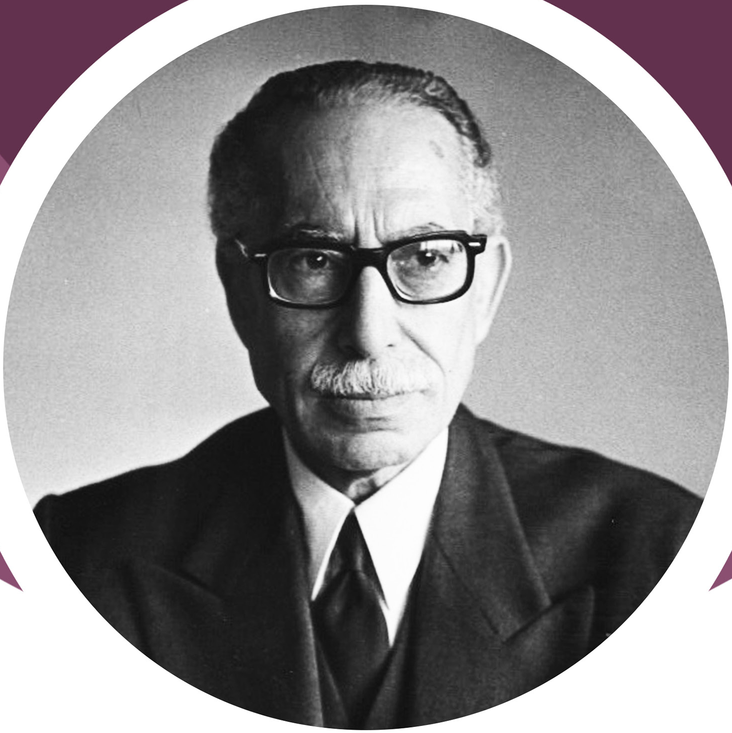

عودة الروح

توفيق الحكيم

عودة الروح

تأليف
توفيق الحكيم

هنداوي

عودة الروح

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٤ ٣١٧٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

كتاب «عودة الروح» في نظر النقاد الأوروبيين ٧
تمهيد ١١

الجزء الأول ١٣
الفصل الأول ١٥
الفصل الثاني ٢٣
الفصل الثالث ٣٣
الفصل الرابع ٤٧
الفصل الخامس ٥٩
الفصل السادس ٦٥
الفصل السابع ٧١
الفصل الثامن ٧٩
الفصل التاسع ٨٥
الفصل العاشر ١٠١
الفصل الحادي عشر ١٠٥
الفصل الثاني عشر ١٠٩
الفصل الثالث عشر ١١٥
الفصل الرابع عشر ١١٩
الفصل الخامس عشر ١٢٧
الفصل السادس عشر ١٣٥

الفصل السابع عشر ١٤٣
الفصل الثامن عشر ١٥٣

الجزء الثاني ١٥٧
الفصل الأول ١٥٩
الفصل الثاني ١٦٣
الفصل الثالث ١٦٧
الفصل الرابع ١٧١
الفصل الخامس ١٧٥
الفصل السادس ١٨٣
الفصل السابع ١٩٥
الفصل الثامن ١٩٩
الفصل التاسع ٢٠٣
الفصل العاشر ٢٠٩
الفصل الحادي عشر ٢١٣
الفصل الثاني عشر ٢١٧
الفصل الثالث عشر ٢٢٣
الفصل الرابع عشر ٢٢٧
الفصل الخامس عشر ٢٣٣
الفصل السادس عشر ٢٣٩
الفصل السابع عشر ٢٤٥
الفصل الثامن عشر ٢٥٣
الفصل التاسع عشر ٢٦١
الفصل العشرون ٢٦٧
الفصل الحادي والعشرون ٢٧٣
الفصل الثاني والعشرون ٢٨١
الفصل الثالث والعشرون ٢٨٩
الفصل الرابع والعشرون ٢٩٥
الفصل الخامس والعشرون ٣٠١

كتاب «عودة الروح» في نظر النقاد الأوروبيين

مقتطفات من بعض ما نُشر في الجرائد والمجلات الأوروبية عن طبعة «شارلز بانتييه» «فاسكيل وشركاه» بباريس.[١]

«لوبيتي هافر»، ٢١ يوليو ١٩٣٧م Le Petit Havre

قرأت هذا الكتاب بلذةٍ عظيمةٍ لأنه ينقل القارئ دفعةً واحدة، إلى وسط عائلة مصرية، نستطيع أن نقف في الحال على عيوبها، ومحاسنها، وذلك في بساطة وبغير تزيُّن وتصنُّع.

إن القارئ ليحسُّ أن ما يقرأ هو الحقيقة، وإنه ليشعر أن هذه العائلة هي صورة طبق الأصل لشعبٍ بأكمله.

«جوليان جيمار»

«سيرانو»، في ٢٣ يوليو سنة ١٩٣٧م CERANO

إننا نلمس مؤلفًا من تلك المؤلفات، التي لو وجدت عندنا لنعتَها «موريس بريس» بقصة «النشاط القومي». وليس لمدلولها غير معنًى واحد، هو أن الروح العائدة إنما هي روحُ فلاحي مصر العريقة في القِدم.

«جان ديستيو»

---

[١] قام بترجمة هذه المقتطفات إلى العربية الأستاذ «عبد الرحمن صدقي.»

«إيكودي لانيبفر»، في ٢٤ يوليو سنة ١٩٣٧م Echo de l'univers

هذه القصة التي تصور حياة أسرةٍ «بورجوازية» مصرية صغيرة لتدل على معنى للحياة والحقيقة يثير الدهشة، وهي في عين الوقت تظهر لنا كيف أن هذه الأمة الجميلة، أصبحت قادرة على كسر أغلالها.

«راوول توسكان»

«لوبنيون»، في أول أغسطس سنة ١٩٣٧م L'opinion

كل شيء يسحرنا في هذه الرواية، التي ترسم لنا من جديد عظمة روح شعب.

«فرديير لوبلتييه»

«فير لافنير»، أول أغسطس سنة ١٩٣٧م Vers l'avenir

إن رواية «توفيق الحكيم» — وهو من أكبر كتَّاب العالم العربي — لتفيض حياة وتشتمل على كثير من الأسانيد الحقيقية.

«مارك دي لافورج»

«جنوب ووسط أمريكا»، سبتمبر ١٩٣٧م

«إن قراءة «عودة الروح» سهلة وممتعة؛ لأن الطرافة تتمشى فيها إلى جانب الفكاهة.»

«أ. بلشيسيدريك»

«إنه كتاب جميل ممتلئ حيوية وتأثيرًا وذكاء مع فكاهة، ولكن في نزعته الوطنية ما يضايق قليلًا، على الأقل فيما يختص بي، غير أني أفهم جيدًا أن ظروف الحياة المصرية الحاضرة تجعل من الصعب محو هذه النزعة، دون المساس بصدق الكتاب كله.

وإنه لمن الظاهر فيه — فضلًا عن ذلك — وجود بعض عناصر أدب «الطبقات الفقيرة» أو على الأقل أدب شعبي لا شك فيه، وكل هذا في لهجة بعيدة عن الفتور والمجاملة والترفع الكاذب!» «مارسيل مارتينييه».

«لوجور»، ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٧م Le jour

إن كتاب عودة الروح ليس فقط مؤلفًا وليد الخيال، ولكنه مستند على الحالة الاجتماعية لشعب في حالة تطور سريع، بعد أن سجن نفسه طويلًا في قيود العادات الإسلامية القديمة.

إن مثل هذه الكتب ضرورية لنا: لتساعدنا على تفهُّم شعب يريد بناء استقلاله على مهل؛ محاولًا نسيان خرافات التعصب الشرقي القديم.

«تيريز هيريان»

«لوبيتي باريزيان»، في ٣١ سبتمبر سنة ١٩٣٧م Le petit Parisien

مؤلف مملوء بالحياة والطرافة، وهو ممهور بالطابع العربي. وإني لأكثر تذوقًا للجزء الثاني من الكتاب!

«جان فينو»

«ريفيو دي لكتير»، ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٧م Revue des lectures

إن قيمة هذه الرواية المصرية هي في تلك الصورة، التي أعطتها عن خلق وعوائد وروح مصر الحاضرة، وفي ذلك التباين بين تراخي الفلاح الظاهر، وقوة روحه العظيمة الكامنة فيه!

«شارل بوردون»

«لا كريتيك ليتيرير»، في نوفمبر سنة ١٩٣٧م La critique littéraire

إن «عودة الروح» المنقولة اليوم إلى الفرنسية، والتي ترجمت إلى الروسية، وظهرت في لننجراد عام ١٩٣٥م هي في نفس الوقت رواية خلقية واجتماعية معًا، تظهرنا على حياة أسرة من طبقة الشعب الوسطى، وعلى نهضة جنس بأسره!

«لورور»، في ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٧م L'aurore

لوحة فنية طريفة، تصور فيها وتعيش في أرجائها كل مصر الحقيقية النبيلة، مصر الشباب، ومصر الفلاحين، والموظفين، والطلاب. مصر التي على شاكلة

محسن بطل القصة، وأعمامه الذين لا يشعرون إلا بحب واحد؛ هو حب «مصرهم»!

«بولتان دي ستديكادي» جونارلست فرنسية، ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٧م.

قصة تصف بطريقة فكهة حياة أسرة مصرية، ولكن الستار الخلفي لهذه اللوحة، يصور جهود مصر في الحصول على استقلالها — تلك الجهود التي أدت إلى معاهدة ١٩٣٦م مع إنجلترا!

إن المغزى الاجتماعي لم يغب عن هذه الرواية، وإن قراءتها ممتعة بقدر عظيم!

«بول ديلاندر»

«لي نوفيل ليتيرير»، أول يناير ١٩٣٨م Les nouvelles littéraires

إنها ولا شك طريقة «شهرزاد» في حديثها، مع سخرية دقيقة مماثلة لسخرية «فولتير» مؤلف «كانديد»!

«جان بونجران»

تُرجم ونُشر بالروسية في لننجراد عام ١٩٣٥م.
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧م في دار فاسكيل للنشر.
وبالإنجليزية نُشرت منه مختارات في لندن عام ١٩٤٢م.

تمهيد

أصابتهم كلهم في عين الوقت الحمى الإسبانيولية، وعادهم الطبيب، فما كاد يقع بصره عليهم حتى دهش: قاعة واحدة، اصطفت فيها خمسة أَسِرَّة «عيار بوصة وربع»، أحدها بجانب الآخر، وخزانة واحدة كخزانة الخطاطين، مخلوعة إحدى عارضتيها، فيها ثيابٌ على كل لونٍ ومقاس، وبعضها ملابس «بوليس» رسمية بأزرار نحاسية. وآلة موسيقية عتيقة بمنفاخٍ، «هارمونيكا» معلقة بالحائط.

– «أعنبر» في تكنة؟

ولكن الطبيب واثق من أنه دخل منزلًا، وما زال يذكر رقمه وشارعه، ودنا أخيرًا من السرير الخامس، فلم يتمالك؛ وابتسم: لم يكن هذا سريرًا، إنما هو مائدة الطعام الخشبية، انقلبت فراشًا لأحدهم.

وقف الطبيب لحظة يتأمل المرضى الراقدين صفًّا، وفي النهاية تقدم وهو يقول:

– لا، دا مش بيت، دا مستشفى.

ثم فحصهم، الواحد بعد الآخر، وفرغ من عمله وهمَّ بالانصراف، ولكنه عاد فنظر إليهم من جديد في شيء من العجب، وهم محشورون في تلك الحجرة، ماذا يحملهم على هذا الحشر، وفي الشقة غرفة أخرى، حجرة الاستقبال على الأقل؟ وسألهم في ذلك فأجابه صوت ارتفع في أعماق السرير:

– مبسوطين كده.

لفظت هذه العبارة بلهجة ساذجة صادقة؛ بل عميقة، يدرك المتمعن فيها سرورًا داخليًّا بهذه المعيشة المشتركة، ولو استطاع أحد لقرأ على وجوههم الباهتة ضوء سعادة خفيَّة بمرضهم معًا، خاضعين لحكم واحد، يعطون عين الدواء، ويطعمون عين الطعام، ويكون لهم عين الحظ والنصيب.

وانتهت عيادة الطبيب واستعد للذهاب، وبلغ عتبة الباب. غير أنه وقف كالمفكر، واستدار للمرضى الراقدين، وقال:

– يظهر أنكم من الأرياف!

وخرج الطبيب دون أن ينتظر جوابًا، وقد ارتسمت في مخيلته صورة الفلاحين، وطفق يقول في نفسه:

ليس غير الفلاح يستطيع هذه الحياة، هو وحده الذي — على الرغم من رحب داره — لا بد له أن ينام هو وامرأته وعياله، وعجله وجحشه في قاعة واحدة.

الجزء الأول

عندما يصير الزمن إلى خلود،
سوف نراك من جديد،
لأنك صائر إلى هناك،
حيث الكل في واحد.

نشيد الموتى

الفصل الأول

انقضت ساعة الغداء وانصرف أفراد الأسرة كلٌّ إلى جهته، حتى «مبروك» الخادم، فرغ من معاونة «الست زنوبة» في رفع المائدة وغسل الأطباق، ثم خرج هو الآخر يجلس عند الفكهاني المجاور لحارة باب الميضة، ولبثت «الست زنوبة» وحدها في البيت، بعيدة عما يعكر صفو خلوها إلى نفسها. فذهبت إلى حجرتها الصغيرة، وقعدت على «الشلتة الكرنبي» ساهمة، تطيل النظر في أوراق «الكوتشينة» التي صفتها أمامها فوق الكليم، الأحمر الباهت.

مر الوقت، وأذن العصر، و«زنوبة» غارقة في أحلامها، لا ترى إلا الولد الأشقر، بجانب البنت السوداء، وأن الفرح نازل عليهما، وأن أحدهما في طريق سفر، وأن ... وأن ... إلى آخر ما في عالم الغيب والرموز.

وفتح فجأة باب الحجرة، وظهر «محسن» متأبطًا كتبه ومسطرته وبرجله، وصاح بها في لهجة صبيانية مرحة: «الشعب» لسه ما جاش؟

فلم تتحرك، ولم تُجِب في الحال، وظلت غارقة فيما هي فيه. وأخيرًا قالت دون أن تنظر إليه: جيت من المدرسة؟

– خرجنا من زمان، لكن كنت عند الخياط.

ثم شمر أطراف ثيابه بمنتهى العناية، وجلس بجانب «زنوبة» على حافة «الشلتة»، وصمت قليلًا، ثم تململ، ثم نظر إليها وتردد؛ كأنما يريد كلامًا، فيمنعه شيء كالخجل.

وكأنما تذكرت «زنوبة» شيئًا فجأة، فقالت دون أن ترفع رأسها عن الورق: أظن جعت يا «محسن»، قم خذ خياره اقرشها تصبَّر بها، من هنا للعشا وقت طويل.

ورفعت بصرها كي تدلَّه على سلة خلف باب الحجرة، تخفيها عن «مبروك»، لكنها ما كادت ترى «محسن» حتى صاحت دهشة: الله ... ما شاء الله ... إنت لابس بدلة جديدة؟

فأطرق الفتى، ولم يُجب.

واستمرت «زنوبة» في استغرابها: عجيبة ياختي، اللي يشوفك يقول مش انت، هم أهلك بعتوا لك فلوس؟ أمَّا عجيبة!

فسألها «محسن» في شيء من الخجل والتردد: عجيبة ليه؟

ولم تنقطع «زنوبة» عن تأمُّل ثيابه الجديدة بعين ملؤها الدهشة والإعجاب: علشان دي مش عادتك، عمرك ما ترضى تلبس بدلة جديدة غير في العيد الكبير، زي أعمامك، إيش عجب النهارده بقيت عايق وحلو كده؟ ... والنبي من شافك يقول عليك ابن السلطان ... اسم النبي حارسك، عيني عليك باردة ... النهارده الخميس ... النهارده الخميس.

فاحمرَّ وجه «محسن» قليلًا لهذا الإطراء، غير أن هذا المديح بدل أن يملأ قلبه ارتياحًا وغبطة، أحدث في قرارة نفسه وخزة غريبة، فغير في الحال مجرى الحديث: إيه العشا الليلة؟

فأجابت «زنوبة» بصوت اللاهي، وقد عادت إلى النظر في ورق الكوتشينة: زي الغدا.

فصاح «محسن» قليلًا: برده تاني ورك الوزة إياه؟

فرفعت رأسها في حدَّة، وقالت وهي تنظر إليه نظرة تقريع: ما له ورك الوزة؟ حتى انت يا «محسن» اللي بقول عليك عاقل؟ ... طيب والست الطاهرة بكرة يشوفوا على البطر ده، هو ربنا يبارك لمن يبطر على لقمة عيش؟ دول بعيد عنك عمامك بقوا ماينطاقوش ... يا حفيظ، إياك تعمل زيهم!

فقال الفتى برفق: لكن يا عمتي، ورك الوزة إياه بقى له ثلاثة أيام نشوفه ورانا في كل طقة، عمي «عبده» حلف على المصحف النهارده الضهر.

ولم يتم ... لأن زنوبة أتت بحركة تدل على الغضب، وصاحت: «عبده»! ومن هو بسلامته سي «عبده»؟ سيد البيت حضرته! والا كبير البيت؟ يا سم على سي «عبده»، يا سم، من إمتى كده يا ادلعدي كان البيت ده له سيد والا له كبير؟ واللي حتى الكبير بحق وحقيق عمك «حنفي» الله يحميه، اللي بيشتغل ويصرف ويوكلنا، عمره ما اتكلم ولا اتنفس، إلهي ما نعدمه، يبقى الولد «عبده» اللي ما حيلته من ضهر الدنيا إلا حلقه والزعيق والغارة.

– بكرة يجيب فلوس يا عمتي، آخر السنة دي راح ياخد الدبلوم ويبقى مهندس.

فلم تُجِب «زنوبة»، وظل وجهها مكفهرًّا، وقد عادت مرة أخرى إلى ورق الكوتشينة ترتبه وترصه وتصفُّه.

غير أنها بعد لحظة رفعت رأسها بغتة، وقالت: هو فاهم إني رايحة أخاف من طرطوره؟ الولد المفعوص ده، اسم إنه عامل عصبي وخلقه ضيق، ... لأ، والست الباتعة، أنا ما اخاف من حد أبدًا.

فابتسم «محسن» ابتسامة سخرية، وقال: تقدري تقولي كده قدامه؟

فالتفتت إليه بقوة، وقالت: بتقول إيه؟

فلم يشأ «محسن» أن يجادلها، لا سيما في ذلك اليوم، وكأنه ندم على عبارته، فضحك أو تضاحك موهمًا إياها، أنه يمزح ولم يقصد إلا هزلًا، ثم اتخذ هيئة الجد، وقال: عايزة الحق يا عمتي؟ عمي عبده قلبه من جوا أبيض وطيب زي الباقيين كلهم.

فلم تُجِب «زنوبة»، وسكتت لحظة، ثم انحنت من جديد فوق ورق الكوتشينة، وشُغلت به واهتمت، ولم يمضِ قليل حتى غاصت في تأملاتها وأفكارها القديمة، وطفق «محسن» ينظر إليها ويتبع حركات يديها، وهي ترتفع وتنخفض بالورق، ويراقب ملامح وجهها؛ كأنما يريد أن يستكشف سرها، وفي عينيه سخرية صبيانية بريئة.

وأخيرًا اقترب منها في غير كلفة حتى لاصقها، وقال وهو يبتسم متخابثًا: بتفتحي الكوتشينة لمين؟ للعريس؟

فما كادت تسمع هذه الكلمة حتى اهتزت أهداب عينيها التي يصبغها الكحل صبغًا ثقيلًا، ورفعت يدها بحركة مرتبكة تصلح وضع الطرحة — وليست في حاجة إلى إصلاح — على رأسها المصبوغ بالحناء، ثم أجابت ناظرة إلى الأرض بصوت خجول: لا والنبي، فكري مش في كده.

فاستمر «محسن» في سخريته الخفية: أمال في إيه؟ أنا غريب تخبي عني؟ إنتي عارفة يا عمتي، والله العظيم ما حد طفش العرسان غير عمي «حنفي»، الغلطة كلها غلطة «حنفي»، هو اللي طفش العرسان.

– لأ والنبي، فكري مش في كده.

وظلت مرخية الطرف حياء كأنها فتاة في العشرين ربيعًا، وصمت «محسن» لحظة، وجعل يتأمل خلسة وجه تلك العذراء المسنة، وما به من دمامة وتجاعيد؛ كأنما يسائل نفسه عن معنى هذا الحياء منها، أهو تصنع أم حقيقة؟ ثم لم يلبث أن أطرق قليلًا، وقد داخل سخريته الصبيانية شيء من الرثاء.

نشأت «زنوبة» في الريف جاهلة مهملة، تخدم امرأة أبيها، وتربي لها الدجاج، فلما قدم شقيقاها «حنفي» و«عبده» القاهرة في طلب العلم قدمت معهما هي و«مبروك» ابن «الخولي» زميلها في كُتَّاب القرية الذي لم يفلح؛ كي تدبِّر أمر المعاش وتدير دفة البيت، ولم يكن لمقامها الطويل في العاصمة أثر حقيقي في تكوينها، فهي ما زالت على حالتها

الأولى، ولم تدرك من حياة البندر ومدنيته غير أشياء سطحية، لا تتعدى الملبس وطريقة الكلام، وقد ذهبت في ذلك إلى حد تقليد صويحباتها من أهل القاهرة، وجاراتها من النساء الحديثات، تقليدًا لا تفقه معناه. وروى «محسن» أنه سمعها ذات مرة تحيي زائراتها قائلة: «بونسوار يا ستات» ... مع أن الوقت صباح. والشمس في الضحى، وزنوبة كأكثر القبيحات، قد يخطر لها كل شيء إلا قبحها، وتعجب كثيرًا إذ ترى غيرها من المعارف والجيران يخطب ويتزوج، وهي الجميلة المقتصدة، ست بيتها، كاملة الصفات؛ باقية لا يطلبها أحد، لكنها تعزو ذلك إلى سبب: البخت ... البخت الأسود بعيد عنكم مفيش غيره أبدًا.

هذا ما كانت تردده لنفسها وللناس.

ومع ذلك فقد جاءتها الخاطبات يخطبنها غير مرة، ولكن الواحدة منهن ما كانت ترى «زنوبة» وهيئتها حتى تختصر الكلام وتنهض تلتف في إزارها، وتسرع بالخروج، و«زنوبة» لا تحسب إلا أن الخاطبة مسرورة، وذاهبة توًّا لإخبار العريس، فترافقها منزلقة حتى باب المسكن، وهي تهمس في أذنها: «ابقي اشكري له فيَّ»؟

فترتسم على فم الخاطبة ابتسامة يحجبها البرقع، وتجيب في خبث وتهكم خفي: «أمال ياختي، ولا يستحق الشكر إلا انتي.»

ثم تنصرف ولا تعود بعدها أبدًا، إلا أنه ذات يوم وقع حادث تاريخي في حياة «زنوبة» ... يوم لا يحسب من عمرها، سنحت فيه فرصة نادرة لا رجعة لها، ولكن ... ولكن وا أسفاه، أضاع «حنفي أفندي» تلك الفرصة الوحيدة بحمقه وعبطه وبساطته؛ ذلك أنه في ذات عصر شاء الحظ — وكأنه ضجِر أخيرًا من اتهامه ظلمًا، ومن إلصاق العيب به زورًا — فأرسل لـ «زنوبة» رجلًا أفنديًّا متعلمًا لا بأس به يطلب يدها دون وساطة خاطبة أو أم ... أفندي طيب القلب، سليم النية على ما يظهر، أو تقي واضع ثقته العمياء في الله إلى غير حد.

جاء هذا الرجل وقابل «حنفي أفندي» مدرس الحساب بمدرسة «خليل أغا» بصفته رئيس الأسرة وأكبر أعضائها سنًّا ومقامًا، وحادثه في الأمر قائلًا أن لا لزوم لإيفاد أحد من قِبله يرى العروس وأنه يكتفي بالسؤال عما إذا كانت غير قبيحة، فما دامت غير قبيحة ولا دميمة فهو لا يطلب أكثر من ذلك.

وسأل رئيس الأسرة المزعوم عن رأيه فيها بنظرة مؤدبة متحفظة، فرفع «رئيس شرف الأسرة» — كما يدعونه — رأسه إلى محدثه، ونظر إليه بعينيه القصيرتَي البصر السقيمتين

العمشاوين والتفت إليه بوجهه الدميم الأغبر، وقد حرقته الشمس والدمامل، فصيرته في لون الطوب النى الذي تبنى به بيوت القرى ومد يده إلى طربوشه فقعسه إلى الخلف، كاشفًا عن جبهة قبيحة بها أثر بطحة، ثم قال للخاطب في حرارة وحماسة: أبدًا ... أبدًا، اطمئن مش وحشة أبدًا، اطمئن وحط في قلبك بطيخة صيفي، دي مضمونة زي الجنيه الدهب، أربعة وعشرين قيراط، وعلى إيه، شوف حضرتك، إنت واخد بالك مني؟ آهي هي العروسة شبهي تمام، بالحرف الواحد؛ لأنها شقيقتي ونازلة فوق راسي أنا مباشرة.

فبُغت الأفندي الخاطب، ووجم لحظة، ثم هدأ قليلًا، وجعل يختلس النظر إلى وجه «حنفي القبيح» محاولًا إخفاء غمه وقرفه واشمئزازه، ثم غمغم أخيرًا قائلًا كالهامس لنفسه: مش ممكن!

وسمعه «حنفي» فبادر يطمئنه قائلًا: مش ممكن ازاي؟ دا شيء مؤكد ومثبوت.

– مستحيل!

– بس اطمئن انت حضرتك من الجهة دي، إنت يا حضرة مالكش دعوة، تشبه لي تمام، وعلى عهدتي، ولا يكون عندك خوف أبدًا.

وما كاد «الأفندي» يفوز بالخروج من منزل «حنفي» حتى اختفى ولم يسمع بخبره قط.

أعاد «محسن» عبارته بلهجة فيها ملق ومداهنة: صحيح الغلطة كلها غلطة عمي «حنفي».

فخفضت «زنوبة» رأسها ولم تُجِب، وقد ضغطت على نفسها حتى لا تتنهد ... وسكت محسن لحظة، ثم فجأة اعتدل كأنما تذكَّر شيئًا، وظهرت على شفتيه ابتسامة حاول إخفاءها، وتكلَّف الظهور بمظهر الجد، وقال في الحال: عمتي ... عندك خبر؟ «مصطفى بك» اللي ساكن تحتنا، عيان!

فرفعت «زنوبة» رأسها، وبدا احمرار خفيف على وجه تلك المرأة التي ناهزت الأربعين، غير أنها تصنَّعت الهدوء، وقالت في صوت أرادت أن يخرج طبيعيًّا: عيان؟ مين قال لك؟

فأجاب «محسن» وهو يدرك ما بها، ويتغافل: النهارده الصبح لقيت خدامه في «السلم» معاه شربة ملح إنجليزي.

فشخصت ببصرها إليه؛ كأنما تريد أن تسأله وتستفسر وتستزيد، ولكنها ملكت نفسها في الحال وخفضت نظرها خجلًا، وصمتت صمتة طويلة، وطفق «محسن» يراقبها خلسة، وعلى شفتيه دائمة هذه الابتسامة الصبيانية الهازلة.

وأخيرًا قال مشيرًا إلى الورق في شيء من التخابث: مش قالت لك الكوتشينة؟

فاضطربت قليلًا، ولم تُجِب. ونظر إليها محسن، لحظة، ثم قال فجأة: فكرك مشغول بإيه؟

فارتعدت المرأة رعدة خفيفة، وأجابت في عجلة وتعثُّر وحيرة: أنا ... فكري مشغول بحاجة تانية.

فلم يمهلها «محسن»: حاجة تانية! زي إيه مثلًا؟

وأخجلتها لهجة «محسن» ذات المغزى، ولكنها تماسكت، وحضر ذهنها في تلك اللحظة، وأسعفتها ذاكرتها، فأجابت في صوت مطمئن بعض الشيء: قاعدة من الصبح افتكر في منديل الجيران اللي ضاع أول امبارح، فوق سطوحنا.

ما كادت «زنوبة» تلفظ هذه العبارة، حتى تغير وجه «محسن» وعلَته صفرة ثم حمرة، وأطرق من فوره.

ولم تفطن «زنوبة» إلى ما وقع بغتةً في نفس «محسن» وكأنما قد وجدت موضوعًا تنقذ به موقفها، فاستطردت تقول: منديل «سنية» الحرير، فكرك يا «محسن» يكون صحيح طيره الهوا؟

فلم يُجِب «محسن» ولم يستطع أن يرفع رأسه.

فاستمرت «زنوبة»: والست الطاهرة ما يدخل عقلي الكلام ده، طيره الهوا؟! هو فيه هوا يطير مناديل؟

فقال «محسن» متلعثمًا: أمال إيه؟

فأجابت للفور: أبدًا ... أنا عبيطة؟! وحياتك مسروق.

فنظر إليها الفتى نظرة خوف، ولم يلفظ كلمة.

فاستمرت تقول: والنبي الغالي مسروق، تعرف مين اللي سرقه؟

فلم يحر «محسن» جوابًا.

فاستطردت: اللي سرقه «عبده».

فرفع «محسن» رأسه فجأة في شبه دهشة وفرح: عمي «عبده»؟!

فأجابت بلهجة تحامُل: ماعندناش قبيح غيره.

فأطرق «محسن» ولم ينبس بحرف.

فقالت بقوة: والنبي لافتح المندل بكرة وأشوف.

فرفع «محسن» رأسه، ودمدم في قلق وخوف: المندل؟!

فأجابت مستطردة: إن ماكانش هو الواد «عبده» أبقى أنا أستحق ضرب الشبشب.

وسكتت لحظة، ثم مر برأسها خاطر فقالت فجأة: يوه يا ندامة! ... نسيت واحد.

فارتجف «محسن» قليلًا، وصمت منتظرًا كلمتها، والتفتت هي بغتة إليه، ثم قالت بلهجة المقتنع: بالك كان مين يكون سرق المنديل؟

فتململ الفتى مضطربًا، ولكنها لم تتنبه إليه، وقالت: «سليم».

فتنفس «محسن» الصُّعَداء، ورفع رأسه إليها، ودمدم: «سي سليم»؟

فقالت: راخر منجوس، كلمة الحق والتكال على الله، إنت ناسي حكاياته ونوادره مع النسوان؛ وفشره ومعره اللي قلب دماغنا به؟ النبي يا سم عليه راخر، لما يعوج طربوشه، ويبرم شنابه، ويقعد يضرب على السخامة المزيكة بتاعته أم منفاخ … قال إيه فاهم نفسه حلو؟ يا سخطة، النبي يا «محسن» تطلع عليه كمان غنوة من غناويك الحلوة، هو فاكرنا سهينا عنه وعن حكايته المشهورة، اللي كانت سبب وقف حاله من الحكومة؟ حادثة الست الشامية بتاعة «بورسعيد» … قطع بعيد عنك «سليم» ابن عمي، هو فيه حد قده في الخبص واللبص؟

فاطمأن «محسن» وانفرجت أساريره وابتسم ابتسامة ساذجة، ثم اقترب من «زنوبة» بلطف، وقال بصوت تعتوره رجفة طفيفة: إنتي شفتيها يا عمتي فوق السطوح النهارده؟

فقالت «زنوبة»: مين هي؟ «سنية»؟

فحرك الفتى رأسه علامة الإيجاب، وقال متوخيًا الهدوء الطبيعي في نبراته: قالت لك إيه؟

فأجابت «زنوبة» دون أن تلتفت إلى اهتمامه: مسألة المنديل؟ … ضحكت، وقالت إن كان صحيح مسروق يبقى الحرامي يستحق الشنق به.

فاحمر وجه «محسن» حتى صار بلون «الكليم»، ثم غض بصره، ونظر إلى الأرض.

الفصل الثاني

جاءت ساعة العشاء، واجتمع «الشعب» في فسحة الشقة، حول مائدة من الخشب الأبيض الرخيص، عليها غطاء مشمع، قد أكل عليه الدهر وشرب؛ كما أكلوا هم عليه وشربوا، وربما نام الدهر عليه أيضًا، كما نام «مبروك» الخادم؛ فهذه المائدة هي التي تنقلب بالليل سريرًا لـ «مبروك»، يضع عليها مرتبته ولحافه وبراغيثه، وفي الصباح تعود مائدة، يوضع عليها طبق الفول المدمس الكبير، وأرغفة الخبز الخاص للإفطار، وقصعة الفريك أو الفول النابت للغداء أو للعشاء.

في تلك الساعة كانت القصعة المعهودة موجودة، يتصاعد منها الدخان، إلا أن الجميع في سكون وجمود عجيبَين، وما كانوا قد بدءوا الأكل بعد؛ كأنما هم ينتظرون أحدهم، وحقيقةً كان موضع «حنفي» خاليًا، ولكن هل انتظار الغائب ينبغي له منهم كل هذا الصمت والوجوم؟ … فهذه «زنوبة» واضعة كفها على خدها كالغارقة في أحلام بعيدة … وهذا «مبروك» في مجلسه بطرف المائدة يستنشق بخياشيمه رائحة الدخان المتصاعد من القصعة بينهم، ويلقي على مكان «حنفي أفندي» الخالي بقربه نظرة من نفد صبره، ولكنه لا يجرؤ مع ذلك على قطع هذا الصمت المخيم، وبين آنٍ وآنٍ يرمق ثوب «محسن» الجديد أمامه، بعين منكسرة ذليلة. «مبروك» ليس خادمًا عاديًّا؛ فهو رفيق الصبا لأفراد الأسرة، وهو الذي لاعَب في الصغر «حنفي» و«عبده» و«سليم»، ونشأ معهم في بلدة «الدلنجات»؛ لذلك هو في الأسرة شبه «خادم شرف» كما أن «حنفي» «رئيس شرف»، وكان «محسن» في مقعده من المائدة مشغولًا هو الآخر باختلاس النظر إلى «عبده» و«سليم»؛ كأنما يريد استطلاع سر صمتهما الغريب، ولا شك أن «عبده» و«سليم» هما أصل عبوس تلك الليلة، وإنه ليبدو من أمرهما أن شيئًا غير عادي يعكر مزاجهما، ويجعل هذا العشاء خلوًا من السرور والجلبة والانشراح المعتاد بين «الشعب» كلما اجتمع حول مائدة، فسليم أفندي

— «المهياص» المرح — واجم على غير عادته، مطرق يفتل شاربيه الكبيرين في سكون وتفكير، أما «عبده» فجامد مكفهر، وقد انتفخ منخاره الكبير واحمر أكثر من المعتاد، دلالة على غضبه الشديد، وهياجه العصبي الهائل ذلك المساء.

استمر الصمت والإطراق على ذلك النحو زمنًا، وأخيرًا رفع عبده رأسه فجأة، وضرب المائدة بقبضته ضربة عصبية قوية، أفاق لها الجميع، وصاح: ملعون أبو اللي ينتظر.

وبغت «مبروك» الخادم من الصيحة، فوثب على قدميه في الحال، واتجه شطر قاعة النوم، وألقى نظرة على سرير «حنفي أفندي»، ثم عاد يقول: سي «حنفي» ممدد في سريره، وبياكل — من غير مؤاخذة — رز بلبن مع الملايكة.

وعندئذٍ سمع الحاضرون صوتًا من قاعة النوم، يقول: رز بلبن مع الملايكة؟ يسمع منك ربنا يا «مبروك أفندي»، أنا بقى لي زمان ما أكلتش رز بلبن، من نهار ما استخدمت وسلمت زنوبة مصروف البيت.

فرفعت «زنوبة» رأسها وقالت غاضبة: من نهار إيه؟ ... فشر! ... إنت كمان بسلامتك، يا سم! ... النبي تقوم تهز طولك بلا وحم ... الأكل برد من الصبح.

فقال «حنفي» من قاعة النوم: إنتم فاهمين إني نايم؟ ... أما إنكم صحيح متأخرين ... أنا عندي شغل اكوام، اكوام.

وهنا تململ «عبده» وصاح: انتظار مفيش، مفيش انتظار.

فأجاب «رئيس الشرف» من قاعة النوم بصوت يترنم بنغمة كنغم المواويل: «شعب» اصبر! دا الصبر طيب، وإن كان مر مايضرش ... باقي على التصحيح دفتر وكراسة، يا سيدي دفتر وكراسة، يا سيدي دفتر وكراسة، يا سيدي كراسة، وإن كانوا كراستين إيه يعني مايضرش.

فكظم «عبده» غيظه، وظل «حنفي» في قاعة النوم ذات الأربعة الأسرَّة يشتغل في سريره بتصحيح كراريس تلاميذه، وهو يترنم ويغني: يا سيدي دفتر وكراسة، يا سيدي دفتر، يا سيدي كراسة ... آه، يا سيدي كراسة.

ولم يتحرك للغناء أحد من الحاضرين سوى «مبروك» فإنه وقف في منتصف الفسحة، ووجهه إلى قاعة النوم حيث سرير الرئيس، وأخذ يصفق براحتيه كما يفعل «المطيباتية»، ويقول: الله ... الله، كمان «يا سيدي كراسة».

وأخيرًا لم يطق «عبده» صبرًا؛ فصرخ: أقسم بالله العلى العظيم مانا ساكت ... خلاص.

ثم مد يده في حركة عصبية إلى ملعقته، فرفعها بقوة وعنف، ودسها في قصعة الفت، وحساء الفول النابت، وأخذ يأكل غير حافل بأحد، وعندئذٍ تبادل الآخرون النظرات، كأنما

أدهشهم عمل «عبده» أو كأنما هم لم يرتاحوا له، ومع ذلك لم يجرؤ أحد منهم على التفوه بلفظ.

غير أن زنوبة ما لبثت أن تكلمت بصوت يبدو منه رنة المحاول تبرير عمل «عبده» فقالت: أيوه ... أمال، الحق على بسلامته الكبير الريس، اللي دايمًا ممدد زي تنابلة السلطان، وحياة ربنا العزيز البيت باظ من تحت راسه.

والتفتت إلى «عبده» في ملق وزلفى تريد تهدئة خاطره؛ وكأنما رأت أن تغير مجرى الحديث وتوجه الأفكار إلى موضوع آخر فقالت: ماتعكرش دمك يا «سي عبده» ... قطع الأكل والشرب وسيرته.

ثم فجأة غيرت لهجتها، وقالت: يا ترى حد منكم لقي منديل «سنية» الضايع؟

كان «عبده» قد بدأ تهدأ ثائرته من تلقاء نفسه، وبدأ يندم في ضميره على إسرافه في الحدة والغضب، أو على الأقل لإظهاره هذا الغضب!

لكنه ما كاد يسمع عبارة «زنوبة» الأخيرة، وما كادت تلفظ أمامه كلمتَي «منديل سنية» حتى انقلبت سحنته ثانية، وعاد شرًّا مما كان، وكأنما «زنوبة» قد أرادت تهدئته بهذه العبارة؛ كمن يهدئ النار بالزيت.

أطرق عبده لحظة وقد انتفخت أوداجه، واحمر منخاره، ثم لم يعد في استطاعته الجلد والكظم فانفجر صائحًا: يعني مش عارفة المنديل عند مين؟ كلنا عارفين المنديل عند مين.

فارتعد «محسن» ونظر إلى الأرض، لكن «عبده» التفت إلى جهة ابن عمه «سليم» وأومأ برأسه إيماءة فيها معنى الشر والهجوم، واستطرد يقول: لو كنا مغفلين كان ينطلي علينا، ولكن احنا الحمد الله مش مغفلين ... حضرته يقول لك فين المنديل.

وأشار إلى «سليم» بأصبعه إشارة صريحة، ففتل هذا شاربه بتؤدة.

وأجاب ببرود: حضرتك بتقول إيه؟

فقال «عبده» في لهجة جافة قاطعة: مفيش لزوم للكلام ... كلنا عارفين.

فقال «سليم» بنفس البرود: عارفين إيه؟

فلم يُجِب «عبده»، وأشاح بوجهه عنه، فهز «سليم» رأسه متعجبًا، وقال: عفارم عليك، تبقى حضرتك عاملها وتتهم فيها غيرك؟ ... لكن هي دي شطارة شبان اليوم.

فاستدار «عبده» في قوة وعنف وصاح به: لو كنت أنا من أرباب السوابق في المسائل دي، كان يبقى صحيح.

فتخاذل «سليم» قليلًا ودمدم: سوابق؟

فاستطرد «عبده» ملمِّحًا: لو كنت أنا «يوزباشي» وأوقفوني عن وظيفتي علشان مسألة واحدة شامية!

فتجلَّد «سليم» ورفع رأسه، وقال بقوة وتبجح: وإيه يعني؟

ولكنه مع ذلك أحس إفلاسه أمام السامعين؛ فإن هذه الحادثة التي طالما كانوا يستشهدون بها اتهمته مقدمًا من دون حاجة إلى دليل. الجميع يعلمون أنه ضابط بوليس، موقوف عن العمل منذ ستة شهور بسبب سوء استعما له سلطة وظيفته؛ فقد اتُّهِم في بورسعيد بمغازلة سيدة سورية تقطن منزلًا أمام نقطة البوليس، ولو أن الأمر اقتصر على مجرد المغازلة والمناورة، وإرسال الإشارات والتحيات والابتسامات وفتل الشوارب وتلعيب الحواجب لتلك المليحة كلما بدت من نافذتها، لما كان في الأمر ما يدعو إلى جزاء الإيقاف … ولكن «سليم أفندي»، ذهب إلى أبعد من ذلك، وطلب الوصل والقرب من ذات الحسن، وبحث طويلًا عن الطريقة، وأخيرًا هداه الشيطان، وكان ذلك في يوم صيف ووقت عصر اشتد قيظه، والتهبت فيه العواصف والأجساد التهابًا، فقام على الفور «سليم أفندي» معاون البوليس، في لباسه الرسمي العسكري، تلمع أزراره النحاسية في وهج الشمس؛ كما تلمع النجوم الثلاثة فوق كل من كتفيه، ومضى إلى منزل الجميلة، وصعد إلى مسكنها، وطرق بابها، وقال: افتحي يا ست، ماتخافيش، أنا المأمور.

– ليه؟ لازم حاجة؟

– اسمحي لي بس أدخل شوية.

– علشان إيه؟

– علشان إيه؟ سبحان الله في طبعك، علشان، أفتش، لازم أفتش، مش تسمحي أني أفتش؟

وهكذا قرر زورًا وباطلًا أنه يريد تفتيش مسكنها، وكُشفت الحيلة، وانتشر الخبر، وكانت فضيحة، وكان الإيقاف لمدة سنة.

مر كل هذا كالبرق برأس «سليم»، فسكت ولم يحر جوابًا، ورأى «عبده» منه ذلك، فقال بصوت المهاجم المغتاظ المتشفي: أيوه، اسكت أحسن لك، المسألة واضحة كالشمس.

فرفع «سليم» رأسه وقال ببرود: قصدك إيه؟

فرد «عبده» متكلفًا الهدوء: مفيش لزوم، عرفنا كل شيء.

فاعتدل «سليم» وقال في حدة وجد: بقا اسمع … كفاية أمور التهويش بتاعتك دي مش علينا، حضرتك فاهم إنها شطارة، لكن … لأ، عيب، إن كنت صحيح شاطر تقول

ولا تنكرش، ومع ذلك دا شيء ظاهر، بس أنا مش راضي أتكلم، إن كنت مش مصدق أنا مستعد أثبت كلامي وأشهد الحاضرين.

فقاطعه «عبده»: تثبت كلامك؟!

فقال «سليم» على الفور: معلوم تحب أثبت لك؟ … قوم رجلي على رجلك خليني افتش عفشك وهدومك.

وعندئذٍ لفظ عبده ضحكة سخرية كبيرة، وقال: بتقول إيه؟! تفتش؟! ما شاء الله، لسه حضرتك ماحرمتش التفتيش؟

تتبع الحاضرون تلك المناقشة في سكون تام، وكان أشد الحاضرين انتباهًا لما يدور، الصغير «محسن»؛ فقد كان ينصت والخوف والقلق يتناوبان هز قلبه، وما كان أحراه أن يهدأ ويطمئن، فمن ذا يتهم أو يسيء الظن بغلام في الخامسة عشرة من عمره.

وبينما هم كذلك؛ إذ ظهر «حنفي» فجأة بباب قاعة النوم المؤدية إلى الفسحة، وأخذ يتأملهم لحظة بنظره القصير، ثم قال: خبر ايه؟ ما لكم كده الليلة ظايطين زي اللي معجونين بمية عفاريت؟ طيب أديني حضرت، أديني حضرت أهه.

فلم يجبه أحد … «زنوبة» فقط تنازلت، ورفعت عينها، ونظرت إليه في عدم اكتراث، ثم حولت بصرها عنه، وعادت إلى ما كانت فيه، فتقدم رئيس شرف الأسرة نحو المائدة، ثم قال: يعني مش شايف أكل ولا شرب، هو فين أمال العشا اللي بتقولوا عليه؟ سمعنا إن فيه عشا، يظهر إنها إشاعة.

فرفعت «زنوبة» رأسها وأشارت إلى القصعة قائلة بفتور: مش شايف؟

فأحكم «حنفي» وضع منظاره على منخاره، وسدد عينيه إلى القصعة وما بها، ثم قال: فول نابت؟! شي لله يا ام هاشم.

فلم تنظر إليه «زنوبة»، غير أنها نهضت من مكانها في الحال وسارت في الفسحة متجهة شطر المطبخ وهي تقول: فيه كمان يا ادلعدي صنف.

وذهبت.

ما كادت تخرج «زنوبة» حتى عاد السكون والصمت من جديد.

وجلس «حنفي» في مكانه الخالي بقرب «مبروك» الخادم.

وظل لحظة ينتظر كلامًا … وأخيرًا تنحنح، وثبت منظاره على منخاره وطفق يحدق في وجوه رفاقه واحدًا واحدًا؛ كأنما أدهشه حالهم، وأراد أن يستوضح سر سلوكهم الغريب ذلك المساء.

– خبر ايه؟ «الشعب» ما له؟!

ولكن أحدًا من الحاضرين لم يتحرك ولم يُعْنَ بالرد عليه، إلا أن «مبروك» الخادم التفت إليه في النهاية، وقال بصوت خافت خطير: «الشعب» بلا قافية متخاصم.

فتساءل «حنفي» عجبًا: متخاصم؟! من فيهم اللي متخاصم؟

فأجاب «مبروك» باقتضاب: جميعًا.

فسأل «حنفي»، مستوضحًا: جميعًا؟! … ليه؟ حصل ايه لا سمح الله؟

فقال «مبروك»: بلا قافية جميعًا، يا محلى الخصام جماعة!

فاشتدت رغبة «حنفي» في المعرفة، فقال: لكن يعني إيه بس سبب الخصام؟

فسكت «مبروك» ولم يجب، وألقى نظرة سريعة على الآخرين فألفاهم صامتين، فلزم الصمت مثلهم، وكأنما يخالجه شيء من الارتياح واللذة أن يكون هو أيضًا ضمن الصامتين. وعلى الرغم من إلحاح «حنفي» وغمزه له، ووخزه له بكوعه كي يخرجه من الصمت؛ فقد ظل «مبروك» ساكتًا لا يريد أن يتكلم، ولا يحرك إلا عينين كبيرتين ينقلهما بين الطبق والقصعة.

ويئس منه «حنفي» فانصرف بوجهه عنه، وتمتم قائلًا: شيء عجيب يا ناس!

عبثًا حاول الرئيس أن يحملهم على الكلام حتى سئم وتعب، فتوجَّه بكلِّيَّته إلى الأكل، وصار يزدرد في سكون مثلهم.

ومضى زمن قليل، ثم عادت «زنوبة» تحمل في يدها طبقًا، ونظرة واحدة إليه من عين «مبروك» الحادة استطاعت أن تعرف ما يحتويه. فصاح معلنًا: ورك الوزة شرَّف.

فانتفض الرئيس «حنفي» انتفاضةً مسرحية مصطنعة، وقال: مش ممكن.

ثم قام على قدميه في الحال، وثبت منظاره على منخاره ونظر ثم قال: يا خبر باين! دا صحيح يا أولاد.

ثم فجأة اعتدل في وقفته، وغير لهجته، وصاح معلنًا: صاحب العزة، ورك الوزة شرَّف.

رفع الجميع رءوسهم، وبعد أن تعرَّفوا الطبق أخذوا يتبادلون النظرات، ثم ألقوا أبصارهم في النهاية على «عبده»، كأنما هم يسألونه رأيه وما هو فاعل، لا سيما هذا المساء، وهو على تلك الحالة من الغضب وتعكر المزاج.

ولكن «عبده» لم يأتِ بحركة ولم ينبس بكلمة؛ بل ترك «زنوبة» تضع الطبق باطمئنان في وسط المائدة، وعندئذٍ رفع عينيه ونظر طويلًا إلى ورك الإوزة الهادئ في طبقه، ثم فجأة … وفي سرعة كسرعة الحدأة انقضَّ على ذلك الورك، فحمله بأصبعيه وذهب به إلى النافذة، فألقى به في الشارع، ثم عاد إلى مكانه، دون أن يلفظ حرفًا واحدًا.

وجم الحاضرون لحظة إزاء هذا المنظر الصامت، ثم انقلبوا في الحال محبذين مسرورين ضاحكين، ما عدا «زنوبة» ... وكان أكثرهم بالطبع ضحكًا وصخبًا وتشويشًا «حنفي» و«مبروك»؛ فقد كان الرئيس «شرف» والخادم «شرف» يضحكان من قلبٍ صافٍ بسيط. ويودان لو يستمر الضحك والصخب، وقد وجدا له في النهاية سببًا على الأقل ... وجعل «حنفي» يطيل ضحكاته، ويصل بين أطرافها، وينظر إلى «مبروك» الضاحك الوحيد الباقي مثله، ويقول: آه ... آه منه ورك الوزة.

وكأنما قد تذكَّر شيئًا، فالتفت بغتة إلى «عبده» وقال: ولكن يا سيد عبده، إنت نسيت إن قهوة المعلم شحاتة تحت، قدامنا في الشارع، وأنا أراهن إن ما كان الورك نزل فوق راس زبون.

فرد «مبروك» الخادم في الحال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

فقال «حنفي» موافقًا في لهجة جدٍّ مصطنعة: الدنيا حكم ومواعظ.

فتنهد ومبروك، ثم قال: يا سلام سلم! ... زبون قاعد، بلا قافية، كافي خيره شره، وطالب له فنجان قهوة سادة، ولا واحد شيشة، يقوم في غفلته ينزل عليه.

فقاطعه «حنفي»، مكملًا: ينزل عليه ... اللهم احفظنا واكفنا السوء.

فتميزت «زنوبة» من الغيظ، وهي بلا شك الوحيدة التي أغضبها عمل «عبده»، غير أنها كظمت وسكتت.

واستطرد «مبروك» يقول وهو يهز رأسه: الدنيا من غير مؤاخذة حكم تمام ومواعظ.

فانفجرت «زنوبة» وصاحت به: اخرس بقى انت كمان يا خدام يا لواص يا لحاس الاصحن.

فصمت «مبروك» قليلًا، ثم عاد فقال: وانا قلت حاجة؟ دي بلا قافية مواعظ كبيرة قوي، واحد زبون طالب غايته واحد قهوة بقرش تعريفة، والا شيشة بنيكلة، يقوم من غير مؤاخذة في غفلته ينزل عليه من السما ورك وزة فلاحي، يساوي جنيه؟

فقالت «زنوبة»، بحدة: قلت لك اخرس.

ثم التفتت إلى «عبده» وقد أطمعها فيه سكوته، وقالت: وانت وحياة ربنا العزيز بكرة تشوف، ابقَ تف في وشي إن كنت تكسب.

فاحتقن وجه «عبده» غضبًا وصاح: بتقولي إيه؟!

ولكن «زنوبة» تجلدت واستمرت تقول: بكرة تشوف إن كان ربنا يسامحك والا يبري لك ذمه، ابقَ قابلني إن كنت تورد على جنة، أو يتشفع لك نبي.

فأتى «عبده» بحركة عصبية من يده ملأتها رعبًا، فسكتت في الحال؛ وكأنها رأت أن الأولى بها أن تتلطف معه، فقالت: وأنا كنت جايباه لك؟ والنبي الغالي دا ما كان لك، الطير ده أنا كنت جايباه لـ «مبروك» ... مش كده يا «مبروك»؟

فنظر إليها «مبروك» ثم نظر إلى الحاضرين حائرًا مترددًا متورطًا، لا يدري ما يقول، وأخيرًا وافقها في لهجة سخرية خفيفة: آه! ... الطير!

واستطردت «زنوبة» دون أن تلتفت إلى جواب «مبروك»: أصل ادلعدي «مبروك» يحب الطير البارد.

فهز «مبروك» رأسه علامة الموافقة الاضطرارية وقال: أيوه ... زي، بلا قافية، الانجليز.

فنظر إليه «حنفي»، وقال له: وانت كمان إيش كان عرَّفك بأكل الانجليز؟

فأجاب «مبروك»: أمال إيه! مش ابن عمي أخدوه في السلطة أيام الحرب مع الجمال والحمير والأنفار اللي خدوها!

فقال «حنفي»: صحيح! وكان بقا ياكل راخر طير بارد؟ والله عال! يظهر إن ست «زنوبة» عايزة تعملنا انجليز على آخر الزمن.

وفهمت «زنوبة» أن «حنفي» يسخر منها، فالتفتت إليه، وصاحت به في حدة: النبي تنسد انت كمان، وتحط على خيبتك برش ... دي نوايب إيه ياختي دي، أنا عارفة جرى لكم إيه، إنتم بقيتم والنبي ماتنطاقوش أبدًا.

ما كادت «زنوبة»، تتم جملتها، حتى رفع «عبده»، رأسه، وصرخ بصوته الهائل قائلًا: هس ... اخرسي ... ولا كلمة.

ثم تبع ذلك بقوله متوعدًا: أقسم بالله العلي العظيم مانا ساكت لك، إنتي فاهمة إننا كلاب توكلينا الأكل ده؟! احنا مش كلاب أبدًا.

فنظرت إليه «زنوبة» في خوف، ثم قالت في دعة ورفق: مش قلت لك أنا كنت جايباه لـ «مبروك»؟

فأجاب «عبده» على الفور: و«مبروك» مش بني آدم؟! ... و«مبروك» مش واحد منا؟ ومن إمتى «مبروك» له معاملة غير معاملتنا؟ من إمتى ظهر التمييز ده في البيت؟

ما إن قال «عبده» هذا حتى وجد من «الشعب» تصديقًا واستحسانًا مملوءين قوة وحماسة عجيبتين ... فخفض «مبروك» الخادم بصره خجلًا، وجعلت أصابعه تلعب بأزرار قفطانه القذر الممزق، وأحس في أعماق قلبه أشياء لا يفهمها، وشعر بدافع خفي يدفعه إلى اختلاس النظر لثياب «محسن» الجديدة الثمينة، غير أن شيئًا آخر جعله يغض من بصره، ثم إذا الدافع يدفعه ثانية إلى النظر سرًّا إلى ثياب «محسن» الجديدة الثمينة.

وكانت تلك النظرات بريئة ساذجة لا تؤدي أي معنى، ولكن فيها بعض الخضوع والانكسار والكآبة، ولعل ذلك على غير علم منه، ولعله كان يحس في تلك اللحظة بشيء من الفرق، يجب أن يظل موجودًا بينه وبين أولئك الذين يعايشهم منذ أمدٍ عيشةَ الأهل. إلا أنه لم يفطن لشيء من هذا، ولم يدرك قط شيئًا، وإنما هو مجرد إحساس سريع مر كالبرق.

واستطرد «عبده» قائلًا لـ «زنوبة» في خشونة وجفاء: سلمناك المصروف لاجل تصرفي علينا، مش لاجل تصرفي على السحر والتنجيم.

وأسرع «حنفي» الرئيس مصادقًا: عليك نور يا «ابو عبده»، الميزانية كلها ضايعة وشرفك، في البخور والشبشبة وتبييت الأثر.

فصاحت «زنوبة» محتجة، ولكن «عبده» أسكتها صارخًا: هس ولا كلمة، حضرتك فاهمة إننا مغفلين، والا لسه عيال قاعدين نمص صوابعنا؟ كلنا عارفين، إنتي قاعدة توفري وتدبري من المصروف، وتضيعي اللي توفريه على المنجمين والدجالين يا جاهلة، فاهمة إن العمل ده رايح يجيب لك عريس؟

وأردف «الرئيس شرف» قائلًا: بدل ما تحرمينا، وتصرفي الميزانية على — بسم الله الرحمن الرحيم — العفاريت اصرفيها علينا، إحنا أولى، إحنا يعني أقل من العفاريت؟

فلم تجسر «زنوبة» على الكلام وتشاغلت بالأكل، وجعلت تأكل صامتة، وجهها متجهم قاتم، وجبينها مكفهر معقود، وسرعان ما خيم الصمت والسكون على المكان من جديد؛ فقد انصرف الكل كذلك إلى الأكل، دون أن يفتح أحد موضوعًا للحديث، وما مرت لحظة حتى كانت أصوات الملاعق والمضغ والرشف هي وحدها المسموعة في الفسحة؛ وكأن «الشعب» نزل أخيرًا على إرادة البطون، فانصرف عن كل شيء آخر.

ومع ذلك فمن نظر إلى «محسن» أيقن أن شيئًا خفيًّا يشغل باله، منذ لحظة؛ فهو يأكل ساهمًا وكأن في نفسه شيئًا؛ فقد باغت منذ قليل تلك النظرة البريئة الخجلة الخاضعة التي يرسلها «مبروك» خلسة إلى ثوبه الجديد، ولعل نظرة بسيطة ساذجة كتلك النظرة لا تحوي في ذاتها أي معنى، ما كان لأحد أن يعبأ بها، غير أن نفسًا كنفس «محسن» لَخليقةٌ أن تحس بمعناها، وأن تتأثر بها؛ فقد أثارت في نفسه ذكرى قديمة من أيام طفولته الأولى، يوم كان له من العمر ثماني سنوات، وكان تلميذًا «بمدرسة دمنهور الابتدائية»، وكان له رفاق صغار فقراء، وكان هو أغناهم وأفضلهم أسرة. فهو «محسن العطيفي» ابن «حامد بك العطيفي» كبير الأعيان في البلد وأثراهم. وقد نشأ «حامد بك» غنيًّا من أمه لا من أبيه، وهي غير «أم حنفي» و«زنوبة» إخوته غير الأشقاء؛ لذا كان هؤلاء فقراء، أما هو «حامد بك» فغني. ولقد أراد أن ينشئ ابنه «محسن» على الترف والنعمة واليسر، فأحاطه بألوانها.

ولكن «محسن» كانت له نفس من تلك النفوس التي تمج النعمة والترف، ولعل من النفوس من عذبتها الثروة … لقد كان «محسن» يخجل سرًّا ويتألم لأنه غني، وكم من مرة ناضل وبكى وصرخ، حتى لا يُلبسه أهله ثيابًا فاخرة! وكم من تضرعات وتوسلات ودموع كي لا يرسلوا له العربة تنتظر خروجه بباب المدرسة! ما كان «محسن» الصغير يتمنى غير شيء واحد: أن يكون مثل رفاقه الصغار الفقراء … لا شيء كان يذيبه خجلًا إلا أن يبدو ممتازًا على أقرانه بثوب أو نقود أو مظهر ثراء، واشتد به الأمر إلى حد أن كان يخفي اسم أسرته عن رفاقه.

وهكذا لبث فيهم طويلًا وهم يحسبونه مثلهم تلميذًا عاديًّا بسيطًا من والدين فقيرين أو متوسطي الحال … إلى أن كان يوم نحس أغبر عند «محسن»؛ فقد أصيب مرة بانحراف في صحته، وخشيت والدته عليه، ولم تستطع الإصغاء إلى توسلاته، فأرسلت له العربة تنتظره على غير علم منه، وخرج التلميذ الصغير «محسن» كعادته في رهط من زملائه الصغار، يضحكون ضحكاتهم الصافية الساذجة السعيدة، وإذا هو يرى نفسه أمام عربة والديه الفخمة، وكانت دقيقة من الخجل لا ينساها، ولكنه تجلَّد في الحال وتجاهل العربة وحوذيها، وأراد المضي في سبيله؛ كأن ليس له بها شأن، ولكن الأوسطى أحمد الحوذي، لمح سيده الصغير فناداه، فارتجف «محسن» وتصامم وانحشر في زمرة رفاقه حشرًا؛ كأنما يريد الاختفاء بينهم والهرب معهم، وكأنما النداء ليس له، ورأى «الحوذي» منه ذلك فناداه مرة أخرى باسمه قائلًا: «سي محسن بك» … «سي محسن بك»، تفضل هنا، وجرى إليه ليأتي به إلى العربة.

وكانت هي اللحظة التي فهم فيها رفاق «محسن» من هو صديقهم … وعندئذٍ جعلوا يرسلون أبصارهم إليه طورًا، وطورًا إلى العربة الفاخرة بجوادَيها المطهَّمين، نظرات بريئة ساذجة فيها شبه ذلة وخضوع.

أي أثر لا يمحى تركته في نفس «محسن» تلك النظرات؟ إنهم في الواقع ما كانوا يقصدون بها أي معنى، أولئك الصغار البسطاء، ولا يمكن لهذا العمر الطاهر البريء أن يعني شيئًا، ومع ذلك فقد أطرق «محسن» يائسًا، واتجه نحو العربة كمحكوم عليه؛ وكأنما يسمع في أعماقه صدى حكم لا يقبل نقضًا يهتف: «محسن، خرج من زمرتنا، إلى الأبد …»

الفصل الثالث

– يا «معلم شحاتة».

هكذا صاح «سليم أفندي» مناديًا في عظمة، ثم وضع بحركة متئدة متكلفة الوقار «ليَّ الشيشة» فوق الطاولة، وجعل يفتل شاربه العسكري المدهون بمعجون «الكوزماتيك»، متوخيًا في حركاته وسكناته الظهور بمظهر الشخص المهم، ذي «الحيثية» والاعتبار، وهو بين آنٍ وآخر يرسل نظرات خفيَّة إلى شرفة منزل «الدكتور حلمي»، وهي شرفة خشبية من النوع القديم مقفلة ذات نوافذ كنوافذ المشربيات التي تُرى ببيوت الوقف في شارع الخليج.

وفطن «سليم أفندي» إلى أنه نادى الحاج شحاتة، فلم يلبِّ النداء فأدار في الحال رأسه العاري المعطر بأنواع الأطياب، ونظر إلى داخل القهوة.

كان الوقت ضحى، والشمس قد اشتد وهجها؛ غير أن «سليم» الجالس على الرصيف خارج القهوة في مكانه اليومي المعتاد، لم يكن ليعبأ بحرارة الشمس، يدل على ذلك طربوشه المخلوع الموضوع على كرسي بجواره … ولو أنه في كل لحظة كان يخرج منديله الحريري «الرخيص» من كُمِّ سترته ليجفف جبينه في أناقة متصنعة وفي حيطة واحتراس. حتى لا يهدم المنديل ترتيب شعره، وحتى لا يمس أطراف شاربه المدببة.

صاح «اليوزباشي سليم أفندي» مرة أخرى مناديًا: يا معلم «شحاتة».

ولكن «المعلم شحاتة» لم يسمع شيئًا على ما يظهر؛ فقد كانت الغوغاء والجلبة داخل القهوة تصم الآذان، وكان كل نداء يضيع بين قهقهة الزبائن وسعالهم وبصقهم ونفِّهم، وزبائن «المعلم شحاتة» ليسوا من طراز «سليم أفندي» لا من حيث المركز والمقام فقط؛ بل من حيث المزاج والعواطف ومن حيث الظروف أيضًا.

فإذا كان «سليم أفندي» يجلس منفردًا منعزلًا خارج القهوة مشتغلًا بالعواطف والأحلام الجميلة، فإن باقي الزبائن داخل القهوة مشتغلون بالصخب والضجيج، ويكادون

يهدمون عليهم المكان؛ ذلك شأنهم في كل يوم، زبائن «الحاج شحاتة» هؤلاء، كلهم متعارفون، وكلهم يختلفون إلى هذه القهوة الصغيرة في عين الميعاد؛ كي يؤدوا فريضة لا بد لهم منها؛ فريضة الضحك؛ وكأن هؤلاء الناس لا صناعة لهم غير الضحك؛ وأنهم لم يخلقوا لغيره. فهم يقضون حياتهم كلها — على ما يبدو — في القهقهة بين أنفاس التعميرة والقهوة السادة، وهم دائمًا في مجلسهم المعتاد ملتفون حول واحد منهم، يظهر عليه الامتياز عليهم، والتفوق والنبوغ في مضمار النكت والمزاح، فهم دائبو النظر إليه، حتى إذا ما فاه بكلمة، هذا المهرج الأعظم، انقلبوا جميعًا ضاحكين مختنقين من الصخب والضحك، سواء أكان لما فاه به معنى أم لم يكن، كأنما هم يجدون في مجرد الضحك والصخب لذة حسية، ويمر «المعلم شحاتة» وصبيانه هنا وهناك بينهم حاملين الطلبات، وهم يضحكون ولا يدرون أحيانًا لماذا يضحكون؛ كأنما قد سرت إليهم العدوى أو أنهم يقصدون زيادة التشويش والتهييص وإحماء الوطيس، فما تمر دقيقة حتى يصفق «المعلم شحاتة» براحتيه، ويصيح في الجميع صيحة لا مبرر لها، كأنما يود أن يبلغ الضجيج والانشراح أقصى قمته: وحِّدوه، اللي يصلي على النبي يكسب.

ولا يغطي صوته إلا نداء زبون: واحد زبيب يا جدع.

أو صدى وقع النرد على الطاولة بقوة وعنف، في أحد أركان المكان: درجي … شيش … جهار.

ولكن الصوت الأعلى دائما للمهرج الأعظم وزمرته المحدقة به كأنه معبود وسط عباد مؤمنين، وهو يقول فيهم ويأمر وينهى: اسمع يا واد انت وهو.

فتعلو الأصوات: سمع … هس.

فيتكلم مازجًا الهزل بالغناء، خالطًا الكلام العادي بالمواويل؛ فبينا هو يحدِّث مَن حواليه من المقربين همسًا عن ملاحظة عنَّت له أو عن شيء خاص، إذا هو «فجأة» يرفع عقيرته بغير سابق إنذار: سبع سواقي بتملا لم طفوا لي نار.

فيجيب الجميع: الله!

– سبع سواقي بتملا لم …

وهنا مر «المعلم شحاتة» حاملًا طلبًا، فقطع المغني مواله، والتفت إلى أعوانه، وقال بصوت مسموع: سبع سواقي بتملا لم غسلت وش «المعلم شحاتة».

فضحك الجميع على نغم الموال: ها … ها … هاي.

وظلوا يضحكون حتى جفت حلوقهم، وحتى أسكتهم صاحب الكلام، ولم يستأ «المعلم شحاتة» بل ضحك معهم، ثم نظر إلى المهرج الأعظم نظرة عتاب و«عشم» وقال وهو يستأنف سيره بالطلب: طيب … طيب يا «حاج حسن».

وسمع «المعلم شحاتة» صوتًا يناديه خارج القهوة، فصاح: حاضر، حاضر.

ثم مشى مسرعًا، فاصطدم بكرسي، وسقط الطلب على رأس زبون.

فانحنى يجمع بقايا الكوب من الأرض وهو يقول: صلي على النبي تكسب.

وكان غير عابئ بالزبون الذي سال على وجهه وقفطانه ما كان بالكوب.

وجعل الزبون يجفف وجهه بطرف قفطانه، ويقول متذمرًا: أكسب إيه؟ مش تحاسب شوية.

فرفع «المعلم شحاتة» رأسه إليه، قائلًا: صلي على «أبو فاطمة» يا جدع انت، واللي خلقك دا زبيب … مين يطول يدهن وشه بزبيب؟ دا أحسن من مية القسيس يا جدع انت.

فضحك الجميع، وطفقوا يضحكون معًا ذلك الضحك الطويل الذي لا ينتهي، كأنما هم مجاذيب.

وفي الحقيقة من يدري إن كانوا هم كذلك، أو أنهم فقط قوم وجدوا النعيم في الضحك جماعة.

نفد صبر «سليم» أو الأصح أنه تصنَّع نفاد الصبر، فأتى بحركة غضب ناظرًا بطرف عينه إلى شرفة «الدكتور حلمي» وصفق بيديه الكبيرتين تصفيقًا كالرعد، وصاح: يا «معلم شحاتة»، خبر ايه يا «معلم شحاتة»؟

ومرت بضع ثوان، ثم ظهر صاحب القهوة خارجًا منها يقول: حاضر.

وما كاد يتبين «المعلم شحاتة» «سليم أفندي»، حتى هرع إليه: سعادة البك … محسوبك.

قال ذلك، ووقف باحترام أمام زبونه النظيف المستديم؛ وكأن «سليم» أعجبته هذه الوقفة الخاضعة، فلم يأمره في الحال بما يريد، بل تركه يقف، وأخذ يتمتع بهذا الاحترام وهو يفتل شاربيه، غير غافل عن أن يرسل نظراته الخفية إلى الشرفة المعهودة.

وأخيرًا قال في لهجة متئدة وقور ذات جلال، وهو يومئ إلى الشيشة في تثاقل الشخص ذي المقام: ولعة … بسرعة.

واختلس نظرة إلى الشرفة، ثم قال للقهوجي آمرًا: إنت لسه واقف؟ قلت لك بسرعة.

فوضع «المعلم شحاتة» يده على رأسه المعممة باللاسة وقال: يا سلام يا بيه، أوامر سعادتك على راسي دي.

وأراد أن يذهب كي يأتي بالطلب، ولكن «سليم أفندي» استوقفه قائلًا، وعينه للشرفة: إنت مش عارف أنا مين يا «معلم شحاتة»؟ مايغركش اني لابس ملكي.

قال ذلك بصوت مملوء عظمة، فأسرع «المعلم شحاتة» قائلًا: عارف ... عارف، أهل الحسب والنسب والكرامة، اللهم زيد وبارك.

ثم مشى نحو باب القهوة، وهو ينادي صائحًا: ولعة للشيشة بره!

ودخل القهوجي، وعاد «سليم» إلى الشيشة، فأخذها ووضع طرفها في فمه، ثم رفع رأسه وأرسل الدخان في الفضاء ونظر بملء عينيه هذه المرة إلى شرفة منزل «الدكتور حلمي»، وثبت نظراته، ولكنه ما لبث أن خفض بصره يائسًا ... إنه لم يلمح ظل إنسان فيها: لا رجل ولا امرأة.

سئم «سليم» أخيرًا، وأخذ يتمتم بألفاظ الضيق والاستياء، وأخذه نوع من التعب فجعل يتثاءب، وله في ذلك حق؛ فقد مضى عليه نحو ثلاث ساعات، وهو مرهون في مكانه بالقهوة؛ يتحرك بجسمه الضخم؛ كأنه قنطار من القطن، فكم من مرة نظر إلى الشرفة عبثًا، وكم من مرة صفق بيديه كالرعد للمعلم شحاتة وصبيانه، صائحًا بهم في لهجة يحرص دائمًا أن تكون آمرة ناهية كلهجة المأمور. ولم يختص صاحب القهوة وغلمانه فقط بهذا الأمر والنهي، بل إنه لم يترك مساح أحذية يمر بالشارع منذ ثلاث ساعات، دون أن يناديه في سلطة صائحًا: يا ولد، تعال نفض الجزمة.

ويمد له قدمه قائلًا: نفض كويس ... إنت مش عارف أنا مين؟ ولم يدع بائع جرائد يقع عليه نظره، دون أن يقول: إسمع يا ولد ... معاك بصير؟ والا هات أهرام، علشان اقرأ أخبار الترقيات والتنقلات.

ولا يرى بائعًا متجولًا حتى يستوقفه: تعال يا جدع انت وريني حمالات شغل ألمانيا، لكن لا ... لا ... لا، دا شغل نصب، أنا لا ألبس إلا من عند «سمعان» ... روح يا جدع.

والغرض أن يتكلم ويرفع صوته مدوِّيًا، وينظر بين الفترة والفترة إلى الشرفة.

لكن مع الأسف، كل هذه الأساليب ما كانت لتسترعي انتباه أحد؛ اللهم سوى زبون كان جالسًا خلف «سليم أفندي» تمامًا، ولعله جاء دون أن يشعر به.

ويظهر أن هذا الزبون ما كانت تفوته حركة من حركات «سليم» بل إنه على ما يبدو من اهتمامه وابتسامه المكتوم — كان يسرُّ ويلتذ ويضحك في نفسه لما يرى؛ كأنما هو يشاهد قصة مسلِّية، لم يكن هذا الزبون المشاهد سوى «مصطفى بك»، الجار القاطن بالدور الأسفل لدور «سليم» وشركائه ... ومع ذلك لو أن «سليم» أخطأ النظر مرة واحدة، وسدد عينيه إلى المنزل الآخر الملاصق لمنزل الدكتور إلى المنزل رقم ٣٥: أي منزل «الشعب»

للمح في إحدى نوافذه شبح امرأة، تلقي نظراتها القانطة هي الأخرى نحو القهوة منذ عشرين دقيقة، ولاستطاع كذلك أن يسمع صوت الجلبة والضوضاء التي ما فتئت تحدِثها تلك المرأة في نافذتها؛ بحجة وضع القلل الفخار، ذات الأغطية النحاسية.

لم ير «سليم» شيئًا من هذا، ولعل «مصطفى بك» لم يلمح هو الآخر شيئًا، فإن اشتغاله بمشاهدة «سليم» وحركاته وأحواله، وحرصه على تلك المشاهدة والملاحظة، منعه من النظر إلى النافذة المذكورة وما يجري فيها.

اشتد الحر ووهج الشمس؛ مما اضطر «سليم» إلى لبس طربوشه، وألقى نظرة أخيرة على الشرفة، ثم أخرج ساعته وطالعها، فإذا هي لم تتجاوز الحادية عشرة، وأفراد «الشعب» لا يعودون لتناول الغداء عادة قبل الواحدة بعد الظهر، فماذا يفعل بالوقت؟ أيظل جالسًا أم ينصرف؟ وإذا انصرف فإلى أين؟ تردد وتحير.

ومر بخاطره كالبرق خيال «قهوة الجندي» يوم أن كانت محله المختار، وتذكر تلك الفاتنات الإفرنجيات، اللاتي كن يترددن على الطابق الأعلى، وكيف أنه كان — على حد زعمه وتصوره — محبوبًا بين هاته الظباء النافرة، يتهافتن عليه وينظرن بإعجاب إلى شواربه المفتولة «الزنهار»، ولكن، وا أسفاه، لعن الله القلب المصاب الذي حمله على المجيء إلى «قهوة شحاتة» الحقيرة، يمكث فيها طول النهار، ينظر بعيون مرتفعة إلى السماء، كأنه عابد وثني لشرفة لا روح فيها.

تثاءب مرة أخرى، ثم مد يده في حركة متراخية، وتناول جريدة على الطاولة، وحاول القراءة؛ غير أن إحدى عينيه كانت دائمًا خارج الصحيفة. تنظر في كل جهة، وتدور في محجرها قلقة؛ كبلية في فنجان، وتستقر أخيرًا على الشرفة المعهودة.

مرت لحظة وهو على تلك الحال، وفجأة حدث أمر جعل «سليم» يترك جريدته تسقط على الطاولة، وأخذ ينظر أمامه في انتباه، ذلك أنه رأى «مبروك» الخادم يخرج من المنزل، حاملًا تحت إبطه «بقجة» صغيرة، ولكن ما استرعى انتباهه واهتمامه أن «مبروك» يلبس قفطان الطلعة، ثوبه النظيف الوحيد الذي يدخره لأيام الأعياد والمواسم والموالد، ثم شيء آخر أغرب وأهم: أن «مبروك» يتوجه بكل هذا إلى منزل «الدكتور حلمي»!

والواقع أن «مبروك» بعد أن ظهر بالباب، وألقى على الشارع نظرة شاملة، أدار وجهه وخطا بضع خطوات نحو المنزل المجاور المحبوب، وهو يتمتم مغنيًا: وانا ما لي … ما هي اللي قالت لي.

عندئذٍ نهض «سليم» نصف نهوض، وصاح: يا «مبروك».

فالتفت إليه الخادم وابتسم، ولكنه لم يقف ولم يلفظ كلمة، بل استمر يغني: روح اسكر، وتعال ع البهلي.

فقام «سليم» على قدميه، وجعل يصيح، ويشير إشارات قوية: هس ... اسمع أما أقولك يا «مبروك»، اسمع أما أقول لك ... كلمة واحدة وروح.

فلم يرد عليه «مبروك» بل وقف ونظر إليه وهو يغني، ثم أدار له ظهره ومضى، وصار يمشي كأنه يرقص، حتى بلغ باب منزل «الدكتور» فوقف على عتبته والتفت إلى «سليم» وغمز له بطرف عينه ولعَّب حاجبه، ثم دخل توًّا.

فزمجر «سليم»، ودمدم بين أسنانه: أما حيوان صحيح.

ولم يفت «مصطفى بك» الجالس خلف «سليم» شيء من كل ذلك، فابتسم، ومضت عشر دقائق، وإذا امرأة ملتفة في إزار أسود، قد ظهرت على عتبة المنزل رقم ٣٥: أي منزل «سليم»، ووقفت هذه المرأة لحظة ساكنة جامدة، تنظر إلى القهوة نظرات مسددة طويلة، من عينين تبرقان على جانبَي قصبة البرقع النحاسية، ثم في حركة فجائية تدل على السأم والغضب، أدارت ظهرها للقهوة، ومشت في شارع «سلامة» متجهة إلى ميدان «السيدة زينب».

ما كاد يراها «سليم» حتى نهض ناسيًا جرائده وعصاه فوق الطاولة والكراسي، وأسرع في أثرها فلحق بها بعد ثلاث خطوات من خطاه الواسعة، وهي تسير أمامه بجسمها المهتز المترنح، في تؤدة وتمهل؛ كأنها المحمل.

فتل «سليم» شاربيه بسرعة، وتقدم مقتربًا منها حتى حاذاها فتنحنح وقال هامسًا: يا سلام على كده! يا قشطة بلدي، خدامك يا هانم ... عربية ولا أوتومبيل؟

فعرفت صوته في الحال، فوقفت والتفتت إليه، وقالت في شيء من الحزن وخيبة الأمل: هو انت بسلامتك؟

فبهت «سليم» وخجل قليلًا وتمتم دهشًا: «زنوبة»؟!

فابتسمت تحت البرقع في كآبة، وبغير أن تعبأ بانتظار جوابه أخذت تختلس نظرات قلقة، إلى قهوة شحاتة خلفها؛ كأنها تبحث عن شيء أو عن شخص.

وأحس «سليم» الحيرة لهذا الموقف، فقال مرتبكًا وهو يحاول إخفاء ذلك بالضحك: ها ... ها، الله يجازيك ... أنا كنت فاكر ... نهايته بقا. إنتي رايحة فين؟

فقالت «زنوبة» وهي شاردة الفكر، غائبة الذهن: أنا؟!

وكأنما تذكر «سليم» عندئذٍ سؤالًا هامًّا، فأسرع يقول: على فكرة، الولد «مبروك» دخل دلوقت بيت «الدكتور».

وانتظر منها إجابة أو تفسيرًا، ولكنها ظلت صامتة، ثم قالت أخيرًا وهي ساهمة، وعيناها تفتشان بين مقاعد القهوة في آخر الشارع: مين؟

فنظر إليها مليًّا: مين ازاي؟ ... بقول لك «مبروك».

فعادت إلى نفسها، والتفتت إليه وقالت: مبروك؟! ... ما له، ما هو راح في مشوار.

– مشوار؟!

– آه ... راح يرجع فستان «سنية حلمي»، اللي كنت قاعدة أفصل عليه.

فاقتنع «سليم» وسكت قليلًا، ثم عاد يقول بصوت غريب: ومشوار زي ده خطوتين اتنين، يلبس الحيوان ده قفطان التشريفة بتاعه؟

فأجابت «زنوبة» بعدم اكتراث: هو دايمًا كده نهار ما يروح هناك.

فحملق فيها «سليم»: عجيبة، بقا هو دايمًا كده نهار ما يروح هناك؟

فقالت «زنوبة» وهي لاهية: له حق مايحبش يروح للناس وسخ.

فدمدم سليم، في غير تصديق: صحيح ... في محله ... نهايته. إنتي رايحة فين؟

فترددت «زنوبة» ونظرت إليه، وارتبكت قليلًا، ثم قالت: أنا؟ ... أنا عايزة أروح عند «زهرة» الخياطة.

فسألها «سليم»: هنا في البغالة؟!

فأجابت بسرعة: آه.

فأتى «سليم» بحركة لينصرف، وقال وهو يبتعد عنها: طيب بقا ... أما أرجع أنا، وابقي سلِّمي لي على «زهرة».

– إن كانت حلوة وتفصيلها حلو.

ثم استدار، ومشى عائدًا إلى مكانه بالقهوة.

لبثت «زنوبة» لحظة جامدة؛ وكأنها مترددة، وكأن نفسها فريسة لشيء خفي، وجعلت تفكر كما يتاح لمثلها ولمن له عقليتها أن يفكر. ولم تدر ماذا تصنع. فألقت نظرة أخرى على القهوة، ثم أرجعت بصرها خائبة الأمل! وسارت ببطء متجهة إلى ميدان السيدة زينب، وما إن وصلت إلى الجامع، حتى وقفت وأرسلت عينيها من خلال قضبان نافذة الضريح، وحدقت في مقام بنت رسول الله ذي النقوش الفخمة، ثم طفقت ترتل في سرها وفي حزن، سورة الفاتحة للسيدة الطاهرة ... وميدان «السيدة زينب» محطة رئيسية لمركبات «أمنيبوس سوارس» والمار به لا يلبث أن يخترق أذنيه من حين لآخر صوت العامل أو السائق يصيح: ياللا «الموسكي» ... «السيدة نفيسة» ... «الموسكي» ... «موسكي» ... «موسكي».

وكانت «زنوبة» أول من نبهه هذا الصوت، ووجهت كلمة «الموسكي» فكرها إلى شيء في رأسها، فترددت لحظة، ثم فجأة استقر عزمها، فمشت بقوة إلى مركز «الأومنيبوس»، وصعدت مسرعة إلى أول عربة متهيئة للسير.

مرت نصف ساعة و«سوارس» تخرج وتدخل في شوارع وحارات عتيقة، مخترقة الأحياء القديمة لمدينة القاهرة، حتى وصلت أخيرًا إلى الموسكي، فنزل من الركاب من نزل واشرأبت رقاب الباقين في العربة إلى الخارج، ينظرون على جانبَي الطريق إلى المتاجر والدكاكين التي لا عدد لها، وقد عرضت بضائعها التي تبهر الأنظار من أقمشة من الحرير والقطيفة مزركشة بالقصب اللامع و«الترتر» البراق، ومن مصوغات ذهبية حقيقية وقشر سمكة ومن أحذية وشباشب «بكعب» و«زحافي» على آخر طراز. ومن خردوات ودنتلات وبياضات لزوم البيت، وأوانٍ نحاسية وأخرى من الصيني، وملاعق ومغارف خشبية ومعدنية، وبالاختصار كل شيء موجود في هذه السوق المشهورة.

وكان الزحام شديدًا كالمعتاد، و«سوارس» تلقى صعوبة في شق طريقها بين أمواج الناس المجتمعين كالنمل، في شارع «الموسكي» الضيق، يعلو صياحهم، وتشتد حركتهم وضجيجهم، كلهم تجار وباعة ومشترون ومتفرجون؛ فالتجار والباعة يصيحون منادين على بضاعتهم متنازعين الزبائن، بخالب أقوالهم، ورخص أثمانهم، وحلفهم وقسمهم بالشرف والإيمان على جودة الصنف وعلى أنها فرصة حقيقية و«أوكازيون» على ذمة «الخواجة».

والمشترون — نساء ورجالًا — يشاهدون ويجادلون ويمارسون، متناولين الأقمشة بين أيديهم يفركونها ويفحصون متانتها في عنف، ثم يساومون ويناقشون، فتعلو الأصوات، ويكثر القسم، ويشتد الشد والجذب، ويسيل العرق على الجباه والوجوه، ويضاف على هذا الهرج والمرج صوت صناجات بائع العرقسوس يزاحم الناس بقِدرته الحمراء على بطنه، وإبريقه النحاسي في يده، ولوح الثلج المركب فوق القدرة لا يبرد شيئًا ولا يصل إلى الشراب وإنما وظيفته مجرد الإعلان: «حاسب على اسنانك ... أنا بياع الشربات ... ماليش دعوى باسنانك»، ثم يدق دقة بصناجته أو يملأ كوبًا لزبون، ثم يصيح في لهجة أخرى: «الصبر جميل ... فقر بلا دين هو الغنى الكامل ... سنانك حاسب.»

ظل ركاب «سوارس» يشاهدون هذا كله من نوافذ المركبة، إلا «زنوبة» فإنها وحدها لبثت جامدة ساكنة، لا تعبأ في هذا اليوم بالموسكي وما فيه؛ ولم تتحرك ولم تصحُ من

تفكيرها وما يشغل بالها إلا عندما حان محل نزولها، وكان عند سيدنا الحسين، حيث وقفت «الأمنيبوس»، فنزلت «زنوبة» وكأنما كانت على علم تام بالجهة التي تقصدها؛ فإنها ما كادت تطأ الأرض حتى جعلت تسير في هذا الحي من شارع إلى آخر، ومن حارة إلى حارة، لا تلوي على شيء، ولا تضيع ثانية واحدة.

في قلب هذا الحي … عطفة سد صغيرة مظلمة، ولا يمكن لغريب عن الناحية أن يهتدي إليها بمجرد المصادفة، إلى هذه العطفة كانت زنوبة تسير، وبلغتها بعد مسيرة ربع ساعة، ووقفت بباب منزل هو الأخير من الجهة المسدودة.

ترددت «زنوبة» قليلًا ثم طرقت الباب برفق، ومرت لحظة ثم فتح الباب، وظهرت خلفه امرأة عجوز، جعلت تنظر إلى زنوبة في تقطيب نظرة المتسائل؛ فقالت لها «زنوبة» في شيء من الخجل: جاية للشيخ «سمحان».

فأفسحت لها العجوز طريقًا، وأجابتها في خشونة: ادخلي من هنا.

دخلت «زنوبة» وأغلقت العجوز الباب وراءها، ثم قادتها إلى حجرة واسعة قليلة الأثاث، وأشارت إلى شلتة على الأرض خالية بجوار امرأة ترضع طفلها، ثم قالت لزنوبة: اقعدي استريحي لما ييجي دورك.

وانصرفت من باب في صدر المكان.

جلست «زنوبة» على الشلتة وأخذت تجيل النظر فيما حولها، فرأت نسوة جالسات على الأرض مثلها ينتظرن أيضًا نوبتهن. وكن كلهن مجتمعات، ووجوههن إلى باب الصدر، وقد لبثن صامتات يحدقن بعيونهن في ذلك الباب، كما لو أنه باب الله. وكان يرتسم على ملامح هاته النسوة معنى واحد، حتى يخيل للرائي أن فكرة واحدة تجول في رءوسهن كلهن، وتوحدهن جميعًا كأنهن في صلاة الجمعة حيث تنفصل النفوس في لحظة من أجسامها المختلفة، وتنسى كل روح حياتها الخاصة. لتجتمع كلها وتذوب جميعها وتنصب في شيء واحد: «المحراب» … ونسيت «زنوبة» نفسها لحظة تحت تأثير ذلك الشعور الذي كان يخضع له باقي النساء، ولبثت جامدة صامتة وقتًا، تنظر مثلهن إلى باب الصدر.

وأخيرًا التفتت في هدوء ولطف إلى جارتها، المرأة ذات الطفل، وهمست في أذنها سائلة: إنتي جاية للشيخ يا ادلعدي.

فنظرت إليها المرأة وأجابت: أيوه ياختي.

ثم قدمت لطفلها ثديًا كضرع البقرة، وأضافت وهي تشير إليه برأسها: علشان الولد بعيد عنك.

فاقتربت «زنوبة» بشلتتها من المرأة، ثم مالت نحو الطفل في رفق، وقالت: اسم الله عليه … ما له؟

فرفعت المرأة غطاء أزرق، كان يغطي وجه ابنها الصغير؛ ثم أجابت: عينيه، ربنا ما يوريكي … شوفي.

ألقت «زنوبة» نظرة على عين الطفل التي كاد يأكلها الرمد، وقالت: مش رحتي به للحكيم؟

فرفعت المرأة رأسها، والتفتت إلى «زنوبة» التفاتة المحتج، وقالت بصوت المعرفة والثقة: حكيم؟ هم ياختي الحكما بيعرفوا حاجة؟ دا أنا ما خليت شيء إلا جربته، ياما وصفوا لنا ياختي، ربنا هو العالم، فيه بقا أكثر ولا أقوى من العسل الاسود، وكحل البنت، والششم المغربي، والدود العلق … لحد — اسم الله على مقامك — لبخة سبلة الحمار السخنة، وكل ده لا نفع ولا شفع، تقولي إيه؟

فسكتت «زنوبة» لحظة، ثم سألتها في بساطة: والشيخ «سمحان» يعرف في العنِين؟

فمصمصت المرأة بفمها أسفًا لجهل «زنوبة» وقالت وهي تهز رأسها المغطى بالملاءة السوداء: يعرف؟ … بتسألي يعرف والا مايعرفش؟ دانتي باين عليكي ياختي ماسمعتيش به … يا ندامة، بقا اللي دلك على الشيخ «سمحان الأسيوطي» ماقالكيش على كراماته؟

فقالت: «زنوبة» في أدب: قالوا لي كتير، لكن انا لسه ماجربتش.

فقاطعتها المرأة، واندفعت تقول: لا ياختي دا مجرب، فيه أكتر مني أنا، قبل ما احبل في الولد ده، كنت بعيد عنك ماباحبلش، وياما عملت علشان الحبل، يا دهوتي على اللي جرى لي، الراجل جوزي نفسه في الخلف، ويصبح ويبات يقول لي: يا ولية يا تحبلي يا اروح اتجوز عليكي، وأجيب لك ضرة، قولي لي بقا ياختي أعمل إيه؟ الرب هو العالم، لا خليت طب ولا دوا، ولا سحر ولا عمل، كله وحياتك ما فاد ولا عاد … ويوم من الأيام جارتي «أم حسين» إلهي يمسيها بالخير، قالت لي قومي ياختي روحي لواحد اسمه الشيخ سمحان، ورا «سيدنا الحسين»، الناس بتحكي لي عنه وتقول … والله وحياتك ما كدبت خبر، تعرفي مسافة ما كتب لي الحجاب ولبسته وفات شهر والشهر اللي هل، حسيت ببطني رقعت بالزغروط.

فسألتها «زنوبة»، تطلب التأكيد بلهجة استغراب ساذجة: جالك الحبل؟

فأجابت المرأة على الفور: أمال ياختي، الحبل عقبال أملتك، بعد الحجاب بشهر! عايزة إيه بقا أكثر من ده.

وهنا فتح فجأة باب الصدر، وظهرت بالعتبة المرأة العجوز، وأشارت إلى المرأة ذات الطفل قائلة بصوتها الجاف: ياللا قومي، دورك انتي وابنك.

فانحنت المرأة على طفلها ونظرت إليه، ثم التفتت إلى «زنوبة»، وقالت: ياختي الولد نعسان. طول ليلة امبارح يا كبدي ما داق النوم، إن كنت مستعجلة ياختي قومي انتي بدالي.

فنهضت «زنوبة» بسرعة، وشكرت المرأة ودعت لها الله والنبي و«سيدنا الحسين»؛ كي يأخذوا بناصرها ويمنوا بالشفاء على ولدها، ثم أسرعت إلى الباب، وتبعت العجوز.

ما اجتازت «زنوبة» عتبة باب الصدر، حتى وجدت نفسها في حجرة الشيخ، وهي حجرة مربعة الشكل، ضئيلة النور، ليس بها من نوافذ إلا طاقة مشبكة بالحديد قرب السقف، ولا من أثاث إلا بضع «شلت» على الأرض، حول خوان صغير، فوق سجادة عجمية عتيقة.

وفي وسط تلك الحجرة يقوم ضريح «الشيخ سمحان»، ولم يكن ضريحًا بالمعنى المعروف، وإنما شيء كالقفص محجوب عن الأنظار بغطاء أسود كثيف، وعلى سطحه صف من شمعدان نحاسي قديم، وله باب صغير كالكوة ذو قضبان في لون الذهب.

عند ذلك الباب الذهبي للضريح أو القفص، كانت تجلس امرأة في متوسط العمر، سمينة، ولكن في وجهها بعض ملاحة، هذه كما يقولون امرأة الشيخ فهي وحدها التي تتصل به بواسطة هذا الباب الذهبي الصغير، وهي التي تنقل كلامه الخفي إلى الزوار السائلين، ولكن الشيخ نفسه، لم يره أحد قط، كيف ولماذا هو محبوس في هذا القفص أو الضريح؟ لا أحد يعلم، ولعل أحدًا ما تساءل عن ذلك، كل ما يعرفه الناس أن الشيخ «سمحان الأسيوطي» ذو قوة خفيَّة وأسرار حقيقية، وأنه على اتصال دائم مع «بسم الله الرحمن الرحيم» أهل تحت.

وقفت «زنوبة» جامدة تنظر إلى الضريح إلى أن أشارت لها امرأة الشيخ إشارة صامتة، تدعوها إلى الاقتراب والجلوس على إحدى الشلت المجاورة لها، فجلست «زنوبة» حيث أشير لها، وعندئذٍ نظرت المرأة إليها في تحديق، ثم سألتها بصوت متزن خافت: شاورتي نفسك؟

فسكتت «زنوبة» لحظة، ثم أجابت في تردد: أيوه ... لكن بس.

فقطبت المرأة جبينها الذي تكاد تخفيه «قمطة» المنديل الكحلي ثم قالت: لكن بس إيه؟

فأجابت «زنوبة» في خجل: جنيه! ... غالي.

فرسمت المرأة على شفتيها ابتسامة احتقار، وقالت: غالي؟ ... جنيه واحد غالي! علشان اللي في بالك تنوليه؟ أمال لو كنت قلت لك خمسة جنيه زي الست اللي لسه خارجه قبلك.

فقالت «زنوبة» بصوت خافت: والنبي لو كنت غنية ما كنت اتأخر.

فقالت امرأة الشيخ في رفق: صلي على النبي ياختي، إنتي فاكرة الفلوس دي أنا طالباها لنفسي؟ فاكرة دي حاجة رايحة تدخل جيوبنا، أبدًا وحياة راسك، إحنا مش محتاجين ... بعد الشر ... يا سلام ... الجنيه بتاعك ياختي رايحين نشتري لك به اسم الله عليكي، خروف أبيض من غير إشارة، وندبحه على اسمك هنا على الباب ده، وندهن العتبة بدمه ... على الله ببركة الأسياد اللي سامعينا ينفتح لك باب السعد والهنا.

فدق قلب «زنوبة» فجأة للكلمتين الأخيرتين، وخفضت نظرها لحظة في حياء، ثم عاد إليها الهدوء والسكينة، فأخرجت منديلها من صدرها، وفكت عقدة في طرفه وتناولت جنيهًا من بين نقود أخرى بالمنديل، ووضعته على الخوان الصغير بيدٍ مرتجفة وهي تقول: بس خروف؟ مفيش حجاب ولا حاجة؟

فأجابت امرأة الشيخ وهي ترمق الجنيه على الخوان بطرف عينها: أمال ياختي امال، حجاب وبخور وتبييت أتر، أنا عارفة بخورك ماتخافيش: فسوخ وشبة وجنزارة وعنزروت وفرفارة ورمش عين الجان، لازم لك حجاب تلبسيه دايمًا ولا تقلعيه أبدًا حاكم انتي اسم الله سلطاني دقتك خفيفة، اصبري كمان لما اسأل لك الشيخ.

وقربت فمها من الكوة أو الباب الذهبي، ونادت: يا «شيخ سمحان».

وعندئذٍ سُمع صوت ضعيف، كأنه جثة مقبورة في يوم الحشر، ينبعث خافتًا من أعماق الضريح المظلمة، فالتفتت المرأة إلى «زنوبة» بسرعة وسألتها: قولي لي قوام اسمك واسم أبوكي وجدك؟

فردَّت «زنوبة» على عجل: اسمي «زنوبة بنت رجب بن حمودة».

فعادت المرأة إلى باب الضريح، وصاحت: يا «شيخ سمحان»، اسمها «زنوبة بنت رجب بن حمودة».

وساد سكون هائل عميق دام لحظة، ثم فجأة عاد ذلك الصوت الضعيف البعيد غير الجلي، وألصقت المرأة أذنها على الباب الذهبي، وجعلت تنصت بانتباه، وأخذت «زنوبة» في اهتمام تتبعها بعيون تنم عن صبر نافد وقد مدت عنقها ووجهت أذنيها هي الأخرى علَّها تسترق بضع كلمات.

ولم تلبث المرأة أن فرغت وتركت باب الضريح، وأقبلت على «زنوبة» تُفضي إليها بالنتيجة.

– اسمعي ... الشيخ بيقول عايز أتر من شعره ... بس على شرط أن يكون من صحن الراس عند مفرق الشعر.

فدمدمت «زنوبة» بصوت خافت في خجل واضطراب: شعر مين؟

فنظرت إليها المرأة في خبث وقالت: شعر مين؟ شعر اللي في بالك.

فدمدمت «زنوبة» مرددة وكأنما تقول لنفسها: أتر من شعره؟

فأضافت امرأة الشيخ مؤكدة: من صحن الراس عند مفرق الشعر ... إياكي تنسي ... إن كنت شاطرة، قولي للمزين اللي بيحلق له واغمزيه يجب لك طلبك. اسمعي كمان ياختي، الشيخ بيقول يلزم لك كمان «قلب هدهد» يتيم!

فسألت زنوبة مستفسرة بصوت ساذج: قلب هدهد؟

فقالت المرأة مؤكدة: يتيم، قلب هدهد يتيم، إوعي تنسي!

فسألتها «زنوبة»: وبس خلاص؟

فأجابتها امرأة الشيخ: هاتي دول الأول، الحجاب المعمول من دول عمره ما يخيب. الشيخ قال من تحت ... وهو أعلم بالسر والكرامة، كل من كان راجل والا حرمة لبس دا الحجاب، يصبح يلقى اللي في باله تحت رجليه.

فاقتنعت «زنوبة»، وتورد وجهها.

الفصل الرابع

كان عصر ذلك اليوم يشبه تمام الشبه أيام الربيع، سماء صافية زرقاء، ليس فيها نقطة سحاب، وشمس مصر في نشاطها الملتهب الخالد كأنها إله شاب، ترسل على القاهرة قيظًا لافحًا يلطف من حدته قليلًا نسيم النيل المسكر.

في تلك الساعة كانت «زنوبة» و«محسن» على السطح جالسَين فوق حصيرة صغيرة، فرشاها تحت حائط الجيران كي يستظلا به، وهو الحائط الذي يفصل سطحهم عن سطح منزل «الدكتور حلمي»، وكانت «زنوبة» مشتغلة بتطريز فستان لها، وعلى وجهها دلائل الفكر … أما «محسن» فكان لابسًا بذلته الجديدة وفي يده كتاب يقلب صفحاته، دون أن يبدو عليه الميل كثيرًا إلى القراءة، وكان السكوت قد طال بينهما؛ وكأن كلًّا منهما مستقل بنفسه وبأفكاره عن الآخر، وأن أحدهما قد نسي وجود الآخر، وأخيرًا فطنت «زنوبة» ورأت أن تقطع هذا الصمت، فتكلمت قائلة «لمحسن» في غير اهتمام، وبدون أن تقف عن عملها: كتاب إيه اللي معاك؟

فأجاب «محسن» باقتضاب، وإهمال وفتور، دون أن ينظر إليها: ديوان شعراء.

فدفعت «زنوبة» الإبرة بالكستبان الذي بأصبعها، ثم قالت: ديوان إيه؟

فلم يُجِب «محسن».

وصمتت «زنوبة» لحظة ثم تنهدت وقالت، وهي تقص قطعة قماش: يا عيني على بختي، إذا كنت بس اعرف اقرا واكتب، مش ناقصني يا خسارة بس إلا الكتابة والقراية.

فرفع «محسن» رأسه باسمًا، ونظر إليها بعين ساخرة، وهمس في خبث مرددًا: بس؟!

لم تلاحظ «زنوبة» سخريته، وثبتت نظرها على جزء من الثوب قد انتهت من حياكته، ورفعته في يدها، وتراجعت برأسها إلى الوراء تتمعنه وتفحصه، ثم قالت «لمحسن» في تباهٍ وإعجاب: بص يا «محسن»، بكرة تتفرج عليه لما يكمل.

نظر «محسن» بغير اكتراث بادئ الأمر، لكنه فجأة تذكر ما جعله يحمر قليلًا، فقال بإعجاب بالغ حد التحمس: الله! ... في غاية الجمال.

ثم أضاف بعد قليل في تردد وخجل: التفصيل ده على رسم فستان.

فأسرعت «زنوبة» وأجابت في تفاخر: «سنية»! ... تمام ... على كسم بدلة «سنية حلمي» الجديدة تمام ... انت شفتها؟

فاضطرب «محسن» متلعثمًا: شفت مين؟

فقالت «زنوبة»: بدلتها ... بدلة «سنية» الجديدة ... ماشفتهاش؟ دي حاجة تجنن ... آخر موضة ... دي الوقت تشوفها بعينك يا «محسن» كمان شوية تطلع «سنية» فوق سطحهم، وتناولها لي من فوق الحيط.

فخفق قلب «محسن» ونظر إلى عمته كمن لا يصدق، وكأنما يطلب التأكيد. ولكن «زنوبة» استطردت تقول وهي ترفع رأسها وتنظر إلى أعلى الحائط: أنا قلت لها من الصبح على كده، يا ترى اتأخرت ليه؟

فارتجف «محسن»، وقال: جاية هنا دي الوقت؟ قصدي بدلتها، يعني البدلة.

وارتبك في كلامه؛ فسكت في الحال، ثم ... كأنما كان قلبه ممتلئًا بفرح مكتوم، ففاض فجأة وانفجر يتكلم في حماسة غريبة: أيوه يا عمتي أيوه، عايز اشوف رسم فستانك الجديد، لازم اشوفه واتفرج عليه، لو كنت تعرفي يا عمتي ... والله العظيم. أنا أحب دايمًا انك تلبسي كويس؛ لأن الواحدة الجميلة لازم انها تلبس كويس.

فأجابت «زنوبة» وهي تنظر إلى ثوبها الجديد: معلوم.

فاستطرد «محسن» في حماسته: دا صحيح، تعرفي يا عمتي، بكرة الناس تتجنن عليكي ... والله العظيم، بكرة تبقي كويسة ... والناس تقول يا سلام.

فخفضت «زنوبة» بصرها في حياء؛ كأنها فتاة، وقالت بصوت بطيء خافت، فيه رنة التظاهر بالتواضع: بلاش كدب.

وفجأة مرت بخاطرها فكرة اضطربت لها قليلًا، وعادت متشاغلة بعملها في غير اكتراث، ولكن عقلها جعل يفكر ويبحث.

واستمر «محسن» في ثرثرته الحماسية، وهي تحرص على الإصغاء إلى إطرائه في زهو داخلي، ولو أنها لبثت مشغولة الفكر بشيء.

وأخيرًا بدا عليها أنها اهتدت إلى ما تروم، فالتفتت إلى «محسن» وقالت بحنو وعطف غير طبيعيين: إنت كمان يا «محسن» حلو والنبي بسترتك وبنطلونك الجديد ده.

فقال في لهجة فرح صبيانية ساذجة: صحيح!

فقالت «زنوبة» وهي تنظر إلى شعره: والست الطاهرة بس يا خسارة.

فسألها «محسن» في قلق: إيه؟

فقالت «زنوبة» في تردد: إنت بتحلق شعرك عند مين؟

فرفع «محسن» يده بسرعة إلى رأسه، وأخذ يرتب شعره، وقد ألقى بطرف عينه نظرة خفيفة سريعة إلى أعلى الحائط، ثم قال: ليه؟ شعري ما له؟

فقالت «زنوبة» متلطفة: لا، مفيش حاجة ... بس يعني المزين بتاعك مش شاطر قوي.

فقال «محسن»: الأوسطى «دسوقي»؟

فقالت «زنوبة»: أنا عارفة! هو مفيش غيره في الخط؟

فقال «محسن»: ما له؟ ... دا المزين بتاعنا كلنا، أنا واعمامي و... وكلنا.

فأضافت «زنوبة» بلهجة ذات مغزى: و«مبروك» الخدام؟

فرد «محسن» في الحال: وما له، حلاقته وحشة في إيه؟

فارتبكت «زنوبة» وسكتت، ثم عادت بعد لحظة: لأ ... بس يعني، كان بدي أقول إن اللي يلبس بدلة زي بدلتك يحق له يحلق عند حلاق الناس المعتبرين.

فرفع «محسن» عينيه وصوبهما إليها؛ كأنما يستفهم عن مرادها. وقد خالجه قلق خفيف لمعنى عبارتها: أهو لوم خفي توجهه إليه وإلى ثوبه الجديد وتأنقه الحديث العهد؟ أتراها أرادت التلميح إلى أنه أصبح الآن بلباسه وتأنقه مميزًا عن أعمامه ورفاقه، ولكن لهجتها وملامحها ما كانت تدل على أي لوم، واستطردت «زنوبة» تقول: آه! لو كنت منك ... ما كنت أحلق إلا عند حلاق الأغنيا المعتبرين ... أنا عارفة انت عامل في نفسك كده ليه؟ أبوك غني، والا يمكن انت مش عارف الحلاق الكويس فين ... آه ... شوف البخت الحلو ... آهو جارنا الغني الملتزم اللي ساكن تحتنا، لا بد عنده حلاق مفيش بعده.

فقال «محسن» مسرعًا وهو يتنفس الراحة، ويبتسم ابتسامةَ مَن فهم المراد: «مصطفى بك»؟

فقالت «زنوبة» سائلة في اهتمام يبدو من عينيها، ولكن في تردد وقد احمر وجهها قليلًا: تعرف يا شاطر بيحلق عند مين؟

فنظر إليها «محسن» بطرف عينه، وأجاب وعلى شفتيه ابتسامة: أيوه امال، أعرف، أنا شفته مرة قاعد عند الحلاق الكبير اللي قدام الجامع، اللي مكتوب عليه «صالون الكمال».

فأرادت «زنوبة» زيادة الاستيضاح، فسألت: قدام جامع الست؟ ... يعني في الميدان جنب محل.

ولم تتم عبارتها، فإن صوتًا موسيقيًّا حلوًا في السطح الآخر المجاور ناداها قائلًا: أبلتي «زنوبة»، إنتي فين؟

ثم بدا بأعلى الحائط رأس جميل ذو شعر أسود لامع، فرفعت «زنوبة» عينيها، أما «محسن» فقد اصفر وجهه بغتة، ثم احمر وجمد في مكانه خافضًا بصره، مسددًا إياه إلى كتابه الذي بيده فقالت «زنوبة» منادية: تعالي يا «سنية».

ولكن «سنية» لمحت «محسن»، فقالت برقة ولطف: آه ... لا ... معلهش بقا، وقت تاني.

وفي الحال اختفى رأسها الجميل وراء الحائط.

فصاحت بها «زنوبة» وهي تنهض لتلحق وتمسك بها: تعالي، تعالي يا «سوسو» مفيش حد غريب، داه «محسن»، رايحة تتغطي وتستخبي على عيل صغير؟ حاتتكسفي منه، وانتي اسم الله متعلمة في المدارس؟ ... تعالي.

فعادت «سنية» إلى الحائط وعلى شفتيها ابتسامة مؤدبة ساحرة وقالت: ماخدتش بالي.

التفتت إلى «محسن» في تحفظ وحذر، وقالت بلهجة خلابة: بونسوار يا «محسن بك».

فارتبك «محسن» واضطرب، ونهض واقفًا على قدميه بسرعة، وأجاب متلعثمًا، وهو ينظر إلى الأرض: بونسوار.

ومدت «زنوبة» يدها من فوق الحائط وهو لا يزيد في ارتفاعه عن متر وبعض متر، وتناولت بقجة صغيرة، كانت في يد «سنية» وهي تقول: جبتي الفستان؟ هاتي ياختي وتعالي عدِّي من فوق الحيط، ونطي هنا عندنا زي العادة.

فأجابت «سنية» معتذرة في حلاوة: ماقدرش اقعد يا أبلا، ماما منتظرة تحت، عشان اضرب لها «بيانو».

فقالت «زنوبة»، متسائلة: دلوقت! ... دلوقت؟

فردَّت «سنية»، مبتسمة: أيوه دلوقت، دلوقت.

فقالت «زنوبة»، في إلحاح: اقعدي خمس دقايق بس، يعني حاجة خمس دقايق؟ ... طيب اقعدي وأنا انزل معاك.

فقالت «سنية»، بفرح: صحيح يا أبلا؟

– آي والست الطاهرة، بس اقعدي الأول علشان تشوفي فصلت فستاني ازاي، وبعدين ننزل سوا.

فأجابت «سنية»: قبلت علشان خاطرك … هاتي إيدك يا أبلا من فضلك.

وأسندت يدها الناعمة على كتف «زنوبة» العريض، وقفزت إلى الحصيرة، وهي تقول مبتسمة: آديني بقيت على سطحكم.

وجلست المرأتان إحداهما بجانب الأخرى، بينما أخذ «محسن» يتنحى عنهما قليلًا قليلًا، حتى صار في طرف الحصير، حيث لا مفر بعد ذلك … وأسرعت «زنوبة» فأخذت البقجة وفتحتها، وهي تثرثر، وتقول، وقد اتخذ صوتها لهجة الجد مع بعض الدهشة: ومن إمتى ياختي نينتك تحب تسمع البيانو؟

فأجابت «سنية»: دايمًا يا أبلا، ماما تحب البيانو، خصوصًا يوم ما تكون زهقانة … النهارده هي قاعدة لوحدها في البيت، مفيش وراها زيارات، ولا مشاوير، ولا حاجة، و«بابا» خرج من بدري زي عادته يقعد عند «أجزخانة الجوالي» … آه، شوفي يا أبلتي والنبي «ماما» كانت عايزة تعمل لك زيارة النهارده وانا اللي منعتها.

فقالت «زنوبة» في احتجاج: ليه يا «سنية»؟ … يا ندامة!

فأجابت «سنية» في صوت لعوب مرح، وهي تشير إلى فستان «زنوبة»: علشان كنت عارفة انك مشغولة بفستانك، وخفت الزيارة تعطلك … مش عملت طيب يا أبلا؟

فقالت «زنوبة» وهي تربت على كتف «سنية» الجميلة: يا سلام على ذوقك ولطفك يا «سنية»، لكن والنبي مالكيش حق، هي نينتك كانت حاتعطلني في إيه، نهايته، ياللا نشوف التفصيل بالعجل وننزل، ألا مايصحش نسيب نينتك لوحدها.

وتناولت فستانها بسرعة، وعرضته على «سنية» قائلة: آدى ياختي بسلامته فستاني الجديد، شوفي القماش، كريب دي شين من العال. لكن مايجيش زي قماشك، أعمل إيه، غلبت أسأل عند اللي اسمه «بلاتشي» و«المواردي» و«الجمال» … لفيت ياختي لما دابت ركبي … لكن أرجع واقول: أهو برده يقضي … ماتفتكريش إنه رخيص؟ التمن واحد ياختي وحياتك، روحي اسألي.

ثم التفتت إلى «محسن»: أهو فستاني راح يبقى زي ده؟

فصار وجه الفتى كالنار احمرارًا وحرارة، وأجاب متحمسًا في صوت مرتجف: دا بديع جدًّا؟

فتحولت «زنوبة» نحو «سنية» وضربت بلطف على ذراعها البضة وقالت: شايفة ازاي يا «سوسو» فستانك عجبه؟!

فرفعت الشابة الجميلة رأسها، وألقت نظرة مؤدبة على «محسن» فخفض بصره، وردد مؤكدًا في تلعثم: جدًّا.

ثم بحركة طائشة مد يده، يبحث عن كتابه، وهو يتجنب النظر إلى «سنية».

ولاحظت الفتاة حيرته، فأخفت ابتسامة خفيفة، ثم التفتت بعينيها السوداوين كعيني الغزال ذواتي الأهداب السود الطوال، ونظرت إلى الكتاب الذي في يد «محسن» وسألته في شيء من التحفظ يخالطه دلال وسحر: دي رواية؟

فأجاب «محسن» بدون أن ينظر إليها، وهو يشير بأصبع مرتجفة إلى عنوان الكتاب: لأ، دا ديوان شعر «مهيار الديلمي».

فقالت «سنية» بصوتها الرقيق: حضرتك تحب الشعر؟

فتردد «محسن» لحظة، ثم رفع رأسه فجأة، كمن صمم أن يتشجع قليلًا، وقال لها وهو يحمر، ولكن في ابتسام: أيوه، وحضرتك؟

فأجابت: أنا … في الحقيقة، أفضِّل الروايات، ومع ذلك أحب بعض قصائد وأزجال أغنيها على «البيانو».

وما سمعت «زنوبة» كلمة الغناء، حتى وضعت فستانها في حجرها.

والتفتت بقوة إلى «سنية»، وقالت في تحمُّس: و«محسن» كمان يختي، ماتعرفيش إنه بيغني؟ … دا عليه صوت يا «سنية هانم»، أنا ما حكيتلكيش إنه وهو صغير كان اسم الله عليه بيغني مع «الأوسطى شخلع» العالمة في التخت؟

فدهشت «سنية» وقالت: بتهزري والا صحيح؟

ثم نظرت إلى «محسن» بعين الاستفهام …

ولكن «محسن» تحاشى نظرتها، وطفق يقلب صفحات كتابه، ثم قال بصوت خافت وهو يتلعثم: دا كان زمان.

فسألته «سنية» مبتسمة وفي سرور لذيذ: صحيح كنت في «التخت»؟

فأجاب وهو يحاول هذه المرة أن ينظر إليها، لكنه ما لبث أن غض بصره أمام عينيها السوداوين الخلابتين: كنت غاوي.

وأسرعت «زنوبة» فقالت راجية: «محسن» غني لنا: «قدك أمير الأغصان!»

فصاحت «سنية» الجميلة في إعجاب: غنوة «عبده الحامولي» المشهورة؟ ولكن دي مين يقدر يغنيها؟ دي قديمة وصعبة خالص.

فأجابت «زنوبة» على الفور وهي تشير إلى «محسن» بثقة وتباهٍ: عارفها اسم النبي حارسه … قول يا «محسن».

فاحمر وجه الفتى الصغير، وارتبك ثم قال في لعثمة: أنا ماعرفهاش دلوقت ... نسيتها.

فابتسمت «سنية» بفتنة ومكر، وقالت: ربما «محسن بك» مايعرفش يغنيها من غير آلات.

فتنفس «محسن» الصُّعَداء، وقال وهو يومئ برأسه بقوة، علامة المصادقة: أيوه ... صحيح ... تمام.

ولكن «زنوبة» نظرت إليه بطرف عينها، وقالت: آه يا كداب، دا انت لسه امبارح مغنيها لي تحت في الفسحة ... أصلك انت بس مكسوف دلوقت.

فرفع «محسن» رأسه متشجعًا، وقال: لأ ... أبدًا ... امبارح غنيت، لأنك مسكتي لي قصعة الشوربة بصفة رق.

فانطلقت «سنية» تضحك بملء فيها، وقد بدت أسنانها المنتظمة، كأنها حجارة كريمة مرصعة، ولم يفهم «محسن» أول الأمر سبب ضحكها؛ فقد نطق عبارته الأخيرة ببساطة وبشكل عادي، فالتفت إليها في احتراس وتحفظ وأدب. وما إن أدرك أنه نجح في حملها على الضحك، حتى احمر وجهه في الحال. ثم أحس بعدئذٍ شيئًا من الزهو، كأن قلبه تداعبه أنامل سعادة دقيقة خفيَّة جديدة عليه حتى الساعة؛ إذ لا عهد له بمثلها قط من قبل، ونهضت «سنية» وهي تبتسم وتقول عارضة عليه في جد: طيب وإذا كان بدل الرق «بيانو»؟

فصاحت «زنوبة»: والنبي عليكي نور، لكن يا ترى نينتك ماتقولش حاجة؟

فقالت «سنية» وهي تلفظ الكلمات في دلال: بالعكس ... «ماما» تحب قوى غناوي المرحوم «عبده الحامولي» علشان وهي صغيرة سمعته كتير في حياته.

فالتفتت «زنوبة» إلى «محسن» وقالت له وهي تنهض هي الأخرى: تعال معانا بقا يا «محسن».

ومع أن الفتى أحس في أعماق قلبه سعادة لا توصف لهذه الدعوة؛ فقد تردد في خجل: لكن ... بس.

فقالت «سنية» بصوتها الحلو، وهي تقترب من الحائط: تعال يا «محسن بك»، مالكش حق تتردد، أنا وعدت اني رايحة اسندك بالبيانو ... «بارول» «دونير».

فدق قلب «محسن» دقًّا قويًّا كأنما هو خائف، ولكنه نهض أخيرًا واتجه نحو الحائط كما فعلت المرأتان.

فلم تمضِ لحظة حتى كان الثلاثة قد عبروا ذلك الحائط الفاصل، وأصبحوا في سطح الجيران. أي سطح منزل «الدكتور حلمي»، وهناك ساروا إلى باب السطح المؤدي إلى السلم، حيث نزلوا إلى داخل البيت.

وعند ذاك وجدوا أنفسهم في ردهة واسعة جميلة الرياش، مملوءة بالسجاجيد والأرائك الموشاة بالقصب، ومعلق على جدرانها رءوس غزلان سودانية محنطة وأسنان أفيال، وكذا على باب المدخل قد علق أيضًا تمساح هائل محنط من تماسيح السودان.

وتساءل «محسن» في نفسه عن سر وجود تلك الآثار السودانية بالمنزل، وسرعان ما تذكر أن والد «سنية» «الدكتور أحمد حلمي» كان طبيبًا بالجيش المصري، ولا بد أنه قضى زمنًا في السودان كأغلب رجال الجيش.

تركت «سنية» ضيفها في «الصالة»، وأسرعت تبحث عن والدتها، فوجدتها في حجرة نومها وقد مدت سجادة صلاة صغيرة وهي تختم صلاة العصر فانتظرتها «سنية» حتى انتهت من الصلاة، واقتربت منها وقالت: ماما ... أنا جبت معايا ضيوف: أبلتي «زنوبة» و.

ثم وقفت مترددة.

وأخذت والدتها تصلح وضع طرحة الصلاة الحريرية البيضاء فوق رأسها وقد طوت السجادة الصغيرة، ثم نهضت وهي تقول فرِحةً: والله بركة، أهلًا وسهلًا بها.

فأضافت «سنية» على عجل متظاهرة بعدم الاكتراث: هي وابن اخوها «محسن».

فنظرت إليها والدتها وقالت: ابن اخوها؟!

فقالت «سنية» في شيء من القوة: أيوه، ابن اخوها «محسن».

فتجهَّم وجه والدتها قليلًا، وقالت: أهو ده اللي ناقص، جايبة راجل هنا.

فتضاحكت «سنية» في تهكم: راجل؟ ... ودا اسمه راجل؟ ... ولد صغير زي ده!

ثم اتخذ صوتها لهجة الجد: ماسمعتيش يا ماما؟! بيقولوا إن صوته جميل قوي، دلوقت يغني لك غناوي «عبده الحامولي».

فكبُر الأمر على الأم، فقالت مستنكرة: إيه اللي انتي بتقوليه ده؟! ... ما شاء الله! يغني لي أنا؟ ... راجل؟!

فقالت «سنية» في شيء من الجفاء: برضه بتقولي راجل؟! قلت لك يا ستي مش راجل، دا زي ابنك أو ابن ابنك.

ولكن الأم لم تشأ الإصغاء، وقالت وهي تدير ظهرها لابنتها: مابقاش إلا كده هي دي رخره موضة؟ عايزاني أنا رخره أقل عقلي على آخر الزمن؟

فلم تُجِب «سنية» ولبثت لحظة ساكنة تنظر إلى والدتها في غيظ، واستطردت الأم تقول: طيب انتي يا بنتي زي بتوع اليوم ... ماشيين على السخامة الموضة ... ما حد يقدر يقول لكم تلت الثلاثة كام؟ وأمك رخره عايزة منها إيه؟ لأ ... اعملي معروف سيبيني في حالي واعتقيني كرامة للنبي، ربنا يهديكي.

فضاق صدر «سنية» وتناولت يد والدتها تريد أن تقودها، وهي تقول ببعض الحدة: ماتضحكيش علينا الناس، قلت لك دا طفل، طفل تعالي شوفيه بعينك، تعالي.

فقالت الأم مترددة في ضعف وخوف: لكن يا بنتي.

فقالت «سنية» في الحال بقوة: مفيش لكن ... انتي بتزوديها وبتبالغي خالص، تعالي شوفيه الأول وبعدين اتكلمي.

– بس يا بنتي، ماتسحبينيش كده، اعملي فيَّ معروف، إنتي اللي دايمًا ساحباني وراكي حاتضحكي عليَّ الناس، المرة دي وحياتك ما اسمع كلامك أبدًا.

وحاولت أن تتخلص من يد ابنتها.

ولكن «سنية» لم تتركها، وقالت محتفظة بمظهرها الجدِّي الآمر، ولكن في شيء من اللطف والرفق: لا يا ماما ... لازم تسمعي كلامي؛ علشان أنا عارفة أكثر منك ... تعالي.

فقالت الأم يائسة: روحي انتي ... روحي انتي لوحدك، ليه بس أنا رخره؟ آه يا وعدي يانا، دا كان مستخبي لي فين!

فقالت «سنية» بصوت الغضب، وهي تجذب والدتها: لازم تيجي معايا يا «ماما»، ومايصحش أبدًا. أنا وعدت ... ماقدرش ارجع في كلامي، يقولوا إيه؟ ... ياللا بنا بقا ... قوام، إلا دول منتظرين في الصالة من زمان.

فقالت الأم وهي تنظر إليها بخوف: طيب استني، ما دمتي مشددة ... أما البس بقا البرقع.

ففقدت الفتاة صبرها، وصاحت: برقع، يا دي المصيبة، برقع علشان ولد صغير؟! انتي رايحة تضحكي علينا الناس بالتأكيد ... اسمعي يا ماما، أرجوك مفيش لزوم، صدقيني لو كان دا شيء مايصحش، كانت أبلتي «زنوبة» أول من لاحظ ... كمان ماتصدقيش «زنوبة»؟ ... واحدة زيك ومن عصرك؟ ... ومع ذلك هي اللي جايبة ابن اخوها علشان يشوفك. ولو كانت شافت إن دا عيب ماكنتش عملت كده.

ويظهر أن هذه الحجة الأخيرة أقنعت الأم؛ لكن على الرغم من ذلك، فقد نظرت لحظة إلى ابنتها كأنما تبحث في عينيها لآخر مرة عما تقتنع به وتطمئن ثم لفت رأسها الذي

وخطه الشيب لفًّا محكمًا بالطرحة البيضاء، محاولة أن تخفي معظم وجهها، وقالت: وهمَّ فين؟

فتنفست «سنية» كمن أغاثها الله أخيرًا، ومشت تقود أمها في صمت حتى وصلت بها إلى «الصالة» الكبيرة، وعندها تركت «سنية» أمها. وتقدمت بسرعة نحو «محسن» و«زنوبة» الجالسين على إحدى الأرائك وقالت لهما معتذرة عن التأخير والإبطاء.

– ماتآخذوناش، ماما كانت في الصلاة.

واقتربت عندئذٍ «أم سنية»، ومدت رأسها لتقبِّل وجنات «زنوبة» وهي تقول: أهلًا «بزنوبة هانم»، يا ميت ألف مرحبا.

ثم التفتت إلى «محسن» ومدت له يدها اليمنى بالسلام، بينما هي باليسرى تحبك وضع الطرحة، لتخفي ما ظهر من وجهها: شرفت يا «محسن أفندي».

ثم بلهجة يخالها السامع الخالي الذهن ترحيبًا أو مجاملة أضافت: دا اسم الله أهو راجل.

ولفظَ «محسن» كلمتين أو ثلاثًا، مضغها مضغًا، ثم استمر في إطراقه ونظره إلى الأرض.

وكأنما أرادت والدة «سنية» أن تظهر ترحيبها «بمحسن»، فاستطردت تقول موجهة إليه الكلام، في صوتٍ جدِّيٍّ رزين: نينتك يا محسن أفندي ست أميرة طيبة.

فرفع «محسن» رأسه في خجل وحياء، وقال: تعرفي والدتي يا تيزه؟

فتدخلت «زنوبة» مسرعة في الحال: يا ندامة، أمال! ... ماكنتش عارف يا «محسن»؟ بس ده شيء بقى له زمان.

فأضافت «أم سنية»: زمان قوي، في عين العدو، دلوقت هلبت تكون نسيتني ... فين من أيام ما كنا بنات صغار، أصلنا كنا جيران أولاد حارة، وكنا نلعب كلنا بنات الحارة مع بعض قدام بيتهم، نينتك كانت بنت أتراك، من عيلة تركية، وكانت أصغرنا، لكن كانت شيختنا. وكلنا كنا نخاف منها، ونحسب حسابها، بنت الجندي التركي أبو شنب أصفر. ومفيش لعبة إلا ونعملها هي الريسة، وكنا مسميينها الملكة بنت السلطان، كانت تحب تميز نفسها عنا؛ إن لبسنا في العيد أحمر تلبس هي أخضر، وإن لبسنا أخضر، تلبس أحمر، ويا ويلنا نهار ما تزعل منا، كانت تقول: أنا بكرة ابقى غنية خالص. واشتريكم عندي جواري وعبيد ... آه، أيام فاتت ... يا ماحلاها ...!

وأمسكت عن الكلام، ورفعت رأسها إلى السماء؛ كأنها تحن إلى طفولتها اللذيذة.

وكانت لحظة صمت وسكون، قطعتها أخيرًا «سنية» قائلة في لهجة مرحة مبتهجة: ياللا كلنا على البيانو ... على الصالون ... من هنا.

وسارت تقود خلفها الجميع، حتى دخلت بهم «صالون الاستقبال» ذا الشرفة الخشبية، التي تطل على «شارع سلامة»، و«قهوة شحاتة» وهو حجرة متوسطة الاتساع، مؤثثة برياش على الطراز الأوروبي، من مقاعد «فوتيل»، ووسائد ومصابيح كهربية، ومن «بيانو» أسود في زاوية المكان ... يقابله باب الشرفة مفتوحًا على اتساعه.

قفزت «سنية» في خفة الغزال على «البيانو» وبدون أن تنتظر حتى يأخذ كل مجلسه، كانت أصابعها المتمرنة قد مرت على مفاتيح «البيانو» العاجية، وأخرجت صوتًا سريعًا كتغريد العصافير، ثم وقفت فجأة والتفتت إلى ضيوفها، وقالت مخاطبة الفتى الذي اتخذ له مقعدًا في طرف الحجرة: ليه قعدت بعيد كده يا «محسن بك»؟

وأشارت إلى كرسي بقربها، وقالت: تفضل هنا.

فنهض «محسن» بسرعة؛ كأنما وُخز بإبرة، وأسرع إلى الكرسي المشار إليه؛ كما يذعن الوسيط النائم لأمر منومه.

وعندئذٍ قالت «سنية» مبتسمة: أيوه كده، دلوقت تقدر تغني معايا، وريني بقا ازاي تبتدي الغنوة القديمة دي؟

وضربت بيد واحدة نغمة، جعلت تدندنها بصوت خافت، ثم التفتت بقوة إلى والدتها و«زنوبة» اللتين ما فتئتا تثرثران من ساعة دخولهما، وصاحت بهما: اسمعوا بقا من فضلكم، رايحين نبتدي.

فردَّت «زنوبة»: أيوه ابتدوا، ربنا يقويكم، أدحنا سامعين جاهزين.

ثم التفتت إلى والدة «سنية» التي بجوارها، وقالت لها في تفاخر وتعاجب: دلوقت تسمعي «عبده الحامولي».

فدهشت الوالدة، وقالت مأخوذة: والنبي صحيح؟ ... يعرف اسم الله يغني غنا «عبده» على صغره؟ ... محفض.

فأشارت «سنية» بالسكوت، ثم نظرت إلى «محسن» وقالت: ياللا يا «محسن بك»، فارتجف الفتى، لكنه لم يرَ بدًّا من الامتثال، فنهض واقترب من «البيانو» وهو لا يدري ما يفعل، ونظرت إليه «سنية»، وأناملها فوق المفاتيح، وقالت له بابتسامة ونظرة تُسكران: أما اقول لك الحقيقة يا «محسن بك»، إياك تعتمد عليَّ بصحيح.

وكان صوتها كالموسيقى، فأحس الفتى بالدم يصعد في رأسه، وشعر بنشوة حارة، وأحس في نفسه شجاعة الثمل، فقال في لهجة عتاب خفيفة: دا وعدك يا «سنية هائم»؟ يعني في آخر لحظة ضحكتي على دقني!

فضحكت «سنية»، وبدا فمها وأسنانها كالكأس السحرية، تقلب الرءوس على البعد بغير شراب، وأجابت: أؤكد لك، ماضحكتش على دقنك، بس أصل الغنوة صعب ولسه ماعرفهاش، ابتدي انت الأول يا «محسن بك»، أرجوك.

ثم اعتدلت في جلستها إيذانًا بالابتداء.

فتردد «محسن» لحظة وارتبك، ثم فتح فاه وأقفله ولم يلفظ بعدُ حرفًا ولم يخرج صوتًا، فنظرت إليه «سنية» تدعوه إلى الغناء بنظرة لا تعصى، ثم ... ولكي تشجعه جعلت تضرب على «البيانو» ما تظنه النغمة الأصلية لهذه الأغنية.

وعند ذاك سمع الحاضرون صوتًا يخرج ويرتفع رويدًا رويدًا، مرتجفًا قليلًا بادئ الأمر، ولكنه أخذ يثبت ويستقيم، ويتضوع في فضاء المكان حلوًا حارًّا، في نغم متنوع دقيق، ولم تكن «زنوبة» تصغي وتستمع، بقدر ما كانت تنظر إلى وجه والدة «سنية» لتتعرف فيه مبلغ وقْع الغناء، حتى إذا ما تأكدت من دهشتها وعجبها واستحسانها، أخذت تهز لها رأسها في تباهٍ وفخر، وتشير لها إلى «محسن» إشارات الثقة بمقدرته ونبوغه.

وأُخِذت والدة «سنية» حقيقةً بصناعة «محسن» ومهارته، فجعلت تنصت بانتباه غريب، وكانت «سنية» تصغي أيضًا إلى «محسن» بسرور ولذة، وتنظر إلى سقف الحجرة مبتسمة طروبًا، وتردد بعض النغم في نفسها معه، ولكنها ما فطنت قط إلى أن المغني إنما يعنيها هي، ويفكر فيها هي، وهو يغني أغنية «عبده»:

قدك أمير الأغصان   من غير مكابر
وورد خدك سلطان   على الأزاهر
الحب كله أشجان   يا قلب حاذر
الصد ويا الهجران   جزا المخاطر

الفصل الخامس

كان الوقت مساءً حينما عاد «محسن» و«زنوبة» إلى بيتهما، وليس في الدنيا — ولا يمكن أن يكون فيها — أسعد من «محسن» في ذلك المساء.

وكما أن أثر الصدمة لا يحس إلا بعد حدوثها بوقت، كذلك الفتى «محسن» بهره ودهاه وجود «سنية»، فلم يدرك مقدار ما ظفر به من سعادة إلا بعد أن غادرها. ما أجمله حلمًا! أممكنٌ كلُّ الذي حصل هذا العصر، وهو الذي ما كان يتوقع مجرد مر طيفها، لقد رآها وتوصل إلى محادثتها؛ تلك التي ما حادثها قط، وما رآها قط من قبل إلا خُفيةً من ثقب الباب هو وأعمامه، وقد جاءت يومًا لزيارة «زنوبة».

كان ذلك منذ نحو شهرين، وكان يوم جمعة، و«الشعب» مجتمع على أتم ما يكون من صفاء وهناء، أتاهم «مبروك»، يجري ويغمز بعينه، مشيرًا إلى حجرة «زنوبة» قائلًا: إن عندنا ضيوفًا وفيهن «ضيفة»، ثم قبَّل أطراف أصابعه، فقام «الشعب» يتقدمه «اليوزباشي سليم»، وهرع إلى باب حجرة «زنوبة» المقفل، وهناك انحنوا جميعًا على ثقب الباب، وهم يتدافعون بالمناكب، ويتضاحكون بصوت خافت ضحكات صافية كضحكات الشباب الهنيئة، ثم نظروا إلى الحجرة فإذا هم يبهتون لجمال ما رأوا مثله من قبل ... ومن تلك الساعة جعلوا يتسابقون إلى ثقب ذلك الباب، كلما علموا بمجيئها لزيارة «زنوبة» ... ذلك كان أول عهد «محسن» بها، كان فردًا من «الشعب» يجري مع الجارين إلى ذلك الباب، ويتأمل معهم ويتعبد بتلك الصورة، أما الآن فأين هم منه؟ إنه آتٍ من عندها منذ لحظة، وإنه قد كلمها، وإنه قد جلس بجانبها، وإنه ربما، قد حاز إعجابها، وإنه سيراها من اليوم، سيراها كثيرًا، كثيرًا؛ فقد طلبت هي إليه ذلك، كي يعلمها الغناء على أصول الفن، وقد وافقتها والدتها وأقرتها على ذلك، أممكن كل هذا ما بين عصر ومغرب؟ أي سعادة وأي معجزة؟!

وأحس «محسن» في نفسه الحاجة إلى أن يفضي بهنائه الهائل إلى أحد ... ولكن إلى من؟

وتذكَّر «محسن» منديلها الحريري، يحمله دائمًا؛ كما يحمل أهل السنة «المصحف الشريف».

فليخبر منديلها إذن.

وتاقت نفسه إلى الانفراد والانزواء في مكان قصي، ليخلو إلى نفسه، وليلثم هذا المنديل العزيز، وليبوح له كثيرًا ويحادثه طويلًا، ولكن الجميع كانوا قد عادوا من الخارج وقد جهزوا العشاء.

غرق «محسن» في أحلامه الجميلة، فلم يسمع الجلبة والضوضاء القائمتين حوله، إنهم يبحثون عن «مبروك».

«سليم» و«عبده»، ينظران في حنق إلى باب الفسحة الخارجي من وقت لآخر.

«سليم» يفتل شاربه ويقول: دي مش عادته أبدًا يتأخر عن العشا! دا طول عمره البرنجي.

فيجيبه «عبده» بإشارات عصبية من يديه وكانت «زنوبة» تراقب ضيق صدريهما هذا في صمت وقلق واضطراب، ومن آنٍ لآنٍ تحاول تهدئة ثائرهما وتقول لهما: لسه بدري على العشا ... مستعجلين ليه؟ سي «حنفي» نايم ودلوقت، رحت اصحيه زعق وعينه مغمضة، وقال لما تنطبق السما على الأرض ما هو قايم ولا متحرك!

فألقى كل من «عبده» و«سليم» نظرة سريعة إلى جهة سرير الرئيس شرف، وقال «عبده» متبرمًا متأففًا: يا ساتر على الكسل!

ومضت فترة صمت، ثم التفت «سليم» فجأة إلى «زنوبة» وسألها في خبث: يعني انتي مش عارفة «مبروك» راح فين؟

ولكن «زنوبة» أدارت ظهرها كمن تريد تحاشي الإجابة، ومشت مسرعة إلى الجهة التي بها «محسن».

ولمح «عبده» أخيرًا وحدة «محسن» وانزواءه في أحد الأركان، فنهض وسار حتى اقترب منه كذلك، وقال: وانت يا محسن جعان والا شبعان؟ ... الله ... مالك النهارده ساكت كده، وقاعد لوحدك؟!

وفي هذه اللحظة أقبل «سليم»، واقترب من «زنوبة»؛ كمن تذكَّر أمرًا، وسألها في لهجة ذات مغزى: يكونش «مبروك» راح في مشوار عند ... مثلًا.

فتظاهرت «زنوبة» بعدم سماع قوله؛ وكأنما رأت أن تشغلهما بموضوع آخر، فضربت على كتف «محسن» بلطف، والتفتت إلى «عبده» وقالت في صوت المفاخر: اسم الله عليه «محسن» جنن بيت «الدكتور حلمي» النهارده بصوته الحلو، الست الكبيرة «أم سنية» بتحلف إن دي صنعة «عبده الحامولي» بعينها، لغاية إن «سنية هانم» اللي ضرْبها على البيانو مفيش بعده، طلبت منه — محفض — يعلمها الغنا.

وسمع «محسن» كلامها هذا فاستاء وأوجس خيفة، إنه ما كان يود أن يعلم أحد من أعمامه بهذا، على الأقل بهذه السرعة.

وقد أصاب؛ فإن إفشاء «زنوبة» لهذا الخبر أنتج في الحال أثره؛ فما كاد «عبده» يسمع قولها حتى أخذه شبه دهش أو ذهول، ونظر إلى «محسن» نظرة شك وارتياب، ثم كأنما أدرك أخيرًا سر صمته وانزوائه هذا اليوم!

ولم يفُت «سليم» كذلك أن يلاحظ على وجه الفتى الصغير الأثر العميق الذي تركته في نفسه تلك الزيارة لبيت الجيران، ففتل شاربه وتنحنح، وقال في لهجة مزاح بارعة لاذعة: ما شاء الله، صنعة حلوة توكل الشهد! مغنِّي راتب في البيوت ... يا ترى كم الأجرة على كده يا سي «محسن»؟

فرفع «محسن» عينيه، وحدَّق في «سليم» بخشونة وجفاء، ولم ينزل إلى الرد عليه.

وزاد هذا من الشك في أمره، فالتفت «عبده» إلى «زنوبة»، وقال لها في حدة شديدة: حضرتك بتاخديه يغني عند الناس؟! مش ناقص إلا كده!

فكتم «محسن» غضبه، وملك نفسه، وردَّ في هدوء: وانت شأنك إيه؟

فاحتد «عبده»، وقال متَّقدًا: بتقول إيه؟! ... شأني؟! ... إنت فاهم نفسك كبير؟ إنت ولد صغير. إنت جاي هنا علشان تذاكر دروسك، مش علشان تعمل أوسطى عالمة ... إنت قدامك امتحان الكفاءة السنة دي ... والله إذا كان أهلك يعلموا.

فلم يطق «محسن»، وصرخ قائلًا: مش شغلك انت.

ثم نهض في حركة عنيفة ليغادر المكان، وهو يجالد نفسه من فرط الغضب، ولكن «زنوبة» استوقفته وقالت في دعة ورفق: رايح فين يا «محسن»؟

فلم يُجِب وتخلَّص منها، وسار قاصدًا سريره.

فتبعته «زنوبة» خطوة وهي تقول: مش رايح تتعشى؟

فأجاب «محسن» باختصار وخشونة، بدون أن يقف: لأ.

فعادت «زنوبة» إلى «عبده»، ونظرت إليه بعين اللوم والعتاب قائلة: مالكش حق تزعل، والنبي ما كان لازم أبدًا، فيها إيه لما يعلم «سنية» الغنا، ما هي اسم الله رخره ريحه تعلمه ضرب البيانو.

فاهتز «عبده» غضبًا: بتقولي إيه.

وضحك «سليم» ضحكة صفراء وقال «لعبده»: سامع، هو يعلمها الغنا، وهي تعلمه البيانو … شيء جميل خالص.

فالتفتت إليه «زنوبة»، وحدجته طويلًا بنظرةٍ فهِم معناها، وأراد أن يستدرك … فقال متظاهرًا بالنزاهة والنصح: طبعًا قصدنا كله مصلحته، علشان المذاكرة بس … و… وأهله … و…

فصادَق «عبده» على كلامه برأسه، بينما عيناه تائهتان في الفضاء … وفي هذه اللحظة أحس الاثنان بالاتفاق المتبادل يعود بينهما، ذلك الاتفاق القديم الممزوج بالصفاء.

خلع «محسن» ملابسه، ودخل سريره، وانزوى بين أرجاء الناموسية المسدلة عليه ينشُد الوحدة والحرية اللتين لا يحسِنهما إلا من كانت له حجرة خاصة.

ولأول مرة شعر «محسن» بسوء تلك المعيشة: خمسة أشخاص في حجرة واحدة، لأول مرة أحس الحنق على تلك المعيشة المشتركة، التي كانت دائمًا منبع هناء وصفاء وغبطة للجميع، له ولأعمامه و«لمبروك» الخادم: أي «للشعب»، حسب كلمتهم المتعارف عليها.

أخفى «محسن» رأسه تحت الأغطية، يريد أن ينسى صوت رفاقه البارد القاسي، حتى لا يصغي إلا لصوت «سنية» الحلو الموسيقي الساحر … وجعل يذكر ويستذكر حوادث ذلك النهار السعيد.

لم يهمل «محسن» شيئًا حتى التفصيلات الزهيدة، ولم يترك حتى ما لا تعيه الذاكرة عادةً من أشياء وحركات وكلمات تافهة، طفق يستعرض في مخيلته كل شيء له صلة بحادث اليوم. ولبث أخيرًا يذكر ويتأمل: كيف كان إعجاب «سنية» وحماستها وقتما انتهى من الغناء! وتلك الابتسامة التي نظرت إليه بها وهي تقدم له كوبًا من شراب الورد مكافأةً له، كما كانت تقول، وتلك الأيدي والأنامل التي قدمت الكوب، وتلك البسمات اللذيذة، والنواجذ، والنظرات، والأهداب.

وأقفل «محسن» عينيه كي يراها.

ثم طلب النوم علها تبدو له في حلم، ولكن هل يستطيع النوم تلك الليلة والقلب يقظان كأنه إله؟

هرب النوم من عين «محسن»، وعلم أنه لن ينام في ليلته تلك، إلا إذا أذنت هي له، وتذكَّر قول «مهيار الديلمي»:

وابعثوا أطيافكم لي في الكرى إنْ أذِنتم لعيوني أن تناما

الفصل السادس

إن صبر «عبده» و«سليم» له حدود، وغدت محاولات «زنوبة» — في تهدئتهما وتصبيرهما — لا فائدة منها؛ فقد صمَّما أخيرًا على عدم انتظار مبروك، وقاما إلى مائدة الأكل في تذمُّر وهياج، وصاح «عبده» في لهجة عصبية آمرًا «زنوبة» أن توقظ في الحال «حنفي» و«محسن»، وأن تغرف العشاء بلا توانٍ.

وما كادت «زنوبة» تمتثل وتخطو نحو غرفة النوم، كي توقظ النائمين، حتى فتح باب الفسحة الخارجي وظهر «مبروك» يلهث كالكلب التعِب، ويقول بين أنفاس متقطعة: آه ... آه ... انقطع نفَسي خلاص من المشي واللف، يا مسلمين!

فالتفت إليه «عبده» و«سليم» في دهشة، وسأله «عبده»: ما لك كده؟ ... كنت فين؟

فأجاب «مبروك» بصوت المحتضر: الهدهد اليتيم.

فوضع «سليم» يده على أذنه مستفهمًا: إيه؟

فقال «مبروك» بصوت المتأوه: الهدهد اليتيم، حسبنا الله ونعم الوكيل في دي الهدهد، اليتيم ... يا عالم ... يا ناس!

ووقفت «زنوبة» في مكانها وقد دهاها الخوف، وأخذت تنظر خُفيةً إلى «عبده» الذي قطَّب جبينه وسأل «مبروك» في لهجة جافة: الهدهد اليتيم إيه، أنا مش فاهم حاجة منك أبدًا.

والتفت إلى «سليم» قائلًا: وانت فهمت منه يا «سي سليم»؟

ففتل «سليم» شاربه، ووضع أصبعه على جبهته، وقال: لسه قاعد افتش في عقل بالي عن دي اللغز!

وتمالكت «زنوبة» نفسها، وجعلت تشير إلى «مبروك» خُفيةً، كي يمتنع عن الكلام؛ لكن «مبروك» لم يفطن لإشارتها على ما يظهر؛ فقد أخذ يفرك ركبتيه ويقول: آه

يا ركبي! من العصر وحياة دقن النبي، وأنا داير أجرى من الحسينية، للقلعة، لزينهم، للدراسة.

ثم رفع رأسه والتفت إلى «زنوبة» وقال: كل ده علشان خاطرك وخاطر — بلا قافية — الهدهد اليتيم … سألت في البلد كلها، مالقيتش إلا هدهد واحد، ولا اعرفش بقا إن كان يتيم والا مش يتيم … ماسألتوش … هو انا يا ست «زنوبة» افهم بلغة — من غير مؤاخذة — الطير؟!

ولم يفطن أيضًا لغمزات «زنوبة» التي تدعوه خُفيةً إلى السكوت أمام الحاضرين، واستمر يقول: القصد … وانا راجع قابلت الواد «بلحة»، صبي الجزار، قال: مالكش دعوة، هات ريال وانا اجيب لك حتة دين نتفة هدهد على ذوقك، يتيم من ابوه وامه، وإن عرفت له «فاميلية» ابقى رجعه وقول مايلزمنيش.

فقهقه «سليم» ضاحكًا وقال «لمبروك» وهو يغمز «عبده» بمرفقه كي يجعله يضحك أيضًا هو الآخر: أحسن طريقة تروح تبحث عنه في ملجأ الأيتام.

ولكن «عبده» لم يضحك، ولم يشأ أن يمزح ويهذر، بل ظل في عبوسه وخشونته متسائلًا: فهموني، إيه أصل الحكاية؟

ثم التفت إلى «زنوبة» وقال لها: هدهد يتيم إيه اللي انتي طالباه؟

فلم تُجِب «زنوبة».

فألقى «عبده» عليها نظرة مخيفة وصاح: برده السحر؟ مابطلتيش أمور السحر وضياع الفلوس في الكلام الفارغ؟!

فاستعادت «زنوبة» بعض رباطة جأشها، وقالت في احتجاج: سحر إيه، ماتقولش كده، دا دوا.

فقال «عبده» في غضب ممزوج بلهجة تهكم باردة: دوا؟!

فردَّت «زنوبة» بقوة: آي والنبي … دوا بصحيح، وصفه الحكيم.

فقهقه «سليم» ضاحكًا وقال: اضبط … دخلنا في الجد، أي حكيم بقا يا شاطرة يوصف هدهد؟! بدِّي أعرف اسمه إيه الحكيم ده … أظن كتب لك على التذكرة هدهد؟ أستغفر الله: هدهد يتيم! أبوه لازم يكون يتيم؛ إلا لو كان والدته أو والده ما زال على قيد الحياة يفسد مفعول الدوا؟

وعندئذٍ صاح «عبده» بـ «زنوبة»: مستحيل فلوس تبقى في إيدك بعد النهارده، مستحيل … خلاص كفاية، مانقدرش نطيق الحاجات دي، أكل زي الزفت، وفلوس ضايعة في السحر فلوسنا ضايعة، ميزانيتنا رايحة كلها في السحر للعرسان.

فانفجرت «زنوبة» صارخة، وقد أغاظها هذا الكلام: قطع لسان اللي يقول عليَّ كده ... أنا أسحر للعرسان، فشر.

طيب والست الطاهرة إن ما سكتم عن الكلام ده مانا سائلة عنكم أبدًا ... فلوسكم تاخدوها على الصرمة القديمة، وابقوا انتم دبروا واصرفوا واطبخوا وشوفوا شغل البيت ... والنبي ما احط إيدي في حاجة ... لما اتفرج حاتعملوا إيه من غيري، دنا لولاي لكانت بقت هلاهيلكم بين رجليكم!

فاشتد غضب «عبده» وهياجه العصبي، وصاح بصوت هائل: بتقولي إيه، فاهمه حضرتك إنك تهددينا؟ طيب أقسم بالله العظيم ما انتي طابخة ولا غارفة، هاتي الفلوس اللي عندك حالًا، ردي لنا باقي مصروف الشهر اللي عندك حالًا ... مش عايزين إدارتك ... خلاص. إحنا نعرف شئونًا، هاتي الفلوس.

فقالت «زنوبة» من بين أسنانها: حاضر، على عيني، والنبي بركة من الله، راحة دماغ، حد يكره راحته، حاضر، دلوقت أسلم لكم اللي باقي لكم عندي.

وفي الحال اتجهت إلى حجرتها ودخلتها.

وعندئذٍ التفت «عبده» إلى «سليم» في قوة، وقال: تغور ... أحسن لنا ألف مرة ... مش موافق؟

فأجاب «سليم» في لهجة هذر، وهو يفتل شاربيه: موافق جدًّا، أكْلنا بالحق كان بطَّال جدًّا، وحكومتنا العزيزة بسلامتها مفرقة الميزانية في شئونها الخصوصية، والكلام الفارغ.

فأضاف «عبده» بسرعة، وهو حافظ لوجهه الجدِّي: دا شيء يجنن ويغيظ، سايبانا جعانين نشتهي اللقمة، مش لاقيين حتة لحمة.

فقال «سليم» مكملًا: وان غلطت يوم واشترت وزة، لازم نقعد ناكل فيها شهرين.

وكان «مبروك» في تلك الأثناء متكئًا بذراعه على طرف المائدة، يشاهد في صمت ما يجري أمامه؛ كما يشاهد فرد من عامة الشعب رواية عالية الأسلوب.

وحانت من «عبده» التفاتة إليه، فسأله في الحال: وانت يا «مبروك» ساكت ليه؟ مش موافق؟

فصحا «مبروك» من جموده، وفرك عينيه، وأجاب: والله مانا عارف ... داهية تلعن أبو الهدهد اليتيم، كل ده من تحت راس شوشته ... لكن بقا مفيش لزوم تزعلوا ست «زنوبة».

فصاح به «عبده»: ماتبقاش مغفل انت كمان، عايزين منك كلمة ورد غطاها: تحب تاكل كويس والا وحش؟ ... آدي المسألة.

فأجاب «مبروك» على الفور: لا وحياة سيدي «زينهم»، أحب آكل كويس.

فابتسم «سليم» وقال بسرعة: طبعًا.

ثم اتخذ وجهه هيئة الجد بغتة، ونبَّه «عبده» بيده مقترحًا: واجب علينا كمان نقول للباقيين.

فصادَق «عبده» على رأيه بحركة من رأسه، ونهض في الحال وسار متجهًا إلى غرفة النوم، كي يخطر «حنفي» بالانقلاب الجديد، الطريقة المثلى والمجربة لإيقاظ «حنفي» سريعًا سهلة ومعروفة لدى الجميع. أن يجذب اللحاف من فوقه دفعة واحدة، ثم يصرخ في أذنه صرخة مستطيلة؛ لذلك لجأ «عبده» مباشرة إلى تلك الطريقة بدون أن يضيع وقتًا في مقدمات لا تفيد، وتحرك «حنفي أفندي» أخيرًا، وهو يزمجر ساخطًا: يا خلق، يا هوه، أنا في جاه النبي، يعني إن نعست لي شوية حرام؟ أنا اشتغلت خمس حصص النهارده يا ناس!

فقال: «عبده» بصوت ثابت: اصحا، قوم يا «سي حنفي» اسمع الخبر المهم؛ أصبح الآن في حكم المؤكد أن الحكومة مضيعة الميزانية في شئونها الخصوصية الفارغة، فتثاءب «حنفي»، وقال وهو مغمض إحدى عينيه: وأنا ما لي، أنا ماليش في السياسة.

فقطب «عبده» وجهه، وقال في جفاء: إزاي؟ بصفتك كبير البيت.

فأقفل «حنفي» عينه الأخرى، وقال بصوت متراخٍ، وفي عدم اكتراث: وفي أي جريدة الخبر ده.

فقال «عبده» في شيء من الدهشة: في أي جريدة ازاي! لأ ... لأ ... دا مش في الجرايد، أنا قصدي على حكومتنا هنا في بيتنا، كلامي على «زنوبة».

فتقلب «حنفي» في فراشه، وأدار ظهره «لعبده»، وقال وهو يحاول العودة إلى النعاس: طيب بقا اعتقني لوجه الله الكريم.

ثم لفظ من أنفه غطيطًا ثقيلًا يؤذن ببدئه الفعلي للنوم، وحاول «عبده» أن يمنعه بكل قوته، فأزال عنه الغطاء مرة أخرى، وهزه من كتفه هزًّا عنيفًا، وهدده جديًّا بسكب كوب ماء بارد على دماغه إن لم يستيقظ في الحال ... بالاختصار استعمل معه كل الإجراءات الشديدة التي تتبع ضده عادة في مثل هذه الأحوال، وأخيرًا لم ير «الرئيس شرف» بُدًّا من النهوض، فقام في فراشه نصف قيام، وهو يدمدم ويزمجر ويصخب ويلعن ... فلما اطمأن «عبده» على نهوضه وعلى هرب النوم من عينيه، تركه واتجه إلى سرير «محسن».

ولكن ما كاد يقترب منه حتى سمع فجأة صوت شجار يرتفع في الفسحة، وعرف فيه صوت «زنوبة»، فغادر في الحال حجرة النوم وذهب إليها توًّا سائلًا في خشونة: فين الفلوس؟

فلم تُجِب «زنوبة» ولم تتحرك.

وأشار «سليم» إلى مبلغ جنيه فوق المائدة، وقال: تفضل، آدي كل اللي باقي.

فنظر «عبده» إلى الجنيه، ثم نظر إلى «زنوبة» وصاح في صوتٍ أجشَّ: مش ممكن! النهارده ١٩ في الشهر! فاضل ١٢ يوم … جنيه واحد رايح يكفي ١٢ يوم، دا كلام فارغ.

فلم تُجِب «زنوبة»، وكأنما كانت تكتم ما بها من غيظ، تحت ستار الهدوء، وأخيرًا قالت في برود: مش مصدق؟ انت حر، أهو مش باقي لكم طرفي إلا ده، إن كنت مكدبني تعال فتش.

فأشار «سليم» خُفيةً إلى «عبده» أن يقترب منه، وهمس له في أذنه محرضًا: أيوه نفتش.

ولمح ذلك «مبروك» وكان قريبًا من «سليم»، واستطاع أن يشرئب بعنقه ويسترق السمع، فعرف قول «سليم» فتنحنح وهمس هو الآخر، كأنما يخاطب نفسه: والله «سي سليم» ما حيلته غير التفتيش.

ثم أردف قائلًا بصوت عالٍ: صلوا على النبي أحسن، مفيش لزوم، وكفى الله الشر، واللي مكتوب على الجبين تراه العين ولو بعد حين … مش من غير مؤاخذة جنيه واحد؟ … الحمد لله، قسمتنا، حانعمل إيه، آدي السما وآدي الأرض.

فنظر إليه «عبده» طويلًا نظرة غريبة، ثم كأنها هبطت عليه فجأة فكرة من السماء، فوضع بسرعة يده على كتف «مبروك» وقال بصوت ثابت مفكر رصين: اسمع يا «مبروك»، الله الغني عنها، خلي معاك المصروف، إنت تكون حكومتنا من الآن فصاعدًا، فاهم … إنت … لأن معاك على الأقل مفيش خوف من التبذير، وضياع الفلوس في الهلس الفارغ.

فألقى الخادم نظرة استفهام أو استئذان سريعة على «زنوبة»، ثم قال في حيرة وارتباك: لكن … بس.

فقطب «عبده» حاجبيه وقال: إيه؟ … لكن بس إيه؟ شايف المبلغ قليل؟ قصدك يعني مستحيل نعيش بالجنيه لآخر الشهر؟ لكن ما هو ده المشكل اللي انت رايح تخرجنا منه بحسن تصرفك، دي عبقريتك، مش انت حكومتنا؟ تصرَّف، فاضل ١٢ يوم على آخر الشهر. فوِّتنا من الأيام دي على خير … اعمل معروف، أكِّلنا زي ما توكِّلنا، الغرض إن مبلغ الجنيه ده يكفي لغاية آخر الشهر ولا نحتاجلوش «زنوبة».

فلفظت «زنوبة» ضحكة تهكم وغيظ، ثم أدارت ظهرها لهم، وقالت من بين أسنانها: الله يسهل لكم، يا بختي براحة بالي ... الحمد لله يا جامع، جات منكم ما جات مني.

ثم اتجهت بسرعة إلى حجرتها ودخلتها، وأقفلت وراءها الباب في ضجة وعنف، فنظر «عبده» إلى الباب المقفل وضجته التي أصمَّت الآذان وقال بغضب: في ستين داهية.

ثم التفت إلى «سليم» و«مبروك» واستطرد: مش خلاص اتفقنا.

فوافق «سليم» في تحمس: اتفقنا.

ثم ضرب على كتف «مبروك» وقال: فليحيا «مبروك»، يعيش «مبروك»، بطوننا معتمدة على الله وعليك يا «مبروك أفندي».

ولكن «عبده» تدخَّل في الحال صائحًا وقال: مش الأيام دي يا حبيبي، من هنا لآخر الشهر اعمل حسابك على الصوم والقناعة ... جنيه واحد مش راح يكفي طبعًا، اسمع يا «مبروك» ... اعمل المستحيل، أكلنا الأيام دي كل يوم عدس زي المراكبية، والا جبنة قريش وعيش درة، زي الفلاحين، والا فول مدمس وسلطة وطعميه زي.

فأضاف «سليم» بسرعة: زي المجاورين.

واستطرد «عبده» في جد: أيوه يا «مبروك»، اعمل زي ما تشوف ... تصرف، الغرض كله الجنيه يكفي لآخر الشهر، ولا نموتش من الجوع بمبلغ زي ده، خد يا «مبروك»، امشي بالحساب والعقل والتدبير، إنت مش محتاج لوصاية.

ثم دفع إليه الجنيه.

فأخرج «مبروك» من جيب جلبابه كيسًا كبيرًا من القماش بلون العنتري الذي يلبسه؛ كأنما كان فضلة من قماش العنتري فصلها كيسًا.

وبعد أن دس فيه الجنيه وأعاده إلى جيبه قال: ببركة الست ام هاشم، ولا يكون عندكم خوف، المؤمن ما يموتش جعان ... صلوا على نبينا اللي قال: «من توكل على الله كفاه.»

الفصل السابع

ذهب «محسن» إلى المدرسة في اليوم التالي ووجهه يطفح هناء، والانشراح يكاد يثب من صدره، وخُيل إليه وهو في الترام في طريقه إلى المدرسة، أن الله لم يخلق صباحًا أجمل من ذلك الصباح، ومر الترام بميدان «لازوغلي»، وبتلك الأشجار الوارفة حول التمثال، وصوت العصافير وحركتها بين الأغصان، وصوت الحدأة والصقر يرفرف كلٌّ بجناحيه في الفضاء، عجبًا، كل ذلك يراه اليوم ويسمعه ويسترعي اهتمامه، وهو الذي مر بذلك المكان مئات المرات قبل اليوم فلم يرَ شيئًا، أترى الدنيا قد تغيرت منذ ذلك الصباح، أم أنه هو الذي تغير وأصبحت له عيون أخرى؟

ودخل «محسن» فناء مدرسته، وهو يريد أن يكلم كل إنسان يقابله ولو كان فراشًا، غير أنه دهش؛ إذ وجد المكان خاليًا، أتراه أتى مبكرًا جدًّا ذلك اليوم؟ نعم، فساعة الحائط بحجرة الضابط دقت السابعة في تلك اللحظة.

وجعل «محسن» يسير ذهابًا وإيابًا في أرجاء المكان وهو يحلم بأشياء جميلة، وأحيانًا يضغط الفرح على قلبه فإذا هو يجري قافزًا إلى السلم الكبير في مرح غريب، ثم ينزل منه واثبًا إلى الأرض ويتجه إلى «المرشح» كأنما يريد الشرب، ولكنه لا يشرب؛ بل يتجه إلى قاعة أخرى، ومنها إلى ثالثة ورابعة.

لا شك لو رآه أحد من عارفيه في تلك اللحظة لدهش ولأنكر أنه «محسن».

وأخيرًا سكن جأشه قليلًا، لكنه أخذ يستبطئ زملاءه وعلى الأخص صديقه الحميم «عباس».

كان «محسن» بالنسبة إلى من في سنه رزينًا عاقلًا، لا يميل كأغلب أقرانه إلى الألعاب الصبيانية. فقلما كان يُرى جاريًا قافزًا، كل ملاهيه وألعابه فكرية لا مادية، ألذ أوقاته ما كان يقضيها في المناظرة ومطارحة الشعر مع «عباس» ومن يتفق معهما في طبيعتهما

الروحية؛ لذلك كان مظهره أكبر من عمره، وكانت له هيبة المسن بين تلاميذ الفصل الدائبي الهذر والضجيج، كذلك عرف أساتذته ذلك فيه، فعاملوه معاملة ممتازة، وقد تنبئوا له بحظ باهر في نتيجة الكفاءة ذلك العام.

كان «محسن» لا يحب كثرة المخالطة، ميالًا للوحدة في المدرسة. لعله كان يحتقر ذلك الصنف النزق من الشباب ... إن أغلب التلاميذ كانت تحترمه، وتحب الإصغاء إليه وهو يتكلم، وكثيرًا ما كان التلاميذ يلتفون حوله وحول «عباس»، كلما لمحوهما بجوار الجدران يتناظران تحت السلم الكبير حيث اللقاء المعتاد بينهما في فسحة الظهر، إلا أن «محسن» نفسه ما كان يصاحب أحدًا خلاف «عباس»؛ لأنه يجد فيه طبيعة تماثل طبيعته، ثم شيئًا أهم: إيمانه بمحسن وإخلاصه له، واعترافه الصامت بما «لمحسن» عليه من تأثير في أفكاره وذهنه.

جعل «محسن» ينتظر قدوم عباس برغبة متوثبة لا يدري سببها، أتراه يود الإفضاء إليه بشيء، وهل يستحق هذا؟ وهل يصح؟ نعم «عباس» صديقه الحميم، لكن هل هو خليق بفهم هذه الأشياء؟ وبصرف النظر عن هذا أيضًا، هل يملك «محسن» حق إفشاء أمر لا يخصه وحده؟

ولكنه يريد الكلام هذا الصباح، يريد أن يخفف من وقر ما يحس به.

وهدأ مرة أخرى. لكنه لمح عددًا من التلاميذ يدخلون الفناء، فأسرع إليهم مسلِّمًا ومحدِّثًا بلهجة مرحة، يباسطهم ويضاحكهم، والكلام يزدحم في فمه؛ مما دهشوا له منه، وجعلوا ينظرون بعضهم إلى بعض، وهو الذي يُعرف بعزلته عنهم، وبأنهم هم الذين يسعون إليه، يخرجونه من سكوته، أخيرًا ظهر «عباس»، فلم يكد يراه «محسن» حتى ترك من كان معهم، وانطلق نحوه وجذبه من ذراعه، وانتحى به ناحية أخرى، غير جدار السلم الكبير، حتى لا يحسبها الآخرون مناظرة أو مطارحة، فإذا هم يهرعون يشاهدون.

أخذ «محسن» يسأله عن سبب إبطائه وتأخيره، في لهجة اهتمام دهش لها «عباس»، ولكنه أجاب بكل بساطة، إنه في ميعاده ولم يتأخر قط، ولكن «محسن» ألح وأكد معلقًا أهمية.

فأجابه «عباس» مؤكدًا هو الآخر: أبدًا يا أخي، إنت اللي يظهر جيت بدري النهارده، ولكن «محسن» استمر يقول في صوته المتحمس غير المعتاد: أبدًا، إنت تأخرت.

فازدادت دهشة «عباس»، غير أنه اكتفى بأن أجاب: طيب ... وإيه اللي جرى؟

فسكت «محسن» في الحال، ووقع في حيرة وارتباك، وذهب عنه تحمسه، ولم يجد ما يقوله ردًّا، وطال سكوته إلى أن أحس أن «عباس» ينتظر، وينظر إليه في دهشة، فتضاحك فجأة واتجه إلى صديقه يفهمه أنه أراد المزاح.

وجعل يثرثر ويضحك، محاولًا تغيير الموقف، يتكلم في كل موضوع بسرعة، وينتقل من مناسبة إلى مناسبة بغير مناسبة؛ كأنه يريد مجرد الكلام، مجرد القذف بنفسه في الثرثرة، مجرد قيء ما يثقل معدته من أشياء فارغة ... حتى يخفف عن ضغط القلب ... والتفت إليه «عباس» بغتة، وقد شعر بحالته العصبية من طريقة كلامه المتدفق المتحمس، فسأله قائلًا: «محسن»! ... ما لك النهارده؟

فنظر إليه الفتى نظرة استطلاع وخوف، وقد احمر وجهه، ثم قال مترددًا: ولا حاجة.

وفي الحال حول مجرى الحديث إلى موضوع آخر عادي، لكن في هذه المرة اجتهد أن يتكلم بصوت هادئ معقول ... صوته المعتاد، وهكذا طفق الاثنان يتحدثان لحظة في الدرس والمذاكرة وحصص اليوم إلى أن صاح «عباس» فجأة متذكرًا: الله، النهارده إنشا شفوي عربي، فاكر؟

فسأل «محسن» بلهجة آلية: أي حصة؟

وكان في تلك الأثناء قد ترك فكره يسبح إلى أفق بعيد، فأجاب «عباس» غير شاعر بلهو «محسن» عنه: الحصة السادسة، آخر النهار.

فلم يُجِب «محسن» إذ طغت السعادة على صدره مرة أخرى، فود لو يستطيع الانطلاق، أو الطيران، أو الوثوب، أو الكلام.

واستطرد «عباس» يقول، وهو يحسب صاحبه يسمع له: يا ترى الدور على مين؟ «الشيخ» بيختار الاسم من الدفتر قدامه، يا رب ما ينادي اسمى النهارده. أنا ماحضرتش موضوع.

لم يجبه «محسن» على ذلك، ولكنه فجأة قال: «عباس» ... الحياة جميلة.

فنظر إليه «عباس» مبغوتًا، ولكن «محسن» استطرد غير مبالٍ به: تعرف يا «عباس» إيه هي السعادة اللي بنسمع عنها؟ إن كنت جدع صحيح تقول إيه هي السعادة؟

فردد «عباس» دهشًا: السعادة؟ ... أنا عارف؟!

فقال له «محسن» بقوة: ماتعرفش إمتى تكون سعيد؟

ففكر «عباس» لحظة ثم قال: يوم ما أنجح في الكفاءة.

فظهر على وجه «محسن» شيء من خيبة الأمل والغيظ والازدراء. وقال من بين أسنانه لصديقه «عباس»: إنت مغفل.

وهنا دق جرس الدخول إلى الفصول، فانطلقا إلى الطابور وبنفس «محسن» رغبة في أن يتحدث في هذا الموضوع نهارًا بأكمله، أما «عباس» فقد عجب لرد «محسن» الأخير، وود لو يعلم منه لماذا هو مغفل.

وأخذ التلاميذ مقاعدهم في الفصل. وكان عباس، يجلس في تختة خلف تختة «محسن»، فلم يطق صبرًا على الانتظار، وأخذ يهمس سائلًا: «محسن» لماذا هو مغفل؟ ولكن «محسن» أشار إليه بالسكوت، واعتدل في جلسته يستقبل الدروس في بِشر ونشاط زائدين على المعتاد، وبسرعة بديهة في الإجابة عن الأسئلة، وفي فهم الغامض منها، وبتحمس وقوة عجب لها المدرس وسُرَّ بها.

جاءت فسحة الظهر، واجتمع «محسن» و«عباس»، بجوار الجدار تحت السلم الكبير، وأراد «محسن» أن يلقي شعرًا في الغزل، وأحضر معه خصوصًا «ديوان مهيار» الذي يحبه، ولكن طلبة الفصل منذ الحصة الرابعة، اشتغل فكرهم بمسألة اختيار القسم الذي سيلتحقون به بعد الكفاءة. وقد أثار تلك المسألة، مبكرًا عن ميعادها عادة، مدرس الرياضة اليوم في حصة الجبر؛ لذلك ما كاد التلاميذ يرون «محسن» و«عباس» في موقف المناظرة والمطارحة، حتى طرحوا على «محسن» السؤال الآتي: إنت رايح تختار أي قسم: الأدبي أو العلمي؟

فما تردد «محسن» في أن قال: الأدبي طبعًا.

ولكن «عباس» تردد قليلًا: أنا أحب القسم الأدبي، لكن والدي عايزني أكون حكيم.

فجذبه «محسن» بقوة نحوه وقال: اسمع كلام نفسك انت وميلك.

ثم أخذ يتكلم قائلًا: إنه لم يختر طريقه اليوم فقط، بل إنه منذ الطفولة يشعر إلامَ يتجه ميله الغريزي ... ثم تناول ذراع «عباس»، وضغط عليه بشدة قائلًا: «عباس»، إنت لازم تدخل أدبي زيي، لازم أدخلك أدبي زيي.

وهنا اعترض أحد الحاضرين من التلاميذ قائلًا: وإيه مستقبل القسم الأدبي؟

فالتفت «محسن» إليه وقال: قصدك من جهة المال والثروة، أنا مايهمنيش المال والثروة.

فسأله آخر مستطلعًا: أمال إيه اللي يهمك؟

فأشار «محسن» إلى نفسه، وإلى «عباس» وقال في تفاخر الشباب وغلوائه: بكرة احنا اللي نكون لسان الأمة الناطق.

ونظر إلى «عباس» كأنما يزيده تشجيعًا وتأكيدًا، وأراد أن يستمر، ولكن خطرت له عبارة برقت لها أساريره، عبارة تعتبر لمثله ولمن في سنه ومعلوماته وحيًا، فاندفع قائلًا: «عباس»، وظيفتنا بكرة حاتكون التعبير عما في قلب الأمة كلها، فاهم؟ يا سلام، لو تعرفوا قيمة القدرة على التعبير عما في النفس، التعبير عما في القلوب؟

وفكر قليلًا، ثم قال وقد لمعت عيناه بفكرة أخرى: فاكرين الحكمة اللي في كتاب المحفوظات «المرء بأصغريه قلبه ولسانه»؟ الأمة كذلك لها قلب يهدي، ولسان يدير القوى المادية اللي فيها. المال وحده مش حاجة.

وأخذ يفيض في الكلام بتدفق وتحمس حول هذا المعنى.

دق الجرس ودخل التلاميذ حصص بعد الظهر. وجاءت الحصة السادسة، وقد اشتد شوق «محسن» إلى الخروج؛ كما اشتدت عاطفته اتقادًا، وظهر «الشيخ علي» بلحيته الكثة وهيئته الوقورة فقام له التلاميذ احترامًا ثم جلسوا بجلوسه. وأخذ يجيل بصره في الحاضرين، ثم فتح دفتره، وعندئذٍ جعل الطلبة الصغار يتبادلون النظرات فيمن سينادي اسمه، ليلقي على السبورة ارتجالًا موضوعًا إنشائيًّا يختاره بنفسه، وارتجف بعضهم من كارهي الحصة، وتعلقت أنفاسهم والمدرس يُصعد نظره ويهبطه في عمود الأسماء أمامه، كلٌّ يخشى أن يسمع اسمه.

وأخيرًا نطق المدرس فإذا الاسم: «محسن»، وإذا هو ينظر إلى «محسن» ويأمره قائلًا: يا «محسن» اصعد إلى السبورة.

فاطمأن التلاميذ وسُرُّوا بهذا الاختيار. ولم يتردد «محسن»، بل نهض في الحال، وذهب إلى السبورة، وعندئذٍ قال له المدرس آمرًا: يا «محسن» انتخب موضوعًا، ثم تكلم فيه.

فوقف الفتى حائرًا مترددًا، إنه لم يحضِّر موضوعًا ما وليس في ذهنه الساعة شيء. وطال وقوفه وتردده، فقال المدرس بلهجته المتئدة: اكتب رأس الموضوع على السبورة، ثم قسِّمه إلى نقط كالمعتاد.

فقال «محسن» في نفسه: «وانا عارف إيه الموضوع»؟ وفجأة خطر له خاطر احمرَّ وجهه له، وطرده من فكره في الحال، لكنه لم يلبث أن عاد إليه، ولا يدري أي شجاعة في تلك اللحظة، وأي قوة كانت تدفعه إليه، ولعل شعوره القوي الساعة أقنعه أنه لا يستطيع الكلام الآن بإسهاب أو لذة، إلا في هذا الموضوع، وتناول في الحال الطباشير، وكتب بحركة اندفاع عنيفة: رأس الموضوع: «الحب».

ما كادت تظهر هذه الكلمة على السبورة، حتى هاج الفصل وماج، ودهش المدرس من انقلاب الفصل أمامه، ولم يدرِ بعدُ سببه، فدقَّ بقلمه فوق منضدته طالبًا السكوت وهو يصيح بهم: خبر ايه؟

ورأى أنظارهم متجهة نحو السبورة، فالتفت إليها هو الآخر، ورأى كلمة «الحب» فلم يتمالك أن صرخ مستنكرًا: الله الله! ما شاء الله … امشِ انجر اقعد محلك، بلاش قلة حيا ومسخرة.

وبُهت «محسن» قليلًا لأنه لم يعتد هذه المعاملة من مدرسيه، فوقف مرتبكًا حائرًا، ولكنه لم يفقد تلك الثقة والقوة التي دفعته إلى كتابة تلك الكلمة الجريئة، أمام طلبة مساكين اعتادوا أن يسمعوا كلمة العلم والمذاكرة والتحصيل والمثابرة، ولكنهم لم يسمعوا كلمة «الحب» ولا «الشعور» ولا «القلب»، وإن سمعوها فمحرَّف معناها إلى المقصد الدنيء، كأنما الحياة ليس فيها غير شيئين لا ثالث لهما: العلم، والفساد. فالعلم عندهم مرادف للمذاكرة والنجاح في الامتحان، والفساد مرادف للحب والقلب، وكل ما خرج عن مواد الامتحان هذه هي الفضيلة والرذيلة كما تلقن لهؤلاء الصغار.

ورأى: «الشيخ علي» وقوف «محسن» وارتباكه وتأدبه برغم ذلك، وذكر سمعته الطيبة وأخلاقه المعروفة عنه، منذ مجيئه السنة الماضية إلى تلك المدرسة، فتلطف المدرس قليلًا؛ لكنه قال في لهجة لا تخلو من العتب القارص: جرى لك إيه النهارده؟! اتجننت؟

فلم يُجِب «محسن»، ومرت برأسه فكرة ثائرة ضد هذا «الشيخ» الذي لا يفهم أكثر مما يفهم أي واحد من أولئك التلاميذ، وخُيل إلى «محسن» أنه يرى ويحس أشياء عظيمة … عظيمة جدًّا، لن يراها واحد «كالشيخ علي».

نظر «الشيخ علي» في دفتره، لينتقي طالبًا آخر غير «محسن»، ولكن الفصل بالإجماع تشجع وقال في تحمس غير معتاد: عايزين الموضوع ده! عايزين الموضوع ده! تكلم يا «محسن»، قل يا «محسن».

ونظر «محسن»، إلى الفصل، فأدرك أن هذه الكلمة قد أثارت حب استطلاع كبيرًا عند هؤلاء الجهلاء الصغار، وأن هؤلاء التلاميذ ليبدو عليهم التعطش لموضوع كهذا، رأى «محسن» صاحبه «عباس» على الأخص في رأس المطالبين، يلوح بيديه إلى صديقه، وعلى وجهه ابتسامة الذي كاد يفهم، وتنقشع عن عينيه سحب.

عندئذٍ تشجع «محسن» وعزم على الكلام بأي ثمن، ولكنه رأى هيئة «الشيخ الحنبلي» أنه لا حيلة معه.

وهنا خطر «لمحسن» خاطر يدل على ذكاء … فتناول في الحال الطباشيرة، وكتب تحت كلمة «الحب» هذه السطور: وينقسم الحب إلى ثلاثة أقسام: حب الله عز وجل: وهو حب الخشوع والاعتراف بالفضل، وحب الوالدين: وهو حب الدم، وحب الجمال وهو: «حب القلب».

وهلل الفصل، وفي مقدمته «عباس»، طالبين موافقة «الشيخ» على الموضوع؛ إذ هو أدبي محض، والتفت الشيخ إلى السبورة مرة أخرى بعد أن وضع منظاره، وجعل يقرأ القسم الأول، ثم الثاني بصوت فيه رنة القبول والموافقة، ولكنه ما بلغ القسم الثالث حتى عاد فحزن وتوقف، ونظر إلى «محسن» وقال: اشطب نمرة تلاتة.

فتردد «محسن» قليلًا، ولكن «الشيخ علي» لم يلن، ولم يتراخَ في هذه المرة، برغم احتجاج الفصل وتوسلاته، وأخيرًا لم يرَ «محسن» بدًّا من شطب القسم الثالث؛ غير أنه صمم في سره أن يتكلم عنه خلال كلامه عن القسمين الأولين؛ كأنما هو يقارن بين العلل والأسباب.

وهكذا رضي «الشيخ علي» بإثبات كلمة «الحب» على السبورة … وهكذا اندفع «محسن» يتكلم والفصل مُصْغٍ إليه في هدوء وانتباه، لم يسبق لهما مثيل في أي حصة طول السنة، وكان «محسن» كلما عرج على موضوع القلب تذمر «الشيخ علي» وزمجر ودمدم كالقط إذا لمح فأرًا، ولكن الفصل كان يُقبل بعيونه وأسماعه مسددًا النظر إلى «محسن» ومخارج ألفاظه في لذة وفرح عجيبين؛ كأنما هم حقيقة يستفيدون شيئًا، بل أكثر من ذلك … أكثر من ذلك بكثير؛ كأنما هم يسمعون شيئًا يحسونه كلهم دائمًا، ولكنهم ما كانوا يجرءون على التعبير عنه، أو أنهم كانوا يجهلون ما يحسون، يجهلون وجود الجمال في العالم، ويجهلون وظيفة القلب في كيانهم، ويجهلون المعنى الأسمى للحياة.

شعر «محسن» بذلك فيهم … كما شعر بأن سر انتباههم العجيب إليه، وسرورهم الهائل المنبثق من عيونهم به وبما يقول لهم، إنما مصدره شيء واحد: «أنه هو يعبر عما في قلوبهم.»

الفصل الثامن

وقفت «سنية» و«زنوبة» خلف إحدى نوافذ الشرفة الخشبية بحجرة «البيانو»، تنظران إلى «شارع سلامة» وترقبان مجيء «محسن»، وكان الوقت عصرًا، ولكن «محسن» لم يكن قد عاد بعد من مدرسته. غير أنه سيأتي توًّا إلى منزل «الدكتور حلمي»؛ كي يعطي «سنية» درس الغناء ابتداء من ذلك اليوم، هكذا كان الاتفاق بينهما بالأمس، ولهذا حضرت «زنوبة» تنتظره عند «سنية» حيث الموعد والمقابلة.

أخذت المرأتان تنظران في احتشام وتشغلان الوقت بالمشاهدة، وكان من الطبيعي أن تلفت أنظارهما «قهوة شحاتة» التي أمام المنزل، وهي تموج عادة في تلك الساعة بزبائنها المعتادين داخلها وخارجها.

وما كادت «سنية» تلقي نظرها على الكرسي والموائد المصطفة على الرصيف، حتى غمزت «زنوبة» بذراعها، وهمست في أذنها: واخدة بالك يا أبلتي من «الأفندي» أبو شيشة ده، خبر ايه؟ دايمًا عنيه في البلكون بتاعنا ... بصي ... كل شوية يبرم في اشنابه بشكل يموت من الضحك.

فنظرت «زنوبة» إلى ذلك «الأفندي»، ثم التفتت بسرعة إلى «سنية»، قائلة على الفور: يوه ... قطيعة، مش عارفاه؟! ما هو ده بسلامته ابن عمي.

فبغتت «سنية» وخجلت قليلًا لما بدر منها، وقالت معتذرة: إخص عليكي يا أبلا، ليه ماقلتيش من الأول؟

وسكتت قليلًا، ثم قالت: هو ده بقا المهندس؟

فأجابت «زنوبة»: لأ ياختي، المهندس اخويا «عبده»، أما ده ادلعدي الظابط اللي كان قال لك «محسن» امبارح على مزيكته أم منفاخ.

– الهارمونيكا؟

– أيوه ياختي، البتاعة دي، عليكي نور.

فأعادت «سنية» النظر إلى ابن عم «زنوبة»، وقالت محاولة الإطراء؛ كي تصحح ما بدر منها: حقًّا يا أبلا، باين عليه العظمة والهيبة والجلال في كل حركة من حركاته.

فنظرت «زنوبة» إلى «سليم» على القهوة، ثم ضحكت ضحكة تهكم خافتة: ياختي ما له عامل في نفسه كده؟ يا سم على دي نفخة كدابة.

وفي تلك اللحظة لفظت «سنية» فجأة صيحة عجب صغيرة، وجذبت «زنوبة» من ذراعها، ووجهتها في حماسة خفيفة إلى ناحية من القهوة: شوفي يا أبلا، شوفي «الأفندي» ده أبو شعر اصفر وشنب صغير مقصوص اللي جه دلوقت بس شوفي الصدفة، قعد ورا ابن عمك تمام.

فنظرت «زنوبة»، وبغتة دق قلبها دقات متتالية، وتغير لون وجهها، ولكنها أخفت ما بها.

واستطردت «سنية» تقول وهي ترمق ذلك القادم على القهوة: شايفة ازاي ابتسم بالضحك لما لمح ابن عمك، هو يعرفه؟ لكن دا ماسلمش عليه.

فأجابت «زنوبة» بصوت به بعض التغير: لسه مايعرفوش بعض!

فدهشت «سنية» قليلًا لهذه العبارة، وقالت مرددة: لسه مايعرفوش بعض؟

فقالت «زنوبة» في تنهد مكتوم: أيوه، قصدي جايز يوم يعرفوا بعض.

وسكتت لحظة … ثم كأنما خشيت أن يكون في عبارتها ما ينم على شيء، فاستدركت قائلة: ما هو ده يبقى جارنا.

فقالت «سنية» على الفور وفي اندفاع، وهي تنظر إلى ذلك الرجل: الجدع ده؟ جاركم صحيح يا أبلا والا بتهزري؟ ساكن لوحده؟ صنعته إيه؟

فأجابت «زنوبة» وهي نصف غائبة الذهن، وعيناها مسددتان إلى القهوة: أيوه، صنعته غني … ملتزم.

وفطنت «زنوبة» إلى نفسها وإلى «سنية» التي تنظر كذلك، فمدت يدها في حركة سريعة جافة، وأبعدت في الحال «سنية» عن الشرفة وهي تقول في خشونة: ارجعي، ماتطليش قوي كده يا «سنية».

فتقهقرت «سنية» إلى الصالون وهي تقول في ابتهاج: ماليش عادة أبص من البلكون ده، لكن الحق انه فرجة لطيفة، يا ترى كل يوم فيه ناس على القهوة كده؟

فلم تُجِبها «زنوبة».

فعادت «سنية» أدراجها إلى الشرفة؛ لتنظر أيضًا، لكنها ما لبثت أن قالت في صيحة فاتنة: آدي «محسن» جه.

وسكتت قليلًا كي تتبعه بنظرها، ثم استطردت: راح الأول القهوة يسلم على ابن عمك، وكان ساب عنده كتبه ... عمل طيب، علشان ييجي هنا على طول ... من باب الشارع.

ولم تكن «زنوبة» تصغي إلى كلمة واحدة مما قالت «سنية»، بل كانت تنظر إلى القهوة في صمت، وفكرها سابح في أحلام، غير أنها بعدئذٍ استقامت بسرعة وتحركت نحو الصالون، ذلك أنها رأت شيئًا جعلها تعزم على الخروج في الحال؛ فقد رأت «سليم» ينهض من مكانه بالقهوة، متجهًا إلى منزلهم حاملًا كتب «محسن»، بينما كان الفتى الصغير قد طرق باب «الدكتور حلمي».

والذي كان يهم «زنوبة» من كل هذا أنها رأت «مصطفى بك» جالسًا في مكانه الآن بمفرده، فألقت عليه نظرة أخيرة، ثم تركت نافذة الشرفة، وذهبت تبحث عن «ملايتها اللف» على أريكة بالصالة، ورأت «سنية» ما تريد فسألتها: رايحة فين يا أبلا؟

فأجابت «زنوبة» في سرعة وحيرة متظاهرة بعدم الاكتراث: رايحة عند الخياطة وراجعة، مسافة المشوار، فقالت «سنية» في لهجة عتاب لطيفة: إزاي بقا تسيبيني وحدي؟ إنتي عارفة إن ماما مش هنا؟

فقالت «زنوبة» وهي تلتف بالملايا: وحياتك راجعة بعد عشر دقايق.

فقالت «سنية» في شبه استياء: ويعني ضروري الخياطة دلوقت؟

فأجابت «زنوبة»، وهي منهمكة في اللبس: أيوه ياختي، افتكرت حاجة مهمة قوي عندها، ماتخافيش، إن تأخرت عن خمس دقايق يبقى لك الكلام.

ثم أخذت أمام المرآة ترتب هندامها في عناية، وتحسن وضع قصبة البرقع «قشر السمكة» على أنفها، وتحرص أن يظهر على جانبَي رأسها مقاصيص شعرها المصبوغ. وكانت تقوم بإجراء تلك الزينة وذلك التجمل في رشاقة ابنة العشرين، مما جعل «سنية» تبتسم على الرغم منها.

في تلك اللحظة دخلت جارية سوداء «لسنية» تعلن قدوم «محسن»، ولم يمضِ قليل حتى ظهر الفتى على عتبة باب الصالون، ووقف مترددًا خجلًا لحظة، ثم تقدم إلى «سنية»، وسلم عليها في أدب وحياء عميق.

وانتهزت «زنوبة» فرصة اشتغال «سنية» بتحية «محسن» وانسلت إلى الشرفة، وأطلت من نافذتها خارجة بجسمها منها على نحو يكاد يظهرها واضحة لمن يكون بالقهوة، ثم بعد أن فرغت من ذلك عادت أدراجها مسرعة نحو «سنية» و«محسن»،

وأكدت لهما قرب أوبتها وقصر مدة غيبتها، ثم سلمت وخرجت على عجل، لبث «محسن» و«سنية» وحدهما وجهًا لوجه.

وعندئذٍ أحس الفتى الصغير أن حياءه وخجله يشتدان إلى حد الخوف والرهبة، وشعر بأن تلك الشجاعة التي ظل يتمرن عليها طول يومه، والتي عني بادخارها لمثل تلك اللحظة، قد ذهبت عنه كلها في لمح البصر، فوقف ساكتًا ينظر إلى الأرض؛ كأنه طفل مذنب أمام مؤدبه.

ولم تكن «سنية» في هذه الحال، من الخجل والحياء والرهبة؛ فمع أنها فتاة في السابعة عشرة من عمرها، أي تكبر «محسن» بنحو عامين فقط؛ فقد كانت أربط جأشًا، وكانت كالمرأة في كل ترعرعها الجسمي والمعنوي، وإن هي أحيانًا خفضت أهدابها الطويلة الجميلة وهي تكلم «محسن»، وضحكت ضحكات نسائية رقيقة غاية في الأنوثة، ومنعت عينيها من إطلاق النظر إلا في أدب وخفر وتحفظ، فما كان ذلك كله عن طبيعة فيها؛ بل هو حياء مصطنع، لعله أرق سحر تمتاز به المصرية، والحقيقة أن المصرية أمهر امرأة تدرك بالغريزة ما في النظرة الواحدة من وقع وتأثير؛ لذا هي لا تنظر إلى محادثها كثيرًا ولا تبخس نظراتها ولا تقلبها جزافًا كما تفعل الفرنجية الجريئة النزقة، بل إنها تحتفظ بنظراتها وتحفظها بين أهدابها المرخاة، كما يحفظ السيف في الغمد، إلى أن تحين الساعة المطلوبة فترفع رأسها وترشق نظرة واحدة تكون هي كل شيء.

قطعت «سنية» الصمت أخيرًا قائلة في مجاملة وترحيب: تفضل يا «محسن بك».

وأشارت له إلى كرسي كبير بجوار «البيانو»، ثم ابتسمت وأردفت: رايح تعلمني إيه النهارده يا أستاذي؟

فأجاب «محسن» مبالغًا في الأدب والتحفظ والتكلف إلى حد ممل: زي ما تطلبي حضرتك.

فقالت «سنية» مبتسمة: مش عارفة ليه أنا أحب طقاطيق اليوم ... ومع ذلك غنوة امبارح، ولو انها دور قديم قوي، لكن ماقدرش أقول لك قد إيه عجبتني، أول مرة في حياتي حبيت دور قديم، لكن الفضل لك يا «محسن»، الحق انت غنيتها بشكل، والطريقة بتاعتك حاجة جميلة قوي صحيح.

احمر وجه «محسن» وخفق قلبه فرحًا وتأثرًا بهذا الإطراء الساحر؛ وكأنه استمد منه بعض الجرأة والشجاعة، فقال وهو يحاول رفع رأسه المطرق دائمًا: متشكر يا «سنية هانم» ... دا من لطفك.

فقالت «سنية»: أؤكد لك يا «محسن بك» ... إنت لك مواهب عجيبة، وعندك صنعة في الغنا، أهي الصنعة دي اللي عايزاك تعلمها لي، مش كده؟

وابتسمت في ظرف واتجهت إلى «البيانو» وفتحته وأخذت مقعدها أمامه.

فُتن «محسن» تمامًا. وكأنما أراد أن يغير حالته الخجول، وأن يتبسط معها في الكلام قليلًا، فنهض وتقدم نحو «البيانو» ثم قال متظرفًا ومقلدًا لهجتها الأخيرة عن تعمد.

– واهو «البيانو» ده اللي عايزك تعلميه لي ... مش كده؟

لكنه ما كاد يلفظ هذه العبارة حتى صعد الدم في وجهه، فنظرت «سنية» إليه نظرة تستطيع أن تقلب قلب مارد من العمالقة، وقالت: من غير شك ... وأضمن لك تقدم سريع؛ لأنك قلت لي انك تعرف تضرب على «الهارمونيكا».

وعادت فالتفتت إلى «البيانو» تمر بأناملها على مفاتيحه، ووقف «محسن» خلفها، وقد هدأ اضطرابه قليلًا واطمأن؛ إذ هي الآن لا تستطيع رؤيته في موقفه هذا، وعندئذٍ جعل يختلس النظر إليها اختلاسًا، ولأول مرة فطن إلى أن شعرها مقصوص على أحدث طراز، وذهبت عيناه تتأمل نحرًا عاجيًّا غاية في البياض، يعلوه رأس جميل مستدير الشعر غاية في السواد يلمع لمعانًا أخاذًا؛ كأنه قمر من الأبنوس، وخطرت «لمحسن» صورة يراها دائمًا في الكتاب المقرر هذا العام للتاريخ المصري القديم، صورة يحبها كثيرًا، وطالما قضى شطرًا من حصص التاريخ يطيل إليها النظر وهو سابح في عالم الأحلام، لا ينزله منه إلى الأرض إلا صوت المدرس وقد بدأ في شرح الدرس، تلك صورة امرأة، شعرها مقصوص أيضًا، وأسود لامع كذلك، ومستدير كالقمر الأبنوس: «إيزيس».

رفعت «سنية» رأسها فجأة، والتفتت إلى «محسن» مبتسمة، وهي تقول، شأن من تذكر أمرًا بغتة: شوف ... كنت ناسية حاجة مهمة خالص.

فبُغت الفتى، ونظر إليها، كمن صحا من حلم، وارتجف قليلًا؛ إذ خشي أن تكون قد فاجأته وهو يختلس النظر إلى مؤخر رأسها الجميل، لكنه تجلد وأجاب في تلعثم: إيه؟

فاستطردت «سنية»: كنت عايزة اسألك عن حكاية «الأوسطى شخلع» العالمة اللي علمتك صنعتها؟

فصمت «محسن» قليلًا، حتى هدأ جأشه، ثم قال: آه ... لكن دي حكاية قديمة قوي.

فقالت «سنية» في رجاء لطيف وفي شيء من الدلال: عايزة اعرفها ... مشتاقه قوي إني اعرفها.

فقال «محسن» في شبه عجب، ولكن في فرح داخلي: صحيح مشتاقة انك تعرفيها؟

– أيوه ... عايزة تحكي لي عرفت «شخلع» ازاي؟

فوقف «محسن» لحظة؛ كمن يستذكر أشياء انقضت، وقال مرددًا وهو لاهٍ ساهم: شخلع! أنا نسيت ... وقتها كنت صغير قوي، ومع ذلك فاكر، كانت أيام لذيذة، وكنت سعيد، ولو اني مش فاهم علشان إيه؟ ... أيوه افتكرت ... تذكرت.

وعندئذٍ أخذ وجه «محسن» تكسوه فجأة ملامح غريبة.

لم يعد بعدُ وجهَ الطفل الساذج الخجول، بل غدا في لحظة وجه رجل، ترتسم عليه مشاعر عميقة: أيوه ... مستحيل أنسى.

قال ذلك هامسًا، كأنما يخاطب نفسه.

وعجبت «سنية» وأخذت تنظر إليه مشدوهة، متأملة وجه ذلك الفتى الصغير وما فيه من معانٍ، وتلك العينين الخاليتين فيه كأنهما تخترقان سجف الماضي الأثيرية!

الفصل التاسع

كان «محسن» في السادسة من عمره، وقتما كانت «الأوسطى لبيبة شخلع» تختلف إلى بيت أهله، وحكاية تلك العالمة ومعرفتها الوثيقة بالأسرة لم تكن مجرد مصادفة؛ فإن جدة «محسن» أصيبت في ذلك الوقت بمرض عصبي لم يُجْد فيه طب ولا دواء، وقد عالجها كثير من الأطباء فلم ينتهوا إلى شيء. وأخيرًا قال واحد منهم بعد أن أعيته الحيل: إن أصوب ما يشار به في مثل حالتها، سكون الفكرة وهدوء البال وانشراح القلب: «ألهوها بقدر المستطاع، كثير من الفرح والسرور يمكن أن يصلح حالها».

– نلهيها ونفرحها ازاي يا دكتور؟

– يعني غنوا لها وابسطوها، الغنا والطرب أحسن دوا لها.

وجاءت بعد ذلك المصادفة؛ فقد رأت والدة «محسن» في ليلة عرس قريب لها «الأوسطى لبيبة شخلع» ولم تلبث أن أعجبها من تلك العالمة المشهورة حسن خلقها وأدبها، وتواضعها وذوقها فاستظرفتها ... كذلك رأت «شخلع» والدة «محسن» بين جموع السيدات، فاستلفتت أنظارها بما كانت عليه من أبهة الشخصية، فتعارفتا، وذكرت والدة «محسن» عندئذٍ تلك المريضة التي دواؤها الطرب، فانتهزت الفرصة ودعت «شخلع» إلى الزيارة.

ومنذ ذلك الحين، و«الأوسطى لبيبة شخلع» تزور أسرة «محسن» كل صيف في «دمنهور» مستصحبة تختها وآلاتها، فتلبث عندهم طول الصيف أو بعضه ضيفة مكرمة، تُروِّح النفس بمناظر الأرياف وهوائها، وتسلِّي الست الكبيرة المريضة، وتملأ البيت حياة وفرحًا وانشراحًا.

وكانت تلك الأيام التي تمضيها «شخلع» وتختها في بيت «حامد بك العطيفي»، تعد خير أيامها كما كانت تقول، ولا يعكر صفوها إلا «الحاج أحمد المطيب»، الذي كان يطلبها مع التخت من وقت لآخر من أجل سهرة مستعجلة أو صفقة طيبة.

لكن تلك الأيام عند الصغير «محسن» على الأخص، كانت أهنأ أيام حياته بلا جدال؛ فقد كان يحسب حسابها طول العام، ويعد بالأشهر على أصابعه انتظارًا لها والفرح يثب من صدره كلما مر شهر.

ما ألذها أحلامًا ساذجة، وما أعذبه سرابًا صبيانيًّا عظيمًا، ما كان يجول بنفس هذا الصغير المبهمة حتى في تلك السن.

كان ما يملأ «محسن» فرحًا وزهوًا أن يعتبر عضوًا في هيئة التخت. فما كان يرضى إلا أن يغني ويأكل ويجلس وينحشر بين «العوالم» ويا ويل من كان لا يدعوه أو يناديه فردًا من الجوق ... كم من مرة بكى وثار لأن أحدًا نسي أن يعتبره «سنيدًا»؛ «كحفيظة» و«نجية» و«سلم» العمياء ... وكم من مرة غضب وهاج كي يعلمنه «السيم» المصطلح بينهن معشر العوالم.

وذهب في الاندماج في سلك التخت وتقليد أفراده، حتى فيما هو عندهن مثل أعلى، وما يشعرن به من إخلاص واحترام، نحو مولاتهن: «الأوسطى الست لبيبة شخلع».

نعم، إنه لا ينسى فرحه؛ إذ كان يجلس على الأرض مع الجوق، وهو محيط بالأوسطى، وهي مرتفعة في الوسط على كرسي كبير، حاملة العود بين ذراعيها؛ فقد كان عندئذٍ يرفع عينيه وينظر إليها؛ كمن ينظر إلى إلهة فوق قاعدة من الرخام، ثم يلتفت يمينًا وشمالًا برأسه الصغير إلى زميلاته «السنِّيدة»، في شيء من الارتياح الداخلي لا يوصف، ولا يمكن أن يكون له تفسير.

وأحيانًا كان يشعر بإحساس غريب، وهو ينظر إلى تلك المرأة اللطيفة التي ناهزت الثلاثين، لا سيما ليلة سهرة الاستقبال، أو أي احتفال، حيث كانت تظهر مزينة بالحلي البراقة أمام المدعوات والزائرات اللاتي كن يأتين خصوصًا لسماعها عند آل «محسن».

وقد كان يحس أحيانًا أنه فهم في إبهام ما كانت عليه «شخلع» من ظرف، والواقع أن «لبيبة» كانت فوق غنائها الساحر، تمتاز بطبيعة مرحة، غاية في الظرف وخفة الروح، تملأ المصغي إليها انشراحًا وسرورًا.

وكم كان «محسن» يحب الجلوس إليها متملقًا متزلفًا، وقد جمع لها وقطف من الغيط طول الصباح ذلك الخلال الذي كانت تغليه وتشربه، ليسلك صوتها، وهو يرجوها

في مقابل ذلك أن تحكي له بعض نوادرها التي طالما حكتها له وللجميع، دون أن يُفقد التكرار ما فيها من ظرف.

احكي لي حكاية الطباخة ... يقول لها ذلك «محسن» الصغير بصوت الرجاء، فتضحك ثم تتجهم تجهمًا مصطنعًا، وتقول له ولمن حواليها: طباخة؟ يا دي الفضيحة يا ولاد ... بقا كل ما انسى تفكروني؟

أصل الحكاية أن الطباخة الحقيقية مرضت ذات يوم، فاقترحت «الأوسطى لبيبة»، في جد وإلحاح أن تحل محلها. وقالت وأكدت أن الطعام الذي يخرج من يدها لم يذق أحد أشهى منه، وأوصت الجميع بالحذر حتى لا يأكلوا أصابعهم معه من فرط لذته، وزعمت أنها في طهي السمك أوسطى من الطبقة الأولى، ومن يأكل من سمكها الإسكندراني أحرى به ألا يقول إنه أكل سمكًا في حياته.

فرضوا بتركها تفعل، وقادوها إلى المطبخ، وأحضروا لها الخضر والسمك وكافة اللوازم ... وبدأت العمل ... لكن أي عمل؟!

وما إن مضى عليها خمس دقائق بالمطبخ حتى انقلب ذلك المطبخ إلى شبه سوق العصر ... أنزلت جميع النحاس الموجود من حلل وصوانٍ وقصاع وأوانٍ إلى الأرض، وبعثرته في أنحاء المكان، فلم يبقَ ركن ولا موضع لا يجد فيه الإنسان صحنًا أو طبقًا أو حلة ... لم كل هذا؟

لعلها لم تسأل نفسها هذا السؤال، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب من المطبخ؛ لأنها رفضت بتاتًا المساعدة من أيٍّ كان، حتى يعترف لها وحدها بالفضل.

وكانت منذ مدة قد تركت فوق النار حللًا فارغة، وأخذت تجري هنا وهناك في المطبخ، وبيدها سمكة وهي تدندن: «يا منعنشة يا بتاعة اللوز» بينما أقدامها تتعثر فيما يقابلها من صوانٍ وأوانٍ ملقاة على البلاط في غير ترتيب.

وكان السمك أيضًا قد تبعثر في أنحاء المكان، ولا يتصور أحد كيف حدث ذلك بهذه السرعة، فعلى الأرض سمك، وفوق الرف سمك، وفي القصاع سمك، وفي الحوض تحت «الحنفية» سمك، وكأنما انقلب المطبخ حلقة سمك!

ولكن «الأوسطى لبيبة شخلع» لم تنتبه ولا شك إلى الحالة التي سار إليها المطبخ؛ فقد كانت منهمكة حقيقة في العمل، وقد أخذتها حماسته، فهي تصيح بين آنٍ وآنٍ قائلة وهي تضحك: الله الله يادي الحبايب، فين السميعة دلوقت يتفرجوا على «الأوسطى شخلع» بجلالة قدرها؟

وأخيرًا «لكلكت لها كم طبق»، وخرجت من المطبخ يتصبب منها العرق، وفوطتها البيضاء يتصبب منها الهباب، وصاحت في ردهة المنزل: خلاص يا دي الحبايب، البذنجان سبكته، والبامية قمعتها … والسمك، آه يا روحي، قليته قلي يجنن ويسبي العقول.

وسكتت فجأة صفراء الوجه، ذلك أنه ظهر أمامها بغتة في ذات الوقت بباب الردهة، «الدكتور فريد» الذي استدعي لفحص الطباخة المريضة، وكان «الدكتور فريد» هذا من زبائن «الأوسطى شخلع» المتحمسين ومن سميعتها المعجبين، الذين رأوها كثيرًا، وسمعوها في الأفراح والليالي، فما رآها الآخر أمامه بفوطة المطبخ التي تقطر هبابًا حتى صاح في دهشة: الله … إنتي عاملة طباخة هنا والا إيه؟

ولكن «شخلع» ما كادت تفيق من بغتتها حتى أدارت ظهرها، وولت مدبرة وهي تغطي وجهها بكفيها تارة، وتلطم على صدغيها تارة أخرى، وهي تقول بصوت مخنوق خافت: يا كسوفي … يا كسوفي!

ولم يكن هذا كل ما جره عليها تطوعها للطبخ في هذا اليوم، ولا كل ما أتاها به السمك الإسكندراني.

ورطة أخرى كادت تكون خطيرة؛ فالسمك كان منتنًا وهي لا تعلم … وقد أكلت منه أكلًا كثيرًا، وجميع أفراد التخت؛ لأنه من عمل يديها، ولسوء الحظ أنها والتخت كانت متعاقدة في تلك الليلة بالذات لإحياء سهرة بمنزل أحد الأعيان.

فذهبت وغنت حتى صار الفرح في قمة الجلبة والسرور، وقد اجتمع المدعوون واشتد الهرج والمرج، وإذا «الأوسطى لبيبة» تحس فجأة بالمغص يجري بالطول والعرض في معدتها، وكتمت ذلك بادئ الأمر خشية الفضيحة، لكنها ما كادت تتخاذل وتهم بالقيام حتى رأت هيئة التخت جميعًا يدب فيها أيضًا المغص، وإذا كل «سنيدة» منهن تستند على زميلتها، وهي تتلوى، ويدها على بطنها، فأدركت الواقعة، وكان منظرًا — كما حكت «شخلع» فيما بعد بخفة روحها — يبكي ويضحك في نفس الوقت، فإن المعازيم ما لبثوا أن رأوا على حين فجأة هيئة التخت بأكملها تتمايل وتتماوج، ثم تنهض في وقت واحد بسرعة، وكل يده على بطنه، وجميع العوالم قد اندفعن يفسحن لأنفسهن طريقًا في الزحام، طالبات الوصول إلى الحمام أو بيت الراحة!

غير أن المنظر المؤثر حقيقة كان منظر «سلم العمياء»؛ إذ تركتها زميلاتها في ذلك المأزق، فوقفت وسط المكان تتخبط في حيرة، يد على بطنها والأخرى تضرب بها الهواء

متلمسة الطريق وهي تصيح: يا دهوتي! ... الحقونا بطشت والا قصرية، ياللي تحبوا النبي ... إلهي ما يوريكم يوم.

فضحك منها السيدات المدعوات أولًا، ثم سارعن لإسعافها.

لم يكن الصغير «محسن» مع التخت تلك الليلة، فإنه برغم دموعه وإلحاحه لم تسمح له والدته بمرافقة العوالم؛ لذلك اكتفى بسماع القصة كما سمعها الجميع من فم «الأوسطى شخلع»، التي كانت ترويها وتذكرها غالبًا في معرض كلامها بشكل مسلٍّ، فيضحك «محسن» منها في صفاء صبياني، ويتعزى بسماع تلك الأخبار، وينسى رغبته في الذهاب معهن، وما تكاد «شخلع»، تفرغ من كلامها، حتى يسارع «محسن» راجيًا دون أن يمهلها ريثما تدخن سيجارة: احكي لي كمان حكاية فرح اليهود.

دعيت «الأوسطى لبيبة» وتختها لإحياء ليلة عرس عند أسرة يهودية موسرة، وكان ذلك في شهر «طوبة» أشد أيام الشتاء بردًا، وجلست الأوسطى، وسط تختها، تنتظر خروج العروس من حمامها وزينتها، ومن طقوس العرس عند اليهود — كما قالت «شخلع» — أن تستحم العروس بالماء البارد ممزوجًا بماء مقدس يرشه «الحاخام» وبعد هذا الحمام تلبس العروس وتتزين، ويحرم على غير اليهودي — مسلمًا كان أو نصرانيًّا – أن يلمسها، فإن حدث ذلك وجب أن يعاد استحمامها من جديد بالماء البارد.

لبثت «لبيبة شخلع» حتى ظهرت العروس تتبختر في ملابسها وزينتها، وجلست في مكانها المعد لها، وبدأ الفرح، ثم حمي وطيسه، ثم قارب الانتهاء، وكانت الريح تعصف والمطر يتساقط بردًا وثلجًا في تلك الليلة بما لا عهد لمدينة القاهرة به من قبل، فقامت «لبيبة» على غفلة منها واقتربت من العروس تعجب بملابسها الفاخرة، وأرادت التمعن والتحقق من نوع قماش ثوب العرس، فمدت يدها ولمست العروس، وما كادت تفعل ذلك حتى دوى في المكان صياح هائل دهاها! ... وارتفعت أصوات الغضب من كل مكان، فكمشت يدها مبغوتة، ووقفت جامدة في موضعها بلا حراك ونظرت فإذا الجميع: العروس وأهلها وحاشيتها قد خرجوا يرغون ويزبدون مع الرعد القاصف في الخارج، وهم يقودون العروس إلى الحمام ثانية في ذلك البرد القارس.

وعادت بعد برهة العروس المسكينة من الحمام البارد وهي تشهق وتصطك أسنانها، وسمع الضجيج أقاربها الرجال، فصعدوا يستطلعون الخبر فبادرتهم السيدات من أهل العروس والمدعوات قائلات صاخبات: يقطعها «لبيبة»، يحرقها «لبيبة» ... لمستها لبيبة.

وكانت «لبيبة» تسمع ذلك، وهي منزوية منكمشة بين أفراد تختها، وجسدها يرتجف خوفًا وفرقًا، وقد جعلت ترتل في سرها آية الكرسي، وبين آنٍ وآن تنظر حولها خلسة؛ كي ترى: هل سكنت ثورة أهل البيت؟ … ثم تلتصق بمن في جوارها من السنيدة وهي تهمس: قربى على شوية يا «نجية» … خبيني اعملي معروف … امسكيني يا «سلم» … في عرضك، اشتروني يا اولاد! يا سيدي «أبو السعود» كراماتك … نص دستة شمع … بس نخرج من هنا سالمين.

فتهدئها «سلم» وهي أشد منها خوفًا، وتهمس لمولاتها في صوت المزمجر: قطيعة، يعني رايحين يعملوا فينا إيه؟

فأجابت «نجية» هامسة: أقل ما فيها يغطسونا احنا كمان في السخام الحمام.

فاصطكت أسنان «سلم» وقالت: يا ساتر يا رب! … واحنا كان ما لنا ومال كده.

وكان الصخب قد سكن في تلك الأثناء؛ وكأنما قد رأى أصحاب العرس أن تعود المياه إلى مجاريها، حتى لا تختم الليلة ختامًا سيئًا، فسكنوا في الحال، وأشاروا إلى «الأوسطى لبيبة» باستئناف الغناء والطرب، ورأت «شخلع» أن تلبي الأمر في الحال؛ كي لا تسبب إشكالًا جديدًا، وكي تلهيهم عما سلف منها، فاعتدلت في مجلسها وأمرت التخت بمسك الآلات، وقالت «لنجيه» على عجل: صلحي العود حجاز كار.

ثم رفعت عقيرتها وغنت: «كيد العذول …».

لكنها ما كادت تتم المطلع حتى سمعت همسًا ولغطًا بين أفراد التخت وتنبهت إلى صوت «سلم» يصيح عاليًا ويغطى صوتها: الله … الله يا «أوسطى شخلع» يا مصرية … يا سمع الملوك.

وأعقب ذلك في الحال صوت «سلم» الخافت، وقد انحنت عليها هامسة: الله … الله، يا نشاز كار.

فالتفتت إليها «شخلع» في حدة: جرى لك إيه يا بنت؟

ولكن سرعان ما أدركت «شخلع» أن غناءها كان نشازًا، وأن دافعه الخوف والفرَق. فهدأت روعها وابتسمت: أعمل لهم إيه؟ طلعوا على جتتي البلا، غنوا يا اولاد غنوة زي ما يكون، بس نخلص الليلة بجلدنا، أهم ياخدوا «كيد العذول» في جتتهم، وتتنا مروحين.

ولكن بين كل تلك الذكريات ليلة واحدة لا ينساها «محسن» أبدًا: ليلة رأى فيها صغيرًا — ما نقش على ذاكرته، وفي أعماق نفسه — صورًا ومشاعر لا تمحى.

في ذات عصر طلب «الحاج أحمد المطيب» «الأوسطى شخلع» لإحياء ليلة عرس عظيم، وأشاد لها بفخامته وأهميته، وأوصاها بالاستعداد التام، فسرى الخبر في الجو وصار له أثر مدوٍّ، وجعل الكل يتأهب: البعض يجري عمل «البروفات» والبعض يصلح الآلات، والبعض يعد الملابس البراقة والحلي، وشئون الزينة من مساحيق وعطور ومكاحل لطلاء الأهداب، وأدوات لتزجيج الحواجب. وامتلأت — في لمح البصر — هيئة التخت جميعها حركةً وفرحًا ونشاطًا.

شخص واحد فقط وقف بين تلك الحركة والضجيج، ينظر في كآبة وقد أحس بخيبة الأمل، هو الصغير «محسن».

وقف حزينًا بجوار الحائط، وقد بدا له في تلك اللحظة أنه كان يجري وراء سراب، إنه ليس فردًا من التخت، ولم يكن قط كذلك يومًا من الأيام؛ إذ ها هو التخت جميعه يتهيأ للذهاب بدونه، وها هو التخت قد استغنى عنه وعن خدماته، ويستطيع أن يذهب للأعراس والأفراح بدونه، وها هن زميلاته «حفيظة» و«نجية» و«سلم» كل تهتم بنفسها ولا تفكر فيه، بل لم تفطن إحداهن في تلك اللحظة إلى وجوده.

ثم جعل ينظر إلى «الأوسطى شخلع» وهي تتزين أمام المرآة وعيونه راجية متوسلة، ولكنها هي أيضًا كانت في ذلك الوقت لاهية عنه منصرفة بكلِّيتها إلى شأنها. حتى هي أيضًا يظهر عليها أنها نسيت كذلك أنه عضو مهم في هيئة التخت.

وآلمته كثيرًا تلك الفكرة، فانفجر باكيًا. ثم أخذ يضرب الأرض بقدميه الصغيرتين ويصيح: خدوني معاكم، أروح معاكم.

غير أن والدته رفضت.

فثار «محسن» وازداد عويله وهياجه. وحاولت «الأوسطى» والعوالم تهدئته. فكان ذلك محالًا، واشتد غضبه إلى حد كبير، وقد صمم في رأسه على مرافقة التخت، مهما كلفه الأمر: أنا ما لي … هه؟ … لازم اروح … لازم اروح … عايز اشوف الفرح، عمري ما شفت فرح.

ضحكت «شخلع» منه قليلًا وأخذتها شفقة به، فاقتربت منه وهمست في أذنه بلطف تعِده بالسعي لدى والدته حتى تأذن له في الذهاب.

فسكت الطفل في الحال ونظر إلى «الأوسطى» نظرة فيها كل معاني الامتنان والأمل، وهو يعلم أن والدته تثق ثقة كبيرة «بالأوسطى شخلع» التي أصبحت بعد طول العشرة من أهل البيت الموثوق بهم!

والواقع أن «شخلع» توصلت إلى إقناع الوالدة التي ترددت قليلًا بادئ الأمر، وانتهت إلى الإذن والموافقة إزاء تأكيد الأوسطى وقولها: ماتخافيش عليه ما دام معايا، أنا أحطه بين عينيَّ الاتنين، خليه يتفرج ليلة من نفسه.

وكان «محسن» يتسمَّع خلف الباب بقلب يهتز خوفًا ورجاء، فما بلغ سمعه الإذن حتى لفظ صيحة فرح، وجرى حالًا في المنزل، يبحث عن ملابسه الجديدة وهو يقول للجميع ... لكل من يقابله من خدم وعوالم، إنه ذاهب هو أيضًا مع التخت.

وفي أعماق قلبه الصغير حفظ «لشخلع» إحساسًا أقوى من مجرد الشكر والامتنان، إحساسًا عميقًا يجهله حتى تلك الساعة.

كان الوقت مساءً عندما وقفت العربة «الحنطور» التي تقلُّ العوالم أمام بيت الفرح، وقد نُصب بالواجهة سرادق فخم كبير مزين بأنواع التعاليق والنجف، والرايات الصغيرة المربعة والمثلثة على مختلف الألوان: من أحمر وأصفر وأخضر، واصطفَّت عُمُد مصابيح الغاز على جانبَي الطريق الموصل إلى المنزل؛ كأنه طريق الكباش الموصل إلى «معبد الكرنك»!

وامتلأ السرادق بمئات الكراسي والمقاعد والدكك الخشبية، يحتلها عدد من المدعوين لا يعلمه إلا الله وحده، لا يشاركه في العلم حتى أصحاب الفرح ... صحيح أن من المدعوين من هم مدعوون حقًّا. غير أن مع تلك الفئة أيضًا عددًا عديدًا دعَوا أنفسهم، وهم لا يعرفون إن كانت العروس تدعى «زينب» أو «شلبية»!

وكان الساقون والفراشون بسُتُرهم السوداء الرسمية، يمرون حاملين الصواني العريضة الكبيرة عليها أكواب الشربات الحمراء، فتمتد الأيدي ويتزاحم ذلك الجمع الغفير يطلب كلٌّ نصيبه.

وفي ركن من السرادق كانت تقوم «الموسيقى الميري»، أو شبه الميري، بطبلها وزمرها وأبواقها النحاسية، تزيد الضجيج وصمم الآذان اللازمين لفرح في تلك الأهمية وعلو الشأن.

ما كادت العوالم يصلن حتى حدثت حركة غير عادية بين الجموع. وهرع فراشان يستقبلان «الحنطور»، ويساعدان الأوسطى «الصييتة» على النزول.

نزلت «شخلع» أولًا في جلال وعظمة وهي تبهر الأبصار بحُليِّها وصيغتها من غوايشها الذهب لخلاخلها الرنانة، لثوبها الحريري المطرز بالقصب والترتر، والبادي تحت ملايتها السوداء، كل هذا يلمع تحت ضوء المصابيح الباهت؛ فكأنها كلها قطعة جواهر تضيء وتتحرك ... وتتحرك.

ولمت «الأوسطى شخلع» أطراف إزارها والتفَّت به جيدًا، ثم نظرت خلفها إلى «السنيدة» أفراد التخت، وأمرتهن أن يحملن الآلات بعناية وانتباه. كلٌّ تحمل ما يخصها. ومشت «الأوسطى»، تتهادى، وفي ذيلها الصغير «محسن» لابسًا بذلة العيد الكبير.

ورأى «محسن» في الحال أن زميلاته «نجية» حاملة العود و«حفيظة» الطبلة «الضربكة» و«سلم» الرق، فزمجر ودمدم وهدد بالبكاء ... وهو أيضًا يجب أن يحمل آلة من الآلات ... أليس عضوًا في التخت؟ وعبثًا حاولت «شخلع» بتوسلاتها وتحايلها أن تسكته، وأخيرًا أمرت «شخلع» أن يُعطى «محسن» الصاجات، وقالت له مبتسمة في لطف: شيل انت الصاجات، أهي حاجة صغيرة على قدك.

وتناولت يده تريد أن يمشي بجانبها، ولكن «محسن» رفض في عناد. إنه يريد أن يتبعها كفرد من التخت، لا أكثر ولا أقل، وسارت أخيرًا «شخلع» تتبعها حاشيتها، يقودهن جميعًا الخدم والفراشون إلى جهة باب الحريم، وتشيعهن نظرات الرجال وبسمات المدعوين، وكلمات الإطراء والمغازلة والتنكيت التي كانت تعلو من بين الجموع: يا سيدي، يا سيدي ... كده، كده ... وسع يا جدع انت وهو ... نظرة يا ام العواجز ... حاسب الملف يا ... هاهاي ... إلخ ... إلخ.

وهكذا حتى اختفت العوالم عن أنظارهم خلف الحريم. دخلت «الأوسطى شخلع» فوجدت نفسها في صالة رحيبة، مملوءة بسيدات يتلألأن في أثوابهن وجواهرهن الفاخرة؛ كأنهن النجوم.

وما كادت تظهر بالعتبة حتى أقبلت عليها صاحبات الفرح، وبينهن أم العروس، فاستقبلنها في ترحيب لائق بمقام العالمة المشهورة، ثم قدنها إلى المكان المخصص للتخت، وهو ركن فسيح مفروش بالوسائد الحريرية والشلت الناعمة، على شكل دائرة يقوم وسطها كرسي فوتيل خصوصي للأوسطى «الصييتة».

ولم يلبث أفراد التخت أن دخلن ودخل معهن «محسن» فاستلفت أنظار أهل الفرح، وسألت أم العروس «شخلع» قائلة: اسم الله عليه ابنك؟

ولكن «محسن» لم يدع لشخلع وقتًا للإجابة؛ فقد قال على الفور بصوته الصغير، وهو يشير إلى الصاجات التي يحملها: لأ ... أنا من التخت.

فضحك أهل العروس وسُرُّوا من لهجته الجدية المملوءة عزمًا وإرادة على رغم سنه، وأرادت أم العروس أن تقبِّله، غير أنه فرَّ لاحقًا بزميلاته وانحشر بينهن، وقد أخذن مجالسهن وانهمكن في وضع الآلات وإعدادها.

وعندئذٍ استأذنت «شخلع» وتبعت «محسن» في الحال.

جلست العوالم كل على شلتة أو وسادة، محيطات «بالأوسطى» المرتفعة على الكرسي بينهن، وقد أخذن يثرثرن فيما بينهن بلغة السيم المصطلح عليها عند الطائفة.

وبدأن كالعادة، ينقدن كل ما تقع عليه أنظارهن، وسألت «سلم» الضريرة عما إذا كان البيت والفرح وأهله حقيقة كما قيل، بيت عز وأكل أوز وخير وخمير؟ ... فجالت زميلاتها بأبصارهن النافذة الثاقبة في أنحاء المكان، وتأملن لحظة «الكوشة» التي في الصدر وهي مكسوة كلها بالحرير الأبيض، وفيها مقعد العريس والعروس، غاية في الفخامة، ثم نظرن إلى قبة «الكوشة» وقد بُطِّنت كذلك بالحرير الأبيض، فصارت كأنها سماء من الشمع، يتدلى منها على كل الجوانب ستائر من الفل والزهر والورد الأبيض.

لم تكن العروس أو العريس قد حضرا بعد؛ لذلك حولت العوالم نقدهن وحكمهن إلى المدعوات.

ومع ذلك فقد كانت كل الشواهد تدل على أنه عرس فخم حقيقة.

وأخيرًا قالت «نجية» العوادة: آي ... بالحق ناس مليانين، بس ... كان واجب يشوفوا خاطرنا بالسجاير المعتبرة، والدخان اللي يشرح القلب.

فانتهرتها «الأوسطى» هامسة: هس يا مزغودة؟ ... أم العروسة جاية علينا.

وحقيقة اقتربت «أم العروس» من «الأوسطى شخلع»، وسألتها في لطف إن كان يمكنها التكرم، ولو بأغنية واحدة، قبل افتتاح البوفيه؛ إذ إن المعازيم يتوقون إلى ذلك؟

فأجابت «شخلع» في أدب: من عيني، محسوبتك يا ست هانم ... بس التخت عايز سجاير، وأنا عايزة فنجان قهوة سادة، واسم الله عليه، وأشارت إلى «محسن».

وأرادت أن تتم عبارتها، فقاطعها الصغير قائلًا: أنا زي التخت، فقالت «شخلع» مستنكرة: سجاير؟ كله إلا كده ... لأ يا «محسن» عيب.

والتفتت بسرعة إلى «أم العروس» وهمست في أذنها: هو اسم الله كباية شربات.

فأجابت «أم العروس»: بس كده؟ غالي والطلب رخيص، حاضر ياختي، على راسي ... اسمعي يا «أوسطى شخلع»، والنبي ماتعملوش تكليف، البيت بيتكم ومطرحكم، اللي عايزينه اطلبوه، الليلة دي عايزينها تكون ليلة العمر اللي نفتكرك بيها يا «ست شخلع»، نوري وانجلي كده وجلجلي، وخليها مفيش بعدها.

وذهبت مسرعة، كي تقضي طلبات التخت.

ورفعت «شخلع» عينيها وألقت نظرة شاملة على المدعوات فرأتهن ينظرن إليها في إعجاب وانتظار، فابتسمت لهن.

وفي الحال ارتفع صوت جريء من بين المدعوات يصيح بها: يا «أوسطى شخلع»، من فضلك غنوة «حبيبي غاب، وقلبي داب ...»

فأتت «شخلع» بحركة طاعة مؤدبة، بينما كانت السيدات وهن يضحكن بين ماجنات ومشجعات، ومستنكرات ومستغربات، يبحثن بعيونهن عن تلك السيدة التي تجاسرت أن تقول عاليًا: «حبيبي غاب، وقلبي داب، بقى له زمان مابعتش جواب»!

مضت ساعة ولم تفعل العوالم شيئًا غير إصلاح الآلات وتدخين السجاير وشرب القهوة وتجرع الشربات والثرثرة والانتقاد، ولعل أهم ما فعلنه إضجار السميعة وفراغ صبرهم، وهذا في الواقع جزء من الفن عند أهل تلك المهنة، بل لعله الفن الوحيد الذي تتقنه عوالم مصر، فن الإضجار أو فن حمل السميعة على الانتظار لكن أحدًا لم ينفد صبره مثلما نفد صبر الصغير «محسن»!

هذا المبتدئ في الفن لم يدرك بعد لماذا يتعمد التخت ذلك التباطؤ والتمهل الممل، ودفعته حمى الحماسة وأراد التخت على الغناء في الحال، وسأل «الأوسطى»، في سذاجة وقوة: ليه ساكتين ... إمتى حانغني بقا؟ ... الناس عايزانا نغني من زمان.

فنظرت إليه «شخلع» نظرة رثاء وشفقة، كمن ينظر إلى طفل صغير أو إلى جاهل غر بسيط، ثم انحنت عليه وهمست في لهجة من يفضي بسره: أهو ده كارنا يا عبيط، آدي سر الكار كله، كل ما تتقل على السميعة كل ما يقعوا في دباديبك، فهمت يا بني؟

وأردفت «حفيظة» الطبالة، وهي تدلك جلد الطبلة بكفها لتشده: صدق من قال: التقل صنعة!

فوافقت «شخلع»: أهو كده.

ثم مدت إلى «حفيظة» فمها بالسيجارة كي تشعلها لها.

عندما آنست «شخلع» أن قد حانت اللحظة التي يجب فيها الغناء حسبما يقضي به الفن، وعندما أعطت الأمر بحمل الآلات. كان الأوان قد فات ودخل أهل الفرح يعلنون افتتاح البوفيه، فأشارت «الأوسطى» بترك الآلات، وهي تقول للتخت، مبتسمة: بركة يا جامع ... جت منك ما جت مني.

وجاءت أم العروس تدعو «شخلع» وحدها إلى البوفيه، وتعتذر لضيقه عن أن يسع بقية أفراد التخت، واقترحت أن يأكل أفراد التخت في أماكنهن وقالت: إن صينية كبيرة عليها مختلف الألوان — كما في البوفيه وأحسن — ستقدم لهن وهن جالسات في ركنهن

هادئات، بعيدات عن الجلبة وعن كل ما قد يخجلهن في الأكل. ووافقتها «الأوسطى» على تلك الفكرة، لكنها سألتها إذا كان ممكنًا اصطحاب الصغير «محسن» معها إلى البوفيه، فأجابت أم العروس على الفور وهي تحاول تقبيل «محسن»: غير أن «محسن» رفض أيضًا هذه المرة أن يترك زميلاته، وصاح أمام إلحاح «شخلع» قائلًا: لأ ... مش عايز، وأنا ما لي ... هه.

وذكرت «شخلع» ما قالت لوالدة «محسن» ووعْدها بأن تحافظ عليه وتضعه بين عينيها، فألحت في مرافقته لها، وقالت له في شيء من الجد والغضب: تعالى معايا بقول لك.

ثم همست في أذنه برقة: البوفيه أحسن؛ حاتاكل هناك حاجات حلوة.

فأجاب «محسن» في عناد وهو يتشبث بذراع الكرسي كي لا يغادر المكان: مش عايز آكل حاجات أحسن ... عايز آكل هنا ... مع التخت.

وظهرت في تلك اللحظة خادمتان تحملان صينية كبيرة وضعتاها على الأرض بين العوالم، وكان يُرى عليها طبق كبير ملآن بالكسكسي وديك رومي محمر، وألوان من الخضر مختلفة، ومن اللحم والكباب والكفتة، وأصناف الحلوى، والفطائر، والفاكهة.

ولم ينتظر «محسن»؛ بل انحشر في الحال وسط زميلاته غير حافل بأحد، وترددت «شخلع» قليلًا فيما ينبغي لها أن تصنع.

لكنها ما لبثت هي أيضًا أن انتهت إلى عزم، والتفتت إلى أم العروس واعتذرت لها عن البوفيه، ثم جلست على الأرض بجانب «محسن» تأكل مثله مع التخت.

وشمَّت «سلم» العمياء رائحة الديك المحمر، فسألت زميلاتها أن يطمئنَّها؛ إذا كان ما شمت هو ديك حقيقة؟

وبدأت العوالم بالكسكسي، وعندئذٍ تبين أن الخادمتين قد نسيتا الملاعق، ومدت «سلم» الضريرة يدها في الهواء، وهي تقول: فين المعلقة يا اخواتي؟

فأجاب الصغير «محسن» وهو يأكل بشهية ولذة: مفيش غير شوك، تاخدي شوكة؟

فقالت العمياء في تشكك: شوكة؟ وانت بتاكل الكسكسي بإيه يا ادلعدي؟

فقال «محسن» على الفور مبتسمًا: بالشوكة؟ كلنا بناكل كده ... كلي انتي كمان زينا!

فقالت «سلم» في حدة: الكسكسي بالشوكة؟ ... يا حلاوة، بلاش هزار والنبي يا «محسن»، هات المعلقة بلاش عطلة، ينوبك ثواب ... إخص عليك، دا مش وقت هزار، ناولني المعلقة بالعجل اعمل معروف.

فتدخلت «شخلع» وقالت ببعض جفاء مصطنع: مفيش معالق، بيقول لك خدي شوكة وتسممي وانتي ساكتة.

فمدت «سلم» يدها فاستلمت شوكة، وزمجرت: برده شوكة؟ ... هي يا اخواتي البتاعة دي تنفع في الكسكسي.

وغرست الشوكة غرسًا عموديًّا في طبق الكسكسي كما لو غرست في قطعة من اللحم، فلم يعْلَق بها طبعًا حبة واحدة، ورفعتها إلى فمها فلم تجد ذرَّة كسكسي وصلت إليه.

فقهقهت زميلاتها ضاحكات، وضحك الصغير «محسن» بالأخص ضحكًا صبيانيًّا صافيًا وقال: شوفوا ... مش عارفة تأكل الكسكسي بالشوكة!

ثم أراد أن يعلِّمها كيف تضع الشوكة، مستقيمة لا عمودية، وتجرف بها وتغرف بدل أن تغرس وتغرز، ولكن زميلاته الأخريات أشرن إليه خُفية أن يمتنع، وقالت «نجية» بصوت عالٍ وهي تغمزه بطرف عينها: سيبها ... ما هي بتاكل كويس هي ناقصة؟!

ثم همست في أذنه: إن فضلت على كده والله ما هي واكلة عشر حبات في ليلها. سيبها والنبي يا «محسن» أما نشوف حاتعمل إيه؟ ... أهو تسالي، أما نضحك عليها شوية.

فوافقها «محسن» بادئ الأمر وهو يكتم ضحكه الصبياني بيده، غير أنه عاد فتأمل قليلًا، ثم قال في بساطة وسذاجة: يعني بقى مش رايحة تاكل؟ مش رايحة تاكل معانا «سلم»؟ حرام، لازم تاكل معانا ... شوفي يا «سلم».

ثم أخذ يعلمها أكل الكسكسي بالشوكة، حتى استطاعت أن تاكل مثل الجميع.

وكانت «شخلع» تلاحظ كل ذلك في صمت وانتباه، فقالت في تأثر كأنما تخاطب نفسها: ياما انت قلبك طيب يا «محسن».

عند منتصف الليل كان الفرح قد بلغ غايته من السرور والضجيج. وكان التخت قد غنى بضعة أدوار وطقاطيق، يفصل أحدها عن الآخر فترات استراحة طويلة.

وكانت السميعة من المدعوات المتحمسات، يحطن بالتخت؛ كما يحيط الهلال بالنجمة فوق العلم المصري، وكن يسمعن كما لو أنهن جميعًا فرد واحد يسمع، لا لأنهن مطرقات في صمت وسكون، على العكس، صراخ إعجابهن واستحسانهن وحماسهن، كان يعلو على الغناء، بل لأن على وجوههن يرى الرائي معنى واحدًا، معنى ذلك الفرح المعربد ... معنى واحدًا من أثر الموسيقى فيهن ... لم تكن بين المدعوات واحدة فقط انعزلت ناحية؛ لتستخلص من الموسيقى معنًى آخر، أو عاطفة أخرى، غير تلك التي كانت تملأ الباقيات،

أصبحن كلهن شخصًا واحدًا أمام الموسيقى؛ وكأن الموسيقى كذلك معبود يستطيع أن يرجع الخلق إلى رجل واحد!

ما جاوزت الساعة منتصف الليل بقليل، حتى جاء بعضهم يهمس في أذن الأوسطى «شخلع» بضع كلمات نقلتها هي الأخرى في الحال إلى أفراد التخت بصوت خافت، وعندئذٍ اعتدلن في جلستهن، واتخذت وجوههن هيئة الجد والخطورة، ورفعن في أيديهن الآلات في نشاط وتحمس، كما يرفع الجنود أسلحتهم، وقد تلقوا الأمر بالهجوم، وفجأة ارتفعت في أنحاء البيت الزغاريد حادة مستطيلة؛ كأنها صفير ذهبية في النيل. وظهرت العروس وقد خرجت من تحت يد «الماشطة» في ثوبها الأبيض الحريري، وعلى رأسها «الدواق» يتبعها أهلها وأقاربها ونساء المنزل، والماشطة على يسارها ترش الملح في كل جهة وتصيح: العاشق للنبي يصلي عليه!

وسارت العروس تتهادى حتى وصلت إلى مقعدها في «الكوشة» وجلست، وقعدت الماشطة على مقربة منها، وبسطت يدها بمنديلها تستقبل النقطة من المعازيم، بينما كان التخت يغني في جلبة تملأ المكان.

وما كادت العروس تستقر حتى ظهر من يعلن قدوم العريس، وبدا العريس بالباب يتقدم في خجل بعد أن ابتسم لمشيعيه من الرجال الواقفين بباب الحريم، يتطلعون هم كذلك لرؤية العروس، دون أن يشغلهم ذلك عن النظر إلى الجميلات من المدعوات والابتسام لهن … وشق العريس طريقه بين السيدات اللاتي كدن يفترسنه بأعينهن، ويتهامسن عن رأيهن فيه، حتى وصل إلى «الكوشة» فوقف مترددًا، ثم تجلَّد ورفع بيمينه القناع الأبيض الحريري المتصل بالدواق، والذي يخفي وجه العروس.

وهنا اشرأبت الأعناق، ووقف الحاضرون على قدم وساق، ينظرون في صمت رهيب، ويكادون يحبسون الأنفاس؛ كأنما هم ينتظرون حكمًا لا يقبل النقض والإبرام، حتى التخت وهو يغني ويضرب على الآلات في حماسة وقوة، لم يفت أفراده أن يسددوا عيونهن في انتباه شديد إلى وجه العريس.

وانتابت العريس بغتة ودهشة خفيفة عندما كشف القناع لكنه عاد فابتسم وانحنى على يد العروس، ورفعها إلى فمه ولثمها، ثم صعد إلى «الكوشة» وجلس بجانبها.

عند ذاك ارتفعت أصوات الفرح والتهليل من كل جانب، وعلت الزغاريد تصم الآذان، وغناء العوالم اشتد فزاد الجلبة والضجيج.

وفجأة سُمع صوت الصاجات يرن في المكان، وبدت «شخلع» نصف عارية في ثوب الرقص الذهبي المضيء، وتقدمت حتى بلغت منتصف الصالة، وهي ترقص بجسدها اللين الرشيق، ووسطها يلعب؛ كأنه قُدَّ من الملبن، والصاجات تدوي بين أصابعها المطلية بالحناء.

وسكنت الصالة، وخفَت ضجيج المدعوات وحملق الجميع بعيون مسحورة معجبة، يتبعون بأنظارهم حركات ذلك الجسم البديع، وغمزات ذلك البطن الرقيق، والنهدين كأنهما الثمر الناضج. كل هذا يهتز في روي جميل، متفق مع نغم الطبلة والرق.

غير أن بين تلك العيون المنبهرة، كانت عينا «محسن» أشدها انبهارًا وعجبًا في سذاجة غريبة؛ لا لأنه يراها ترقص لأول مرة؛ فقد رآها ترقص مرارًا، لكنها في تلك الليلة — وهي مرمى كل تلك الأنظار التي تأكلها إعجابًا — أحس «محسن» أولًا شيئًا من الزهو والفخر، إذ يعرفها ويعيش بجانبها، إنه من التخت، من تختها، ثم شعر بعدئذٍ بإحساسات أخرى مبهمة، وقبل أن تنتهي «شخلع» من رقصتها؛ أخذ أهل الفرح، ثم الأقارب فالمدعوات يقتربن منها ويلصقن على جبينها — كل بدورها — عملة من النقود الذهبية: جنيه أو بنتو، كما تلصق طوابع البوسطة على وجه المظروف!

وما تكاد تنوء جبهتها بالذهب، حتى تمسحها بمنديلها كما تقول، كي تلصق ثانية وثالثة.

هذا عدا النقطة الأخرى بنقود من غير الذهب يمنحها من لا ذهب له ... وعدا «البدرة» التي كان أهل العريس يرشونها رشًّا فيتهافت عليها العوالم يجمعنها من الأرض، وكذا الخدم والحاشية والأتباع.

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل بعد شيء كثير من الغناء والرقص، أبدى العروسان رغبتهما في مغادرة المكان إلى غرفة الدخلة، ونهضا ونزلا درجات «الكوشة» ببطء، وذراع أحدهما تحت إبط الآخر، يتبعهما الأهل والأقارب والحاشية، ونهضت «الأوسطى شخلع» ومعها العوالم جميعًا، رافعات الآلات في أيديهن يتبعهن المدعوات، وسارت «الزفة» وسط التهليل والزغاريد حتى بلغ العروسان باب حجرتهما، ودخلا وأغلق عليهما الباب، فارتفعت في المنزل آخر زغرودة. ثم انفك عقد الحضور، وحل الهرج والمرج والفوضى، وذهب الجميع في غير ترتيب إلى أهل الفرح، يباركون ويقولون: «عقبى للبكاري».

وهكذا انتهى العرس ... وقد انهال أصحابه والمدعوات على «الأوسطى شخلع» يرزحنها تحت ألفاظ المديح وعبارات الإعجاب والإطراء، لما نالته من فوز واستحسان في تلك الليلة الباهرة.

وثملت «شخلع» بذلك الظفر، وأخذت تفرق المدعوات في لطف، وتشق طريقها بين الزحام وهي تدندن مسرورة، حتى وصلت إلى مكان التخت، وأرادت أن تستعد للانصراف، غير أنها تذكرت «محسن» فدقت على صدرها في قلق وخوف.

– يا ندامتي، يا حوستي، فين «محسن» يا اولاد؟

والواقع أن الجميع نسوا المسكين «محسن» الصغير، وشغلوا عنه بزفة العروس والعريس، ولم ينتبه أحد إلى أن الساعة قد جاوزت الثانية صباحًا، وأن الطفل لا يستطيع الاستمرار على مقاومة النوم إلى ما شاء الله.

وبحثت «شخلع» بعيون قلقة والهة، حتى وجدته أخيرًا ملقًى على الأرض، ونصفه مختفٍ تحت الكرسي وهو يغط في نومه، فأخذته في الحال بسرعة وقوة بين ذراعيها، وغطت وجهه بقبلاتها، ففتح عينيه.

وما إن رآها وتبيَّنها حتى ذهب عنه النوم فجأة، وارتجفت أهدابه واحمرت وجنتاه، واضطرب قليلًا، لا يدري لماذا؟ ثم تخلص بسرعة من أحضانها وجرى.

إن مر السنوات لن يمحو أبدًا من ذاكرته تلك اللحظة الحلوة السعيدة التي فتح فيها عينيه ليرى نفسه بين ذراعيها يتلقى قبلاتها.

ولما شاءت الظروف بعدئذٍ أن تتزوج «شخلع» من «الحاج أحمد المطيب»، أحس «محسن» كآبة وخيبة آمال، وشبه سراب يزول، وشيئًا كالقنوط يحل في أعماق نفسه دون أن يدرك لذلك أسبابًا.

الفصل العاشر

مر الوقت دون أن يشعرا به.

وما كانا يغنيان، وما كانت هي تضرب على «البيانو»، بل كان الاثنان صامتين مطرقين؛ وكأنما يشغل باليهما في تلك اللحظة … وكانت على وجه «سنية» ملامح الجد والاهتمام، وكانت تنتاب «محسن» عوامل مختلفة من التردد والخوف!

لم يكن السبب في كل هذا تلك القصة التي سردها «محسن» عن أيام طفولته، فإن تلك القصة، وإن سرَّت «سنية» حقيقة، فهي لا يمكن أن تكون سببًا في شغل بالها هذا واهتمامها!

السبب أن «محسن» بعد أن فرغ من حديثه عن أيامه الأولى تشجع وأخبرها في غير مناسبة وباندفاع عن أمر منديلها الحريري، قائلًا لها إنه لم يضِع ولم يحمله الهواء بعيدًا، وإنه موجود، وفي حوزة إنسان، يحمله دائمًا ويحافظ عليه ويعتز به، وكتم عنها اسم ذلك الإنسان، وعلى الرغم من إلحاحها الشديد ظل ساكنًا لا يجيب وهو بين التردد والخوف، ويئست هي منه فأخذت تفكر فيمن يمكن أن يحتفظ بمنديلها، وبين آنٍ وآنٍ تنظر إلى «محسن» نظرة رجاء، وقد وقعت في حيرة، وهو الذي أوقعها وتركها فريسةً لحب الاستطلاع، وأخيرًا رفعت رأسها في قوة، وقد أعياها الأمر، وصاحت به: مش عايز تقول لي منديلي مع مين؟

ولطفت من حدتها قليلًا، وأردفت في لهجة تأنيب ساحرة: ليه مش عايز تقول لي؟ إخص عليك؟

فلم يُجِب «محسن».

فاستطردت: إنت تعرفه طبعًا؟

فارتجف الفتى، وقال على الفور في لعثمة: مين هو؟

لكنها لم تلاحظ اضطرابه، وقالت وهي تفكر: إنت قلت لي دلوقت مش ضروري يكون المنديل وقع على سطحكم!

فهدأ «محسن» وابتسم لأنه ضللها، وقال في تخابث: أيوه، مش ضروري.

فقالت؛ وكأنما تخاطب نفسها: طيب، يكون بقا وقع على سطح مين؟

وفي الحال برق في رأسها خاطر، فنهضت بسرعة، واتجهت إلى الشرفة، ونظرت منها، ثم همست لنفسها وقد تفرَّست في قهوة «الحاج شحاتة» أمامها: يجوز … مستحيل … ليه؟ … لأ!

ثم أدارت نظرها إلى المنزل المجاور، ولكن إلى الدور الأسفل وهمست لنفسها: الدور اللي تحتهم له بلكون.

وتبعها «محسن» بنظره، دون أن يفهم معنى حركتها هذه، وقيامها إلى الشرفة، غير أنه أحس شعورًا كالانقباض.

وفي تلك اللحظة ظهرت «زنوبة» بباب الحجرة.

وينبغي أن تكون قد ذهبت حقيقة إلى الخياطة، أو أنها ذهبت إلى أي جهة أخرى بعيدة؛ كي تقضي كل هذا الوقت الذي مر من ساعة خروجها، وينبغي كذلك أن تكون قد أخفقت في خطتها التي اعتزمتها؛ لأن «مصطفى بك» وما زال جالسًا بقهوة «الحاج شحاتة»، ولم يغادرها قيد أنملة.

لمحت «زنوبة» وهي بالعتبة «سنية» تطل من نافذة الشرفة، فلم تتمالك أن صاحت بها منتهرة في لهجة غريزية شاذة خشنة: بتعملي إيه عندك في الشباك؟

فالتفتت «سنية» دهشة مبغوتة، ورأت «زنوبة» بعتبة الحجرة، فقالت كالمأخوذة: إنتي يا أبلا رجعتي؟

وتمالكت «زنوبة» نفسها، وفطنت إلى تلك الخشونة التي بدرت منها، فمشت وقالت بصوت هادئ، وهي تخلع إزارها، وتضعه على مقعد: خلاص درس «البيانو»؟

فأجابت «سنية» وهي تعود من الشرفة، وتجلس على كرسي: كسلنا عن الدرس النهارده، الوقت راح كله في الكلام، وانتي يا أبلا، رحتي فين؟

فارتبكت «زنوبة» قليلًا، ولكنها أجابت في الحال باختصار كمن يتحاشى الموضوع: الخياطة.

– طول الوقت؟

– آه …!

إلا أن «زنوبة» ذكرت في الحال تلك النصف الساعة التي طرحتها من الحساب، نصف ساعة ملعونة قضتها في «شارع سلامة» ذهابًا وإيابًا أمام القهوة، ومع ذلك فإن هذا الأحمق الأعمى لم يبدُ عليه أنه لاحظها.

صمت الكل لحظة، وأخيرًا التفتت «سنية» إلى «محسن» وقالت في رقة: واقف بعيد كده ليه يا «محسن بك»؟

وكان «محسن» متكئًا على طرف البيانو، لم يتحرك منذ ذلك الحوار بينه وبين «سنية»، وكان لا يفتر يفكر ويسأل نفسه عما تراها فهمته من كل حكاية المنديل هذه، وعما جناه هو أو استفاده من إخبارها به؟ وما هو الأثر أو النتيجة لكل ذلك عندها؟ … ثم حركتها الأخيرة وقيامها للشرفة … ما معناه؟ إن هناك أشياء مغلقة عليه، وقد بدأ يحس الخوف من غموضها هذا.

ودخلت عندئذٍ الخادمة السوداء تخبر بقدوم «مبروك»، وما كادت تلفظ اسمه، حتى كان حاضرًا أمامهم في الصالون بقفطانه الرسمي.

فحدجته «زنوبة» بنظرة استهزاء، وقالت: وانت بسلامتك جاي تعمل إيه هنا؟

فانخذل «مبروك» قليلًا، بعد أن كان داخلًا منفوشًا، وتنحنح، ثم أجاب في لهجة خطيرة: جاي علشان أقول لكم!

فقالت له «زنوبة» في تهكم لاذع: تقول لنا إيه يا ادلعدي؟

فسكت «مبروك» قليلًا، وقد أحس الخجل، ونظر إلى «سنية» في مسكنة، ثم نظر إلى الأرض، ثم أخذ ينظر حوله في حيرة كالبله.

وجعلت «زنوبة» تتأمل حركاته لحظة، ثم قالت فجأة: يا باي، ياختي ما له عامل زي الأهبل في الزفة؟! … ما تنطق!

فاعتدل «حنفي» في الحال، والتفت إليها وتنحنح، ثم قال: جاي علشان أقول لكم.

فلم تتمالك «زنوبة» وصاحت: ياختي … سمعنا دي ألف مرة.

فتجلد «مبروك»، وقال محتجًّا: مش تصبري عليَّ لما أقول؟

فقالت «زنوبة» في تهكمها: طب قول يا ادلعدي الخبر المهم … قول.

فسكت «مبروك» لحظة … ونظر إلى «سنية»، ثم إلى «زنوبة»، ثم تنحنح وقال بلهجة من يعلن أمرًا ذا خطورة: العشا.

فرنَّت عندئذٍ ضحكة سخرية من «زنوبة»، تصبب لها جسد الخادم عرقًا باردًا، وقالت في برود: هو ده الخبر؟ … يا دهوتي على كده؟ … بقا حضرتك جاي لابس قفطان الطلعة ومتهيأ أربعة وعشرين قيراط علشان تقول لنا الكلمة اللي لا طلعت ولا نزلت؟

وأرادت «سنية» الضحك، غير أنها رأت «مبروك» قد ارتبك، وصار في موقف الحرج، فلم تشأ أن تزيد إحراجه، أو أن تخجله أكثر من ذلك، بل إنها أرادت عندئذٍ أن تسري عنه، وتخلصه مما هو فيه فقالت مجاملة: والله «مبروك» في قفطانه، كأنه عمدة تمام.

فتقدم «مبروك» الخادم خطوة نحو «سنية» وتنحنح في كمه الواسع، ثم قال في جد: تصدقي بالله يا ست «سنية هانم» أنا كنت في زماني عمدة.

فلم يتمالك «محسن» من الضحك، برغم ما هو فيه.

ورفعت «زنوبة» رأسها، وألقت على «مبروك» نظرة سخرية، وقالت: في زمانك امتي يا نور عينى؟

فغمزها «مبروك» بطرف عينه متوسلًا إليها أن تسكت ... ولكنها لم تسكت ... لعله انتقام منه ... واستطردت: إنت في زمانك كنت فلاح في الدوار، تنام وتقوم مع الجحش والعجلة والجاموسة، واحنا اللي جبناك البندر وهيأناك ومدِّناك، وعلمناك سكن البيوت، وبقيت بني آدم.

فوقع «مبروك» في إفلاس، وبدت عليه هيئة أضحكت منه الجميع. غير أن «سنية» بعد أن ضحكت، عاودتها في الحال الرأفة به، فقالت في حلاوة ساحرة: لا يا أبلا، ماتقوليش كده، والله «مبروك» يشبه تمام العمدة اللي في بلد بابا، بس عمدة بلدنا على عينيه نضارة.

فأحس «مبروك» بعودة اعتباره إليه بعد هذه الكلمات، فالتفت إلى «سنية» وقال: طب و«سيدنا الحسين» أنا عندي بلا قافية نضارة.

فضحك الجميع، وقالت «زنوبة» في الحال في لهجة لاذعة: نضارة! ... اسم الله ... تعمل بها إيه؟! لو كنت تعرف تقرا وتكتب كنا قلنا تقرا بها الجرانيل، دا انت حتى عليك عينين تندب فيها رصاصة.

فلم يجبها «مبروك» بل نظر إلى «سنية» وقال: يا ست «سنية هانم»، صدقيني أنا، وحياة دقن النبي أنا كنت عمدة بنضارة.

حتى «سنية» في هذه المرة لم تستطع كتم ضحكها، فانفجرت، واقترب «محسن» من «مبروك»، وقال له: يا مغفل ... عمدة من غير نضارة أحسن، ما دام عينيه سليمة من الأصل.

ولكن كان عبثًا إدخال ذلك في رأس «مبروك».

بل إن «مبروك» لم يشأ قطعيًّا أن يصغي إلى هذا الكلام، والتفت إلى «سنية» وأشار لها بيده إشارة معناها: «ماتصدقيش إلا كلامي أنا».

الفصل الحادي عشر

كان اليوم التالي يوم جمعة … نهار راحة وسعة … و«حنفي أفندي» ورفاقه «أفراد الشعب» بالمنزل طول ذلك اليوم، في انتظار أكلة مهمة؛ كما هي العادة في هذا اليوم المفتوح؛ لذلك ما كاد «الرئيس حنفي» يسمع صوت المؤذن يدعو لصلاة الجمعة «حي على الفلاح»، فوق مئذنة مسجد السيدة زينب، حتى وضع كفه على معدته وصاح مظهرًا الجوع. ولم يمضِ قليل حتى حذا «سليم» اليوزباشي حذوه، ثم «محسن».

بقي «عبده» وحده لا يريد — في عناد — الاعتراف بالجوع … بل إنه جعل يقاوم رفاقه ويهديهم باللين، ويحضهم على التمسك بأهداب الصبر، خاطبًا فيهم؛ كأنه خطيب الجمعة، أن يتحلوا بالقناعة إذا أرادوا أن يبقوا أحياء يرزقون حتى آخر الشهر!

وسكت «الشعب» قليلًا، وظل «حنفي أفندي»، يسير في المسكن داخلًا في حجرة خارجًا من أخرى، يسلي جوعه، وأخيرًا قال فجأة: فين «مبروك» يا جماعة؟

فأجاب «عبده» في ثقة واطمئنان: في المطبخ.

ثم أردف قائلًا للرفاق: ربما رايحين ناكل النهارده عدس بجبته.

فقال «حنفي» وهو يدلك بطنه ويتأوه: بجبته وقفطانه؟

فأجاب «عبده» على الفور في شيء من الحدة: أيوه يا سيدي، بقفطانه وجبته وعمته، أمال عايز إيه حضرتك؟ أظن ناوي تعشم نفسك في ديك رومي محمر، في أيام زي دي؟

فأسرع «اليوزباشي سليم»، وقال وهو يضع يده كذلك على معدته: هس … ممنوع كلمة ديك رومي دلوقت، خطر، اسحبها. تف من فمك الديك الرومي!

وسكتوا قليلًا مرة أخرى، ثم عاد «حنفي» فضحك ساخرًا، وقال: والله مش باين لنا أكل النهارده.

وأردف «سليم» قائلًا: صحيح، أنا مش سامع صوت طبق ولا حلة ولا هون، ولا ريحة طالعة.

فقال «عبده» في غضب: قلت لكم عدس.

فأجاب الرئيس «حنفي»: والله المطبخ لا فيه عدس ولا ديك ولا «مبروك»!

فقال «عبده» في قلق: إزاي؟! … «مبروك»، مش في المطبخ؟

وفي الحال نهض الجميع في غير نظام ولا ترتيب وكبسوا المطبخ، ودهش الجميع إذ لم يجدوا أحدًا قط … وبحثوا بعدئذٍ في كل الحجرات، وفي حجرة النوم الكبيرة، وتحت أسِرَّتها الخمسة المصفوفة وتحت المائدة والكراسي. فلم يعثروا على رائحة «لمبروك» ولم يروا بالبيت غيرهم وغير «زنوبة» التي في حجرتها، لا تتدخل منذ اعتزلت مقاليد البيت والمطبخ.

وتساءل «سليم» في غيظ: يعني راح فين؟ … دلوقت غدا وساعة جمعة؟

فحك «عبده» رأسه بيده، وقال وهو يفكر: يمكن راح يصلي الجمعة.

فقال «سليم» في غيظ: ما شاء الله! … يصلي الجمعة واحنا ناكل بعضنا هنا، المغفل ده يصلي قبل ما يطبخ؟ … ونبقى نتغدى بصلاته؟

فقال «حنفي»، في تهكم: يمكن راح يدعي لنا المولى سبحانه وتعالى يحدف علينا صحنين طبيخ.

ولكن «عبده» صاح فجأة، كمن وجد شيئًا: هس! … اسمعوا … فهمت خلاص … أنا عارف «مبروك» راح فين … بقا هو ربما وجد الطبيخ يكلف مصاريف، طبعًا الطبيخ يكلف مصاريف، دا شيء بديهي؛ مثلا يشتري كبريت بإيه … و.

فقال «حنفي»، متهكمًا: بقى يعني هي علبة الكبريت أم مليم اللي عطلت الدنيا؟

فأسكته «عبده» بإشارة عنيفة واستطرد: قصدي الطبيخ غالي والسلام … دا شيء بديهي، ولذلك «مبروك» شخص ذكي يفهم … لاحظ كده، ونوى النهارده مثلًا يغدينا أكلة فسيخ، إيه رأيكم في الفسيخ! مش فكرة مدهشة؟

فقال «حنفي» مستفهمًا: دا استنتاجك انت بصفتك باشمهندس … والا.

وأردف «سليم» متممًا: والا أكيد راح يشتري.

ولم يختم عبارته لأن باب الفسحة فتح في تلك اللحظة، وظهر «مبروك» … فالتفت إليه الجميع بسرعة واستقبلوه قافزين؛ كمن يستقبل رسولًا من السماء.

غير أنهم لم يلبثوا أن لفظوا جميعًا صيحة واحدة: «مبروك» خالي الوفاض، بادي الأنقاض، لا يحمل لا عدس ولا فسيخ … شيء واحد فقط يحمله «مبروك»: نضارة جديدة «لنج» يضعها على عينيه.

وقف «مبروك» لحظة في مكانه ينظر إلى «الشعب» المأخوذ من خلال منظاره الجديد، ثم فجأة تقدم إلى «عبده» وبسط يده إليه بمبلغ ٤٥ قرشًا صاغًا وقال: أنا فكيت الجنيه اللي سلمته لي إمبارح، وآدي الباقي … خدوا فلوسكم بقا … أنا رفعت إيدي من الشغلة دي … المسألة مش نافعة يظهر من هنا لآخر الشهر … لكم رب اسمه الكريم.

بهت «عبده» وفتح فاه، ولم يجب بحرف، وجعل ينظر طويلًا إليه. ثم التفت إلى رفاقه، ثم عاد فالتفت إلى «مبروك»، وقال أخيرًا وهو ينظر إلى المبلغ الباقي من الجنيه: إيه الكلام اللي بتقوله ده؟

«محسن» وحده هو الذي فهم الموقف وتذوقه، فنظر إلى نظارة مبروك الجديدة وابتسم، ثم همس له: دلوقت «عمدة بنضارة»!

ظل «عبده» في دهشة، وهو يسدد عينيه تارة إلى النقود القليلة، وتارة أخرى إلى «مبروك»، حتى نبهه «سليم» بغمزة من ذراعه، وضرب بيده على كتفه قائلًا في تهكم: ما العن من ستي الا سيدي! … آدي حكومتك وميزانيتنا!

فهز «مبروك» كتفيه لهما، وقال في استخفاف: أنا لا كان ابويا حكومة، ولا أمي حكومة؛ ولا قلت لكم اعملوني حكومة، آدي فلوسكم. واعتقوني وابروا ذمتي، كرامة «لام هاشم».

الفصل الثاني عشر

لبث «عبده» يرمق «مبروك» بين الحنق والغضب لحظة أخرى بعد أن خاب أمله فيه … وأخيرًا صاح: الغلطة غلطتي، انغشيت، كنت فاكر انه بني آدم! … لكن صحيح طول عمر الخدام خدام.

ولم يكن «مبروك» الخادم يصغي إلى كلمة واحدة مما يقول «عبده»، فقد انتحى ناحيةً وأخذ يشتغل بتنظيف منظاره الجديد بورقة سيجارة شفافة كما يفعل «حنفي أفندي».

واستطرد «عبده» يقول دون أن ينظر إلى «مبروك»: على رأي المثل العامي: أصابع الإنسان مش زي بعضها. كان يجب أن أفهم كده من الأول … لو كان الطبايع والعقول من نوع واحد ماكانتش الدنيا بقت دنيا.

وأراد أن يستمر في هذا الكلام، لكن «سليم» ضرب كتفه ضربًا خفيفًا، موجهًا نظره إلى «مبروك» المنهمك في شأنه، المشغول بمنظاره، وقال له: وفر على دماغك دي الفلسفة، صاحبنا في دنيا غير الدنيا … واللي كان كان.

فالتفت «عبده» إلى ناحية «مبروك» ورآه، فهاج ثائره ونهض مستشيطًا وصاح: وكمان قاعد تلمع النضارة؟ … امشِ انجر من قدامي … إلا يكون يومك زي القطران النهارده.

فنهض «مبروك» واتجه نحو الباب، وهو يقول في هدوء: حقًّا بلا قافية صدقت! … النهارده الجمعة فيها ساعة نحس.

فصاح به «عبده»: بقول لك امشِ اخرج … مش عايز اشوف خلقتك.

فوضع «مبروك» منظاره على عينيه، ونظر بهما إلى «عبده» وقال: طيب ومن غير مؤاخذة تزعل ليه وتغير دمك؟ … الزعل ممنوع، والشكل مرفوع.

ثم خرج تشيعه نظرات «عبده» النارية، وكانت لحظة صمت قطعها أخيرًا «سليم» قائلًا: والعمل دلوقت؟!

غير أن «عبده» لم يجبه؛ كأنما لم يسمع، أو كأنما لا يدري ماذا يجيب، أو لعله مشتغل عنه بالتفكير في الخروج من تلك الورطة.

رأى «عبده» في لحظة أن التجربة لم تنجح وأن «زنوبة» لا محالة هازئة بهم متشفية فيهم، شاعرة بفوزها عليهم، ومع ذلك فها هو ذا «عبده» يرى أن لا بد من الرجوع إليها، ونارها ولا جنة «مبروك» اللعين، غير أن ما كان يشغل بال «عبده» كيف يعود إلى «زنوبة» صاغرًا ... وكيف ينزل عن كبريائه فيخبرها بخيبة أمله وبالركون إليها، كي تسوي الأمور كما ترى حتى آخر الشهر؟

وكأن الله شاء ألا يهين كبرياء «عبده» والله يهيئ أحيانًا لكلٍّ ظروفًا تماشي خلقه؛ فقد ظهرت «زنوبة» فجأة بالباب وتقدمت في تردد، وعلا وجهها علائم الجد، كأنما تريد الإخبار بأمر هام.

فرفع «عبده» رأسه إليها ولم يتكلم بحرف، غير أنه لم يعبس في وجهها.

قالت «زنوبة» في الحال وبلهجة سريعة: سلك الكهربا انقطع عند الجيران.

فنظر إليها «عبده» دهشًا مستفسرًا، كمن يسأل عن شأنه في ذلك، فأخبرته «زنوبة» على الفور: أن الجيران «أي بيت الدكتور حلمي»، كانوا يريدون طلب أحد عمال الكهربا لإصلاح السلك الآن، خوف دخول الليل عليهم، لكن اليوم الجمعة ويخشون ألا يجدوا الآن أحدًا من عمال الشركة يمكنه الحضور، فاقترحت «زنوبة» عليهم أن يذهب «عبده» بصفته تقريبًا مهندسًا، فيصلح العطب بمنتهى السرعة، ولا الحاجة إلى عامل الشركة وإحداث ضجة من أجل شيء بسيط.

فما كاد «عبده» يسمع ذلك حتى نهض واقفًا على قدميه كمن مس بسلك، وقد علم أنه سيذهب إلى بيت الجيران، ونظر إلى «زنوبة» بعين الاهتمام، وقد بدا عليه أنه اغتفر لها كل ذنب وسيئة في لحظة.

– أروح دلوقت حالًا؟

– دلوقت والا العصر زي بعضه!

ومشى «عبده» يتلفت إلى كل جهة؛ كمن يبحث عن شيء وهو يقول: فين الشاكوش؟ فين الكماشة؟ فين المسامير؟ فين؟

ولم يُسرَّ «سليم» كثيرًا بهذا الخبر الجديد الذي جاءت به «زنوبة» وأخذ يراقب اهتمام «عبده» وما طرأ عليه من انقلاب، وهو يفتل شاربه متظاهرًا بالهدوء، وفي عينيه

شيء من السخرية والحسد، فما إن رأى «عبده» يعجل البحث عن الأدوات، حتى قال في لهجة تهكم لاذعة: على مهلك ... على مهلك، العجلة من الشيطان.

فنظر إليه «عبده» شزرًا وقال: نقطنا بسكوتك من فضلك.

فأجاب «سليم» ممتعضًا وهو يفتل شاربه: تروح للناس في ساعة غدا؟

فلم يجبه، وعندئذٍ قال «حنفي أفندي» وهو يفرك عينيه بيده ويتأهب باليد الأخرى لوضع منظاره على أنفه: بمناسبة الغدا، عملتم إيه في مسألة غدانا احنا؟

فلم يلتفت إليه «عبده»، والتفت إلى «زنوبة»، وقال: والسلك ده انقطع ازاي؟

فأجابت: كانت البنت «فاطمة» الجارية بتنفض الفسحة النهارده ... قامت المقشة ضربت السلك على الحيط، وقع كله ووقعت مساميره.

ولبث «عبده» يفكر لحظة، وقد بدا له أن الأفضل الذهاب بعد الظهر؛ كي يستعد أيضًا، لا من حيث ما يلزم لإصلاح الكهرباء، بل من حيث ما يلزم لإصلاح هندامه هو وقيافته!

ولم يكن طبعًا من الصعب على «عبده» عندئذٍ أن يشير «لزنوبة» إلى مبلغ الخمسة والأربعين قرشًا الموضوعة على المائدة، ويطلب إليها في غير ذلة ولا رجاء أن تتدبر حتى آخر الشهر ... وكلمها في ذلك بغاية الاختصار، وبلهجة مبتورة قاطعة، حتى لا يدع لها مجالًا لتفتيق ما حصل، فتشعر «زنوبة» برجوعهم إليها صاغرين، ولما رأت «زنوبة» المبلغ، وأرادت أن تلفظ صيحة الدهشة والاستنكار قائلة: يا دهوتي، دا باقي الجنيه؟

– أجابها «عبده» في الحال بشيء من الحدة: مفيش لزوم للكلام الكتير ... تصرفي انتي ... ووفري علينا وجع الدماغ.

فتناولت النقود من فوق المائدة في صمت، وذهبت بها إلى حجرتها، وقد رأت بفكرتها ألا داعي للتفنيد والتفتيق، واكتفت بما شعرت به ضمنًا من خيبتهم والعودة إليها.

ما قاربت الساعة الثانية بعد الظهر، حتى شاهد الجميع «عبده» في حركة غير عادية؛ فقد كان يخرج من حجرة ويدخل أخرى، وحول عنقه الفوطة، وفي ذقنه الصابون؛ وفي يده الموس، وهو يبحث عن «مبروك» أو أحد لينظف له سترته ويزيل بقعها بالبنزين، وسمع «مبروك» ذلك فصاح: إحنا لاقيين ناكل لما نلاقي بنزين؟

غير أن «عبده» انتهره وأمره عابسًا صارخًا أن يساعده على ارتداء ملابسه؛ لأن الوقت حان.

وكان الجميع ينظرون إليه وأغلبهم غير مستظرف ولا مرتاح لاهتمامه وتأنقه، وجلس «سليم» صامتًا؛ وكأنه يحس شيئًا يقبض صدره، وجعل يفتل شاربيه ويختلس النظر إلى «عبده»، وهو أمام المرآة، يلطخ وجهه عقب الحلاقة ببودرة «زنوبة»، التي أحضرتها له من حجرتها بناء على طلبه ... ولم يطق «سليم» صبرًا، فنظر إلى «حنفي»، الذي على الرغم من ظاهره البسيط، كان يتبع هو الآخر حركات «عبده» من خلال منظاره السميك، وغمز «سليم» الرئيس «حنفي» وأشار له إلى «عبده» وقال في سخرية صفراء: تقولش رايح رندفو؟!

فتظاهر «حنفي» بعدم السماع، وظل ينظر إلى «عبده» حتى فرغ من ارتداء ملابسه، ووضع الطربوش على رأسه بعناية وتمهل، جاعلًا الزر فوق الأذن اليمنى. ثم صاح «بمبروك» أن يلف له الشاكوش والكماشة، في جريدة قديمة، بغاية السرعة، ثم خطا خطوات نحو الباب.

فقال له «الرئيس شرف»، عندئذٍ في هزل يشبه الجد، ولكن في لطف: مش لازم لك صبي؟

فأجاب «عبده» في اختصار قاطع: لأ.

فألح «حنفي»: يشيل لك العدة يا معلمي.

– لأ.

وقال «عبده» هذه «اللأ» الثانية بلهجة باتَّة جافة تدل على الضيق، فالتفت «حنفي» إلى «سليم» وقال: لأ ... لأ ... الله الغني.

ذهب «عبده» إلى منزل «الدكتور حلمي» فوجد «زنوبة» بانتظاره على باب الصالة؛ كي تصحبه إلى حيث السلك المقطوع، وما كاد يضع قدمه فيها حتى جعل يختلس النظر يمينًا وشمالًا، غير ملتفت إلى «زنوبة» وهي تشير له إلى مكان الإصلاح المطلوب، وكانت الأبواب المطلة على الردهة كلها مقفلة، ما عدا بابًا واحدًا مقفلًا نصف إقفال وهو الباب المؤدي إلى «صالون البيانو»، ولكن «عبده» لم يستطع رؤية طيف ولا خيال خلفه، وأخيرًا قال بصوت ملأ الصالة كلها: فين السلم؟ مفيش هنا سلم خشب؟

وكان صوته ذا رنة إمرة وخُيلاء، فأسرعت «زنوبة» نحو الباب نصف المقفل ونادت: فاطمة ... يا فاطمة.

ولم تنتظر مجيء الجارية، بل دخلت مسرعة من الباب المؤدي إلى الصالون، تاركة «عبده» وحده في الردهة. يتأمل رءوس الغزلان المعلقة بالحائط، والتمساح المحنط على باب الدخول، وعندئذٍ ارتجف قلب «عبده» فجأة؛ لأنه سمع في الحال صوت «بيانو»

يرتفع بأنغام بديعة، وظل ينصت مبتهجًا مبتسمًا في شيء من النشوة، حتى ظهرت بغتة «فاطمة» الجارية تحمل السلم الخشبي، فالتفت إليها وتناوله وأسنده إلى الحائط، وأخذ يصعد الدرج وهو يصغي تارة، وتارة يسائل نفسه: لماذا ضربت على البيانو الآن؟ أتراها فعلت ذلك لما علمت بوجوده في المنزل؟ أم أنها المصادفة؟ أم هي عادتها أن تضرب في مثل هذا الوقت من كل يوم؟ ... غير أنه أخذ في نفسه يستبعد كلًّا من الفرضين الأخيرين بحجج مختلفة، ويعزز الفرض الأول، وهو أنها لما علمت بوجوده وبمجيئه ... نعم كل الدلائل تدل على ذلك.

وظهرت «زنوبة» تسأل «عبده» عما إذا كان يطلب شيئًا آخر، وترى إذا كان العمل سائرًا على ما يرام ... وفي هذه اللحظة سكت صوت «البيانو» ... ولم يلبث «عبده» المتيقظ أن سمع حفيف ثوب خلف الباب نصف المقفل، وصوتًا ناعمًا يهمس: أبلا ... يا أبلا!

والتفتت «زنوبة» إلى الصوت، واتجهت إليه، غير أنها قبيل أن تصل إلى الباب، قال الصوت بلهجة واضحة مسموعة هذه المرة: نقدم «لعبده بك» قهوة والا شربات؟

فوقفت «زنوبة» والتفتت إلى «عبده» وقالت: «سنية هانم» بتقول لك تشرب قهوة والا شربات؟

وكان «عبده» قد سمع منذ أول مرة، وما كانت هناك حاجة أن تكرر العبارة، ولعلها فعلت ذلك لتتملق «عبده»، غير أن «سنية» ما كادت تسمع «زنوبة» تلفظ اسمها لـ «عبده»، حتى ضحكت أو تضاحكت خلف الباب، وتمتمت في حياء متكلف: كده يا أبلا؟ ... إخص عليك.

وقبل أن يجيب «عبده» قفزت «سنية» مختفية، وقد بدا عن بعد لون فستانها الأخضر الفستقي الخاطف، وقد ملأ عيني «عبده»، فلم يعد يرى إلا اخضرارًا يمر في فكره السارح.

ولم يصحُ «عبده» من بغتته وحلمه إلا على صوت «محسن»، وقد خرج من الباب المؤدي إلى «الصالون»، وهو يسأل «زنوبة» في فتور عما إذا كانت حكاية السلك هذه قد انتهت أم لم تنته بعد؟

فنظر إليه «عبده» في دهشة وتجهم، وقال ببرود وجفاء: الله ... إنت هنا؟! ... بتعمل إيه؟

فأجاب «محسن» باقتضاب وفتور: الدرس.

– درس إيه؟

– درس «البيانو».

ومرت في قلب «عبده» بسرعة البرق، سحابة شابت هذه اللحظة اللذيذة التي سلفت منذ قليل، وتلك الموسيقى والصوت الهامس باسمه يدعوه لشرب القهوة أو الشربات، وأراد أن يجيب «محسن» وقد عبس وجهه، غير أن حفيف الثوب عاد، وبدا اللون الأخضر يخطف البصر خلف الباب ... وصوت ينادي في رقة وعذوبة ودلال: «محسن»! ... رحت فين وسبت الدرس؟

فهمَّ «محسن» بالذهاب إليها وهو يقول: حاضر يا أبلا «سنية»، جاي حالًا.

غير أنه التفت إلى «عبده»، وقال له بصوت مسموع فيه من البرود أو التشفي أو السخرية: صلح السلك كويس ... بس اوعى تتكهرب.

فنظر إليه «عبده» نظرة نارية من أعلى السلم، ولكن «محسن» كان قد اختفى بسرعة عن عينيه، ولم يلبث «عبده» المملوء غيظًا أن سمع البيانو يعود فيضرب نغمة جميلة، تدل على أن ضاربها حاذق بارع، فظل يصغي ولا يزال به بعض غضب، حتى سمع فجأة هذه النغمة الجميلة تتلاشى، ويحل محلها صوت ضرب آخر يدل على ضارب مبتدئ يتخبط، ولم تمضِ لحظة حتى أحس حفيف الثوب، ولمح لونه الأخضر الخاطف يمر بين عارضتي الباب نصف المقفل، فخمد بصر «عبده» المصوب إلى ذلك الباب، وفجأة لم يدرِ عندئذٍ إن كانت يده قد مست سلكًا من الأسلاك الكهربائية التي يصلحها؛ فقد أحس قلبه ينبض نبضة واحدة قوية بسرعة البرق، ذلك أن عينيه قابلتا عينين أخريين سوداوين لم ير أجمل منهما، لهما فعل السحر ثم هف حفيف الثوب مرة أخرى، ومر اللون الأخضر أمام عينيه الساهمتين واختفى.

وعاد «عبده» وقد هدأ إلى نفسه يسائلها في شيء من الابتهاج ونشوة الظفر، لماذا هي تكثر من المرور أمامه؟ وهل هي تفعل ذلك عمدًا؟

وامتلأت عيناه ووجهه حياة، وقلبه أُفعم نشاطًا لم يعهد نظيره من قبل، فأمسك السلم الخشبي بيديه، ووضعه على جزء آخر من الحائط، وأخذ يصعد درجاته في قوة وحماسة؛ كأنه قلب يصعد درج الحب.

الفصل الثالث عشر

عاده عبده، إلى المنزل قبيل المغرب بعد أن تباطأ في مهمته عند الجيران ما استطاع، ومن رآه عند عودته من أهل منزله ورفاقه أخذته الدهشة؛ فقد كان «عبده» ممتلئًا وداعة وخفة روح وانشراحًا إلى حد لم يعهده فيه أصحابه «الشعب» من قبل، وجعل يخرج من غرفة ويدخل أخرى، وهو يداعب «حنفي أفندي» بكلمات لطيفة، ويريد أن يبعد عنه لحظة تلك الكراريس التي كان مشتغلًا بتصحيحها؛ كي ينصرف إليه ويحادثه، غير أنه لم يجد منه إقبالًا كثيرًا.

فاتجه إلى «مبروك» الخادم يمازحه، مذكرًا إياه بمنظاره الجديد الذي اشتراه بمصروف البيت … حتى «سليم» ذو الابتسامة الصفراء، المتظاهر بالانهماك في قراءة إحدى الصحف ما نسي «عبده» أن يخطف منه الصحيفة بغتة؛ وكأنه يود أن يفاتحه بالكلام، غير أن «سليم» نظر إليه نظرة باردة، وأخذ الصحيفة من الأرض وعاد إلى القراءة، وهو يقول كمن يخاطب نفسه: جرى إيه؟ إيه أصل الهوسة دي؟

وسمعه «عبده»: فقال مازحًا، ولكن في شيء من الامتعاض: نعم يا سي «سليم»؟!

– ولا حاجة، بس يعني شايف إنك مظأطط قوي من غير مناسبة.

– بوجودك، لأن النهارده مانزلتش القهوة زي عادتك.

فلم يُجِب «سليم» وأخذ يطالع وهو يحرك شفتيه شأن المهتم بما يقرأ، دون أي شيء آخر، فتركه «عبده» ممتعضًا، والتفت إلى «حنفي»، فألفاه قد عاد إلى كراريسه يصححها، وكأن حمى العمل قد أنسته ما حوله، فشعر ببرود حوله تضايق له، ولم يجد أمامه سوى «مبروك»، فكلمه كلمتين ثم سئم، وتردد لا يدري ما يفعل.

إنه يحس نشاطًا غير عادي في كل جسمه، يدعوه إلى الكلام وإلى الحركة وإلى الحماسة، ولكنه إذ يبتغي ذلك اليوم لا يجد حوله إلا سكونًا … وإن كان «عبده» بطبعه

يكره السكون قيراطًا فهو اليوم يكرهه أربعة وعشرين، ولا يتصور أن يهدأ إلى نفسه ويترك لها عنان الخيال ويبحث عن الوحدة؛ كما بحث عنها «محسن» في ظرف كهذا؛ لذلك مشى «عبده» في البيت لا يدري ما يفعل، وهو يود لو يجد من يصغي له ويثرثر معه.

واتجه أخيرًا إلى غرفة النوم العمومية فوجدها خالية، فأدار ظهره بسرعة يريد الخروج منها، وقد ضاق صدره سأمًا، وأحاط بقلبه الحار المتحمس الهائج غلاف من هذا السكون والوحدة ... وقد تمثلت في تلك الأَسِرَّة المرصوصة أحدها بجانب الآخر في غرفة النوم، فنظر إليها وقد أحس إحساسًا غريبًا لأول مرة.

أحس إحساس «محسن» تمامًا عندما عاد هو الآخر من منزل الجيران للمرة الأولى، أحس الاشمئزاز؛ إذ يعيشون خمسة في غرفة واحدة، غير أن «محسن» لاحظ ذلك، لأنه يطلب الانفراد والوحدة، كي يطلق لخياله العنان، ولكن «عبده» على العكس اشمأز لأنه شعر فجأة أن هذا الاتصال الوثيق بين خمسة يعيشون في حجرة إنما هو اتصال كاذب، وها هو ذا في وقت ما، يحس الوحدة والسأم؛ ولا يجد من يتحدث إليه ويفهم لغته.

واشتد ضيق «عبده»، وإن شخصًا عصبيًّا مثله لا يطيق طويلًا الصبر على حالة واحدة.

وهكذا غادره سريعًا ذلك المظهر الوديع الدمث المنشرح الذي جاء به الساعة، وعادت إلى وجهه تلك الملامح المقطبة العبوس المعهودة!

وما كان ينقصه إلا حجة بسيطة فينفجر «عبده» العصبي هائجًا صاخبًا كعادته.

مضت بضعة أيام على ما تقدم، قضاها «عبده» قلقًا لا يدري ماذا يفعل بعد ذلك، كي يتصل بالجيران، ويخشى أن يكون ما وصل إليه حتى الآن هو كل شيء، ولم يكن «لعبده» برغم رجولته ونشاطه، ذلك النوع من الجرأة والصفاقة، التي بها يأتي عملًا إيجابيًّا ظاهرًا، بغير أن يهتم لكلام الناس!

لذلك لم يستطع أن يفعل أكثر من سؤال «زنوبة» وتكرار السؤال في كل يوم عما إذا كانت الأسلاك الكهربائية تسير سيرًا حسنًا في بيت الجيران، أو أن بها بعض خلل يستدعي الإصلاح، فكانت «زنوبة» تجيب بأنها على ما يرام، فكان «عبده» يلح في شيء من الجفاء العصبي قائلًا لها: وانتي إيش عرفك؟ مش تسأليهم؟

ولاحظ رفاقه منه ذلك الإلحاح، فكان «محسن» يقول في لهجة باردة جافية: الكهربا ماشية كويس قوي.

ولكن «سليم» المغتاظ لم يكن يترك الفرصة تمر، دون أن يتهكم بكلمة أو كلمتين قائلًا: يا سيدي الكهربا ماشية عال العال، لازم تنخرب بالزور؟ يا سيد شوف لك شغلة غير دي.

وتضايق «عبده» أخيرًا، فصرخ في وجهه: وانت ما لك يا بارد؟

فقال «سليم» في لهجة مستنكرة، ولكن هادئة: أنا بارد؟

– ستين بارد.

– شاهدين يا جماعة؟

– ما لك تنحشر في شئوني؟

– الله يسامحك، أنا غلطان.

وسكت، وأخذ «محسن» ينظر إليهما، ولم تكن «زنوبة» موجودة؛ فقد صعدت السطح تنشر الغسيل بمساعدة «مبروك» ولم يكن حاضرًا سوى «حنفي» ... غير أن «رئيس الشرف» كان في سريره ولم يشأ أن يتدخل بكلمة لإصلاح ذات البين، اللهم إلا أنه قال ضاحكًا من تحت اللحاف: ما هو ده كلام طيب، تزعل ليه يا سي «عبده»؟ حيث إن الكهربا راحت عليها، ابحث لك عن شغل تاني، مش تعرف تصلح مثلًا وابور الجاز واللمض ... والشماسي؟

فالتفت إليه «عبده» وقال في ازدراء: نعم! ... وانت كمان حضرتك يا ابو لحاف؟! ... نام ... نام أحسن لك، ماتخلنيش اتكلم.

فأجاب: «حنفي أفندي» على الفور، وهو يجذب لحافه فوقه: أنام؟! ... وأنا طايل النوم؟ في المدرسة أدخل الحصة، الفصل يعمل شوشرة، وفي البيت أدخل السرير تحصل شوشرة، غلبت وغلب حماري.

ثم أحكم الغطاء، وأغمض عينيه، وأدار ظهره للجميع: وأعطى الحائط وجهه، وأخذ يغط ناخرًا مستدرجًا النعاس، ولم تمضِ لحظة حتى علا شخيره، فالتفت «محسن» إلى «سليم» في شيء من التودد والثقة وقال كالهامس، مشيرًا إلى «حنفي» النائم، بعد أن نظر إلى «عبده» المبتعد نظرة تحاشٍ وتجافٍ: عمي «حنفي» ده ... يا خسارته، ماعندوش غير النوم.

فرد «سليم» في ازدراء ورثاء: أنا عارف ده مدرس ازاي؟ لازم اللي زي ده التلامذة مستغفلاه.

لم يكن «محسن» مطمئنًّا في صلته ببيت الجيران برغم تردده عليهم؛ فهو حتى الساعة لم يفهم دخيلة «سنية» وما زال يرى فيها سرًّا غامضًا عليه؛ وقد أحس لأول مرة شيئًا غريبًا في قلبه نحوها ونحو «عبده»، يوم ذهب هذا الأخير لإصلاح الأسلاك!

فقد لاحظ «محسن» بعض تصرفات من «سنية» لم ترقه، غير أنه لم يظهر على «سنية» أي تغير نحوه مما يؤكد إحساسه الغريب؛ لذلك ما لبث أن فارقت قلبه تلك السحابة، ولو أنه ما زال متخوفًا غير مرتاح «لعبده»، وقد تيقظت في قلبه نحوه مشاعر دنيئة كان يقشعر لها ... إن أفعال «سنية» البسيطة ذلك اليوم أوحت إليه ذلك الوحي المرعب ... إن النساء قبل كل شيء يهِمن بالرجل القوي الجسم، الممتلئ طولًا وعرضًا، ذي الصوت الخشن، مدفوعات بدوافع خارجة عن إرادتهن ... لعلها الغريزة الجنسية، ولعله هو بالنسبة «لعبده» ما زال طفلًا أو غلامًا، لا يوحي إلى المرأة تلك العاطفة، وأخذ «محسن» يتذكر صوت «عبده» وهو يرتفع في صالة الجيران، وساعديه القويين، وهما يضعان السلم الخشبي بقوة على الحائط.

فكان هذا يعذبه في دخيلة نفسه، ولا يعلم ولا يستطيع إبداء علة لهذا الشعور المبهم، الذي يخزه، والذي يحرضه على كراهية «عبده»!

وقد ساعد على تولد هذا الشعور عند «محسن» موقف «عبده» حياله بعد مجيئه من بيت الجيران، فإنه بدل أن يخاصم «محسن» ويغضب ويغتاظ منه؛ كما سبق أن فعل معه مرة، فإنه لم يهتم هذه المرة «بمحسن» ولا بوجوده، بل كانت كل تحركاته زهوًا كمن يشعر بفوزه المطلق ... ولم يحسب «لمحسن» حسابًا، وحتى لو كان في فكره أحد يستحق المخاصمة في نظره، فليس هو «محسن» الصغير؛ بل هو آخر جدير بمنازلته في هذا المضمار: رجل مثل «سليم»!

أحس هذا كله «محسن» الصغير بفؤاده الذكي الواعي، فخامره شك في نفسه، وأوجعته وآلمته تلك الفكرة: إنه صغير لا يصلح حتى أن يعد غريمًا ومزاحمًا.

الفصل الرابع عشر

لا أحد يدري إن كانت هي مداعبات القدر، أم مداعبات شخص من البشر!

ذلك أن «زنوبة» جاءت تخبر يومًا بأن «البيانو» عند الجيران به بعض الخلل، وأنها وعدت «سنية» أن تسأل لها «سليم» عن محل تصليح «للبيانو»، باعتبار أن «سليم» يملك آلة موسيقية تشبهه وهي «الهارمونيكا».

وسمعها «سليم» باهتمام شديد، فما كادت تتم كلامها حتى نهض واقفًا. فأخبرته «زنوبة» في الحال أن لا داعي للتعب، المطلوب كله هو أن يكتب اسم محل «التصليح» الذي يثق به وعنوانه على ورقة صغيرة و«سنية» تتكفل بعمل الباقي.

ولكن «سليم» لا يكتفي بهذا، ولا يدع الفرصة تفلت منه، وإذا كان «عبده» الشاب الطائش الأهوج ابن الأمس في نظره، قد ذهب يصلح سلكًا في بيت الجيران، أفلا يذهب وهو الرجل المجرب المتفنن الراسي بأي حجة إلى بيت الأحباب؟

لذلك ما تأخر «سليم» عن إظهار المعرفة بشئون «البيانو» وآلات الموسيقى جميعها، وذكر أسماء المحلات المختلفة، وختم ادعاءه بقوله إن تلك المحلات تطلب أجورًا باهظة، ولا ينبغي أن يلجأ إليها إلا في أحوال ضرورية جدًّا وخطيرة، ومن يدري لعل «بيانو» الجيران أمره سهل جدًّا، ويمكن لخبير مثله، أي مثل «سليم» أن يعرف علته، وينصح بما يلزم له، ولا الحاجة إلى محل تصليح من تلك المحلات النصابة: أيوه أمال! لا بد من معاينة «البيانو»، لا بد أعاينه أولًا، على كل حال علشان أفتش فيه عن.

وكان «مبروك» الخادم حاضرًا سامعًا، فقال مبتسمًا: أيوه، علشان «سي سليم» يفتش.

وغمز بعينه «لمحسن».

ولكن «محسن» لم يبتسم، وظل باهت الوجه، وأخيرًا قال: مين قال «البيانو» مخروب؟

فأجابت «زنوبة»: «سنية» قالت لي وانت مش موجود.

فاكفهر قليلًا، وقال: أنا لسه ضارب عليه امبارح! لازم هي قالت عايز تنضيف، مش مخروب.

فتدخل «سليم» قائلًا بشيء من الغيظ: لا يا سيدي هي قالت مخروب ... انكسف بقا.

– مستحيل، أنا لسه امبارح.

وكان «محسن» يتكلم بلهجة اليائس، وقد احمر وجهه.

وقد كادت تطول المناقشة لو لم يدخل «حنفي أفندي» آتيًا من الخارج حاملًا رزمة كراريس، فوضعها على المائدة وقال: خبر ايه؟

فلما أعلمه «مبروك» بالخبر تنحنح ونظر إلى «سليم» وقال: مبارك.

فأجابه «سليم» ببرود: نعم يا «سي حنفي»؟

– ولا حاجة ... بس مش لازم لك صبي؟ ... دا «بيانو»، مش حتة سلك.

فابتسم «سليم» قليلًا، لكنه عاد إلى الجد والفتور: أما والله أمرنا عجيب، ناس جيران يقصدونا في خدمة نعملها حكاية؟ المسألة في غاية البساطة، أنا رايح هناك علشان أكشف على البيانو، وأعرف اللازم له واشوف.

فقاطعه «حنفي»: ناظرًا إليه من تحت منظاره الغليظ في ابتسامة ماكرة: يعني بالاختصار رايح تفتش.

– وبعدين يعني معاك؟

– أنا قلت حاجة؟ ... أستغفر الله.

وتحرك «حنفي» متجهًا إلى سريره؛ ليخلع ملابسه ويرتدي جلبابه وطاقيته، ويتمدد كالعادة.

كان «عبده» غائبًا عن المنزل لحسن حظ «سليم» ساعة أن جاءت «زنوبة» تحدث بمسألة «البيانو»، فلما عاد وجد «سليم» على قدم الاستعداد، وقد أخرج بذلته العسكرية من «الدولاب الكبير»، يريد ارتداءها رغم إيقافه الرسمي، ورغم معارضة الجميع ... سأل «عبده» عن الخبر فلما علم به اكفهر وجهه ووجم، ثم ملك نفسه، ولكن ابتسامة غيظ باردة ارتسمت على شفتيه المرتجفتين. أخذ يلاحظ «سليم» بشاربه المفتول جيدًا «بالكوزماتيك»، وهو يمشط شعره باعتناء زائد ويقول «لمبروك» آمرًا مشيرًا إلى النجوم

النحاسية على كتف السترة العسكرية، وقد صدئت من طول الترك وعدم الاستعمال، منذ انقطع عن الخدمة: بسرعة لمع الضبابير يا ولد.

– حاضر يا سعادة الحكمدار.

وذهب فأتى بخرقة، وجعل ينظف النجوم، وينظر إلى «عبده» و«محسن» الجامدين من طرف خفي، ويغمز بعينه لهما باسمًا.

وانتهى «سليم» من لبس البنطلون ذي الشريط الأحمر وجاء يطلب السترة، وهو يقول بلهجة الآمر الكاذب: خلاص الضبابير؟!

فأجاب «مبروك» في هدوء: خلاص الضبابير والصراصير.

ثم مد له يده بالسترة يساعده على ارتدائها، وهو يقول له في لهجة الجد والنصح: ويعني يا «سي سليم» إذا قفشوك بالبدلة دي؛ يبقى كويس؟

– مين يقفشني؟

– الحكومة بلا قافية.

عندئذٍ تدخل «عبده» ولم يطق صبرًا: سيبه … هو يعني مش عارف إنه مرفوت من الوظيفة.

فالتفت إليه «سليم»، وقال ببرود: من فضلك تسحب كلامك … أنا مش مرفوت، أنا موقوف فقط.

– وإيه الفرق؟

– أظن أي واحد متعلم يعرف الفرق بين مرفوت وموقوف يا حضرة المهندس.

ومضى «سليم» يرتب هندامه … وفي هذه اللحظة نهض «حنفي» من فراشه متثاقلًا، فما إن رأى «سليم»: حتى صاح دهشًا: دهده! … إنت لبست بدلة التشريفة؟

فأجاب «سليم» بفتور، دون أن ينظر إليه، وهو متجه بكليته إلى المرآة: أمال.

فقال «حنفي أفندي» محبذًا: عظيم! … روح يا عم، هنيالك … عقبال كده احنا كمان ما يطلبونا نصلح … نصلح إيه؟

فرد عليه «سليم» بسرعة من وجد القافية: تصلح كراريس.

وتناول الكرباج الجلد الضباطي، وضرب به الفضاء علامة الانتباه والإيذان بالذهاب.

ما جاء العصر حتى كان «سليم» في بيت الجيران، وقد قادته «زنوبة» والخادمة إلى حجرة «البيانو»، فنظر في أرجائها فوجدها خالية، فانصرف إلى «البيانو» ورفع غطاءه

ومر بأصابعه عليه، ثم ضرب بيد واحدة نغمة سريعة لأحد الأدوار المعروفة، والتفت إلى «زنوبة» وقال: ما له البيانو؟ … ماشي عال قوي.

– ياختي امال «سنية» كانت بتقول مخروب ليه؟

– يجوز فيه شيء لازم تصليحه … أظن الأحسن تتفضل «سنية هانم» تورينا بنفسها الشيء اللازم.

فخرجت «زنوبة» لتخبر بذلك، وتبعتها الخادمة.

ولم يمضِ قليل حتى سُمع وقع أقدام آتية، فاستعد «سليم» وفتل شاربيه على عجل، ورتب السترة وأصلح الهندام، والتفت إلى الباب فإذا به يرى «محسن»، فقطب «سليم» وجهه، وقال في ضيق وبرود: الله … إيش جابك؟

فأجاب الفتى في حيرة وغيظ: أنا دايمًا آجي هنا.

فلم يرد عليه «سليم» وأدار ظهره، وجعل يتمشى في الغرفة جيئة وذهابًا.

وكان موقفًا باردًا أحسه «محسن»، وأراد ترك الحجرة، غير أن الباب فتح، وظهرت «زنوبة» تطلب إلى «سليم» أن يخلي الغرفة، لأن «سنية» آتية لتريه عيب «البيانو»، وفتحت بابًا على شبه دهليز صغير، وأشارت إلى «سليم» أن يتبعها وأوقفته خلف الباب، وعندئذٍ أقبلت «سنية»، وتمهلت على باب الصالون قائلة بصوت كله دلال يسبي: آجي يا أبلا؟ … مفيش حد في الصالون؟

وسمع «سليم» هذا الصوت فنسي موقفه، ومد رأسه ونظر بعينيه الشائعتين الزائغتين، يفتش عن تلك الظبية الجميلة، وقال بصوت موزون يتكلف الرقة: مفيش حد يا هانم … تفضلي.

وأسرعت «زنوبة» إليها، وجاءت بها إلى «البيانو»، وطلبت إليها أن تخبر «سليم أفندي» بنفسها عما تراه.

فأسرع «سليم» قائلًا: لو تتفضل «سنية هانم» تضرب دور علشان أشوف صوت البيانو.

فتضاحكت «سنية» في حياء، وأمسكت «بزنوبة»، وقالت مشيرة إلى أحد مفاتيح «البيانو»: نوتة «الدو» بس يا أبلا هي اللي مخستكة، شوفي.

وضربت على مفتاح «الدو» عدة ضربات، فقال «سليم»، وهو ينظر إليها مختلسًا من خلف الباب: ماينفعش الكلام ده يا «سنية هانم»، لازم تضربي دور، اضربي يا «طالع السعد» مثلًا … دور حلو قوي، أنا قبل ما انتقل من «بورسعيد» كان عندي فرقة موسيقى البوليس السواري والبيادة، كل يوم الصبح بعد الطابور أعطيها أمر بضرب الدور ده،

ومع ذلك أنا «بالهارمونيكا» بتاعتي كنت أضرب الدور ده أحسن من «مزيكة البوليس»، فين دلوقت، بقالي زمان تركت الهارمونيكا، علشان كده أحب أسمع الدور على «البيانو» من يد «سنية هانم».

فابتسمت «سنية» متخاجلة، ونظرت إلى «زنوبة» وإلى «محسن» بجوارها نظرة سريعة غير واعية وقد احمر وجهها وهمست لزنوبة: بعدين ماما تقول إيه؟

ولكنها لم تنتظر جوابًا، بل جلست على كرسي «البيانو» في الحال، وكان «سليم» خلف الباب يراقب حركاتها ... وقد كاد يطير صوابه وهو يرى جسدها الممشوق ينثني، ونهديها يرتجان وهي تجلس.

وأخذت تضرب دور «يا طالع السعد» بقوة حينًا ورقَّة حينًا آخر، و«سليم» لا يرى خلف الباب من هذا كله إلا ثدييها الناهدين يهتزان، كلما اشتدت في الضرب؛ كأنما يرقصان على نغم الدور، فيصيح «سليم» في قرارة نفسه: يا عمري ... يا عمري على دي النهود، برتقان بلدي لسه على أمه ... يا عمري!

وانتهت «سنية» أخيرًا، وقامت عن «البيانو»، وهي تقول في خجل يزيد رنة صوتها دلالًا: سمعت ازاي يا «سليم بك» صوت البيانو متغير؟ مش عارفة بقا إذا كان ده من «الدو» ولا العدة كلها عايزة تنضيف؟

فأجاب «سليم» في الحال: والله يا «سنية هانم» أنا ... أنا ما أخدتش بالي؛ لأن ضربك «يا طالع السعد» مفيش بعد كده أبدًا بقا، اسمحي لي أقول لك أنا ماسمعتش عمري أحسن من كده.

فنظرت «سنية» إلى «زنوبة» وقد احمر وجهها على شكل انقبض له «محسن»، ثم قالت بصوت خافت يسمعه «سليم»: مرسي!

انتقل بعدئذٍ موضوع الحديث إلى مسألة تنظيف «البيانو»، وقد نصح به «سليم» بعدئذٍ، ووعد أن يأتي بعد يوم أو اثنين بمصلح خبير يتولى شأنه، وسيكون هو المسئول شخصيًّا عن هذا التصليح وعن هذا «البيانو» بعد الآن ... وأن كل ما تأمر به «سنية» هانم يجاب ويلبى على الفور في سرور واغتباط.

وشكرت له «سنية» ذلك بعبارات رقيقة مؤدبة، وفي تحفظ وحشمة، وجاءت الجارية بالقهوة فشرب «سليم» وانصرف، وهو يؤكد قائلًا في لهجة السلطة والخيلاء: إن شاء الله النهارده أبعت واحد عسكري والا أومباشي صف ضابط لأحسن محل تصليح.

وسار في الردهة بقوة وانتفاخ يهز أكتافه ذوات «الضبابير» اللامعة، ويُحدث في البيت جلبة وضجة وضوضاء بحذائه الحكومي ذي المهماز.

ذهب «سليم» إلى المنزل توًّا ليخلع ملابسه الرسمية في الحال قبل أن يضبطه بها أحد … ودخل على «الشعب» دخول الظافر المنتصر، وقد انتصبت شواربه وهو ينفخ، كمن أتى بعمل كبير، وعلى وجهه دلائل الفرح و «الزأططة» … وابتدره «الرئيس حنفي» بقوله: عملت إيه يا بطل؟

فأشار إليه «سليم» من طرف أنفه قائلًا: اسكت … اسكت.

فألح «حنفي» في السؤال: إيه؟ … جرى إيه بالذمة؟

فأجاب «سليم» سريعًا، وهو يدخل غرفة النوم العمومية، خالعًا أزرار سترته: البنت واقعة خالص.

وحاول «حنفي» الاستيضاح منه، غير أن حضرة الضابط لم يجب بعد ذلك، بل نظر إلى غرفة النوم والأسرَّة الأربعة المصفوفة أحدها بجانب الآخر، وأبدى بشفتيه علامة الاحتقار، وأحس لأول مرة غرابة هذه المعيشة، ودهش كيف أنه استطاع حتى الآن أن يحيا مع أربعة أو خمسة في حجرة واحدة، غير أن إحساسه هذا كان مصدره الترفع والتعالي على رفاقه؛ لذلك ألقى بسترته بعيدًا، فوق أحد الأسرَّة، وخرج يقول: إحنا كلاب والا إيه؟ أنا لازم أنقل سريري، وأعزل أودة تانية، نص دستة في أودة زي الجحر؟ إحنا كلاب؟

فأجابه «عبده» وقد حاول عبثًا كتم ما به بكل قواه، غير أن الدم المحتقن بوجهه كان يدل على غيظه المحبوس: طول عمرنا عايشين كده … حضرتك ماعرفتش انك كلب غير النهارده؟

فضحك «حنفي» وحسبها نكتة، وضحك كذلك «مبروك» من قلبٍ صافٍ، فاكفهر وجه «اليوزباشي سليم» وقال: قصدك تهينني؟

فأجاب «عبده» في لهجة عصبية: قصدي أقول إن مفيش عندنا أودة تانية، واللي يعجبه على كده يعجبه واللي مايعجبوش.

فقال «سليم» ببرود: وانت ما لك؟ … أنا رايح أعزل فوق، في أودة السطح في أودة الغسيل … حد شريكي؟

وانقطعت المناقشة بدخول «زنوبة» و«محسن» وعم الهدوء وراح «سليم» يتم خلع ملابسه، وهو يدندن نغمة «يا طالع السعد».

وعندئذٍ ناداه «حنفي» وقال له في رجاء وسرور: قل لنا بقا يا «سليم»، البنت كانت واقعة فيك ازاي؟

وسمع «محسن» هذه العبارة فارتجف وغص بريقه، وذهب الدم عن وجهه دفعة واحدة، ولكنه سكت وخرج «سليم» يقول بإعجاب وخُيلاء: أما يا ولاد عليها نهود، صلاة النبي أحسن، برتقان حلو صغير على أمه.

وعندئذٍ شعر الفتى «محسن» بما يشعر به عابدٌ ورعٌ متنسك، وقد رأى أحدًا يهين معبوده بكلمات بذيئة، وسرت «زنوبة» مفاخرة بصديقتها، وقالت: شفت يا «سي سليم» الفستان اللي كانت لابساه؟

فأجابها «اليوزباشي»، وهو يحاول التذكر: فستان؟! ... والله مش واخد بالي.

ومر في هذه اللحظة أمام خاطر «عبده» الصامت الكاتم ما بنفسه لون أخضر، وظل يكبر هذا اللون حتى امتلأت عيناه وفكره بالاخضرار ... حرير أخضر يهف عليه كالنسيم على أوراق الربيع، فأحس قلبه يكاد يقع ملتهبًا ثائرًا، وود لو ينهض فيصفع «سليم» أو يضربه «بوكس»، ويقلب البيت حربًا وضجة وعراكًا، لكنه تجلَّد.

وما لبث «الرئيس حنفي» أن قال ردًّا على سؤال «زنوبة» في شيء من سخريته البريئة المعتادة، سخرية ذي القلب الهادئ الخالي المستغني عن كل وجع دماغ: بتسأليه عن لون فستانها؟ هو «سليم» شاف غير نهودها وبطنها وكوارعها؟

وسمع الصغير «محسن» هذه الكلمات أيضًا، وتمثل صورة «سنية» الملائكية، فثارت نفسه، وحاول أن يطرد من فكره معنى تلك الكلمات الفاحشة الوحشية، وأضمر «لسليم» شيئًا لم يدرك كنهه، وأحس ذلك الإحساس المبهم مرة أخرى بصورة أوضح، إحساس القصور والضعف المذل بالنسبة لسليم، وتصور «سليم» ذلك الرجل الذكر الذي يتغلب بسهولة على المرأة ولا قِبل لها بمقاومته، أو أن «سليم» رجل يعرف أشياء لا يعرفها هو، أو أن ... أو أن ... أو أن ... لا يدري الصغير «محسن» ... إنها مجرد إحساسات غامضة لا يستطيع تحليلها، ولا يفهم منها إلا أنه بات يكره سليم، ويخشاه، ويشعر نحوه بشبه إذلال نفسي، وأنه بدأ يميل إلى «عبده» ويرى فيه زميلًا له، أو على الأقل نوعًا من البشر يقارب نوعه قليلًا، هذا النوع الذي لا يرى في المرأة نهودًا ولا بطنًا؛ بل شيئًا آخر، والذي يذهله ويجرحه سماع الكلمات المرعبة المذلة.

وصدق إحساس الصغير نحو «عبده»؛ فإن «عبده» ما كاد يسمع هو الآخر هذا القول حتى نهض مستنكرًا ثائرًا، والتفت إلى «زنوبة» وقال موجهًا إليها الكلام: إيه المسخرة دي وقلة الحيا؟ ... مبسوطة لما تاخديهم حضرتك بيوت الناس، علشان يرجعوا يقولوا الكلام ده؟

وخرج «سليم» محتجًّا تاركًا لهم المكان.

ولكنه في الواقع خرج لأنه لم يطق صبرًا على سماع أكثر مما سمع، ونزل هذا الاحتجاج في قلب «محسن» الملتهب كالماء المثلج، فاطمأن قليلًا، وتعزى به عما في نفسه من قلق مذل.

الفصل الخامس عشر

مضت أيام تم في خلالها إصلاح «البيانو» بمنزل الجيران، وكان «محسن» قد انقطع عن الذهاب إليهم طول ذلك الوقت ... وكانت الأيام تمر وهو يرقب بصبر ملتهب، يوم يدعونه؛ كي يعود إلى الدرس عند «سنية» بعد أن غدا «البيانو» صالحًا للعزف عليه، وكان يسلي انتظاره بقراءة رواية «ماجدولين» ترجمة المنفلوطي.

وفي ذات يوم رجع من مدرسته مبكرًا، فلم يجد في البيت سوى «عبده» يشتغل برسم خريطة هندسية، سيقدمها في اختبار نصف السنة، فخلع «محسن» ملابسه الخارجية. وأراد أن يشغل وقت فراغ العصر، فراح يأتي بالرواية لينتهي من صفحاتها الباقية، غير أنه لم يجدها في مكانها المعتاد، فسأل «عبده» عنها فلم يعرف شيئًا عن أمرها، فاستغرب الفتى الصغير قليلًا، ولكنه عاد فاشتغل عنها بالتفكير في «سنية» وفي شأنه وشأن «عبده» و«سليم».

هل تراها فضلت أحدًا منهم على الآخر؟ ومن هو الذي تفضله!

وانتفض قلبه عندما ذكر قول «سليم»: إن البنت واقعة خالص ... واشمأزت نفسه، وتساءل: أممكن لمثل «سليم» هذا أن ينال قلبها حقًّا؟ وتعزى قليلًا إذ تذكر «عبده» وحظه.

إن مثل «عبده» كان الأجدر على الأقل بإعجابها من الآخر، لكن ها هما ذان الاثنان «هو» و«عبده» لا يعرفان من مصيرهما شيئًا، وها هو ذا «سليم» منذ ذلك اليوم يخرج ويدخل مرحًا، ويذهب ويجيء وكله نشاط وبشر وفرح وخُيلاء وزهو؛ كأنما قد ملك وضِمن شيئًا.

وبينما هو في ذلك التفكير و«عبده» على مقربة منه منحنٍ على لوحة الرسم فوق مائدة الردهة، إذا «مبروك» الخادم يدخل حاملًا خطابا يلوح به في يده باسمًا في خبث: جواب لـ «سي سليم»، جواب عشان «سي سليم».

فاضطرب «محسن»، ورفع «عبده» رأسه، ونظر إلى الخطاب في يد «مبروك» لكنه لم يقطع صمته الطويل بكلمة، بل إنه عاد فانحنى على عمله؛ كأنه ركن إليه أخيرًا يلتمس فيه راحة القلب والبال … غير أنه لم يستطع منع فكره من الاشتغال بأمر هذا الخطاب، وتساءل في نفسه: ممن هو؟ … إن سليم لم يتسلم خطابات من أحد منذ أن نزل عندهم، ولماذا هذا الخطاب بعد هذه الحوادث الأخيرة؟ … دب الشك في قلبه، ومن الغريب أن كل ما جال برأسه كان يجول برأس الصغير «محسن» في عين الوقت، ولكن «محسن» تشجع وتقوى بعدئذٍ، وقال «لمبروك»: منين؟

فأتى الخادم بحركة تدل على الجهل، وعلى أن الخطاب مقفل طبعًا، فكيف يعلم من أين جاء؟

فرفع «عبده» رأسه ثانية، ونظر إلى الخطاب. ومد يده إلى «مبروك» وقال: هات لما اشوف ختم البوستة.

فناوله الخادم الخطاب، فقرأ على ختمه: بوستة السيدة زينب «صادر»، وأخذ يقلب الخطاب بين يديه، ويتمعن خط العنوان وقد ازدادت شكوكه، وبهت وجهه، فوضع الخطاب على المائدة بقربه، وقال «لمبروك» بصوت هادئ، ولكن به بعض التغير: طيب … خليه له هنا لما يرجع.

وعاد إلى عمله، كما انصرف «محسن» إلى نفسه، يحدثها في أمر ذلك الخطاب، وهل يمكن أن يكون من؟ والتفت «مبروك» إلى كل منهما، فلما ألفاهما لاهيين عنه انصرف هو الآخر، بعد أن قال إنه نازل يجلس بالباب في انتظار الغائبين.

وما إن ابتعد الخادم قليلًا حتى رفع «عبده» رأسه، وتناول الخطاب ثانية، وتأمله وقلبه بين أصابعه، والتفت إلى «محسن»، الذي كان يختلس إليه النظر عن بعد، ثم قال: الظرف مش مصمغ كويس.

وكأن «محسن» أدرك من هذه العبارة معنًى خاصًّا، فقال باندفاع ورغبة شديدة وموافقة: يا ترى الجواب ده فيه إيه؟

فقال «عبده» في تردد، وهو يرمق الخطاب بحب استطلاع جشع: ممكن فتحه ولزقه تاني.

فأجاب «محسن» مغريًا: آي والله … لازم فيه حاجات تضحك.

فقلب «عبده» الظرف، وقال بصوت متردد خافت: تيجي نشوف فيه إيه؟

فأجاب «محسن» على الفور بشبه فرح صبياني، وقد اقترب منه: أيوه … يللا والنبي نشوف فيه إيه؟

فرفع «عبده» رأسه ونظر إلى «محسن» نظرة ثاقبة، وقال: بس ماتقولش؟

فأجاب «محسن» بقوة: ماتخافش ... أنا مجنون؟!

وفي الحال فض «عبده» الغلاف بحذر وحيطة، حتى يستطيع أن يغلقه ثانية ويعيده إلى أصله، وأخرج الرسالة ونشرها، وأخذ يقرأ بظمأ ورغبة، وقد التصق به «محسن» مزاحمًا إياه في القراءة بتلهف، ولم يفهما بادئ بدء شيئًا مما يقرآن، غير أنهما نظرا إلى الإمضاء في ذيل الرسالة، فانجلى لهما كل شيء، وجعلا يضحكان بملء شدقيهما في شماتة وتشفٍّ.

لقد كان هذا الخطاب مرسلًا في الأصل من «سليم» إلى الحبيبة، ولكنها بدل أن ترد عليه ردته إليه بالتالي، دون أدنى تعليق.

وما إن أدرك «عبده» و«محسن» هذا الأمر حتى عادا يتسليان بتلاوة هذه الرسالة الغرامية، ويلفظان بعض عباراتها في إلقاء تهكمي؛ كمن يكذب صدق ما جاء فيها من عواطف، والرسالة نصها هكذا:

عزيزة الفؤاد «سنية هانم» ...

لقد أحببتك حبًّا لم يحبه أحد من قبلي أحدًا، وأخلصت لك إخلاصًا لا يضمر مثله أخٌ لأخيه، ولا والد لولده، وأجللتك إجلال العابد لمعبوده.

لقد ملأت فراغ حياتي كله بك، فلا أنظر إلا إليك، ولا أشعر إلا بك ولا أحلم إلا بطيفك، ولا أطرب لرؤية الشمس ساعة شروقها إلا لأني أرى فيها صورتك، ولا لسماع أغاريد الطير في أفنانها إلا لأني أسمع فيها نغم حديثك، ولا لمنظر الأزهار الضاحكة في أكمامها إلا لأنها تمثل لي ألوان جمالك، ولا تمنيت لنفسي سعادة في هذه الحياة إلا من أجل سعادتك، ولا آثرت البقاء فيها إلا لأعيش بجانبك وأستمتع برؤيتك.

إن كنت ترين أني لا أستحق الوصال، فأخبريني خبرًا بما بذلت لك في حياتي من دموع وآلام وشجون وأحزان.

والسلام ختام.

المحب الولهان

اليوزباشي سليم العطيفي

وفرغا من القراءة، فالتفت «عبده» إلى «محسن» وقال ساخرًا: بقا بذمتك معقول إن «سليم» يعرف يكتب كلمة واحدة من دول؟

فسكت «محسن»، قليلًا، كمن يتذكر، ثم صاح فجأة: يا خبر! ... تعرف صفحة ١٧٣ من رواية «ماجدولين»؟ ناقلها بالحرف ... نقل مسطرة.

فقال «عبده» في شيء من سرور التشفي: برافو عليه.

وأردف «محسن» مؤكدًا وفرحًا: أنا كمان بقول في عقلي جرى إيه؟ الصفحة دي أنا لسه قاريها أول امبارح. آه ... فهمت ... مش قلت لك إن الرواية مش موجودة في مطرحها؟

وعندئذٍ تناول «عبده» الخطاب بسرعة، ووضعه داخل الغلاف كما كان، باحتراس وتمهل وحذر، وألصقه؛ كي يعيده إلى الحالة الأولى؛ كأنه لم يفتح.

عاد «سليم» بعد قليل إلى المنزل وهو يدندن منشرح الصدر، فأخبره «مبروك» الخادم بالباب أن له خطابًا.

فما كاد يسمع تلك الكلمة حتى انتفض، وقال: فين؟ ... هو فين؟

فأجابه «مبروك» وقد ابتسم لاضطرابه بأن الخطاب فوق في حفظ «عبده»، فلم يدعه «سليم» يتم كلامه؛ فقد تركه في الحال، وأخذ يصعد الدرج ناهبًا كل ثلاث في خطوة، ودخل على «عبده» وابتدره قائلًا: فين الجواب؟

فرفع «عبده» رأسه إليه في شيء من التهكم؛ كأنما يقول له: ابدأ بالسلام أولًا، غير أن «سليم» لم يأبه لشيء؛ بل كرر كلمته بلهجة قوية، وقد نفد صبره: فين الجواب؟

فلم ير «عبده» بدًّا من أن يشير له بيده إلى الخطاب على المائدة بقربه، فانقض «سليم» عليه وتناوله وخرج به من المكان حتى ينفرد بمطالعته، تاركًا خلفه «عبده» ينظر إلى «محسن» القابع في ركنه نظرات السخرية والتشفي.

ما كادت تمضي لحظة، حتى رجع «سليم» إليهما والخطاب في يده، وقد بدا وجهه هائلًا، واقترب من «عبده» وأراه الغلاف وصاح: الجواب مفتوح.

فتظاهر «عبده» بالدهشة وتجاهل الأمر: مفتوح ازاي؟

مفتوح وملزق تاني، والظرف لسه مبلول، أنا مغفل؟! أنا ماينطبخش فوق راسي الطبيخ.

قالها بلهجة مخيفة لم يعهدها فيه أحد من قبل.

فارتعد: «عبده» قليلًا، لكنه تجلَّد وقال في شيء من الحدة: إيه لزوم الكلام ده؟

فأجاب «سليم» صائحًا في غضب هائل: الجواب ده مايلزمنيش، ماستلموش، والله ما استلم الجواب ده … والله ما استلم الجواب!

فهاج هائج «عبده» وأجاب في لهجة عصبية: تستلمه والا ماتستلموش … أنا ما لي تقول لي الكلام ده … عنك ما استلمته يا سيدي.

فقال «سليم» وهو يُرغي ويُزبد: سافل ودون، ومنحط، اللي فتح الجواب ده، صحيح انه ندل … سافل … دون، وقليل التربية.

فأجاب «عبده» ببرود وهو يخفض رأسه، متظاهرًا بالنظر إلى لوحة الرسم: اللي فتحه!

فنظر إليه «سليم» محدقًا، وقال في هجوم: حضرتك ماتعرفش مين اللي فتحه و… السافل اللي فتحه؟

فغلى الدم في وجه «عبده» وصاح: قلت لك ألف مرة لأ، إنت رايح تدوشنا بجوابك؟

فقال «سليم»: والله العظيم ما اسكت عن المسألة دي من غير تحقيق … والا ما ابات فيها من الليلة … كله إلا مسألة فتح الجوابات الخصوصية.

فقال «عبده» ببرود: روح اعمل اللي تعمله، بس سيبني اشتغل، أنا مش فاضي … عندي امتحان.

فتركه «سليم» بعد أن وضع الخطاب في جيبه، ويمم شطر الباب وهو يقول: لك كبير يترد عليه … البيت مش سايب … مش فوضى.

قال هذا، وجذب باب الشقة خلفه بعنف، وخرج.

وعندئذٍ التفت «عبده» إلى «محسن» الصامت الواجم، وقال له مطمئنًا إياه: فضك منه، ولا تسأل فيه … أصل كل غيظه وناره الكسفة اللي أخدها، وجوابه اللي اترد له.

فوافق «محسن» بابتسامة باهتة، غير أنه ظل ساكتًا يغالب شيئًا يعكر عليه صفاء ضميره.

خرج «سليم» من المنزل قاصدًا توًّا «مدرسة خليل أغا الابتدائية» ليقابل «حنفي أفندي» بصفة كونه كبير الأسرة ورئيس البيت، ويعرض عليه ما حدث، ويرى هل هذا يرضيه؟ وهل يسكت على مثل هذا الأمر دون أن يتدخل، ويظهر هذه المرة بعض السلطة والنخوة والشهامة التي تخولها له حقوقه الطبيعية؟

وكان «سليم» طول الطريق يفكر، ويقول في نفسه إن «حنفي أفندي»، مهما كان أمره؛ فهو رب البيت وإليه المرجع الأخير، وإنه لا شك مُظهر بعض الهمة في هذا الحادث؛ لذلك لم يتردد في وجوب الاعتماد عليه، ورأى في ذلك كل الرأي والحكمة.

كان «حنفي» في ذلك اليوم لا يزال بالمدرسة؛ إذ كانت عليه النوبة في مراقبة الألعاب الرياضية مع ضابط الجمباز المنوط بذلك، وكان عليه أن يظل بالمدرسة حتى منتصف السابعة مساء، وكان قد أخطر رفاقه في المنزل بذلك قبل ذهابه في الصباح؛ لذلك رأى «سليم» أن يقابله بالمدرسة، ويحكي له المسألة قبل أن يعود إلى المنزل، فيشوش «عبده» فكره بالتهويش، فيفسد على «سليم» الأمر.

وصل أخيرًا إلى المدرسة، وبحث عن البواب أو الفراش في حجرته الصغيرة، فلم يجده، فمشى في فناء المدرسة قليلًا يلتفت يمينًا وشمالًا؛ عله يصادف أحدًا، وأخيرًا التقى بتلميذ صغير يسير إلى حجرة المرشح، وهو يضرب الحجر والحصى بقدمه عابثًا، فأشار له بالدنو منه، فدنا، فسأله: فين يا شاطر «حنفي أفندي»؟

فنظر التلميذ إليه، وأجابه على الفور: «حنفي أفندي أبو زعيزع»؟

فبغت «سليم» قليلًا، وقال، كأنما يخاطب نفسه: أبو زعيزع؟!

ولم يلبث التلميذ أن استطرد مشيرًا بأصبعه إلى جزء من الفناء مختفٍ خلف بناء المدرسة: حضرتك عايزة؟ … هو هناك مع سنة أولى تالت.

وعندئذٍ ارتفع في الجو صوت ضحك صبية صغار، وما كاد التلميذ الواقف يسمع هذا الضحك حتى ترك «سليم» بغتة، وأخذ يركض نحو زملائه، وهو يضحك على ضحكهم، ويصيح بصوت حذر خافت: «حنفي أفندي أبو زعيزع»! … «حنفي أفندي أبو زعيزع».

ولكن سليم، صاح به مستوقفًا إياه، واقترب منه، وسأله أن يستدعي له «حنفي أفندي» في الحال.

وذهب التلميذ، وظل «سليم» ينتظر، وقد داخل قلبه الشك في نجاح مسعاه لدى «حنفي»، وقال في نفسه: هل ترى يرجى نفع من مثل «حنفي» هذا الذي عرف الكل، حتى الصغار، أن يسموه «أبو زعيزع»؟

لم ينتظر «سليم» طويلًا؛ فإن «حنفي أفندي»، ما لبث أن أتى مستغربًا مجيء سليم، ظانًّا أن شيئًا خطيرًا قد وقع بالمنزل، ولم يخب ظنه كثيرًا؛ فإن سليم، طفق يحدثه بما حصل في لهجة المبالغة والإغراق، مصورًا له هذا العمل أكبر تصوير، ومجسمًا للحادث أقسى تجسيم.

كل ذلك ورب الأسرة ساكت مطرق يصغي إليه في تؤدة، يحسبها الرائي رزانة وحزمًا ... وأخيرًا التفت إليه «سليم»، وهز كتفه هزة عنيفة، وقال له: إنت ساكت ليه؟ مش تقول رأيك يا أخي؟

فرفع «الرئيس شرف» رأسه، وأجاب في الحال: رأيي إن معك حق.

– مش كده صحيح؟ هو «عبده» ... مفيش غير الواد «عبده» اللي عاملها ... أنا متأكد ... أنا أحلق شنبي.

– أنا راخر متأكد واحلق دقني ... مفيش غير الواد «عبده».

– وإيه العمل دلوقت؟

– معاك حق.

– معايا حق بس، مش كفاية، إنت يا سي «حنفي» بصفتك رب البيت، وكبير العائلة، ورئيس الجميع تسكت على كده برده؟ إلا واجب تستعمل سطوتك.

فانتفخ «حنفي» في نفسه، والتفت إليه في قوة وخُيلاء: لازم استعمل سطوتي.

ومد يده وجذب «سليم» وسار به: تعال معايا ... ماتخافش، احنا نروح نخرب لك بيتهم.

قال هذا في حماسة وقوة آمن معها «سليم» واستبشر واطمأن.

وصل «حنفي» و«سليم» إلى المنزل، ودخلا الشقة، وقد تأخر «سليم» خطوة، ودفع «حنفي» أمامه بيده مصدِّرًا إياه، وهو يهمس له: استعمل الشدة.

– ماتخافش.

ودخل «حنفي» فرأى «عبده» مكبًّا على لوحة الرسم، فتصنع العبوس والتقطيب، وقال متغاضبًا: إيه مسألة الجواب دي؟ ... وازاي يحصل فتح جواب في البيت ده؟

فرفع «عبده» رأسه ولم يقل شيئًا، ولكن رمى «حنفي» بنظرة أرعبته، ثم صاح فجأة بلهجة عصبية قائلًا: إنه ليس مسئولًا عن خطابات أحد، وإنه لا يسمح لإنسان باتهامه هذه التهمة، وترك لوحة الرسم، واقترب من «حنفي أفندي»، وصاح به: وانت كمان، ماكانش لازم تنحشر في مسألة فارغه زي دي.

فسكت «الرئيس شرف» في الحال وأطرق.

فقال «عبده»: ساكت ليه؟ مش تتكلم؟

فرفع «حنفي أفندي» رأسه وتنحنح وتردد، ثم أجاب في تلعثم: معاك حق.

فما كاد «سليم» يسمع هذا حتى جن جنونه، وقبض على ذراع «حنفي أفندي» وقرصه، ثم هزه مذكرًا إياه بوعده وقوله إنه سوف يخرب بيتهم، ثم ذكره بالتهمة المنسوبة إلى «عبده» وطلب إليه مرة أخرى — في مواجهة الجميع — أن يبدي رأيه صراحة.

فالتفت إليه «رب الأسرة الشرف» وقال له: معاك حق.

وعندئذٍ صاح به «عبده»، وأراد أن يفهمه أن كل ما قاله «سليم» لا يهمه ولا يخصه ولا يثبت عليه شيئًا، وأن ... وأن ... ولكن «حنفي» وفر عليه الكلام بأن التفت إليه، وقال له هو الآخر: معاك حق.

ورأى «مبروك» الخادم ذلك فضحك كما ضحك «محسن» على الرغم من قلقه ووخز ضميره، وعلم الجميع أن «حنفي» هازل ولا يرجى منه ... وقد أدار الحادثة وقلبها هزلًا، وأراد «سليم» أن يحتج وأن يغضب، وذهب إلى «الدولاب» الكبير ليجمع أمتعته وملابسه ويغادر المنزل وهو يردد: بيت هلس، بيت مالوش كبير ... بيت فوضى ... لكن الحق عليَّ، أعتمد على سي «أبو زعيزع».

غير أن «حنفي أفندي»، لم يدعه يذهب، واجتهد في تهدئته ملاطفًا إياه مرة، ومداعبًا ومضاحكًا مرة أخرى، وقال كأنما يتملقه ويسرُّه: وتزعل ليه بس يا سيد سليم؟ دا انت بالعكس تفرح، لأن المسألة واحد من أمرين ... إما إنه كان جواب عادي وانفتح فمفيش ضرر، وإما إنه جواب حب وهيام وعشق وغرام، وفي الحالة دي كويس قوي.

فقال: سليم، من بين أسنانه: كويس قوي ازاي؟

فأجاب «حنفي» بحسن نية أيضًا، وهو حاسب أنه يسره: أمال، دا والله من حسن حظك انه اتفتح، علشان العذول ينكاد وينفقع ... دي مصلحتك يا عبيط؛ هو حد طايل في الأيام دي ربع جواب حب؟ يا سلام! يا بختك يا «سليم»، دا انت كان واجب عليك تفتحه وتقراه علينا كلنا علشان نفرح بك، ونحتفل بحسن الوفاق.

وسمع «محسن» هذا وتصور وقع الكلام على «سليم»، وقد خذله ذلك «الجواب» فكاد يغلبه الضحك، وخرج يجري إلى المرحاض يطلق فيه العنان لضحكه.

ومر بالفسحة، فرأى «عبده» كذلك وجهه للحائط، وهو يكتم ضحكه بيده.

الفصل السادس عشر

لم تمضِ أيام حتى جاء «محسن» خطاب!

وإن مجرد كلمة خطاب في هذا الظرف كافية لأن تقلب كيان قلب الفتى، أو أي فرد آخر في ذلك البيت، ولكنه سرعان ما علم أن الخطاب الذي أتاه إنما هو من أهله في «دمنهور» يبعثون إليه بمصروفه، وبالمبلغ الشهري المخصص «لحنفي أفندي»، مقابل إقامة «محسن» عنده ... وهم يدهشون في ذلك الخطاب لأن عطلة نصف السنة قد اقتربت دون أن يبدي «محسن» أي رغبة، ودون أن يحدد أي ميعاد للسفر إليهم كالمعتاد في كل سنة. والواقع أن «محسن» في هذا العام ما خطر بباله قط أمر السفر ولا أمر العطلة، وما اشتغل فكره بغير ما هو فيه ورفاقه. ولقد هجر كذلك أصدقاءه في المدرسة هذا العام ... ولم يكن يهمه من المدرسة غير مجرد تحصيل الدروس، فكان يؤدي عمله بها وهو يرقب ساعة الانصراف بصبر نافد ليذهب إلى المنزل، وكثيرًا ما كان يشغل فراغ فسحة الغداء وكافة الفسح، في مذاكرة الدروس؛ كي ينطلق إلى المنزل بعدئذٍ حرًّا من كل قيد، ولكنه الآن بوغت بهذا الخطاب يدعوه إلى السفر وكأنه فتح عينيه من غيبوبة لذيذة فرأى الواقع، لا بد من السفر.

ومع أن العطلة قصيرة الأمد، ولن تتجاوز العشرة أيام؛ فقد بدا له ذلك طويلًا، غير أنه تمثل في فكره صورة والديه فحن إليهما، وانشرح قليلًا بالسفر لرؤيتهما.

ولم يكن «محسن» وحده الناسي أمر السفر في هذا العام الغريب؛ بل كانت «زنوبة» أيضًا ... «زنوبة» والتي اعتادت أن تحسب ميعاده بالضبط؛ كي تستعد في تجهيز الهدية الواجب إرسالها مع «محسن».

ودهش «محسن» قليلًا لنسيان «زنوبة»، فذهب يذكرها بسفره القريب، فوجدها في حجرتها «تقرص» كعكًا من النوع المسمى «كعب الغزال»، فقال في نفسه: إنها لم تنسَ،

ولكنه تجاهُل، وسألها عما تصنع، دون أن يخبرها بسفره، فترددت قليلًا، ثم احمر وجهها بعض الشيء، وقالت: أصل خدام جارنا اللي تحت طلع بصينية دقيق وسمن، علشان نعمل له شوية كعب الغزال.

فبغت «محسن»، قليلًا، وقال: «مصطفى بك»؟

فاستطردت «زنوبة»، وهي في عملها لا تنظر إليه: أصل ماعندوش حد هنا يعرف يعمله، قام قصدنا، وعلى رأي المثل، النبي وصى على سابع جار.

فأخفى «محسن» ابتسامة، وذكر في الحال أنه أمس وهو آتٍ من المدرسة لمح «زنوبة» تخاطب خادم «مصطفى بك» على مدخل السلم، فظن أنها إنما تنبهه إلى كنس جزء السلم الخاص بهم؛ لأنه سمعها قالت ذلك عندما رأته يصعد ... أما الآن فقد وضح «لمحسن» أمر تلك المحادثة مع خادم الجار، ومن يدري لعلها هي التي عرضت عليه الخدمة كلما احتاج سيده إلى شيء، بصفة كونه أعزب، ليس له من يهيئ له ما يشتهي من كعك وكعب غزال وغير ذلك.

توجَّه فكر «محسن» بعدئذٍ إلى «سنية» وأراد أن يذهب إليها يخبرها بسفره ويعلم ما يكون من أمرها، وقد تخيل في رأسه أنها ستتكدر لهذا الخبر كما تكدر هو، فخفق قلبه لهذا الخاطر. وأخذ يهيئ في نفسه ما سيقول لها، ورأى أن يتشجع هذه المرة، ويجعل من خبر سفره هذا ذريعة يكشف بها عن بعض ما يكتمه منذ شهور.

جاء العصر، وعاد «محسن» من يومه الأخير بالمدرسة، قبل العطلة، فذهب توًّا إلى منزل الجيران.

ودخل كعادته حجرة «البيانو» فلم يجد بها أحدًا بادئ الأمر، ولكنه التفت إلى جهة الشرفة فوجد «سنية» تطل من نافذتها مصوبة أنظارها إلى القهوة الصغيرة، وقد ارتدت ثوبًا فاقع اللون على آخر طراز، ورتبت شعرها ترتيبًا غاية في الجمال، فدق قلبه في مكانه لحظة، وهي لا تحس وجوده، وأخيرًا تجرأ ومشى إليها في سكون، حتى حاذاها، ونظر معها إلى حيث تنظر، فإذا هو «مصطفى بك» جالسًا في مكانه بالقهوة وقد رفع بصره هو الآخر بأعين باسمة. فارتعد «محسن»، وأحست «سنية» قربه فبُغتت قليلًا، ثم استقامت ومدت يدها إليه مسلِّمة مرحبة في سرور وحماسة منادية إياه «يا أستاذي» كعادتها، ولاقته ملاقاةً أنسته نفسه وكل شيء، فاحمر وجهه وصمت لا يدري ما يجيب، فقادته إلى «البيانو» قائلة بصوت لذيذ: من زمان ماخدناش درس.

وجعلت تمر بيدها على مفاتيح «البيانو» و«محسن» ينظر إليها ساكتًا.

وأخيرًا قال متمتمًا: دا آخر درس.

فرفعت رأسها إليه ولم تفهم.

وعندئذٍ هدأ «محسن» من اضطرابه، وبدأ يقص عليها ما جاء به إليها اليوم، وأن عمته «زنوبة» مشتغلة بإعداد ما يلزم لسفره، وقد قالت إنها ذاهبة إلى «سنية» هانم في الغد، ولكنه لم يستطع صبرًا على انتظار الغد؛ لذلك ما إن خرج من المدرسة حتى جاء إلى «سنية» توًّا، ثم سكت قليلًا ونظر إلى «سنية»، فإذا هي ساكتة أيضًا تنظر إليه، وهو يلهث بعد كلامه.

فاستطرد يقول إنه حزين ... وصمت غير مستطيع أن يستمر فيما اختطَّه.

فقالت «سنية» في لطف حار: حزين؟! ... ليه حزين؟

فأجاب الفتى مترددًا: علشان.

فأردفت «سنية»: علشان مسافر؟

فقال «محسن» بصوت خافت متلعثم غير مفحم: أيوه.

وكأنها أدركت أو شكَّت في أمره مما يبدو عليه، فتلطفت قليلًا، وازداد صوتها نعومة وأنوثة بغير ما تعمُّد؛ كأنما شيء في قرارتها يدفعها إلى تشجيعه، أو على الأقل يجيد الاستماع إلى ما يقول في هذا الشأن.

فأظهرت له الاستغراب؛ إذ يحزن لسفر قصير الأجل كهذا، وقالت له في ابتسامة مغرية: إنها لا تصدق أنه حزين من أجل شيء كهذا قط. ولكن «محسن» لم يجب، ولم يزد على أن خفق قلبه شديدًا كلما هم بالكلام. واستطردت «سنية» تقول في رقة: علشان إيه صحيح انت حزين؟ إخص عليك ... مش عايز تقول لي؟

فتمتم «محسن» بألفاظ خافتة، ثم قال وهو ينظر إلى الأرض: علشان ... مسافر.

فامتعضت «سنية» قليلًا لهذا الجواب: وسكتت هي الأخرى لحظة، ثم قالت بصوت عادي فيه رنة الجد: مش تسلم على «ماما» قبل ما تسافر؟

فأجاب الفتى وقد رفع رأسه: أيوه.

فنهضت «سنية» وصفقت للخادمة تناديها، فلما حضرت سألتها عن مولاتها الكبيرة إذا كانت قد عادت من الخارج، فأجابت الجارية سلبًا، فالتفتت «سنية» إلى «محسن» وقالت: مش عارفة راحت فين! خرجت النهارده بدري على غير عادتها من غير ما تقول لي.

ونهضت قافزة إلى الشرفة، ولبثت تنظر منها.

فرفع «محسن» رأسه، والتفت إليها خلسة، وقد انقبضت نفسه، وأحس شكًّا مبهما يخزه، ولكنها عادت إليه مبتسمة، واقترحت عليه العزف على «البيانو» عزف الوداع، ثم لم تمهله حتى يجيب؛ بل عرجت بمناسبة ذكر «البيانو» إلى ذكر «سليم» كيف أنه كان لطيفًا غاية اللطف؛ إذ عُني بإصلاح «البيانو» إصلاحًا جيدًا. فنظر إليها «محسن» مبغوتًا وذكر خطاب «سليم»، وحاول أن يستشف منها أو يشم رائحة تهكم، فلم يجد إلا العكس.

واستطردت «سنية» تشكر «سليم» بعبارات جميلة، فاختلج فؤاد «محسن»، ومر بخاطره أن «عبده» قد أصلح كذلك أسلاك الكهرباء، فلماذا لم تذكره بكلمة شكر واحدة ... وتذكر «محسن» ساعة دخوله اليوم إذ كانت «سنية» عندئذٍ بالشرفة تطيل النظر إلى القهوة، وقال في نفسه: ترى أكان ذلك من أجل «سليم»؟ وأحس الفتى وخزًا عميقًا، غير أنه عاد فتذكر، ألا يمكن أن يكون ذلك لأن «سليم» قد ترك هذه القهوة من زمان، ولم يعد يُرى جالسًا بها مطلقًا، من يوم أن طُلب لإصلاح البيانو، كأن طريقة القهوة لم تعد مفيدة له في الوصول إلى شيء.

إذن لماذا؟ وإلى من كانت تنظر وترنو من الشرفة الآن على ذلك النحو؟ وشعر «محسن» بشيء من الحقد الغريب على «سنية»، كأنه ما كان يجب أن يراها تتنزل في عينيه إلى مثل هذا.

واختلج قلبه بذلك الإحساس الذي أحسه نحوها، يوم لاحظ سلوكها نحو عبده، وهو يصلح الكهرباء، ونحو «سليم»، وقد جاء يكشف عن «البيانو»، وقد أنكر عليها في قرارة نفسه تصرفها، وعدَّه خليعًا ومستلفتًا عمدًا لأنظار الضيفين.

كبر عند «محسن» هذا الإحساس وهو صامت، وفجأة إذا هو يرى «سنية» تنهض من مجلسها القريب منه، وكأنما اعتراها ضيق أو ملل ومشت متجهة إلى الشرفة، وما إن بلغتها حتى بدا على وجهها شبه تورد وانتعاش، وكان «محسن» يلاحظها من طرفٍ خفي، فرأى ذلك كله منها وخُيل إليه، أو هي الحقيقة، أنها كأنما تتنفس الصُّعَداء، وتبتسم لشخص في الخارج، فانقبض قلب «محسن» انقباضة قوية، ودب فيه يأس هائل، وتحقق في لحظة أن كل أحلامه عبث، وأن كل آماله فيها سراب، وثبت عنده الآن أنه كان مغفلًا إذ بالغ في تقدير الواقع؛ إذ كان يرجو من مثلها أكثر مما يستحقه مثله ... من هو؟ طالب كفاءة صغير، وما صلته بها للآن؟ أليست صلة عائلية بسيطة، وإذا كانت «سنية» تتلطف معه، أليس لأنه غلام صغير؟ أو على الأقل هي تعامله كذلك، وهو في نظرها دائمًا ذلك الغلام الصغير، الذي لا تتحرج من ملاطفته أمام والدتها، وأن تقدم له «الشربات»، وأن تملأ جيوبه بالحلوى و«الملبس» إذا شاءت؟

والملاطفة والمجاملة غير الاهتمام والميل؛ أتراها اهتمت بمقدمه يومًا، واحمر وجهها كما فعلت يوم حضر «سليم» أو «عبده»، أو حتى كما تفعل الآن وهي ترنو من الشرفة إلى ... إلى ...!

اسودت الحجرة في عين «محسن»، وهذه الأفكار تدور في رأسه بسرعة الحلم المخيف، ونظر حوله ورأى نفسه جالسًا بمفرده، وهي منصرفة عنه لاهية، وشعر بحرج موقفه وبرودته ولماذا هو منسي مهمل؟

فنهض وقد تصبب جبينه عرقًا، ولم تشعر «سنية» بنهوضه، فوقف لحظة حائرًا مترددًا، وأدخل يده في جيبه، يبحث عن منديله، فعثر بمنديل «سنية» الحريري الذي لا يفارقه، فدق قلبه، ولكن يأسه عاجله، فاصفر وجمد في مكانه، وخُيل إليه أنه في حاجة إلى أن يبكي أو يصيح أو يموت، ولكنه لم يفعل شيئًا من ذلك، ولم يستطع حتى أن ينبه «سنية» إلى وجوده، وإلى نهوضه.

وحانت من «سنية» أخيرًا التفاتة إليه، فأقبلت نحوه ومدت يدها قائلة: مروح خلاص؟

ورأى «محسن» في صورتها وحركتها فتورًا، فهم منه أنها لا تلح في استبقائه، وخُيل إليه أنه مكث أكثر مما يجب، فمد يده إليها بسرعة، وقال بصوت لا يكاد يخرج: أيوه مروح.

وتركها وذهب إلى الباب، وهي تنظر إليه مبغوتة لهذا الذي أتى لوداعها وانصرف على هذا الشكل ... غير أن «محسن» وقف بعتبة الحجرة مترددًا، ولاحظت «سنية» ذلك فذهبت إليه تستطلع سبب وقوفه، فأدخل «محسن» يدًا مرتجفة في جيبه وأخرج منديلها الحريري، وأعطاها إياه بدون أن ينظر إليها.

فتناولت «سنية» المنديل، وقلبته في يدها دهشة وقد عرفته، ولكنها لم تفهم بادئ الأمر، وصاحت: منديلي؟ لقيته فين؟

فأجاب «محسن» بصوت خافت: كان عندي.

وكانت هذه الجملة كافية أن تفهم منها «سنية»، فنظرت إلى وجه «محسن» الشاب لحظة، وتأملت ملامحه الحزينة، وشفتيه المتوترتين وعينيه المتراخيتين، ترسلان إلى الأرض نظرات جامدة قانطة، وذكرها منظره الساعة بمنظره يوم رأته يستذكر ماضيه، وقد لبس وجهه لها فجأة لبوس الرجولة، غير أنه اليوم يبدو خطيرًا رهيبًا؛ كمن يجالد شيئًا داخل نفسه.

وأدركت «سنية» بعض ما بالفتى، وارتاحت له.

وأراد «محسن» أن ينصرف فمنعته، وقالت له بصوت رقيق: كان عندك من زمان يا مكار؟

فلم يُجِب «محسن»، ولكنه أحس دمه يغلي، وقد حسب «سنية» تهزأ بهذه العبارة الفاترة، فتجلد، وأردفت «سنية» قائلة: وإيه السبب ترجع لي المنديل دلوقت؟

فأجابها «محسن» بلهجة عنيفة فجائية: مش بتاعي.

فبغتت «سنية»، ولكنها هدأت واقتربت من «محسن» ومدت له يدها بالمنديل في لطف، وقالت بإخلاص: وإذا كنت أهديه لك؟

فأجاب «محسن» على الفور بلهجة جافة قاطعة: مش عايز.

فتغير وجه «سنية» وقد فاجأها هذا الجواب، ورأت من وجه الفتى أنه في أشد حالات الغضب والتأثر، فصمتت، ولبثا لحظة في سكون، وأخيرًا قالت له بصوت متغير خافت: محسن انت زعلان من حاجة؟

فلم يجب.

ورفعت رأسها تطلب إليه أن يجيب، فرأت دمعتين تنحدران من عينيه فاهتز قلبها قليلًا، ومدت يدها برفق، وتناولت يده وقادته إلى المقعد الكبير، قائلة بصوت ملؤه التأثر: محسن ... بتعيط؟ محسن.

وجلست وأجلسته بجانبها، ولكن «محسن» لم يستطع كتم دموعه، فانهمرت رغم إرادته وبغير مسوغ.

فبادرت إليه «سنية» بمنديلها الحريري، تمسح عينيه، وتقول له في رقة: زعلان مني انا؟ زعلان مني انا يا «محسن»؟

ولكن الفتى لم يجب بغير شهقاته العصبية، التي حاول عبثًا حبسها ... واستمرت «سنية» منفعلة تقول: محسن! ... إخص عليك! ... محسن.

ثم التصقت به وقبلته في أسفل خده قبلة أحس الفتى مع حرارتها رطوبة كالندى، فنظر إليها فإذا هي أيضًا تبكي من التأثر.

وساد بينهما سكون لحظة، قطعته «سنية» بسؤالها عن سبب بكائه وألحت، فهمهم بكلمات غير مفهومة أولًا، ثم تمالك قليلًا، وقال: إنه يعلم بأنه ليس عندها شيئًا مذكورًا، غير أن ما يؤلمه هو أنها تخفي عنه ذلك، وكان الأجدر بها أن.

ولم يستطع الاستمرار في هذا القول، فعاد يقول إنه لا يعتب عليها في شيء قط، وإنما هو متألم لنفسه ويؤنب نفسه لأنه أغرق في آمال موهومة كاذبة، وأحلام خادعة.

وجعل يتكلم هكذا بصوت مرتجف محموم، و«سنية» تصغي إليه بتأثر وفي لذة، إلى أن فرغ، فاقتربت منه، وأمسكت بيده المرتجفة، وقالت بصوت خافت وهي تنظر إليه: مالكش حق يا «محسن»، برده كده؟ ... إخص عليك!

لو كنت مش مهم عندي ماكنتش أعلمك «البيانو»، وأقول «لماما» توافق على كده، تعرف من يوم ما شفتك فوق السطح.

فاختلج قلب الفتى، وابتسمت أساريره، والتفت إليها وكأن عينيه تسألان: صحيح؟

واستطردت «سنية» تتكلم بصوت خافت حار تؤنبه على ما قال، وهو لا يدري ماذا يجيب وماذا يفعل، ولا يشعر أين هو؛ فكأنه في عالم أثيري لا يحس فيه حتى السعادة التي تعبق بها تلك اللحظة، وصحا قليلًا، وأخذ يساور نفسه في الارتماء على يديها تقبيلًا، وعلى خدها ووجهها لثمًا، ولكن لم يجرؤ على شيء من هذا، وظل جامدًا كالصنم، واللحظات تمر سراعًا ... وأخيرًا جمع شتات عزمه، وتحرك كي ينفذ إيحاء قلبه الواثب، ولكن كان قد فات الأوان؛ إذ سمع وقع خطوات الجارية تعلن عودة سيدتها الكبيرة من الخارج. وعندئذٍ نهض «محسن» بسرعة واقفًا كما نهضت «سنية»، وأخذ يصلح من شأنه، وأراد أن يبحث في جيبه عن منديله يمسح به وجهه فأسرعت «سنية» وناولته خُفيةً منديلها الحريري، وغافلت الجارية وهمست له: خليه عندك تذكار.

ودخلت السيدة الكبيرة لابسة حبرة الخارج السوداء ورأت «محسن»، فأقبلت تسلم عليه، وأخبرتها «سنية» أنه أتى يودعها قبل سفره، وأنه انتظرها خصوصًا حتى تعود من الخارج، فشكرته الست الكبيرة، وتمنت له سفرًا سعيدًا، وطلبت إليه أن يسلم لها على والدته؛ وأن يذكِّر والدته بها إن كانت نسيتها، واستأذن الفتى في الانصراف، فشيعته المرأتان حتى السلم؛ فنزل بسرعة؛ وهو لا يشعر أنه في العالم، وكأنه ينزل من عالم آخر!

الفصل السابع عشر

عاد «محسن» إلى المنزل فوجد عمته «زنوبة» قد جهزت الهدية التي سيحملها معه في الصباح، ولم يكن بالمنزل وقتئذٍ غيرها وغير «مبروك» الخادم على مقربة منها، يشتغل بربط «الطرد» بخيوط «الدبارة». وما إن رأت زنوبة «محسن» مقبلًا يلهث حتى أخبرته أن كل شيء قد هُيئ ولم يبقَ غير ملابسه، وأنها كانت تود أن تجهز ما سيأخذه منها … ولم تأتِ السيدة والدة «سنية» … وما كادت «زنوبة» تذكر ذلك حتى عادت فاستدركت بسرعة، وارتبكت وكأنما أخطأت في ذكر هذا، لكن «محسن» انتبه، فسألها على الفور في بعض استغراب: هي كانت هنا؟

وأرادت «زنوبة» أن تغالط، فاقترب منها «محسن» بلطف، وقد داخله شك، وما زال بها يلاطفها، ويتزلف إليها، حتى أخبرته قائلة: أيوه كانت هنا، تعرف ليه؟ … كلام في سرك يا «محسن» … ماتقولش لحد.

وكانت لهجتها لهجة من يُفضي بسر، فأجابها الفتى على الفور في جد: ماتخافيش، قولي يا عمتي.

فترددت قليلًا ثم مالت عليه هامسة، وأخبرته أن والدة «سنية» جاءت اليوم كي تقول لها: إن «الدكتور حلمي» زوجها قد وقع في يده خطاب من «سليم أفندي» إلى «سنية» فاستاء وتكدر، غير أنه لم يشأ أن يفضح الأمر استبقاءً لصلة الجوار، فأعاد إليه خطاب «سنية» بالتالي، ولم يخبر ابنته بالخطاب ولا بما فعل، ولم يقل إلا لزوجته وحدها كي تنبه في رفقٍ «زنوبة» بأن هذا أمر ما كان يصح مطلقًا.

فأطرق «محسن» مفكرًا بعد سماع هذا، وتعكَّر هناؤه قليلًا إذ خطرت له فكرة لم يرتح لها، إن «سنية» لم تعلم بأمر خطاب «سليم»، وليست هي إذن التي ردته إليه على

الشكل الذي رآه «هو» و«عبده»، ومن يدري؟ لعلها ما كانت ترد الخطاب لو أنه وقع في يدها هي؛ بل ربما أجابت عليه أحسن جواب.

انقبض الفتى لهذه الفكرة، لكنه عاد فذكر ما حدث بينه وبينها منذ لحظة، فاستبعد الفكرة، أوليست تقول له الآن وهي تبكي إنها منذ رأته فوق السطح، ثم تلك القبلة، كلا، هذه الفكرة الغبراء، لا ينبغي أن تمر بخاطره، بل إنه ليس له الحق أن يرتاب في «سنية» معبودته بعد الآن، وعادت «زنوبة» إلى الكلام هامسة في شيء من السخرية الصفراء: والنبي أنا كنت حاسبة الحساب ده من زمان، هو «سليم» رايح يجيبها البر.

وقت أن ورد خطاب «سليم» كان «الدكتور حلمي» جالسًا كعادته في كل عصر، أمام «أجزاخانة الجوالي» يشرب فنجانًا من القهوة، أحضر له من قهوة قريبة، ويتحدث بصوت الراوي في بضعة أشخاص جالسين حوله، يظهر من سنهم وهيئتهم أنهم مثله موظفون بالمعاش.

وكانوا مصغين إلى حديثه بلذة ودهشة وانتباه، وهو يصف لهم حياته في السودان وقت أن كان طبيبًا بالجيش، وكان ذلك الحديث ولا شك تتمة لسلسلة أحاديث سابقة، ألقاها عليهم في جلسات الأمس وما قبله، وكان «الدكتور» قد سكت قليلًا ريثما يتناول رشفة من فنجانه، ويستجمع ذاكرته، ناظرًا بأعين لاهية إلى ميدان «السيدة زينب» أمامه وما فيه من حركة وضجيج، ولم ينبس أحد من الجالسين بكلمة، بل لبثوا ناظرين إليه منتظرين عودته إلى الكلام، ولم يأتِ كذلك أحدٌ بحركة، إلا واحدًا انتهز فرصة تلك الهدنة، وأخرج علبة «نشوق» من جيب سترته السوداء القديمة الطراز، وبعد أن عزم بها في صمت على من بجواره، تناول منها قليلًا و«درصه» في أنفه، ثم عطس عطسًا شديدًا وهو يقول: الله ... الله ... الله.

وعندئذٍ التفت إليه الصيدلي القانوني، الجالس على مقربة منه وقال له: إنت حاتقعد تعطس لنا يا «شعبان أفندي»؟! إحنا غرضنا نسمع كلام «الدكتور».

فأخرج «شعبان أفندي» — باشكاتب الدفترخانة الشرعية سابقًا — منديله الكبير من جيبه، ومسح به أنفه، وهو يقول: خلاص يا سيدي، قول بقا يا دكتور.

فوضع الطبيب فنجانه على الصينية الصغيرة الموضوعة فوق كرسي أمامه وألقى نظرة على من معه، كأنما يسألهم أين انتهى به الحديث، فأسرع أحدهم — وهو مفتش صحة «مركز أشمون» سابقًا ومن ذوي الأملاك — حالًا فقال وهو يسبح بسبحة كهرمانية،

يحملها على سبيل الوجاهة، أو «ورع آخر الزمان»: كنت بتقول لنا على «مديرية بحر الغزال».

فرد «الدكتور حلمي»؛ وكأنما يخاطب نفسه: أيوه ... «بحر الغزال».

ثم صمت ونظر إلى الميدان بعيون اللاهي المستذكر الماضي فقال «شعبان أفندي»، بعد أن كتم عطسة دهمته: صحيح يا دكتور، مديرية بحر الغزال، وحدها تطلع قد القطر المصري كله؟

فلم يُجِب «الدكتور» على سؤاله، والتفت إلى الحاضرين جميعًا، كأنما سيبدأ الحديث ... وعندئذٍ سكت الكل، ونظروا إليه مصغين. فرفع يده بمنشة ذات مقبض من العاج، طرد بها الذباب عن صينية القهوة، ثم قال: أنا أقول لكم عن بحر الغزال ... آه ... بحر الغزال ... السودان!

ولفظ كلمة «السودان» الأخيرة في شبه تنهد عميق، أو شبه أسف صادر من كل نفسه، أو شبه حنين يهز كل شخصه، حتى ليخيل للسامع أن «السودان» كل شيء عند هذا الرجل، هو كل حياة هذا الطبيب العسكري الكهل، الذي عاش ردحًا من الزمن فيه.

وأخذ يسرد للحاضرين بصوتٍ حارٍّ رصين، كيف رافق الحملة المصرية في ارتياد مجاهل «بحر الغزال»... قال: إنهم كانوا معسكرين قرب «غابة شامبي»، واستيقظوا في صباح ذات يوم مبكرين، واصطف الجنود، كلٌّ يحمل كوبًا في يده، وسار هو بينهم بزجاجة «الكينا»، يصب في كل كوب جرعة أو جرعتين، كالمتبع في تلك البقاع كل صباحٍ؛ للاحتياط والمناعة ضد «الحمى»، ثم حملوا متاعهم وخيامهم وقِرب مائهم، وساروا مخترقين الغابات الكثيفة الشاسعة والأدغال، يتقدمهم دليل زنجي من أهل البلاد. فقد كانوا كلما قطعوا مرحلة ودخل عليهم الليل، وقفوا وأوقدوا النيران حتى لا تقربهم وحوش الغابة، ومع ذلك فقد كانوا يرون على ضوء اللهب المشتعل في الدغل اليابس، عيون النمور والأسود التي ترود حولهم عن بعد، وكان يشع منها لمعان وبريق ذو ألوان غريبة جميلة، وكانت تلك الليالي حارة وأحيانًا مقمرة بديعة في سكون عميق، لا يقطعه سوى زئير الأسد الذي يرود طالبًا نصيبًا من لحم التيتل والجاموس الوحشي الذي كانوا يشوونه على النار. وكان «الدكتور حلمي» مع الجنود جالسين القرفصاء، ينظرون بعيون حريصة، وبعضهم يحمل البنادق استعدادًا للطوارئ. ومع ما في تلك اللحظات من قلق مخيف، كان الدكتور يشعر بلذة تلك المغامرة، ويود لو تتاح الفرصة ويرى أسدًا هاجمًا عليهم فيصطادونه بالبنادق! ... وأفضى بهذه الرغبة لجندي سوداني ملحق بخدمته، فقال له الجندي: سترى

أغرب من ذلك عندما نصل إلى «تونج»! ... سنرى بعض الوطنيين يصطادون الأسد بالرماح القصيرة.

وفي الصباح استأنفت الحملة السير.

وكانوا أثناء سيرهم يصطادون طعامهم. والصيد هناك كثير: من تيتل مدهن، إلى جاموس دسم؛ وطالما كان «الدكتور» ينحرف عن الحملة وراء صيد جميل، وكان شأن كل عسكري حديث سلمت إليه بندقية أن يضرب بغير حساب كل حيوان يصادفه مفترسًا كان أو غير مفترس.

ولاحظ منه ذلك الجندي السوداني المرافق له، فقال له يومًا محذرًا: اضرب في تلك الغابات أي حيوان تشاء مهما كان ضاريًا، إلا حيوانًا واحدًا، حذار أن تمسه بسوء. وإلا نال الحملة بأجمعها كل السوء: القرد! ... إياك أن تتعرض لقرد الغابة.

واستمرت الحملة تسير أيامًا، حتى نهكها التعب، وفرغ منها الماء!

وقال الدليل: إنه لا رجاء في ماء إلا بعد ثلاث مراحل؛ حيث توجد بئر واحدة. والغابة كالصحراء أحيانًا قد يوجد بها كل شيء، إلا الماء الصالح للشرب.

وأخيرًا اقترب الجنود من مكان البئر حيث يستريحون ويطفئون ظمأهم بعد سيرٍ مضنٍ في حرارة شديدة وطعام دسم، ولكن قبل أن يبلغوا البئر ببضع مئات من الأمتار، تراءى «للدكتور» أن يغافل الحملة، ويسرع بمفرده من طريق مختصر بين الأدغال، ويصل إلى البئر قبلهم ... ونفذ الفكرة في الحال دون أن يخبر حتى جنديه السوداني، وما إن بلغ البئر حتى وقف في مكانه دهشًا مبغوتًا، ذلك أنه شاهد على البئر قردًا هائلًا واقفًا بلا حراك.

فتردد قليلًا ثم لوَّح له بيده، فلم يتحرك القرد، فالتقط حصاة من الأرض رماه بها، فلم يتحرك كذلك، فصوب إليه بندقيته فنظر إليه القرد نظرة ثاقبة، ولكنه لم يترك موقفه، فحار «الدكتور» في أمره، ولم ير بدًّا من إطلاق النار على ذلك القرد الغريب.

وفعل ... فسقط القرد مضرجًا بدمه في البئر دون أن يلفظ صرخةً، وتقدم «الدكتور» في الحال نحو البئر، وانحنى ينظر إلى القرد فيها، ويرى مقدار ما بها من ماء، لكنه وجد بها ما أدهشه ... وجد ما ينيف عن مائة قرد ساقطة كذلك في الأعماق. فتساءل عما أتى بكل تلك القردة إلى البئر؟ وما تصنع فيها؟

وفكر ... ثم فكر. فاتضح له شيء عجيب: أن هذه القردة أتت في الحقيقة؛ كي تشرب من البئر، وكانت وسيلتها للوصول إلى مائها الغائر أن وقف ذلك القرد الكبير وأمسك بيده قردًا ثانيًا قد تدلى وهذا القرد الثاني أمسك بثالث قد تدلى كذلك تحته، والثالث

برابع. وهكذا جعلت بعض القردة من أجسادها سلمًا تدلَّى في البئر كي ينزل عليه ويصعد البعض الآخر.

أدرك «الدكتور» ذلك من هيئة القردة، ومن أيدي بعضها التي ما زالت ممسكة بأيدي البعض.

فعجب قائلًا في نفسه: أيُّ تضامن هذا الذي يرى من تلك القردة، وأي تضحية قام بها القرد الكبير في سبيل الجماعة، هذا القرد الذي لم يشأ أن يتحرك وقد رماه بالحصى وصوب إليه النار ... إنه كان ممسكًا برفاقه المتدلين في البئر ... واستقبل الموت بعيون ثابتة وجسد جامد دون أن يترك مهمته ... لقد كان في استطاعته ترك رفاقه والهرب بنفسه راكضًا قافزًا إلى الغاب بمجرد رؤية «الدكتور».

ندم الطبيب قليلًا على قتله ذلك القرد، غير أن ما كان يشغل باله في تلك اللحظة أمر أهم من ذلك بكثير ... الحملة عما قليل تصل منهوكة القوى، وسترتمي على البئر طالبة الماء، وها هي ذي البئر قد تلوثت بالدم والقردة فيها، ودون الوصول إلى بئر أخرى مراحل يجب قطعها في أيام وليال، وهل تستطيع الحملة الاستمرار في السير أيامًا أخرى بلا ماء؟ ... ثم من المتسبب في كل هذا؟ ... ومن المسئول عما حدث وعما يحدث من تعريض الجنود لخطر كهذا؟ ... إن إتلاف بئر أو تسميم بئر لهو في قانون الجيش جريمة، فكيف والمتسبب هو طبيب الجيش؟ ... أي الموظف المكلف بمراعاة صحة الجنود، والذي لا عمل له إلا صحة الجنود. ما كاد «الدكتور» يخطر له ذلك حتى ارتعد، ولبث قليلًا كالمذهول، ولكنه صحا لنفسه فجأة وركض إلى الأدغال في الحال، وقد رأى أفضل طريق للخلاص من هذه الورطة أن يتجاهل كل شيء ويعود إلى الحملة، ويسير خلفها دون أن يشعر به أحد، كأنما هو لم يفارق الحملة قط، ولم يسبقها إلى البئر ولا يدري ما بها.

ولم تلبث الحملة أن بلغت البئر، وهرع الجنود إليها فرحين مهللين بعد أن أنزلوا أحما لهم وأثقال دوابهم؛ وأعدوا قرب مائهم الفارغة.

وما كادوا ينظرون ويرون ما بالبئر حتى صاحوا ساخطين لاعنين، ودب فيهم اليأس؛ وانقلب تهليلهم أناتٍ غيظًا وحزنًا واجفًا قلقًا؛ غير أن أحدًا لم يلاحظ ما في نفسه.

وأخذت الحملة تتشاور فيما يجب عمله؛ و«الدكتور» حائر يتوارى ويتجلد، وإذا هو فجأة يشعر بشخص خلفه، فالتفت إليه فإذا هو يرى الجندي السوداني ينظر إليه نظرة فهم منها في الحال أن ذلك الجندي قد أدرك الحقيقة.

ولم ينبس الجندي بكلمةٍ بعدئذٍ، بل تناول حبلًا متينًا من بين الأمتعة، وذهب إلى البئر صامتًا، وربط طرفه إلى حجر ثقيل، وأدلى بطرفه الآخر في البئر، ثم صاح بالجميع

أن ابتعدوا واختبئوا بين الأدغال القريبة، ولم يمضِ قليل حتى كانت الحملة مختفية خلف الأدغال، تنظر إلى البئر عن كثب ... وفي الحال أبصر الجميع من مخبئهم قردًا يبرز من البئر متسلقًا الحبل وقد تبعته باقي القردة، ثم إذا هم يرون في عجب قردين كبيرين في الحملة، يحملان القرد القتيل المضرج بدمه، ويركضان به مع باقي القردة التي اختفت قافزة بين الأشجار.

وهكذا خلت البئر والمكان، وأرادت الحملة أن تظهر من مكمنها وتجري إلى البئر تنظف ما تلوث من مائها، ثم تأخذ حاجتها منها، لكن الجندي السوداني أشار بالتريث والسكون؛ قائلًا «للدكتور» الذي كان بجانبه في همس: إن القردة لا تترك ثأرها، ولن تدع دم القتيل يذهب هدرًا.

حقًّا ... لم يكد يتم كلامه حتى ظهرت القردة ثانية من كل فج من أرجاء الغابة؛ كأنما ذهبت تلك الجماعة لتخبر كل قرود المكان وتعبئ منها الجيوش ... واقتربت طائفة من البئر، وجعلت تبحث بعيونها الضيقة الثاقبة، وإذا هي تعثر على جندي من الحملة كان لسوء حظه متخلفًا عن زملائه، مشتغلًا بإعداد الخيام دون أن يشعر أو يأبه باختباء الباقين ... انقضت القردة على ذلك الرجل، فألقت به على الأرض، وشدوه شدًّا من قدميه وجذبوه جذبًا على الأرض، وساروا به إلى داخل الغابة، وقبل أن يختفوا به قفز باقي القردة إلى الأشجار القريبة، فاقتطعوا منها أغصانًا رفيعة كالسياط. ونزلوا بسرعة البرق إلى هذا الرجل وانهالوا عليه ضربًا.

ولم تستطع الحملة إنقاذ ذلك الجندي المسكين من أيدي تلك الطائفة إلا بثمن غال: هو الإسراع باستئناف السير، وترك تلك البقعة بعد أن أخذ ما تيسر من الماء، وعلى الرغم من تعب الجنود المضني، وحاجتهم القصوى إلى الراحة.

وهكذا خرجت الحملة من تلك المنطقة سريعًا، ودخلت في غابة أخرى كالمحيط اتساعًا، وكل أشجارها من نوع «الماهوجني» الذي يصنع منه الأثاث الثمين.

استراحت الحملة في هذا المكان وقتًا ما، وكان «الدكتور» قد نسي فعلته، وأخذ يفكر في موضوعات أخرى وتأملات أثارها ما حوله من منظر تلك الأشجار ... فكر في تلك الثروة الهائلة التي يجنيها من يستطيع استثمار أشجار غابة كهذه الغابة الثمينة، إن العقبة الوحيدة دون تلك الثروة هي صعوبة المواصلات، فلو أن خطًّا حديديًّا يصل تلك المنطقة بمصر أو بالبحر لكانت الثروة مضمونة.

في المستقبل سيحدث ذلك ... لهذا تريد إنجلترا السودان لا لليوم؛ بل للغد.

ولم يسترسل كثيرًا في هذه الأفكار ... فإن الحملة سرعان ما غادرت المنطقة واستأنفت سيرها إلى منطقة أخرى، ثم إلى غيرها حتى بلغت «تونج»، وهناك حطت رحلها قليلًا، واستطاع «الدكتور» أن يجوس خلال المكان ويرى غرائبه. وإن أروع ما يذكره عنه أنه أبصر أسدًا رابضًا يأكل غزالًا بين مخالبه، وكان أحد الوطنيين السود يرقب الأسد عن كثب؛ وكأنما يتحين الفرص ليسلب الملك غذاءه.

وكان مع «الدكتور» جنديه السوداني، فقال له الجندي السوداني: انظر ما سيفعله هذا الزنجي الآن ... إن الغزال في هذه المنطقة قليل، وهذا الزنجي يريد استخلاص الغزال من بين مخالب الأسد. ولم يتم قوله حتى أبصر «الدكتور» ذلك الزنجي يقترب من الأسد، ويرشقه بحصاة متحرشًا، ولكن الأسد لم يأبه له كأنما هي بعوضة لمسته لا أكثر، فأعاد الزنجي الكَرة بقطعة من الحجر أصابت الأسد في رأسه. فالتفت الأسد إليه، ثم انصرف برأسه عنه، شأن المزدري، وعاد فاشتغل بفريسته، فتناول الزنجي حجرًا أكبر من الحجر الأول وصوبه إلى أنفه وألقاه في عنف، فلم يطق الأسد صبرًا ونهض متثاقلًا، ثم تمطى ومشى ببطء نحو الزنجي. فقال «الدكتور» في نفسه: لقد ضاع الزنجي وهلك إن لم يول الأدبار في الحال. غير أن الزنجي لم يتحرك من موقفه حتى أقبل الأسد ولم يبقَ بينه وبينه إلا ثلاث خطوات أو أربع، فتناول الزنجي رمحًا قصيرًا كان قربه على الأرض ثم واجه الأسد، والأسد إذا هاجم وثب، فلما همَّ بالوثوب على الزنجي، انحنى الزنجي بسرعة البرق مقابلًا بالرمح أسفل عنق الأسد، وإذا بملك الغابة قد خرَّ صريعًا على الأرض، و«الدكتور» من دهشه وذهوله لا يدري كيف وقع كل ذلك في بضع ثوان! إلا أن تكون براعة ومقدرة وخفة حركة وُهبها ذلك الزنجي بطول المرانة منذ الصغر! ... وتقدم ذلك الرجل بعدئذٍ إلى الغزال، فحمله ومضى به تحت أنظار الإعجاب بهذا الذي انتزع الفريسة قسرًا من براثن الأسد. غير أن الجندي السوداني لم يستغرب ذلك كثيرًا، وقال «للدكتور»: إن المهم في قتال الأسد اجتناب لطمته؛ لأن القوة كلها في لطمته؛ فقد شاهد هو يومًا على شاطئ بحر الزراف أسدًا ينزل الماء ليشرب، فاعترضه تمساح هائل قبض بفكيه على إحدى ساقيه، وكان عراك هائل بين الوحشين بترت فيه ساق الأسد، ولكن الأسد لطم ظهر التمساح بمخلبه فكسره.

مضت أيام أخرى، واستأنفت الحملة السير مخترقة هذه المرة مناطق تشبه السهول، ذات طبيعة صحراوية، قد نمت فيها أعشاب طويلة، يقطنها قوم يشبهون الأعراب، صناعتهم تربية قطعان الإبل والنوق، ويعيشون على ظهور الإبل في مسكن كالهودج، ينتقل بهم ويتحرك تبعًا لانتقال القطعان وحركة الإبل التي ترعى العشب، وهكذا يظل

أولئك القوم ساكنين متنقلين، إلى غير غاية؛ كركب سفينة تائهة وسط المحيط؛ أو كقبطان «ذهبية» متنقلة في النيل، والمعاملة فيما بينهم بالإبل والنوق، وفيما بينهم وبين الأجانب بالإبل والنوق كذلك، أو بألبانها وفرائها وصوفها. وقد رأى «الدكتور» هذا فخطرت له أيضًا تلك الأفكار وقال في نفسه: حبذا تنظيم هذه المراعي الطبيعية الواسعة، واستثمار صوف حيوانها وألبانها.

وما إن وصل «الدكتور» في حديثه ذلك العصر إلى هذا القدر، حتى جاء «الصيدلي» طالب يريد تركيب دواء، فنهض مستأذنًا، واضطر الدكتور إلى قطع الحديث، وهنا أخرج «شعبان أفندي» علبة نشوقه وهو يقول معجبًا بما سمع: شيء عظيم خالص يا دكتور.

وأطرق مفتش الصحة قليلًا مفكرًا، ثم قال مستعلمًا: وأرض الجزيرة دي إيه أمال؟

فقال «الدكتور حلمي»: أرض الجزيرة دي خليها على جنب … دي يا افندي منطقة تنفع لكل شيء: للقطن وللمطاط «الكوتشوك»، وأسهل شيء زرعها كلها غابات كوتشوك … كنز من كنوز المستقبل اللي في السودان.

فهز مفتش الصحة رأسه هزة معنوية، وأطرق صامتًا، ثم فجأة رفع رأسه وقال: بلغني يا «دكتور» إنك رجعت بقرشين طيبين من السودان.

فأجاب «الدكتور حلمي»: قصدك القرشين تمن الأفيال؟

فسأل الباشكاتب متعجبًا، بعد أن عطس عطسة قوية: أفيال؟

فقال مفتش الصحة: الدكتور، كان قد اصطاد في السودان ستة أفيال، وباع العاج اللي فيها بأربعة آلاف جنيه تقريبًا أيام الغلا.

فقال «شعبان أفندي» دهشًا مستكثرًا: يا سلام، أربعة آلاف جنيه أفيال؟ أفيال إيه دول يا خويا؟

فأجاب «الدكتور» باسمًا: أمال انت فاكر إيه؟ … الفيل الواحد فيه عاج بمتوسط ٦٠ قنطار، والقنطار الواحد تمنه النهارده ١٠ جنيه، يعني الفيل تقريبًا يساوي ٦٠٠ جنيه؛ ولذلك كل واحد يحب يصطاد أفيال لازم يتحصل على رخصة من الحكومة، والرخصة رسومها باهظة.

فقال «شعبان أفندي»: يا سلام! … دي السودان فيها خيرات عظيمة على كده؟

ثم تنهد، وقال: يا بختك يا «دكتور»! … إنت شوقتنا … لو كنت في شبابي كنت غامرت ورحت بلاد الله لخلق الله … هو يا شيخ طول ما احنا قاعدين نايمين هنا نفلح!

ثم عطس عطسة، ومسح أنفه بمنديله، وقال: وكانت معاك العائلة يا «دكتور» في السودان؟

فأجاب الدكتور ومفتش الصحة معًا: ماكانش فيه عائلة لسه.

فقال «شعبان أفندي»: بقى حضرتك كنت أعزب ايامها؟

فأجاب «الدكتور حلمي»: بالطبع، أنا تزوجت وخلفت بعد رجوعي من السودان، فين دلوقت ... بقى لي عشرين سنة.

فقال «شعبان أفندي»: عشرين سنة! ... بقا حضرت واقعة أم درمان؟

فقال «الدكتور حلمي» مفاخرًا وقد صعَّر خده وأنفه في خيلاء: أم درمان وغيرها ... معلوم ... أنا حضرت مواقع حربية، أنا مش بس طبيب، أنا رجل عسكري.

ومرَّ في تلك اللحظة ساعي البريد، ونظر إلى «الدكتور حلمي»، فقطع هذا الأخير كلامه، وسأل الساعي كعادته عما إذا كانت له خطابات. وقد اعتاد الساعي أن يمر بالأجزاخانة ويسلم الدكتور ما له من بريد بدل أن يذهب إلى المنزل، غير أنه في ذلك اليوم تردد قليلًا، قبل أن يجيب «الدكتور»، ثم دمدم بصوت خافت، وهو يدس يده في محفظة الخطابات التي يحملها.

– لأ ... بس ده جواب ... علشان ...

وكأنما رأى الساعي أخيرًا أن ليس من اختصاصه التصرف على نحو معين بالذات، وأن «الدكتور» هو والد المرسل إليها على أي حال ... لا سيما والخطاب معنون «سنية هانم» كريمة «الدكتور أحمد حلمي»، فلم ير بدًّا من تسليم الخطاب إليه ... وتناول الدكتور الخطاب وفضه دون أن ينظر إلى المكتوب على الغلاف وقرأ ... فلم يفهم شيئًا بادئ الأمر، فأعاد القراءة فلم يفهم، فنظر إلى الغلاف ففهم ... ونهض في الحال مستأذنًا وقد تغير وجهه، وخُيل إليه أن شرفه العسكري قد أهين، وقصد توًّا منزله؛ كي يسأل ابنته الحساب.

ودخل البيت فاستقبلته زوجته؛ فصرخ فيها وأراها الخطاب وأفهمها مضمونه؛ فأخذت تهدئ من حدته وتقنعه بوجوب إخفاء ذلك عن ابنته؛ حتى لا يثير فضيحة، وحتى لا يسيء إلى جارتها «زنوبة»، وتعهدت أن تذهب هي إلى «زنوبة»، وتشكو إليها ما حصل، وتجتهد في إصلاح كل شيء بالهدوء والحسنى ... ثم أفهمته أن ابنته «سنية» قد تكون مظلومة، ولا تدري شيئًا عن خطاب بعثه جار سيئ السلوك والأدب؛ فلماذا يُغضب ابنته ويكدرها من أجل شيء ليست بمسئولة عنه؛ وليس الذنب فيه ذنبها؟

وهكذا ظلت به حتى سكت، ومرت الحادثة.

الفصل الثامن عشر

انتهى «مبروك» الخادم من أمر «الطرد»، ووضعه جانبًا، واقترب يسأل عما يلزم بعد ذلك تأهبًا لسفر «محسن»، فنهضت «زنوبة»، في نشاط واهتمام؛ كأنما تتملق محسن الآن وقد قرب سفره؛ كي يذكرها بالخير لدى أهله الموسرين، وأمرت «مبروك» في الحال أن يصعد إلى حجرة السطح ويأتي بحقيبة «محسن»، وأشارت للفتى أن ينهض أيضًا ليدلها على ما يأخذه معه من حاجاته وما يتركه في حفظها حتى يعود، وهكذا أخذا يجردان ويفرزان الملابس والحاجات، وإذا «مبروك» بأعلى السلم يصيح «بزنوبة» مناديًا، فهرعت إليه فأخبرها أن «سنية» على سطح منزلها تريد محادثتها. فصعدت «زنوبة» وظل «محسن» وحده، وقد دق قلبه وتساءل عما تريد قوله الآن، ومر نحو ربع ساعة، ونزلت «زنوبة» تستأنف عملها، فنظر إليها «محسن» بأعين المستفهم، ولكنها كانت ملتفتة إلى جلباب له في يدها تثنيه؛ لتضعه في الحقيبة، وهي تقول: إياك تنسى الجوابات يا «محسن»، اكتب لي أنا رخره، مش بس تفكر في اعمامك وأنا لأ، زي السنة اللي فاتت!

فأجاب «محسن» بلطف: السنة اللي فاتت عمي «حنفي» كتب لي رديت عليه، وبعت لك السلام ... مش اللي يكتب لي أرد عليه؟

فقالت «زنوبة» على الفور: يا عيني عليَّ ... بس لو كنت أعرف اقرا واكتب؟ يا ما غلبت السنة اللي فاتت اقول لاعمامك يكتبوا لي جواب وهم ساعة يكسلوا، وساعة يقولوا بعتنا من طرفنا، بزيادة ... هي سيرة جوابات! ... لكن السنة دي والنبي لازم يوصلك مني جواب خصوصي ... «سنية» اسم الله عليها رايحة تكتب لي.

فاضطرب «محسن»، وقال مندفعًا: «سنية»؟

فهزت رأسها إيجابًا، وقالت له إن «سنية» نادتها الساعة لتستعجلها في الذهاب إليهم كسابق وعدها، ولكنها اعتذرت بانهماكها في تجهيز أمتعة «محسن»، فلما جاء ذكر

«محسن» قالت «سنية» لزنوبة في رقة: ألا تنسى تذكر سلامها وسلام والدتها كلما كتبت إليه. فأخبرتها «زنوبة» أنها في حيرة؛ إذ إن إخوتها لا يكتبون لها أي جواب إلا بالإلحاح المضني؛ ففي الحال عرضت «سنية» أن تقوم هي بكتابة ما تمليه عليها «زنوبة»، وأنها مستعدة أن تكتب لها إلى «محسن» كل ما تريد: خطابًا، خطابين، ثلاثة ... فشكرتها «زنوبة»، وفرحت حامدة الله إذ أغناها عن الاعتماد على مثل «حنفي».

غير أن فرح «زنوبة» لا يقاس إلى جانب فرح الفتى «محسن» الداخلي، وهو يتصور خطابًا يصله مكتوبًا بيد «سنية» ... ورقص قلبه رقصًا، وجعل من الآن يرحب بالسفر، لا لشيء سوى انتظار هذا الخطاب المحبوب.

جاء الليل والتف «الشعب» حول «محسن» قبل أن ينام، يودعونه ويذكرونه بما يطلبون من الأرياف من هدايا يأتيهم بها عند عودته؛ فالبعض يطلب «برام أرز بالحمام»، والبعض يطلب لبنًا «رايب» و«بتاو» ... إلخ ... إلخ.

ودخل «محسن» سريره فرحًا وهو يوصي «حنفي» بسرعة الاستيقاظ في الصباح؛ إذ إن السفر في أول قطار، وكان على «حنفي أفندي» مهمة مرافقة «محسن» إلى المحطة وقطع التذكرة له بصفته رئيس الأسرة المسئول.

ولم ينم «محسن» تلك الليلة؛ فقد ظلت صور يومه اللذيذة تتعاقب في مخيلته، وظل يرقب الصبح بفارغ الصبر اغتباطًا بالسفر حيث يرى أهله بعد طول غياب، ويرى الريف، وبالأخص ينتظر الخطاب الموعود.

وبدت تباشير الفجر، ثم دق جرس المنبه، وكانوا قد هيئوه البارحة على الساعة الخامسة، فنهض «محسن» قافزًا، واتجه توًّا إلى سرير «حنفي»، وهو يعلم أنه عمل شاق إيقاظ «حنفي».

ورفع عن رأسه الغطاء وناداه فلم يُجِب فكرر النداء مرة ... ومرتين ... وثلاثًا، بلا فائدة.

وأخيرًا تقلب «حنفي أفندي»، في فراشه وقال متبرمًا: يا سلام! ... تقلق منامنا نص الليل! ... دا ماكانش سفر!

فصاح به «محسن»: نص الليل ازاي؟ ... الشمس طلعت.

فدمدم «حنفي» والنوم ملء جفنيه: هو لسه الجرس ضرب؟

فقال «محسن»، متهكمًا: هوه ... هوه ... إنت نايم! دا ضرب وشبع ضرب.

فلم يقنع «حنفي»، بادئ الأمر، وطفق «محسن» يقنعه بالكلام، وطالت بينهما المناقشة والجدل في الساعة والمنبه وضرب الجرس، وكلها مماطلة واستفادة وقت ينامه

«حنفي» ... وسمع «عبده» أخيرًا المجادلة فنهض مغضبًا، وذهب إلى «حنفي» وأيقظه بالطريقة المعهودة قائلًا: إن «حنفي» لا ينفع فيه غير ذلك.

ما انتصفت السابعة حتى كان «حنفي» و«محسن» في محطة باب الحديد، وقد وقف «محسن» و«طرده» وحقيبته تحت ساعة المحطة في انتظار «حنفي» الذي ذهب لقطع التذكرة منذ ربع ساعة ولم يعد ... وتململ «محسن» في موقفه ونظر إلى الساعة في قلق، وقد رأى المسافرين يهرعون أفواجًا إلى القطار الواقف ... ومضت دقائق أخرى، وبقي على تحرك القطار خمس دقائق ولم يظهر «حنفي».

ودق الجرس الأول فالتفت «محسن» يمينًا وشمالًا مضطربًا باحثًا بعينه، ولكن «حنفي» لم يبد له أثر ... ومر الوقت، والناس المتأخرون يجرون نحو القطار، والحمالون يصيحون أن لم يبقَ غير دقيقة، وأخذ الفتى في يأس ينظر إلى عقرب الساعة الكبيرة فوق رأسه، وأخيرًا صاح العامل: «إوعى رجلك»، وصفَّر القطار وتحرك رويدًا رويدًا، ثم غادر المحطة، حتى اختفى عن الأنظار، كل ذلك و«حنفي» لم يرجع بعد.

كظم «محسن» غيظه وأراد أن يستدعي حمالًا يعهد إليه بأمر العفش، ريثما يذهب هو للبحث عن «حنفي»، وإذا فجأة «الرئيس شرف» يظهر آتيًا يجري، والتذكرة في فمه وهو يتصبب عرقًا، فلما دنا من «محسن» مد له يده بالتذكرة وصاح به: خذ اركب قوام الا مفيش وقت.

فنظر إليه «محسن» نظرة باردة، وقال له بفتور وغيظ وقد جمد في مكانه: هو فين القطر؟

فالتفت «حنفي» إلى حيث يقف القطار عادة فلم يره، فاطمأن وهدأ وأخرج منديله، ومسح جبينه، ثم قال: لسه ما جاش؟ ... مش قلت لك احنا قمنا بدري؟

فاستشاط الفتى، وقال ساخطًا: ما جاش؟! ... القطر قام من مدة ساعة.

فأجابه «حنفي» وكأنه غير مصدق: كلام إيه؟ ... قام؟ ... إنت متأكد؟

فقال له «محسن» ببرود: إنت كنت فين؟ رحت فين حضرتك؟

فأجاب «الرئيس شرف»: يا أخي رحت اقطع لك التذكرة، لقيت الناس زحام كده على الشباك، قمت قلت في عقل بالي اقعد انتظر شوية على الدكة.

– أي دكة؟!

– أنا عارف؟ ... دكة خضرة هناك بمسند.

فأضاف «محسن» بسرعة في غيظ مكتوم: قامت راحت عليك نومة!

(انتهى الجزء الأول.)

الجزء الثاني

انهض ... انهض يا أوزوريس،
أنا ولدك «حوريس»،
جئت أعيد إليك الحياة،
لم يزل لك قلبك الحقيقي،
قلبك الماضي ...

كتاب الموتى

الفصل الأول

ركب «محسن» القطار التالي، وما كاد يستقر في مقعده بركن «الديوان» قرب النافذة، حتى انعزل عن بقية المسافرين، وانطلق إلى نفسه وخيالاته وتذكاراته و«سنية» وموقف الأمس ... إلخ ... إلخ.

وذهب عنه صخب المحطة وقلق الانتظار، وشغل السفر واستعداداته وتمهيداته. وها هو ذا الآن أمام الواقع، وقد ابتعد به القطار عن مصر المحبوبة، وقد ترك «حنفي أفندي»، على الرصيف يجري خلف القطار، ويشير إليه بعلامات الوداع، ويصيح في سذاجة مؤثرة: «مع السلامة يا محسن».

هذا «الرئيس حنفي»، الذي كان «محسن» ساخطًا عليه منذ قليل.

ما أطيبه نفسًا! لقد حمل له «الطرد»، والحقيبة، حتى أدخلهما عربة الدرجة الثانية، وهو يتصبب عرقًا.

أهو في حقيقة؟ ... أغادر مصر حقًّا بهذه السرعة؟ وأعمامه الرفاق «الشعب»، و«حنفي» «الرئيس شرف»، أسيبيت الليلة في بلد آخر وفي سرير آخر؟ ... تأثر «محسن» قليلًا، واكتأب ولم يرفه عنه إلا تذكُّره أن سفره لمدة قصيرة، وأنه سيحظى بخطاب «سنية»، ذلك الخطاب الذي ينتظره من الآن ولما يبرح بعد ... والذي سيكون أثمن ما يملك في الحياة.

ثم ... شيء آخر سيعزيه عن مصر: رؤية والدته العزيزة ووالده.

التفت «محسن» بعدئذٍ إلى من معه من المسافرين، فإذا هم عديدون: ما بين معمم ومطربش، وقد امتلأ بهم «الديوان» حتى لم يبقَ فيه محلٌّ خالٍ، وكانوا إلى تلك الساعة ساكنين، غير أنهم كانوا يترامقون؛ كأنما هم لا يطيقون الصمت والعزلة، ويودون لو يهم أحدهم بالكلام.

ولم يلبثوا أن أطل عليهم رجل ضخم الجسم، يلبس قفطانًا من الجوخ. ويحمل «صرة» ... وأخذ يتفرس في وجوههم، كأنما يسألهم محلًّا خاليًا وكانوا قبل ذلك يرونه في ممر العربة المستطيل، جيئة وذهابًا بصرَّته، باحثًا عن مقعد، فتناظروا لحظة، ثم أفسح أحدهم بجانبه شبرين، حاشرًا الباقين عن يمينه وعن يساره حشرًا صارمًا، وقال للرجل: تفضل يا حضرة، كلنا مسلمين نساع بعضنا.

فدخل الرجل بصرَّته وجلس ... وعندئذٍ مال أفندي من «ركاب الديوان» على جاره، وحادثه بصوت بدأ خافتًا خاضعًا، وانتهى بعد لحظة جهوريًّا علنيًّا؛ كأنما يريد به إشراك الباقين في الإصغاء إلى ما يقول، وأخذ الباقون حقيقة يحولون الأنظار إليه في لذة وانتباه، كأنما هم ينصتون إلى خطيب في مسجد أو واعظ في كنيسة.

وشجع المتكلم إقبال الحاضرين، فاندفع يتسلسل من موضوع إلى موضوع. وكان قد استهل كلامه بمناسبة إفساح المحل للراكب الجديد، فذكر في إعجاب، عواطف الارتباط والتضامن القلبي، بين أهل مصر، وقال: لو أن هذا حدث في أوروبا لما تحرك أحد من المسافرين، ولو كانت تجمعه والقادم صلة معرفة أو صداقة؛ فهو لن ينقص من راحته لأجل أحد مهما يكن.

ثم أردف قائلًا على ذكر أوروبا إنه كان مرة راكبًا قطارًا في إحدى بلدانها.

وهنا قاطعه أحد الركاب المعممين في إكبار ساذج: حضرتك رحت بلاد بره؟

فأجاب «الأفندي» بابتسام وتواضع.

– رحت بلاد النمسا وبلاد الإنجليز وفرنسا؛ لأنه كان لي أشغال تجارية.

وعاد «الأفندي» إلى موضوعه، وقال إنه كان مرة راكبًا القطار في أوروبا، وقضى فيه يومًا وليلة دون أن ينبس ببنت شفة لا هو ولا أحد من جيرانه المسافرين معه في ذات الديوان، كأنما كل فرد منهم ابن كوكب غير كوكب الأرض، لا أنهم كلهم بشر لهم قلب واحد، وعواطف واحدة.

فتنحنح شيخ في ركن الديوان، ثم قال: بلاد مافيهاش إسلام!

فلم يُجِب «الأفندي»، وتغير لون وجهه قليلًا، ومد يده متشاغلًا ينفض تراب السفر عن طربوشه، في شيء من الخجل والامتعاض.

وعندئذٍ لاحظ أحد الركاب في معصمه علامة الصليب، فأيقن أن الشيخ قد فاه عن حسن قصد بكلمة أسيء فهمها، فتدخل مصلحًا بلطف: قصدك يا سي الشيخ بلاد مافيهاش قلوب ... مش زي بلدنا سواء أقباط أو مسلمين ... كلنا إخوان.

ولاحظ أيضًا راكب آخر ذلك، وكان من المتنورين، فدخل في الحديث وأخذ يستدرك الكلام بكياسة حتى وصل إلى إفهام الحاضرين، أن كلمة «إسلام» الشائع استعمالها وترديدها في مصر بين بعض الأوساط ليس لها في الحقيقة أي صبغة دينية أو طائفية؛ وإنما معناها ومغزاها عاطفة الرحمة وطيبة القلب وارتباط الأفئدة، عواطف يجدها الإنسان في مصر ولا يجدها في أوروبا، حيث فشا في نفوس الإفرنج سم النفعية، وعم التكالب على المصالح الشخصية الفردية.

فتأمل الجميع من معمم ومطربش هذا الكلام وهذا التفسير؛ وكأنه كشف لهم عن حقيقة كانت من قبل متوارية تحت لبس تلك الكلمة، واستحسنوا الكلام وأعجبوا به، وختم الموضوع.

وجاء واحد من الحاضرين، يريد العودة بالأفندي، المتكلم الأول، إلى حديثه، فقال له: بقا يا حضرة الافندي في بلاد بره يطيق الواحد مايكلمش جاره في الوابور؟

فدخل آخر قائلًا: طيب دا الواحد منا، ولا مؤاخذة، يركب قطر السكة الضيقة نص ساعة ينزل عارف اللي راكبين كلهم.

وقال ثالث: وليه نروح بعيد، أدحنا لسه ماوصلناش بنها، وحلت لنا البركة بحضراتكم.

ثم أخذ يجيل بصره فيهم فردًا فردًا مبتسمًا؛ كأنما يحييهم.

وأخيرًا وقع نظره على الفتى «محسن» قابعًا منزويًا، ولم يحس أحد وجوده … فوقفت عنده عيناه قليلًا؛ كأنما استغرب سكوته وقد تكلم الجميع؛ وكأنه أراد إخراجه من عزلته، فانحنى عليه بأدب، وقال له بلطف: مش كده والا إيه يا افندي يا صغير؟

فالتفت إليه الفتى حائرًا، وتمتم في حياء بضع كلمات، ثم أدار وجهه إلى النافذة، عائدًا إلى سكوته وعزلته، فانصرف عنه محدثه ولم يلح، ونسب ما رأى منه إلى صغره وخجله وأدبه أن يتكلم وسط من هم أكبر منه سنًّا.

وعاد الجميع إلى الكلام في شتى الموضوعات حتى بلغوا محطة بنها، فأطل بعضهم من النافذة واشترى كعكًا وبيضًا وبرتقالًا ويوسفافانديًّا، وفرش بعضهم منديله في حجره وهو يعزم على الحاضرين: تفضلوا معانا.

فيجيبون: عشت.

وتحرك القطار وغادر «بنها»، واشتغل الركاب برهةً بالأكل، إلا «الأفندي» المتكلم أولًا، عاد يقول ملاحظًا: بمناسبة «تفضلوا معانا» يبقى الراكب من دول في أوروبا يطلع السجاير، وياكل ويشرب، ولا يقول لجاره انت فين!

فاستغفر الحاضرون مستنكرين، وأخذ كلٌّ يبدي رأيه في ذلك واستطرد «الأفندي» يقول مفاخرًا: أهل مصر شعب أصيل عريق، فين ٨ آلاف سنة واحنا في وادي النيل، وكنا نعرف الزراعة والفلاحة، ولنا قرى ومزارع وفلاحين وقت ما كانت أوروبا لسه ماوصلتش حتى لدرجة التوحش.

فقال الرجل ذو «الصرة»، بعد أن بصق بصقة كبيرة من النافذة: صدقت … الرك على الأصل يا سيدنا «الافندي».

وهنا قال «الأفندي» المتنور؛ كأن فكرة بدت له: لك حق يا افندم، إحنا من غير شك شعب اجتماعي بالفطرة. والسبب هو اننا شعب زراعي من قديم الأزل، في الوقت اللي كانت فيه الشعوب الأخرى تعيش عيشة الصيد والتوحش والانفراد، كل قبيلة أو كل أسرة في مكان … لكن احنا من قبل التاريخ، كانت القرى، وكان العمار ساكن وادي النيل، الاجتماع في دمنا، والحياة الاجتماعية طبيعة نشأت فينا من أجيال.

الفصل الثاني

وصل القطار أخيرًا إلى محطة «دمنهور»، فأطل «محسن» على الرصيف، ووجد بانتظاره البربري «السفرجي» والأوسطى «أحمد الحوذي»، وما كادا يتعرفانه حتى تعلقا بمركبة القطار وصاحا: حمد الله على السلامة يا بيه!

– شيل العفش يا «بلال» واسبق.

– والبيه الصغير؟

– أنا أوصل البيه الصغير؟ ... تفضل يا بيه.

وهكذا نزل الفتى وسار بين الخادمين كالمستغرب، وكلمة «بيه» ترن في أذنه رنينًا غريبًا. غير أنه لم يكره ذلك هذه المرة، وشعر بشعور غريب من الخيلاء، وود لو أن «سنية» كانت حاضرة لترى وتسمع.

وركب العربة ذات الجياد، تتهادى به وسط هذه المدينة المتواضعة، والناس على جانبَي الطريق في المقاهي والدكاكين ترمقه، وكأنها تتساءل عن هذا الفتى الراكب عربة الوجيه المعروف. وبلغ المنزل وإذا والدته تنتظره بأعلى السلم، فما إن رأته حتى فتحت ذراعيها، وما إن رآها حتى اندفع إليها في حركة غريزية، وإذا هما متعانقان والأم تلمع في عينيها دموع التأثر والفرح. وكلما فرغت من عناقه عادت إليه.

وأخيرًا أخذت تفحصه من رأسه إلى قدميه، وتجسه، وتلمس أعضاءه؛ كأنما تتفقدها عضوًا عضوًا، وفي النهاية ابتسمت، وقالت له: بسم الله ما شاء الله ... إنت سمنت يا «محسن».

ثم أدخلته إلى الردهة وأجلسته بجانبها، وطفقت تسأله عن «مصر» وعن عمته وأعمامه، وعندئذٍ دخل أبوه، فنهض «محسن»، وهرع إليه يقبل يده، ثم وقف حتى جلس أبوه فجلس. وحينئذٍ سأله أبوه: إيه يا «محسن»؟ ... إزاي امتحان وسط السنة؟

فتململ الفتى قليلًا، وقال: مفيش السنة دي امتحان وسط السنة، لغوه.

فقال أبوه في شيء من الدهش والأسف: لغوه؟ إزاي! مالهمش حق أبدًا.

وطفق بعدئذٍ يسأله عن الدروس وعن أساتذته، وعن امتحان الكفاءة الذي سيتقدم إليه «محسن» هذا العام، إلى أن تدخلت والدته قائلة لزوجها منتهرة: يا باي عليك! مش تصبر عليه لما ياخد نفسه؟ أيوه اسأله الأول عن صحته وعن صحة اعمامه، إيه قلة الذوق بتاعتك دي؟

ثم نظرت إلى حذاء زوجها وقالت: برده لابسها؟ مش قلت لك اقلع جزمتك دي؟ … مايليقش بمقامك أبدًا تلبس جزمة زي دي، إنت عندك جزم كتير … ليه بقا تلبس دي؟ إنت مركزك مش صغير في البلد.

فأجابها الزوج وهو يخلعها: أنا نسيت، حاضر يا هانم، ماتزعليش.

– يا علي … يا علي!

فلبى نداءه بربري آخر، غير الذي رآه «محسن» بالمحطة، وكان لابسًا قفطانًا أبيض، ومتمنطقًا بحزام أحمر، فأمره البك الكبير بإحضار حذاء آخر على عجل.

وجعل الفتى «محسن» عندئذٍ يجيل النظر فيما حوله من طنافس غالية، ورياش فاخرة، ونقل بصره في أدب إلى والدته، ونظر إلى ما عليها من ملابس ثمينة.

وكانت والدته في تلك الأثناء تنظر إليه هي الأخرى، فما لبثت أن قالت: لبسك مش عاجبني يا «محسن».

فغمغم الفتى بكلمات مبهمة، واستطردت الأم تقول: إنت ماطلعتش زيي أبدًا.

وهنا تنحنح أبوه، وقال: ولا زيي.

فالتفتت الزوجة إلى زوجها، وقالت في تهكم: من إمتى يا حضرة العمدة الفلاح … إنت تنكر إني أنا اللي مدنتك، وعلمتك الأبهة؟

فأجاب زوجها متقهقرًا: الله … وأنا قلت حاجة؟ طبعًا انتي يا هانم تركية بنت أتراك.

فسكتت قليلًا، ثم انصرفت عنه إلى «محسن» وقالت: صحيح شيء غريب … «محسن» ماطلعش زيي، من صغره كان يبكي ويصرخ نهار ما نبعت له العربية الملاكي على باب المدرسة … فاكر؟

فقال أبوه وهو يشد جواربه الحريرية الغالية: فلاح … تقولي له إيه؟

فأطرق «محسن» لدى سماعه هذه الكلمة، وقد أحس عاطفة كالازدراء، لا يدري ألنفسه أم لغيره؟

مُدت مائدة العشاء، وجلس إليها «محسن» ووالدته ووالده، وجعل «بلال» البربري و«علي» البربري — وكلاهما بملابسه البيضاء وحزامه الأحمر، كأنهما من برابرة «فندق شبرد» يتنقلان بالصحاف والأواني ذات الألوان المتعددة والأطعمة اللذيذة، ومع ذلك كان «محسن» فاقد الشهية للأكل، يتناول من كل لونٍ لقمة، كأنما يقضي واجبًا عليه، ولاحظت والدته قلة أكله، فسألته في ذلك قائلة: ما لك يا «محسن»؟ ... الأكل مش عاجبك؟ ... عند اعمامك الأكل أحسن؟

فكاد الفتى يضحك؛ إذ ذكر قصعة الفول النابت، وورك الإوزة، الذي قذف به «عبده» من النافذة، ومع ذلك فقد كان هذا الفول النابت لذيذًا في فمه، لذيذًا وهو يلتهمه، وبجواره «مبروك» الخادم، يرشف نصيبه وعيناه اللامعتان ترمقان الدخان المتصاعد، وخياشيمه تستنشقه في شهية قوية، ثم «حنفي الرئيس شرف»، وباقي الجماعة، وهم مجتمعون حول هذه القصعة كأنها كعبة.

ما أسعد الجماعة! وما أحسن تلك الحياة مع الشعب! نعم لهذا كان يأكل، ولهذا سمن مع سوء الغذاء وقلة الألوان.

وجاء ميعاد النوم، وقادوا «محسن» إلى حجرته الخاصة، حجرة جميلة غالية الفرش، وأغلق عليه الباب، وقد أوى كل إلى مخدعه، فتأمل «محسن» ما حوله فإذا سرير واحد، وإذا هو وحده، بمفرده، وإذا الهدوء شامل، والسكون كأنه سكون الموت، فاكتأب لهذه الوحدة وأوحشه المكان وحن إلى سريره بجوار أسرَّة أعمامه في تلك الغرفة «العمومية» ذات الخمسة الأسرَّة، ينحشر فيها «الشعب» بأجمعه حشرًا، واشتد به الحنين ولما تمضِ به ليلة، حتى أدرك أنه كان هناك في نعيم، وأن هناك إنما هي الحياة، وما كانت أهنأها حياة، حياة الجماعة تلك ... حتى في متاعبها ولحظاتها الشقية!

الفصل الثالث

استيقظ «محسن» في اليوم التالي، ضيق الصدر، ضجر النفس. وجعل ينتقل في أرجاء المنزل الرحب، ويتأمل ما يقابله من أثاث أنيق، ومقتنيات فاخرة، تأمُّل غير المكترث. إلا أنه ذكر «سنية» فجأة فتغير شأنه، وانتعش فيه شيء من الزهو، فأقبل ينظر إلى ما حوله من جديد في اهتمام. وجاءت والدته إليه ترفل في ثوبها الجميل، فنظر إليها «محسن» معجبًا، وود لو أن «سنية» رأت والدته هذه ... ومر أبوه في بذلة غير بذلة الأمس، وفي يده عصا ثمينة ثقيلة، عليها نقوش ذهبية بديعة، فذكر الفتى في الحال كلمة والده بالأمس.

– فلاح ... تقولي له إيه!

فخجل قليلًا من نفسه، واستغرب كيف أنه ابن لهذين الوالدين، ولا يكون مثلهما. ووطَّن نفسه على التشبه بهما من الآن؛ فهو ليس بعدُ صغيرًا، وعليه أن يفهم حقيقة مركزه، وارتاح لهذه الفكرة، فراح يتقرب إلى والدته، ويتمسح بها، كأنما يطلب إليها أن تطلعه على أسرار حياة الأبهة هذه أو أن تُفهمه أو تجعله يتذوق تلك الحياة.

ولكن هذا كله كان وهمًا، وما كاد اليوم الأول ينصرم حتى عاد الملل يقتل «محسن»، وذهبت عنه الحماسة والنشوة، وذهب الخيلاء.

وأحس تلك الحقيقة في قرارة نفسه، إنه غريب بين أهله، وإن شيئًا لا يستوضحه يفصل بينه وبين والديه، وإنه مهما صنع فلا بد من تلك الكلفة والغموض بينه وبينهما، فليدعواه فلاحًا ما شاءا؛ فهو لن يستطيع أن يعيش كما يريدان. إنه في حاجة إلى تلك الحرية، وذلك الهواء الطلق الذي كان يستنشقه بين أعمامه السذج المتواضعين ومهما كان من أمر هذا المنزل بخدمه ونعمه؛ فهو يغل نفسه بأغلال ثقيلة لا طاقة له بها.

وانشرح صدره لهذه الخواطر فأمعن فيها بروح ثائرة، لم يعهدها فيه من قبل. وكانت كلمة فلاح التي لفظها أبوه أمس ما زالت تذل نفسه، فثار في سره على أبيه وجعل

يستعرض في ذهنه شخصية أبيه ونشأته. أليس هو فلاحًا أيضًا قبل كل شيء؟ أولم يكن فلاحًا من ذوي الأطيان ولا يزال؟ ما الذي غيَّره؟ أهي ملابسه وعصاه الثمينة وأحذيته وجواربه وخواتمه الماسية!

أليس هو التقليد؟ أليست هي والدته التركية الأصل التي أثرت في أبيه باسم التمدن؟ ... نعم، ولكن بأي حق يزدري الآن الفلاح؟! ألأن الفلاح فقير؟ وهل الفقر عيب؟!

وهكذا ظل «محسن» يقلب في رأسه أفكارًا من هذا النوع، وهو يتبرم بالمكان ويستوحش هذه الحياة، ولا يتصور كيف يقيم كذلك عشرة أيام وهو المتبرم باليوم الأول. وحن إلى منزل أعمامه حنين السمكة إلى مائها، وخطر له أن يتذرع بحجةٍ للسفر، والرجوع من حيث أتى ... غير أنه ذكر خطاب «سنية» الذي ينتظره، فسكت وأذعن وذكَّره ذلك بوجوب الكتابة إلى أعمامه يخبرهم بوصوله، فنهض لفوره إلى المكتب وأخذ يكتب لهم خطابًا يصف فيه شوقه الصادق. ثم أفرد خطابًا خاصًّا لعمته «زنوبة» يسلم عليها فيه ويرجو منها تبليغ سلامه إلى «سنية هانم» بعبارات غاية في الرقة؛ وكأنه يتوقع أن تطلع «سنية» على هذا الخطاب، فكتبه، كأنما يكتبه لها.

لاحظت والدته سأمه، فأشارت عليه بالنزهة في العزبة بضعة أيام حيث الأرض الآن يكسوها البرسيم كالبساط الأخضر. فوافق «محسن» مبتهجًا، وأمرت والدته بالعربة فهُيئت وأُعد ما يلزم للإقامة ببيت العزبة.

وما جاء العصر حتى كان «محسن» ووالده ووالدته وبعض الخدم في الطريق إلى «العزبة» وهي تبعد عن مدينة «دمنهور» بمقدار قليل. فما بلغت العربة «الجسر»، وجاوزت الجميزة الضخمة القائمة على مدخل «الجرن» حتى نبح كلب العزبة، وظهر خلفه «الخولي»، وشيخ العزبة وبعض أنفار «الوسية»، وسكت الكلب إذ عرف القادمين، وأحاط «الخولي» والشيخ ومن معهما بالعربة، يستقبلون ويخصُّون «محسن» بالترحيب، قائلين وهم يساعدونه على النزول إلى الأرض: يا تلتميت ألف مرحبا بالبيه الصغير، العزبة نورت بجناب البيه الصغير.

وقال «شيخ العزبة» ولحيته البيضاء الوقور تهتز إذ يتكلم: سلامات يا حضرة البيه، «سلامات يا حضرة البيه الصغير» ... سلامات يا حضرة الست ... سلامات ... سلامات كده.

واقترب أحد «الأنفار» من «محسن» وقال له: مش فاكرني يا جناب البيه؟ أنا «عبد المقصود» اللي كنت توصيني أيام مدرسة دمنهور أحضر لك الركوبة يوم الجمعة،

ونطلع نصطاد السمك في ترعة «أبو دياب» مش فاكر؟ بالأمارة كنت تركب الجحشة نص السكة، وتنزل تقول لي اركب يا «عبد المقصود» انت كمان، أقول لك يا بيه أنا مش تعبان، احنا فلاحين واخدين على المشي ... تقوم تزعل وتقول لازم تركب انت كمان ... مش فاكر يا بيه؟

فابتسم «محسن» وسكت ... وفي هذه الأثناء كان والد «محسن» ووالدته يحادثان الناظر والشيخ في شئون الزراعة، ويأمران وينهيان، وناظر العزبة يجيب في أدب: كل شيء تمام يا حضرة البيه، والمصارف أجرينا تطهيرها، والربع القبلي قصبناه للدرة، والبرسيم السنة جنابك شايفه ما شاء الله عليه ... سنة خضرا بقدوم البيه الصغير.

فالتفت البك الكبير إلى شيخ العزبة، وقال: وانت يا «شيخ حسن»؟ ... إيه حكاية «عرجاوي» والغفر البدو؟

– انتهت على خير يا حضرة البيه.

– أيوه. مش عايزين مشاكل بين البدو والفلاحين في العزبة.

– مفيش مشاكل يا بيه، صالحناهم على بعض بحضور وكيل العمدة وشيخ الغفر، والعزبة هادية بدو وفلاحين، صافية لبن.

ومشت الست نحو بيت العزبة، فتبعها زوجها و«محسن» والجميع.

وطفق الشيخ «حسن» يقول في الطريق: شرفتوا العزبة، والله سلامات، سلامات يا حضرة البيه، سلامات يا حضرة الست، سلامات يا بيه يا صغير ... سلامات كده.

وضاق صدر الست، فصاحت بالشيخ المسكين: دوشتنا بقا ... هي سيرة سلامات ... إنتم ليه كده لكاكين يا فلاحين؟

فامتعض «الشيخ» قليلًا، وخجل؛ لكنه قال مبتسمًا: ربنا يطول لنا عمركم، ما احنا يا حضرة الست فرحانين بيكم.

فتأثر «محسن» قليلًا، ولكنه سار خلف والدته ساكنًا مطرقًا. ووصل إلى علم الفلاحات قدوم أصحاب «الوسية»، فحضرن يزغردن، وتقدمت أجرؤهن، تريد أن تتناول يد الست تقبلها. فانتهرتها الست قائلة بازدراء: بعيد ... بعيد، حاسبي توسخي فستاني.

فأجابت الفلاحة في حلم وبِشر، ضاحكة الوجه: يوه! ... مش ستنا! نبوس إيدها، أمال نبوس إيد مين؟

فأشارت «الست» بيدها علامة الابتعاد، وتدخَّل الناظر ينفذ رغبة الست، فرفع ذراعه في الفضاء مرهبًا كأنما يرهب إوزًا أو دجاجًا، وقال: يالَّا يا ولية انت وهيه ... على داركم ... على داركم.

فتقهقر النسوة، وتراجعن إلى الوراء نحو دورهن، وهن مستمرات يزغردن.
فاقترب «محسن» من والدته، وقال في نبرة التأثر: ليه يا نينه تطرديهم؟ ... حرام.
فأجابت بجفاء وقلة اكتراث، وهي تجتاز باب البيت: حرام إيه؟ ... دول فلاحين.

الفصل الرابع

ما كاد «محسن» يستقر ساعة في غرفته ببيت العزبة، حتى كان وقت الغداء، فمدت المائدة ووقف على رأسها الخادمان النوبيان كالمعتاد، وجاءت «الست» يتبعها زوجها و«محسن»، وما نظرت إلى طبق الخبز البلدي، على المائدة حتى صاحت: الله! ... فين العيش «الفينو»؟

فغمغم أحد الخادمين: مفيش.

فزمجرت الست: نسيت تجيب عيش «فينو» معاك من «دمنهور»؟ كويس قوي، وأنا آكل ايه دلوقت؟

– أروح يا ستي أجيب من «دمنهور» وآجي حالًا.

فسكتت الست لحظة، ثم عادت فقالت بعد أن ألقت نظرة على الشمس المتوهجة في الخارج: الدنيا حر عليك يا «بلال»، قل لواحد فلاح يروح.

وهمَّ «بلال» بالذهاب، ولكنها استوقفته: اسمع يا «بلال»! ... نادي لي الناظر الكلب.

وخرج الخادم، وعاد بعد لحظة بالناظر، فقالت له الست: إزاي عايز توكلنا عيش من بتاع الفلاحين يا راجل يا مغفل؟!

فأجاب الناظر دهشًا مبغوتًا: دا عيش طازة يا ست، خبيز النهارده الصبح، وامراتي خابزاه بإيدها خصوصي علشان حضرتك.

فصاحت به: بلاش قرف، أنا آكل عيش من ده؟! امشي ابعت واحد فلاح حالًا يروح يجيب لي عيش افرنجي من «دمنهور».

– دلوقت يا ست في حر الأيالة؟

– أيوه، دلوقت في حر الأيالة.

– حاضر يا ست بس.

– بس إيه؟

– بس جنابك تعرفي إن الفلاح من دول بيشقى في الغيط من الساعة ٥ صباحًا، وما يصدق تيجي ساعة الضهرية؛ لأجل يرتمي تحت شجرة يستريح بعض شي.

– ما شاء الله، يستريح بعض شي؟ الفلاح يستريح؟! من إمتى العز ده؟

– مش بني آدم يا جناب الست؟

– امشي بلاش دلع، قوِّم حالًا واحد فلاح يجيب عيش من «دمنهور»، وإلا وحياة أبويا الكرباج ينزل على عمتك دي ... جنس فلاح!

فأطرق الناظر قليلًا، والتفتت الست إلى زوجها البك؛ كأنما تنتهره على سكوته، واكتفائه بالمشاهدة، فأسرع البك يوافق في ربكة وعجلة قائلًا: أيوه، أمال إيه، ابعت واحد فلاح من اللي نايمين زي الجاموس في الدار.

فرفع الناظر رأسه وقال: حاضر.

وأردفت الست: والا روح انت بنفسك إن كنت عايز تدلعهم، ما انت زيهم ... يعني انت كنت ابن ترك؟

فقال الناظر في أدب: حاضر.

ثم خرج يلبي هذا الأمر الصارم، و«محسن» يتبعه بنظره مشفقًا حتى غاب، فخفض الفتى بصره، وجعل يداعب أزرار سترته، متجنبًا النظر إلى والديه؛ كأنه خجل من سلوكهما.

صبر «محسن» حتى انتهى الغداء، فترك والديه، وانسل إلى الخارج حيث الحرية والفضاء، والفلاحون السذج البسطاء كرماء النفس ... فكان أول من صادف «الشيخ حسن» قاعدًا على مصطبة المضيفة، وبيده سبحة، وهو باهت الوجه متغير الصوت، يتوسل إلى «عبد العاطي البدوي» خفير العزبة الخصوصي، وهذا يصيح في وجهه بصوت مخيف: والله والله «عرجاوي» ما يخشها ... وشرف «البدوي» نطسه الوش من هادي الباروده.

– مفيش لزوم للشوشرة يا «عبد العاطي» ... البيه هنا، إعمل معروف.

– والله هادا الفلاح ما يبات فيها.

– مش حصل الصلح بينكم، على يد وكيل العمدة؟

– إحنا بدو شرفا، ما يمشي علينا كلام عمدة فلاحين.

قال هذا وترك الشيخ «حسن» وسار متعاليًا وعلى شفته انفراجة ازدراء. ومر في طريقه «بمحسن»، وكان قد وقف عن كثب يرى ويستمع، غير مريد قطع المحاورة بينهما، فلما دنا منه «عبد العاطي» ناداه، وسأله عما قال «للشيخ حسن» منذ لحظة، وعن السبب

في حقده على «عرجاوي» الفلاح، فأجابه الخفير البدوي في صلف بأن هذا الفتى الفلاح «عرجاوي» يريد الزواج من أخته البدوية، وأن أخته هامت بهذا الفلاح، ولم يفلح في إرجاعها عنه، لا الضرب المبرح، ولا النصح، ولا المعايرة بنزولها عن «محتدها البدوي» إلى الاقتران بفلاح.

وفي النهاية، اتفقت مع «عرجاوي» على الهرب والزواج به، على الرغم من إرادة أخيها «عبد العاطي»، فأقسم «عبد العاطي»، ألا تقع عينه على «عرجاوي» هذا حتى يقتله، وقد حاولوا الصلح بينهما، وحاولت الفتاة العربية استعطاف أخيها، وساقت إليه من يغير رأيه فيها وفي زوجها الفلاح فلم ينفع كل ذلك. وأصر عبد العاطي على تنفيذ حكمه ... هذا ما فهمه «محسن» من هذا البدوي، وعندئذٍ نظر إليه وسأله في رفق: بقا «البدوي» أحسن من الفلاح يا «عبد العاطي»؟

فأجاب الخفير وهو يحدق به مستغربًا جهله: كيف يا بيه «البدوي» مثل «الفلاح»؟!

– إيه الفرق بين الاتنين؟

– كيف يا «بيه» ... كيف؟ البدوي أصيل.

– والفلاح مش أصيل؟

– الفلاح عبد ابن عبد ... إحنا بدو ما نرضى الضيم.

ترك «محسن» «عبد العاطي» وسار وحيدًا يفكر فيما سمع منه، وقد تذكَّر قول مدرس تاريخ مصر القديمة إن الفلاح المصري الحاضر، إن هو إلا ذلك الفلاح المصري الغابر، الذي كان يعيش ويحرث ويزرع نفس الأرض قبل أن يكون البدو بدوًا، ولقد توالت العصور عليه، وتوالت الأمم عليه؛ لكنه لبعده عن المدن والحضر، ولاعتصامه ببطون القرى، نائيًا عن مهب العواصف السياسية والاجتماعية في العواصم، حيث تقيم الأمم المغيرة عادةً وتختلط الأجناس؛ لم يستطع طول الزمن ولا تقلباته أن تغير من نفسه شيئًا ... فهل هذا الفلاح من يصح اتهامه بألا أصل له وهو أصل الأصول؟! ولكن العيب عيب الفلاح وحده، لأنه يجهل أصله هذا، بينما البدوي يتوارث ما يسميه أصلًا أبًا عن جد، وقبيلة عن قبيلة. ثم أليس من دلائل الأصل العريق تلك الطيبة التي طُبع عليها الفلاح، وذلك الهدوء وحب السلام عنوان المدنية والاستقرار، بينما هذا البدوي لا يزال على الوحشية وحب الحرب والثأر والدم، بقايا الحياة الأولى الهمجية القلقة غير المستقرة، التي أساسها الغزو والسلب ونهب القبيلة للقبيلة، ولكن الفلاح يجهل أيضًا كيف يدافع

عن نفسه، فيقول إن طيبته وحبه للسلام إن هو إلا نتيجة أصله الزراعي العريق وما تطلبه حياة الزراعة من السلم والاطمئنان ونبذ الغزو والسلب، حياة مدنية اجتماعية، لا حياة وحشية برية جبلية، فهدوءه وسلامه كرم أصل لا عبودية ولا خسة عبد ابن عبد.

ذهب «محسن» بعدئذٍ إلى الشيخ «حسن» وجلس بجواره على المصطبة، ونظر إليه قليلًا وإلى لحيته البيضاء، ثم قال له: يا عم «الشيخ حسن»، البدوي أحسن والا الفلاح؟

فالتفت إليه الشيخ ثم أجاب وهو يسبح بسبحته: البدو دول يا جناب البيه جماعة خطافة جرابيع، لا لهم دين ولا ملة، ولا يعرفوا رحمة ولا إسلام.

– إزاي؟

– الفلاح منا يبقى خيره عليهم: يكرمهم ويساعدهم ويخاويهم وهم يتكبروا عليه؛ كأن دمهم دم واحنا ميه! ... روح الفلاح عندهم ما تسوى أكثر من حق عيار رش بقرش صاغ ... أهو داك السنة فضل «أبو متولي الجرف» يحرت للراجل «بسيس البدوي» أرضه ويقصبها له ويبدرها له ... أصل البدو لا تعرف تزرع ولا تقلع، ناس لا مؤاخذة ما يفلحوا إلا في الضرب والخطف، وآخرة دي الخدمة والمروءة، إن «بسيس البدوي» سلطوه ناس على «أبو متولي» ضربه في الدرة.

– قتله؟

– هم البدو دول لهم أمان؟ دول وحوش يا جناب البيه ... لو تشوف بس أكلهم في العصيدة وهي تلهلب نار، تقول دول مش بني آدم!

وسكت قليلًا ولبث «محسن» ينظر إليه مصغيًا، وعاد «الشيخ حسن» إلى الكلام بعد لحظة قائلًا لمحسن، على ذكر أكل البدو، إنه كان مدعوًّا ذات يوم لفرح بدو في الخلاء، وإنهم بعد أن أطلقوا النار في الهواء من بنادقهم، ولعبوا البرجاس بخيولهم، وضعوا قصعة ملآنة أرزًا أبيض، ثم قالوا للمدعوين «تفضلوا ...» وكان ذلك اليوم من أيام الخماسين العاصفة والرياح الصفراء برمالها وغبارها تسفي من كل جانب، فما يشعر المدعوون إلا والأرز الأبيض في القصعة قد صار أصفر في لون الكركم من الغبار، فامتنع هو في أدب عن الأكل.

طبعًا ... أيأكل ترابًا؟ ... وعندئذٍ تقدم البدو وقد شمروا عن سواعدهم وهجموا على القصعة، غير عارفين الأرز من التراب، وجعلوا يزدردون ازدرادًا بأكفِّهم من ذلك الأرز والتراب؛ كأنهم ضَوارٍ جياع.

فابتسم «محسن» وقال في تحمس: الفلاح أحسن من البدوي، وأكرم من البدوي، وأطيب من البدوي، مش كده يا عم «الشيخ حسن»؟

الفصل الخامس

انقضى يومان ولما يأتِ خطاب «سنية» المنتظر، فبدأ القلق يدب في نفس «محسن» وجعل يمضي أكثر يومه على المصطبة، ينتظر مواعيد البريد، ويستذكر «سنية» وما جرى له معها وآخر مرة رآها، وتلك القبلة التي منحته إياها، ودموعه تنهمل … ما ذكر هذا حتى اختلج قلبه، وخُيل إليه أن هذا كان حلمًا، وعجب كيف أنه بتلك السهولة حظي بتلك السعادة، ولم يقل شيئًا، ولم يفعل شيئًا، أتراه كان غافلًا ذاهلًا؟ أو أنه كان نائمًا؟ … مرة أخرى مرت به السعادة، فلم يعرفها في حينها، ولم يفطن إليها إلا بعد فواتها، إنها قبلته، وما زال يحس وقع تلك القبلة على خده، فاضطرب فؤاده ورفع يده بغير شعور منه إلى خده فمسه؛ كأنما يتفقَّدها، أو كأنما يستوثق من خلود هذا الطابع، غير مصدق أن القبلة طابع من الهواء تطير معه … لا … إن هذه القبلة لها عنده أعظم معنًى، إنها تحبه، وهو لم يدرك أيضًا في حينه معنى الحب … نعم هي تحبه، وإلا فما الذي حملها، وهي الفتاة المصرية الخجول على بدئه بالتقبيل ولم يقبلها؟ ثم أليست هي التي اقترحت على عمته «زنوبة» كتابة خطاب إليه؟ إذن ممَّ يخاف؟ ولماذا يقلق؟ لعل الذنب ذنب «زنوبة» التي أبطأت في إخبارها برسالة وصوله؟ فلينتظر قليلًا؛ فلا محل للقلق والاستعجال، وأخلق به بدل القلق أن ينطلق إلى الحقول، بصدر منشرح، يستنشق الحب في هذا الهواء النقي الطاهر، ويراه في كل ما يحيط به من مخلوقات بريئة طاهرة.

هكذا سُرِّي عنه، وأطاع إيحاء نفسه، فانطلق يجري هنا وهناك، في الأرجاء الواسعة يهش للقُبَّرة الطائرة، وينصب إلى الماء الجاري تحت ظل الجميزة الضخمة، ويبدو له فيقفز إلى «النورج» الملقى في ركن من الجرن، أو إلى «الساقية» الدائرة فيتأمل الثورين يجرَّانها، وقد وُضعت على أعينهما حجبٌ كي لا ترى سوى العمل.

غير أن كل هذا ما أثر في نفسه، مثلما أثر فيها منظر دور الفلاحين، عندما ذهب يجوس خلال حاراتهم الضيقة، في شيء من الحيطة والتلصص؛ خشية إزعاجهم، وصادفه باب مفتوح فأطل برأسه داخله، فلم يجد به أحدًا فعلم أن أصحابه قد «سرحوا» في الغيط.

فدخل مترددًا وجعل ينظر إلى المكان، فرأى رحبة صغيرة مغطًّى نصفها بسقف من حطب القطن والأذرة الجاف، ثم قاعة صغيرة، وكان باب القاعة مفتوحًا كذلك، فألقى «محسن» عينيه على ما بها فألفى منظرًا لن ينساه؛ رأى أن تلك القاعة إنما هي قاعة النوم لأصحاب الدار. إذ بها فرن وفوق الفرن حصير وأغطية، إلا أنه رأى كذلك في ركن منها بقرة أمامها حمل برسيم، وبين رجليها الخلفيتين عجل رضيع يشب إلى ضرعها.

غير أن ما أدهش «محسن» أنه شاهد بجانب هذا العجل الرضيع طفلًا رضيعًا أيضًا — لعله ابن أصحاب الدار — وهو يزاحم العجل ويدفعه على ضرع البقرة، والبقرة ساكنة هادئة لا تمنع هذا ولا ذاك؛ وكأنها لا تفضل أحدهما على الآخر؛ كأنما العجل والطفل كلاهما ولداها ... ما أجمله منظرًا، وما أروع معناه!

ونظر محسن إلى العجل الرضيع في طهارته وبراءته، وهو يئن أنين الراضي القانع، ثم نظر إلى الطفل الرضيع وهو يصيح في طهارة وبراءة صيحة السرور والرضا، فبدا له كأن الاثنين متفاهمان، وكأن بينهما صلة وكأنهما لا يدركان قط ما بينهما من اختلاف.

أعجب «محسن» بهذا المنظر وأحس إحساسات عميقة عظيمة.

غير أن عقله لا يستطيع أن يزيد على مجرد الإحساس العميق شيئًا. والإحساس هو علم الملائكة؛ كما أن المنطق العقلي علم الآدميين؛ لذلك لو أريد ترجمة ما شعر به «محسن» إلى لغة العقل والمنطق، لظهر أنه كان يعجب في نفسه لذلك الاتحاد بين مخلوقين مختلفين، وصل بينهما الطهر والبراءة.

ولكن للأسف غدًا يكبر الطفل، وتكبر معه الآدمية، وتتضاءل الملائكية فيحل محل شعور الاتحاد العام بينه وبين مخلوقات الكون الأخرى، شعور بمطامع ورغائب تجعله يحتقر ويزدري كل ما هو غيره، وتجعله يعمى عن كل ما هو سواه؛ لهذا يذهب عنه نور الملائكة الممثل في الطهارة والبراءة والشعور بالاتحاد وروح الجماعة؛ ليحل محله عمى الرجل الممثل في المطامع والشهوات والشعور بالأنانية والفردية.

وإن الشعور بوحدة الكون لهو الشعور بالله؛ لهذا كانت الملائكة والأطفال أقرب إلى الله من الرجل، كل ذلك وإن جهله «محسن» بعقله الناشئ؛ عقل طالب الكفاءة، فإنه كان يدركه بقلبه وبصيرته بغير أن يعلم.

ألم يقل «دستوفسكي»: «إن الإنسان يعلم أشياء كثيرة بدون أن يعلم»؟ غير أن «محسن» استطاع أن يدرك بعقله شيئًا واحدًا، والفضل فيه لدرس التاريخ المصري القديم. ذكَّره هذا المنظر فجأة دون أن تكون هناك مناسبة قوية بما طالعه عن عبادة قدماء المصريين للحيوانات، أو على الأقل لرمزهم للإله الواحد برموز من الحيوانات المختلفة.

لماذا؟

لم يستطع «محسن» علم السبب على التحقيق. وهنا أيضًا أدرك بشعوره إدراكًا مبهمًا ما ترجمته عقليًّا: أليس أن المصريين القدماء كانوا يعلمون تلك الوحدة الكونية وذلك الاتحاد العام بين خلقات المخلوقات المختلفة؟ وأن رمزهم للإله بتمثال نصفه إنسان ونصفه حيوان، أليس دليل إدراكهم أن الكون إن هو إلا اتحاد؟ إنهم لم يزدروا الحيوان كما أن هذا الطفل لم يزدرِ العجل، فكما أنهم جعلوا الإله على صورة الرجل؛ فقد جعلوه أيضًا على صورة الحيوان والطير والحشرات … أليست كل تلك المخلوقات من عمل الله؟ أوَليس كل فعل ينم عن فاعله، وكل صناعة هي صورة لصانعها، فلمَ لا يكون الحيوان أيضًا صورة للخالق أو إحدى صور الخالق كما أن الرجل كذلك؟

الشعور بالاندماج في الكون؛ أي بالاندماج في الله: هو شعور ذلك الطفل وذلك العجل الرضيعين، هو شعور الملائكة، وهو أيضًا شعور ذلك الشعب العريق المصري القديم.

لكن أليس فلاحو مصر الآن يمجدون الحيوان بقلوبهم، ولا يأنفون العيش معه في مسكن واحد، والنوم معه في قاعة واحدة؟

أليس أن مصر الملائكية ذات القلب الطاهر ما برحت مصر؟ وأنها ورثت — على ممر الأجيال — عاطفة الاتحاد بدون أن تعلم؟

غادر «محسن» دار الفلاح بهذا الشعور النوراني، وسار ممتلئ النفس بفرح لا يدرك كنهه؛ وكأن الله شاء أن يعجل ثمن هذا الفرح كدرًا، أو أن يتم على «محسن» صورة ما ارتسم في نفسه، فإذا اختفى يسمع في «الجرن» صياحًا وعويلًا، ونسوة يلطمن وجوههن، فسارع يسأل عن الخبر. فرأى جماعة الفلاحين آتين من قلب غيط البرسيم، وهم يحملون جاموسة تحتضر، والنساء خلفها يبكين، وظن «محسن» بادئ الأمر أن هذا الصخب والعويل، ولا شك، على أحد مات أو حدثت له مصيبة، فلما رأى الجاموسة محمولة لم يفهم أيضًا ما يرى، واقترب الجمع منه فسألهم، فقالوا له: إنها جاموسة دار «عرجاوي»، ظهرت عليها أعراض التسمم الآن، فعالجوها بالذبح، وهم يعزون صاحبها فيها، وبدا

على الجميع حزن وكآبة كأنما الميت إنسان، عجب «محسن» بعد أن اطمأن قليلًا، وقال في سره مرددًا: جاموسة! جاموسة!

وأراد أن يمضي مازحًا ساخرًا بهؤلاء الفلاحين، الذين يصنعون كل هذا من أجل جاموسة، فما هم صانعون لو مات صاحبها؟ ومرت به إحدى الفلاحات باكية، فقال لها: كل ده علشان جاموسة؟

فحدجته بنظرة مؤلمة، وقالت: يا ريت كان واحد من عياله ولا هيه.

ثم سارت في طريقها، لا تلوي على شيء.

وخجل «محسن» قليلًا؛ إذ ظهر له أنه مهما كان من أمره فلا يزال بعيدًا عن فهم مشاعر هؤلاء القوم، ولعل حياة البندر والعواصم أفسدت قلبه … فاختفت في الحال سخريته؛ كما اختفى عقله ومنطقه، وعاد إليه شعوره، فإذا هو يرثي لهؤلاء الفلاحين ويعجب بهم. وسمع صوت وتدٍ يُدق، فنظر فوجد على مقربة منه بعض «الأنفار» ينصبون عمودًا من الخشب وسط الجرن، ثم جيء بالجاموسة فعلقوها به وأخذوا يسلخونها واجتمع أهل «العزبة» بعد قليل إلا صاحب الجاموسة؛ فقد ذهب، ولا شك، إلى داره توًّا يبكي مصيبته في تلك التي لن يراها بعد اليوم تحت سقفه، ولن يشاركها هواء القاعة وأديمها … ثم لما تم سلخها وجزرها، جعل أحد أصدقاء المعزي يقطع من لحمها ويبيعه للفلاحين، الكل يُقبل على الشراء بغير مساومة ولا مماطلة، كأنما يرون واجبهم ليس فقط في التعزية الكلامية؛ بل في تهوين الخطب على صاحبها بجمع ثمنها وإعطائه إياه تعويضًا له عن فقدها. وأخبر أحد الفلاحين «محسن» أن هذه هي الطريقة المتبعة والعرف الجاري كلما فجع أحدهم في ماشية له.

إنهم ليسوا كأهل البندر قوم كلام، والمشاركة في الحزن ليست محض عبارات تقال؛ بل المشاركة الفعلية؛ تخفيف الخطب بأن يضحي كل منهم بجزء من ماله في سبيل الآخر.

صمت «محسن» وذهل، وعاد إلى نفسه ذلك الفرح النوراني. الذي لا يدرك كنهه، عاد إليه هذه المرة من الحزن كما تعود الحياة من الموت، ما أعجبهم قومًا هؤلاء الفلاحون، أيوجد بعد في هذه الدنيا تضامن جميل كهذا التضامن، وعاطفة اتحاد كعاطفة الاتحاد هذه؟

فتح «محسن» عينيه في فجر اليوم التالي على زقزقة العصافير، ورأى بوادر الصباح والشمس تشرق وكل ما حوله ينتعش في هدوء، فأشرقت نفسه وانشرح صدره، ونهض إلى النافذة ففتحها على مصراعيها، فإذا الحقل الأخضر والسماء الزرقاء، والطيور والنور، كلها تبتسم في سكون. فأحس في أعماقه لأول مرة جمال الحياة، وأدرك لأول مرة ذلك

الروي المنتظم لمخلوقات الطبيعة وكائناتها الهادئة، وتولَّد عنده شعور مبهم خفي بأن الخلود إن هو إلا امتداد لحظة كهذه اللحظة.

ولقد صدق شعور «محسن» الخفي هذا، ولو أنه أوتي مقدارًا من العلم بتاريخ هذا الوادي لعلم أن سكانه الغابرين ما كانوا يعتقدون بجنة أخرى غير جنتهم تلك، ولا بخلود آخر، وأن معنى الخلود بعد الموت عندهم إن هو إلا العودة إلى هذه الأرض ذاتها، ثم الموت، ثم البعث إليها مرة أخرى، وهكذا دواليك؛ لأن الله لم يخلق جنة غير مصر.

ولبس الفتى ملابسه بسرعة وخرج إلى الحقول وتوغل فيها، وهو يفتح رئتيه لذلك الهواء الدسم العجيب، هواء مشبع برائحة الحياة والخلق، كذلك الماء والطمي في الجداول والقنوات يحمل الحياة والخلق أيضًا.

شعر «محسن» بقوة ونشاط في بدنه، وبِشر بالحياة، وتقبُّل لها، وابتهاج. كما شعر بالحب في قلبه ينتعش أيضًا انتعاش ذلك النبت الصحيح القوي تحت حرارة الشمس المباركة، ولم لا وكل شيء حوله قوي صحيح منتعش؟

ما أجمل الحياة!

وبلغ مسمعه عندئذٍ صوت غناء لذيذ فالتفت، فإذا الفلاحون عن كثب مجتمعون، والمناجل بأيديهم يحصدون المحصول. وإذا أكوام منه مصفوفة، وهم ينشدون جميعًا نشيدًا يبدأ به أحدهم وهم يعقبون، ويحمل النسيم صوتهم إلى آذان «محسن»، والشمس قد ارتفعت عن الأفق بقليل، ولا يزال الشفق أحمر داميًا عقب ميلادها ... أي صوت وأي نشيد؟ أتراهم يرتلون نشيد الصباح احتفالًا بولادة الشمس كما كان يفعل أجدادهم في الهياكل؟ أم أنهم يرتلونه ابتهاجًا بالمحصول، معبودهم اليوم الذي قدموا له قربانًا من العمل والكد والجوع والبرد طول السنة؟ نعم إنهم ضحوا بكل ما يستطيعون من أجل هذا المعبود، فليرأف بهم، وليكثر لهم، وليملأ دورهم رخاء.

وسار «محسن» إليهم حتى صار بينهم وهم دائبون على العمل والغناء، وجعل ينظر إليهم، وإلى وجوههم، وهو يعجب، إن ملامحهم وما يرتسم على وجوههم من معانٍ، إنما كان شيئًا واحدًا؛ كأنما هم جميعًا على اختلافهم شخص واحد: العمل والأمل.

ونظر إليهم وكلٌّ يحمل ما حصد ويزيد به الكوم، فإذا هم ينظرون إلى المحصول المجموع باهتمام وحب؛ وكأنما يقولون له: «لا يهم التعب، ولا يهم الشقاء في سبيلك أيها المعبود».

وانقضى النهار وعاد «محسن» إلى البيت وقد ترك كل ما رأى أثرًا في نفسه يحسه ولا يفهمه، وإذا «العدوى» تجعله يفكر هو أيضًا في «معبوده»، ولكنه استوى فجأة وقد مرت بخاطره فكرة ارتجف لها: هل يستطيع هو أيضًا أن يضحي في سبيل «سنية»؟

وأن يقذف بنفسه في الألم والشقاء من أجلها؟ أم أنه ليس من دم ذلك «الفلاح»؟

وجاء الليل وانتشر في الجو صدى نقيق الضفادع، وسكن الطير والحيوان وطلع القمر وثقل الهواء، وامتنع النوم على «محسن»، وهاج ساكن نفسه جمال الليل، فظل لحظة ينظر إلى القمر، ويقول له: «ترى هل تنظر هي إليك أيضًا هذه الساعة»؟

ثم خرج إلى الجرن متقد القلب، عسى أن يجد ما يلهيه، وإذا هو يرى الفلاحين وقد اجتمعوا في دائرة تحت نور الكوكب الجميل، وقد وضعوا وسطهم «عدة الشاي».

والشاي عند الفلاح الآن معبود آخر، أدخله البدو الرحل، وعلموه الفلاح، فتعلق به، بينما سلاه البدو؛ شأنهم في كل شيء، لا يستقرون على عمل ولا حب ولا على موطن إقامة.

ولكن الفلاحين أنزلوه من أنفسهم منزلة الاهتمام، فأصبحوا لا يطيقون الامتناع عنه، وهم يشربونه جماعةً كصلاة الجماعة، بعد أن يفرغوا من عمل النهار الشاق، وقد صنعوا «للبكرج» كرسيًّا صغيرًا من الخشب يوضع فوقه، ويحيطون هم به كأنه تمثال إله فوق قاعدة؛ ويتولى أحدهم إدارة الفناجين عليهم؛ غير أن هذا الشراب يكلفهم أحيانًا ما لا يطيقون، وكم من موسر فيهم افتقر في سبيله؛ مما يغالون فيه من طريقة صنعه، وفي كيفية شربه والعزومة على الإخوان هو وعهد مجالس الشاي.

وذهب «محسن» إليهم حتى داناهم، ورآه شيخ العزبة، فنهض إليه وعزم عليه بالشراب، وقدم له فنجانًا فلم يمانع «محسن» تأدبًا وتواضعًا، وجلس بينهم بجوار «الشيخ حسن» الذي أفسح له محلًّا بعد أن فرشه بقش الدريس الجاف، وسُرَّ الفتى بذلك، واستحى الفلاحون منه قليلًا بادئ الأمر، لكنه شجعهم في لطف على الكلام، فمضوا يتحدثون بأحاديثهم الساذجة، كلما فرغ أحدهم من فنجان تقدم به إلى «البكرج»، واستبطأ «الشيخ حسن» شرب «محسن» فأراد له فنجانًا آخر، فابتسم الفتى وأراه داخل فنجانه، فإذا هو لم يشرب سوى جرعة واحدة، فقال أحدهم في بساطة: البيه مش عاجبه شاي الفلاحين؟!

فأجابهم «محسن» بأن هذا ليس السبب، إنما هو غير معتاد صنعه بهذه الطريقة: ليه بتعملوه كده؟ دا أسود زي الحبر، ومر زي الحنضل.

فإذا بصوت فلاح يعلو من بين الجميع، قائلًا: إيه يا بيه؟! دا حتى الليلة خفيف زي «مية» الطلمبة!

فقهقه «محسن» ضاحكًا، وسُرَّ الفلاحون إذ أمكنهم إضحاك البك الصغير، وإدخال السرور عليه، ثم انتقل الحديث إلى الشاي وحب الفلاحين له، وكيف أن صنعه وتهيئته بهذه الطريقة يتطلب من السكر والشاي مقدارًا جسيمًا، ومع ذلك فلم يحجم الفلاحون عن التضحية في سبيله، ومضاعفة التعب والكد للحصول على ثمنه، غير أن منهم من بلغ به الولع أن ضحى بثروته كلها أو بعضها، وما وصل الحديث إلى هذا الحد حتى التفت أحد الفلاحين إلى «محسن» وأشار له بيده إلى فم «البكرج»، المستطيل وقال: تصدج بالله؟ عشرين ناجة وعجلين خرجوا من دي «البزبوز».

الفصل السادس

عاد محسن إلى قلقه؛ فقد مضت أيام دون أن يصل الخطاب الموعود، واشتد به الضيق أن زهد في كل ما حوله، وكأن عينه أصبحت لا ترى شيئًا، ولا يرجى منها شيء، وكره الإقامة، وود لو يعود إلى مصر توًّا، وكلما ذكر «سنية» خيل إليه أن فراقه عنها كان أعوامًا لا بضعة أيام، وعجب كيف يمكث هنا، وكيف يستطيع الابتعاد عنها أكثر من ذلك؟ فقام إلى والدته يعرض عليها رغبته في السفر، لكنه ألفى البيت قائمًا على قدم وساق. وسمع جلبة أوانٍ وأطباق وتهيئة موائد وتجهيز أطعمة، فسأل عن الخبر، فقيل له هي «عزومة» يقيمها والده لمفتش الري الإنجليزي، ولأحد كبار موظفي الآثار الفرنسيين؛ بمناسبة تشريفهما المديرية.

وتفقَّد والده، فعلم أنه ذهب بالعربة إلى «دمنهور»، ليأتي بالضيوف، وكانت والدته منهمكة في ملاحظة الاستعدادات، فلما رأته ابتسمت، وقالت وهي تشير إلى الخروف «الأوزي»، والطباخ يزينه بالورد والعنبر والزهر: شايف يا «محسن»، بكرة يقولوا عزومتنا أحسن من عزومة المدير.

ودخل عندئذٍ ناظر العزبة يرتدي «غزليته» الممتازة، ويحمل «قفة» بها بضعة أزواج من الحمام والدجاج، فنظرت إليها الست ثم قالت شزرًا: بس دول اللي لقيتهم في العزبة؟

فأجاب الناظر في خشية وتأدب: الفلاحين فقراء مساكين يا ست.

فقالت السيدة بجفاء: فقراء مساكين، لو كنت شغلت الكرباج كنت جبت قد دول مرتين، لكن انت ناظر غشيم.

فسكت الناظر، ثم رفع رأسه، وأشار إلى الضأن «الأوزى» مبتسمًا وقال مراضيًا السيدة: ما هو الخير كتير يا ست، دا الواحد منا بلا قافية يا فلاحين ما يدوق اللحم إلا من الموسم للموسم.

فلم تُجِب، واقترب منها «محسن» وقال: يا نينه، الأكل ده كفاية علشان ضيفين.

فقالت: أنا عايزة عزومتنا تكون أحسن من عزومة المدير.

ثم التفتت إلى الناظر، ونظرت إلى ملابسه، ثم قالت منتهرة: امشي يا راجل يا فلاح، البس أحسن ما عندك!

فأطرق الرجل خجلًا، ولم ينبس بحرف، وقد احمر وجهه قليلًا، ولاحظ «محسن» خُفيةً ذلك، فتأثر له.

ورأت الست وجومه، فأعادت الكرَّة بقوة هذه المرة: الله! عجايب! واقف ليه؟ مستنظر إيه؟

فأجاب الرجل بصوت ضعيف متلعثم، وابتسامة الحائر الساذج الخجل، وهو ينظر إلى الأرض: ما هو ده يا ست أحسن ما عندي.

وسكت قليلًا مطرقًا، ثم رفع رأسه، وقال في بساطة واعتقاد وهو يتناول طرف ثوبه ويريه للسيدة: ودي «شينة» يا ست؟ وحياة راس النبي دي غزلي؟

فلم «تتنازل» السيدة إلى رؤية ثوبه، وأدارت ظهرها، ومشت إلى عمل تلاحظه، وسار خلفها «محسن» وهو يود لو يخلو إليها ليرجوها أن تخفف من وطأتها على هؤلاء القوم، وليفهمها أن هؤلاء الفلاحين المساكين لا يعرفون الأبهة.

ما قاربت الساعة الواحدة ظهرًا حتى نبح كلب العزبة دليل قدوم غريب، وبدا عفار العربة بخيلها المطهمة عند الجسر، ومرت تحت الجميزة، ودخلت جرن العزبة، ونزل منها إفرنجيان بالقبعات، ثم البك صاحب الدار.

ووقف الضيفان لحظة يتأملان ما حولهما، وينظران إلى الحقول المنبسطة خضراء كالبحر، ووقف أمامهما وبين أيديهما الناظر، و«الشيخ حسن» بأدب في انتظار أمر أو إشارة، فأبدى الضيف — مفتش الري الإنجليزي — رغبته في الجلوس خلال المزارع لحظة؛ ليرى المصارف، ويتأكد من تطهيرها، ويشاهد فتحات الري ومقاسها ونسبتها إلى الترعة والأطيان؛ فسار الجميع إليها، وقد أومأ البك إلى الناظر والشيخ فأسرعا يتقدمان، ويدلان على الطريق، وفرد البك مظلته البيضاء ذات اليد الذهبية، ورفعها فوق رأسَي الضيفين وهو يصف لهما طريق الري والصرف في هذا الربع الشرقي الذي يمرون به، والضيف الفرنسي يبتسم معجبًا بانبساط «الأرض» ولونها الزبرجدي، ويدهش أن مصر كلها كذلك؛ كأنما الآلهة الأقدمون قد بطحتها خصوصًا، وهيأتها لسكان مصر الطيبين.

فالتفت إليه البك، وسأله في سذاجة: «أليست أرض فرنسا كذلك؟»

فأجابه الضيف: «فرنسا كلها منحدرات ومرتفعات، وقلما تجد فيها بقعة منبسطة هذا الانبساط.»

ثم نظر إليه ضاحكًا: «فرنسا لم يسعدها الحظ أن تكون يومًا موطنًا للآلهة، يدحونها كما فعلوا بأرضكم.»

فلم يفهم البك قوله جيدًا، غير أنه أجابه: صدقت يا جناب المفتش؛ أرضنا زراعية من قديم الأزل.

وأدرك الفرنسي من هذا القول معنًى أبعد مما يقصده البك، فقال: نعم، نعم، إنكم شعب عريق الحضارة لا كشعوب أوروبا الوصولية.

فلم يُجِب «البك»، وعندئذٍ انحنى الإنجليزي على الأرض وتناول منها قبضة من التراب، فركها بين أصابعه، وهو يتمتم خافتًا معجبًا بخصوبة التربة: «ذهب، ذهب!»

ثم أومأ بالرجوع، فرجع الجميع إلى البيت، حيث مُدت المائدة، ووقف الخادمان النوبيان بثيابهما البيضاء النظيفة، وحزاميهما الأحمرين ... وقُدم الطعام.

كان «محسن» في هذه الآونة بجانب والدته، في «الدهليز» الذي بين المطبخ وحجرة المائدة، الوالدة تلاحظ ترتيب الأصناف والألوان، وترتب بنفسها ما تجده ناقصًا قبل أن تسمح للخادم بالدخول به على الضيوف، و«محسن» واقف ينظر، وقد سال لعابه جوعًا، وهو يعلل نفسًا بالضأن «الأوزي»، وينتظر عودة ما يفضل منه بعد الضيوف، ووالدته تصبره قائلة: إن الواجب يقضي بأن يأكل الضيوف أولًا، وبعد ذلك يبدآن هما الاثنان، غير أن والدته في تلك الساعة كانت مشغولة البال منهوبة الخاطر تجري هنا وهناك، تلاحظ وهي مضطربة، طالبةً من الله أن تتم الوليمة على خير وأن يذهب الضيفان مسرورين معجبين، وهي تود لو تعلم ما يقولان الساعة عن الأكل والتنظيم، فكانت أحيانًا تترك «محسن» وتذهب في أثر الخادم محترسة، وتقترب خُفيةً من الباب مختلسة البصر، مسترقة السمع، علها تلتقط كلمة إعجاب من أحد الضيفين.

وفرغ المدعوان من الأكل ولم يبقَ غير الحلو والفاكهة، ودخل الخادمان بأطباق الحلو، وعندئذٍ خرج البك يجري من قاعة الطعام، وذهب إلى زوجته توًّا يسألها هامسًا في سرعة وخطورة: فين الجبنة؟ قوام الجبنة.

فتجهمت زوجته، ونظرت إليه ساهمة بلا حراك: جبنة؟ ... جبنة إيه؟

– أيوه، قوام، طالبين جبنة، يختموا الأكل بجبنة.

– جبنة؟ ... بعد الأكل ده كله؟

– أيوه خلصينا، إعملي معروف.

وفي الحال نادت الست خدمها همسًا، وسألت عن الجبنة، فقيل لها: لا يوجد قط سوى جبنة «قريش» منغمسة «بالمش» في القدر؛ فلطمت وجهها وهي تتساءل عن المخرج من هذا المأزق، وزوجها يصيح همسًا: جبنة «قريش بالمش» مايمكنش أبدًا! ... خواجات ياكلوا «مش»؟ مش ممكن نوكلهم «مش بدوده» مش ممكن أبدًا.

فقالت الست بصوت مختنق يأسًا: يا مصيبتي! ... ونعمل إيه دلوقت؟ أعمل إيه بس يا اخواتي دلوقت.

فقال لها زوجها في لهجة المؤنب: إنتي مش عارفة أن العزايم يبقى فيها جبنة؟

فعاودت الست عزة نفسها وكبرياؤها، ووضعت يديها في خصرها، وصاحت بزوجها: بتقول إيه بسلامتك؟ ... العزايم؟ أنا واحدة أفهم الصورة إيه، ومتربية في بيوت باشوات، وأعرف الأكل العثمانلي، مين يقول إن بعد الخروف المحشي بالزبيب والبندق والصنيبر، والفراخ والحمام اللي بالتربية والشركسية، والألنجى ضلمه، حد يأكل جبنة؟

أهم طالبين جبنة ... نعمل إيه دلوقت؟

فرجعت الست إلى الحيرة واليأس، وأخذت تسأل الخدم من جديد، وتلح، وتتوسل، وأخيرًا ظهرت خادمة وصاحت بفرح أن توجد قطعة جبنة «رومي» عثرت عليها في «الكرار»، وما كادت تذكر ذلك حتى هرعت الست نحوها، وهرع الجميع؛ كأنما وجدوا لقيا، وانقلب اليأس فرحًا واطمأن البك فترك زوجته وأسرع يلحق بضيوفه، بعد أن أكد على زوجته بسرعة تقديم تلك القطعة. وأخيرًا جاءت الخادمة بقطعة الجبن «الرومي» من الكرار فإذا هي سمراء اللون من القِدم، واتضح للجميع أن سبب ترك هذه القطعة في الكرار منذ زمن، هو استعمالها طعمًا للفيران وتعمير مصيدة الفيران بها، فترددت الست قليلًا وعاد إليها الغم، ولكنها صممت أخيرًا على الأمر وقالت للخدم: فيران والا قطط، أهي أحسن من بلاش والسلام، يعني هم راحين يعرفوا؟

وتناولتها بيدها في حرص، وذهبت بها إلى الحنفية كي تغسلها وتزيل ما عليها من لون القِدم ومن القذارة، وتبعها كل أهل البيت من بطانة وخدم، وهم ينظرون إلى قطعة الجبن في يد الست؛ كأنهم ينظرون إلى قطعة من الجوهر الثمين ... ولفرط اهتمام الجميع بتلك القطعة النادرة، أرادوا أن يساعدوا الست فأحاطوا بها: بعضهم يفتح الحنفية، والبعض يقترح غسلها «بالليفة والصابونة» حتى تعود بيضاء ناصعة. والبعض يرى خطر الغسل عليها، ويقول بمسحها بخرقة مبللة فقط، وآخر لا يرى الغسل ولا المسح،

ويقترح الكشط: أي كشط السطح المتسخ بسكين حاد ... وبينا الجميع في هذه الاقتراحات وهذا الاهتمام إذا بالست القابضة على القطعة تصيح فجأة؛ ذلك أن القطعة انزلقت من يدها لفرط حرصها. وسقطت في «البلاعة» فبهت الجميع لحظة وقد دهاهم الأمر، ثم صحوا لأنفسهم. وانقضُّوا على «البلاعة» جميعهم دفعة واحدة، وأخرجوا قطعة الجبن «الرومي» منها بعد جهد واستماتة، ولم يروا بدًّا من غسلها هذه المرة، وما إن وُضعت في الطبق وقُدمت للضيوف حتى رفعت الست رأسها، وتنفست الصُّعَداء.

انتهى الضيفان من الطعام ... وقدمت لهما القهوة. وإذا البك يظهر مسرعًا في الدهليز، ويسأل عن «محسن»، فأقبلت نحوه الست، وكان أول ما فاهت به أن سألته عن نتيجة الوليمة، وعما قال الضيفان في الأكل والتنسيق، ولكن البك لم يجبها، بل سألها في عجلة: فين «محسن»؟ ... فين محسن؟ عايزين يشوفوه.

وأراد أن يخبرها بأنه قال إن له ولدًا في الكفاءة يعرف الإنجليزية، وأن جناب المفتش الإنجليزي ودَّ لذلك أن يراه.

غير أن زوجته قاطعته قائلة: طيب ... طيب ... المهم قالوا إيه على العزومة؟ قالوا إيه على الجبنة؟ احكي لي.

فانحنى عليها، وهمس في أذنها: مبسوطين قوي.

فانفرجت شفتا الست بالابتسام، وقالت في كبرياء وزهو وخُيلاء: علشان تعرف إني مدنتك ورقيتك يا فلاح يا جعيدي، مش تقول لي بقا كتر خيرك؟

فضحك البك، وقال لها: طيب، كتر خيرك.

فاستطردت تقول، في تعاجب ومباهاة: مش أنا اللي قلت لك اعزمهم؟

– أيوه انتي.

اسمع كلامي دايمًا، وانت تبقى أبهة، بكرة كمان اعزم المدير علشان يعرف.

فحك «البك» رأسه قليلًا، ثم نبس قائلًا في قلق: بس المصاريف.

فرمقته «الست» بنظرة أسكتته في الحال، فلم يعد يفكر في النقود الهائلة التي تضيع في ولائم واحتفالات، منذ سنوات وسنوات.

وأخذ يبحث حوله بارتباك، ويقول: فين «محسن»؟ ... فين «محسن»؟

كان الضيفان في تلك الأثناء يرشفان القهوة، وقد غرقا في كرسيين كبيرين، ووجهاهما قبالة نافذة مفتوحة على مصراعيها، تطرح أمام ناظريهما فضاء أخضر لا حد له، وسكون ساعة الظهيرة التام، حيث الفلاحون في دورهم يستريحون، أو تحت ظلال أشجار السنط

واللبخ بقرب السواقي، وسكنت البهائم أيضًا، وربض كلب العزبة وأغمض إحدى عينيه ... حتى الطيور: من قُبَّر وأبي فصادة؛ كأنها في هدنة قد هدأت على الأغصان فوق رءوس الفلاحين الراقدين، وقد أبطلت زقزقتها وأخذت تشغل الوقت، «تفلي» ريشها بمنقارها بعضها البعض.

وهبَّ عندئذٍ على الضيفين نسيم جميل، فأغلق الفرنسي أهدابه نصف إغلاق، وقد قعس رأسه إلى الوراء، وأخذ يدخن من لفافة في يده؛ وكأنما هو في حلم ساحر، ولكن رفيقه الإنجليزي لم يفقد نشاطه ولم يتراخ، بل دس يده في جيبه وأخرج «غليونه» وأخذ يحشوه بالتبغ، وهو معتدل الجلسة منتصب القامة، متزن الحركة قوي النظرة، حتى فرغ من غليونه، ووضعه في فمه، وأوقده؛ فاستوى واقفًا، وأراد أن يمشي جيئة وذهابًا في الحجرة أو أن يخرج إلى حديقة المنزل، ولكن صاحبه الفرنسي مد يده إليه، وأومأ له بلطف أن يجلس حيث كان، ثم قال له في صوت النائم: إلى أين؟ ألا يؤثر فيك هذا النسيم الرقيق يا «مستر بلاك»؟

فالتفت إليه الإنجليزي، ثم التفت إلى النافذة، كأنما يبحث عن هذا النسيم يريد أن يراه بعينه، وكان الفلاحون عندئذٍ قد بدءوا ينهضون زرافات ووحدانًا؛ كلٌّ يحمل فأسه أو منجله؛ كي يستأنفوا أعمالهم بالحقول.

فقال «الإنجليزي» لرفيقه: لا أرى إلا أسرابًا من ذوي الجلاليب الزرقاء.

فنظر الفرنسي إلى الفلاحين، ثم قال معجبًا: ما أجمل ذوقهم، لون لباسهم كلون سمائهم.

فارتسمت على فم «الإنجليزي» ابتسامة تهكم، وقال: إنك تبالغ إذ تحسب لهؤلاء الجهلاء ذوقًا.

فأجاب الأثري «الفرنسي» بإيمان وقوة.

– جهلاء! ... إن هؤلاء الجهلاء يا «مستر بلاك» أعلم منا.

فضحك «الإنجليزي» وقال أيضًا في تهكم: لأنهم ينامون مع البهائم في حجرة واحدة!

فأجاب «الفرنسي» بجد: نعم وبالأخص لأنهم ينامون مع البهائم في قاعة واحدة.

فالتفت إليه «مستر بلاك» محدقًا مبتسمًا: إنها نكتة ظريفة يا «مسيو فوكيه».

فأجاب «الفرنسي»: بل حقيقة تجهلها أوروبا للأسف ... نعم إن هذا الشعب الذي تحسبه جاهلًا ليعلم أشياء كثيرة، لكنه يعلمها بقلبه لا بعقله. إن الحكمة العليا في دمه ولا يعلم! والقوة في نفسه ولا يعلم! هذا شعب قديم؛ جِئْ بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه

تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة، من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدري.

نعم هو يجهل ذلك، ولكن هناك لحظات حرجة؛ تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب، فتسعفه وهو لا يعلم من أين جاءته! هذا ما يفسر لنا نحن الأوروبيين — تلك اللحظات من التاريخ، التي نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة في قليل من الوقت، وتأتي بأعمال عجاب في طرفة عين.

كيف تستطيع ذلك إن لم تكن هي تجاريب الماضي الراسية، قد صارت في نفسها مصير الغريزة، تدفعها إلى الصواب، وتسعفها في الأوقات الحرجة وهي لا تدري!

لا تظن يا «مستر بلاك» أن هذه الآلاف من السنين، التي هي ماضي مصر قد انطوت كالحلم ولم تترك أثرًا في هؤلاء الأحفاد ... أين إذن قانون الوراثة الذي يصدق حتى على الجماد، ولئن كانت الأرض والجبال إن هي إلا وراثة طبقة عن طبقة؛ ولم يتغير شيء من جوها أو طبيعتها؟

نعم إن أوروبا سبقت مصر اليوم، ولكن بماذا؟ بذلك العلم المكتسب فقط، الذي كانت تعتبره الشعوب القديمة عرَضًا لا جوهرًا ودلالة سطحية على كنز دفين، لا أنه هو في ذاته كل شيء.

إن كل ما فعلناه — نحن الأوروبيين الحديثي النشأة — أن سرقنا من تلك الشعوب القديمة هذا الرمز السطحي، دون الكنز الدفين؛ لذلك جئ بأوروبي وافتح قلبه تجده خاليًا خاويًا.

الأوروبي إنما يعيش بما يلقَّن ويعلَّم في صغره وحياته؛ لأنه ليس له تراث ولا ماضٍ يسعفه بغير أن يعلَّم.

احرم الأوروبي من المدرسة يصبح أجهل من الجهل ... قوة أوروبا الوحيدة هي في العقل، تلك الآلة المحدودة التي يجب أن نملأها نحن بإرادتنا. أما قوة مصر ففي القلب الذي لا قاع له. ولهذا كان المصريون القدماء لا يملكون في لغتهم القديمة لفظة يميزون بها بين العقل والقلب. العقل والقلب عندهم كان يعبر عنهما بكلمة واحدة هي: القلب.

وسكت «الأثري الفرنسي» برهة، ونظر إلى وجه «المستر بلاك» ليتعرف أثر ما قال فيه، فوجد ملامح جامدة، وشفتين تنفرجان عن ريبة وشك.

فاستطرد «الفرنسي» يقول: نعم يا «مستر بلاك»، هؤلاء الفلاحون لهم ذوق، وذوق جميل، وهم لو سألتهم عن كلمة ذوق لجهلوا معناها، أما نحن فنعرف جيدًا معنى كلمة

«ذوق»، ولكن ثق أن فينا عددًا كبيرًا ليس له ذوق، نعم هذا هو الفرق الوحيد بيننا وبينهم: إنهم لا يعلمون ما عندهم من كنوز.

عندئذٍ همَّ «الإنجليزي» بالنهوض، وهو يقول متهكمًا: إنكم معشر الفرنسيين تضحون بالحقائق في سبيل الكلام.

فأجلسه «مسيو فوكيه» بيده، وقال محتدًّا: الحقائق؟ الحقائق معي يا «مستر بلاك»، إنك تعرِّض بضَعف هذا الشعب الآن ... أليس كذلك؟

– وأيضًا أخلاق أهله لا تعجبني.

– أخلاق أهله؟

– نعم.

– ثق يا «مستر بلاك»، أن الفاسد من هذه الأخلاق ليس من مصر، بل أدخلته عليها أمم أخرى كالبدو أو الأتراك مثلًا، ومع ذلك فلا يؤثر هذا في الجوهر الموجود دائمًا.

– قل لي ما هو هذا الجوهر؟

– إنك ترتاب في قولي، ولكني أكتفي بأن أقول لك احترس ... احترسوا من هذا الشعب؛ فهو يخفي قوة نفسية هائلة!

فالتفت إليه «مستر بلاك» جادًّا لحظة، ثم عاد فابتسم ابتسامته المتهكمة وقال: يخفيها أين يا «مسيو فوكيه»؟

فأجاب: الأثري الفرنسي، بهدوء واقتناع: في البئر العميق الذي خرجت منه تلك الأهرامات الثلاثة؟

فقال الإنجليزي في فتور: الأهرامات؟

فأجاب «العالم الفرنسي» للفور: نعم، الأهرامات، التي قصدها «شامبليون» بقوله: «لا أستطيع أن أصفها؛ إذ إن شيئًا من اثنين: إما أن كلامي لن يعبر عن جزء من ألف مما يجب أن أقول، وإما أني لو أردت رسم أبهت صورة للحقيقة، لعدَّني الناس مغرقًا في الحماسة أو مجنونًا، ولكني أقول شيئًا: أولئك القوم كانوا يشيدون كعمالقة طولها مائة ذراع.»

والتي قال عنها «فيلون البيزنطي» في كتابه «عجائب الدنيا السبع»: «كان أولئك القوم يصعدون إلى الآلهة، وكانت الآلهة تهبط إليهم.»

وحتى العلماء الحديثون يقولون إنه غير مُصَدَّق أن مشروعًا كهذا أمكن تنفيذه.

وعلى حد قول «موريه» عالمنا الأثري: «إنه حلم فوق مستوى البشر، قد تحقق مرة على هذه الأرض، ولكنه لن يعود أبدًا.»

تلك هي الأهرامات.

فنظر إليه «الإنجليزي» وقال باسمًا: وكل هذا خرج من بئر! أي بئر؟

فأجاب «مسيو فوكيه» بهدوء: هذا.

وأشار بأصبعه إلى الجهة اليسرى من صدره: القلب.

فلم يُجِب «الفرنسي»، ولم يتكلم «الإنجليزي» بعد ذلك، وصمت الاثنان لحظة، وساد السكون في الغرفة.

وعندئذٍ ظهر «البك» بالباب وبيده «محسن»، وقد ارتدى بذلته ورتب شعره طول هذه الأثناء. وما كاد البك يلقي نظرة على الغرفة الساكنة، حتى اختفى في الحال، هو و«محسن»، ورجعا من حيث جاءا على أخماص الأقدام، ولم يشعر بهما أحد من الضيفين.

واستوى بعد قليل «العالم الفرنسي» في كرسيه، وأشعل لفافة أخرى، وأرسل نفخة من الدخان في الهواء، ثم قال: أرى أن قولي لم يفحمك يا «مستر بلاك»؟

فالتفت إليه «المفتش الإنجليزي» بأدب، وقال: أعترف بذلك.

فسكت «الفرنسي» هنيهة، ثم قال: نعم، لنا العذر ألا نفهم هذا، إن لغتنا — نحن الأوروبيين — لغة المحسوسات، إننا لا نستطيع أن نتصور تلك العواطف التي كانت تجعل من هذا الشعب كله فردًا واحدًا، يستطيع أن يحمل على أكتافه الأحجار الهائلة عشرين عامًا، وهو باسم الثغر مبتهج الفؤاد، راضٍ بالألم في سبيل المعبود. إني لموقن أن تلك الآلاف المؤلفة التي شيدت الأهرام، ما كانت تساق كرهًا كما يزعم «هيرودوت» الإغريقي عن حماقة وجهل ... وإنما كانت تسير إلى العمل زرافات وهي تنشد نشيد المعبود، كما يفعل أحفادهم يوم جني المحصول. نعم كانت أجسادهم تدمي، ولكن ذلك كان يشعرهم بلذة خفيَّة؛ لذة الاشتراك في الألم من أجل سبب واحد.

وكانوا ينظرون إلى الدماء تقطر من أبدانهم في سرور لا يقل عن سرورهم برؤية الخمور القانية تقدم قرابين إلى المعبود ... هذه العاطفة عاطفة السرور بالألم جماعة، عاطفة الصبر الجميل، والاحتمال الباسم للأهوال من أجل سبب واحد مشترك، عاطفة الإيمان بالمعبود والتضحية، والاتحاد في الألم بغير شكوى ولا أنين ... هذه هي قوتهم.

انتصب عندئذٍ المفتش الإنجليزي في كرسيه، وقد بدا على ملامحه معنى الجد والاهتمام، وكأنما قد أفحمه بعض ما سمع. وعندئذٍ هب النسيم عليهما هبَّةً حملت إلى آذانهما في هذا السكون التام، أصوات الفلاحين يغنون عن بعد غناء جميلًا، فاشرأب «الفرنسي» قليلًا ثم أشار إليهم بيده، وقال: هل رأيت في بلد آخر أشقى من هؤلاء المساكين؟ أنت مفتش ري، وتعلم جيدًا يا «مستر بلاك»، أوجدت أفقر من هذا الفلاح المصري؟ ولا أهول عملًا؟

إني أعلم ذلك أنا أيضًا؛ فقد اشتغلت بالحفر عن الآثار في قرى الصعيد، وخالطت بعض الفلاحين وعلمت كل شيء، عمل ليل نهار في الشمس المحرقة والبرد القارس، وكسرة من خبيز الأذرة، وقطعة من الجبن مع بعض الأعشاب من السريس وغيره مما ينبت وحده ... تضحية مستمرة وصبر دائم، ومع ذلك فها هم أولاء يغنون. اسمع برهة يا «مستر بلاك».

وسكت «الأثري الفرنسي» هنيهة، كأنما يستفسر روح هذه الأغنية التي تأتي مع النسيم، ثم استطرد يقول: أتسمع هذه الأصوات المجتمعة الخارجة من قلوب عدة؟ ألا تخالها خارجة من قلب واحد؟ إني أؤكد أن هؤلاء القوم يحسون لذة في هذا الكدح المشترك، هذا أيضًا هو، الفرق بيننا وبينهم؛ إن اجتمع عمالنا على الألم أحسوا جراثيم الثورة والعصيان وعدم الرضا بما هم فيه، وإن اجتمع فلاحوهم على الألم أحسوا السرور الخفي واللذة بالاتحاد في الألم، ما أعجبهم شعبًا صناعيًّا غدًا.

أسند المفتش الإنجليزي يده إلى جبينه لحظة كالمتأمل، ثم قال: ما كنت أحسبك جادًّا، وأنت تُفهمني أن بين مصر اليوم ومصر بالأمس علاقة.

فأجاب «العالم الفرنسي»: وأي علاقة؟! ... قلت وأقول أيضًا: إن الجوهر باقٍ دائمًا.

إن هؤلاء الفلاحين الذين يغنون من قلب واحد، المتعددين الذين تجمعهم العاطفة والإيمان في واحد؛ ما زالوا يعون بقلوبهم، ولا يعلمون، تلك العبارة التي كان أجدادهم يندبون بها موتاهم في الجنائز: «عندما يصير الوقت خلودًا، سنراك من جديد، لأنك صائر إلى هناك حيث الكل في واحد.»

وها هم اليوم الفلاحون الأحفاد من جديد، يذكرون في أعماق قلوبهم أن الكل في واحد.

وصمت «العالم الفرنسي» قليلًا، وعندئذٍ نبس «المفتش الإنجليزي» قائلًا؛ وكأنه ما زال تحت تأثير ما سمع: شيء غريب.

فأجاب «الأثري الفرنسي»: نعم، ومع ذلك لو ذكرت أن هذه العواطف هي التي شيدت الأهرام لزال عجبك، وإلا فكيف كنت تريد أن يبني هذا الشعب بناءً كهذا لم يكن هذا الشعب كله قد تحول في وقت ما إلى كتلة آدمية واحدة، تستعذب الألم في سبيل واحد: «خوفو»؛ ممثل المعبود ورمز الغاية، فلمعت عين الإنجليزي لمعانًا لا أحد يدري إن كان بارقة الإعجاب أو القلق، وهمس وهو يفكر: صدقت.

فأردف الأثري الفرنسي يقول؛ وكأنما يختتم مقدماته السالفة: إن هذا الشعب المصري الحالي ما زال محتفظًا بتلك الروح.

فسأله الإنجليزي على الفور: أي روح؟!

فأجابه بثقة وتؤدة: روح المعبد.

فأنزل «الإنجليزي» الغليون من فمه، وسدد نظرات جامدة ساهمة إلى النافذة، فالتفت إليه «الفرنسي»، وكأنما أدرك ما في نفس الإنجليزي من قلق، فابتسم خُفيةً ثم وضع يده على كتف الإنجليزي، وقال بغتة: أجل يا «مستر بلاك»، لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليوم، إن القوة كامنة فيه، ولا ينقصه إلا شيء واحد.

– ما هو؟

– المعبود.

فنظر «الإنجليزي» إليه نظرة لا يدري: أمعناها الاستيضاح أم الموافقة!

فأجابه «الفرنسي» بعد هنيهة: نعم ينقصه ذلك الرجل منه الذي تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمز الغاية … عند ذاك، لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب، والمستعد للتضحية إذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام.

في هذه اللحظة سمع صوت «البك» بالباب، يرحب بهما، ويقول إنه كان يحسبهما قد أخذتهما إغفاءة الظهيرة، فلم يرد أن يزعجهما، ثم نادى «محسن» وقدمه إليهما، فنهضا يستقبلانه في لطف وعطف وبشاشة، و«محسن» مصطبغ الوجه حياءً وأدبًا، وقد دعاه والده إلى الكلام؛ قائلًا في تباهٍ: كلم «جناب» المفتش بالإنجليزي يا «محسن».

الفصل السابع

لم يبقَ من الأسبوع غير يومين، ولم يصل خطاب «سنية» بعد، فكاد «محسن» يجن يأسًا، وهو الذي ما ارتضى البعد عنها تلك المدة إلا طمعًا في رسالة مكتوبة بخطها، وعاوده الشك، وتسلطت عليه الأوهام مصورة له شر الصور، غير أن الأمل ما لبث أن جاء لنجدته، فأخذ يلتمس لها المعاذير، ويضع الذنب كله على عاتق عمته «زنوبة» التي قد تكون أهملت، ولم تفِ بوعدها، ولم تطلب إلى «سنية» تحرير الخطاب المنتظر، وارتاح إلى هذه الفكرة فسكن قلقه قليلًا، غير أن هذا لم يمنعه من أن ييئس من وصول الخطاب، فترك التفكير فيه مرغمًا، وسار كاسف البال إلى الحقل يتلهى بمناظره، وجاء ميعاد البريد فلم يهتم له اهتمامه المعتاد كل يوم.

وإذا به يسمع صوتًا يناديه، فالتفت خلفه فرأى «عبد المقصود» يدعوه إلى المنزل حالًا؛ لأن الست تطلبه، فعاد «محسن» مسرعًا، وقلبه يدق حتى بلغ البيت، ودخل، فقابلته والدته بخطاب في يدها، وقالت له إن هذا له باسمه، ولم تتم عبارتها لأن يد «محسن» امتدت إلى الخطاب في حركة آلية عصبية فاختطفه، وما صار في كفه حتى تمتم، وهو ينظر إلى مظروفه: آه! ... صحيح، ... لي ... لي.

ثم حمله في يده، دون أن يفضه، وذهب به نحو الباب، واختفى بأسرع من البرق، تاركًا والدته تنظر إلى ذلك حائرة دهشة!

وما صار «محسن» خارج البيت حتى وضع الخطاب في جيبه، وسار هنا وهناك كالمجنون، وكأنما الدنيا تضيق به فرحًا، ثم أخذ يلتفت حوله باحثًا عن مكان منفرد بعيد يطالع فيه الخطاب ... وخطر له أن يذهب إلى آخر الحقل عند مجرى الماء، حيث الخضرة والماء وخطاب «سنية»، وفي الحال جرى وهو واضع يده على جيبه؛ كأنه يحمل كنزًا يخشى سقوطه، حتى وصل إلى المكان الذي انتقاه، فجلس هنيهة على حافة الجدول،

ثم نهض؛ كأن البقعة لم تعجبه، وجلس في بقعة أخرى، ثم نظر إلى ما يحيط به من منظر، متعمدًا التريث والهدوء والتأني؛ غير أن قلبه كان يدق وكأن شيئًا يدفعه دائمًا إلى وضع يده في جيبه وإخراج الخطاب.

وأخيرًا فعل، ولكنه لم يفتحه؛ بل ظل يقلبه في كفه، وينظر تارة إلى ختم البوستة، وتارة إلى العنوان، متمعنًا الخط، كل ذلك ويده ترتجف فرحًا وهو بين عاملين: الرغبة في فض «الغلاف في الحال» والرغبة في التريث والاستمهال؛ كأنما يريد أن يطيل فرحته باستلامه؛ أو كأنما يخشى إن هو قرأه الآن أن تذهب لذته وشيكًا بمجرد الفراغ من تلاوته … وهكذا لبث تتنازعه الرغبتان وقتًا، حتى تغلبت في النهاية رغبة حب الاستطلاع، فجعل يفض الغلاف في تأنٍّ وحذر؛ خشية أن يمزق من ورقه أكثر مما ينبغي؛ وكأنما يضن بنطفة من ورق هذا الخطاب الثمين يرميها للريح، وأخيرًا أخرج المكتوب ونشره بين يديه وقرأ:

حضرة المحترم الأمجد «محسن بك» … دام

من بعد مزيد السلام، والسؤال عنكم وعن صحتكم وصحة سلامتكم التي هي عين المراد من رب العباد، وصلنا عزيز خطابكم، وعلمنا ما فيه من سؤالكم عنا وعن صحة سلامتنا، فأكثر الله خيركم ولا أحرمنا منكم أبدًا، وإننا والله متشوقون عليكم جدًّا، فإذا كنت تحب عمتك يا محسن فلا تتأخر أكثر من ذلك عن الحضور إلى مصر قريبًا إن شاء الله، فإن مصر بدونك مظلمة. وفي الختام أعمامك وكل من بطرفنا يهدونك أنت والبك الكبير والست الوالدة أزكى التحيات … ودمتم بخير.

عمتك «زنوبة» …

بهت «محسن» قليلًا، ووَجَم، وأحس شيئًا من خيبة الأمل. وكان أكثر ما أدهشه وأبهته إغفال ذكر «سنية» في الخطاب لكنه عاد فالتمس لها العذر قائلًا في نفسه: إنها هي التي كتبت الخطاب، وهي تعلم أن «محسن» يعلم ذلك فلا محل لذكر اسمها، أو لعله الحياء منعها، أو لعلها رغبتها في أن تظل خلف ستار عمته «زنوبة».

وعاد «محسن» إلى تلاوة الخطاب من جديد، على أن كاتبته «سنية»، وعلى أنها إنما تخاطبه من وراء ستار، ولكن أي ستار؟ ولماذا هذه اللغة المبتذلة التي جرت مجرى العرف والاصطلاح في رسائل السوقة، والتي لا يجري بها إلا قلم كاتب عمومي أو

«عرضحالجي»؟ أفتُراها قصدت المداعبة؟ إن «سنية» مداعبة لعوب حقيقة، ولكنها أيضًا مهذبة متعلمة تقرأ القصص وتطالع الكتب، فلا يُعقل أن يكون هذا أسلوبها، إنها إنما تداعبه. نعم هي دعابة منها لطيفة! ... وسرعان ما ابتسم «محسن» ورجع يتلو الخطاب من أوله، ويقف عند كل كلمة ضاحكًا مسرورًا معجبًا بظرف معبودته، ولمع في رأسه خاطر جعله يضاعف إعجابه بها؛ فقد وقعت عينه على الإمضاء، فقال في نفسه: نعم إنه حسن ذوق، فما دام الخطاب من «زنوبة» فإنها اختارت أسلوبًا يتناسق مع الإمضاء ومع جاهلة «كزنوبة» ... لا شك أن «سنية» جمعت ما بين الدعابة لتسره وتُضحكه، وبين السخرية لتهزأ خُفيةً ﺑ «زنوبة». ما أذكى فؤادها! لا ريب أنه لم ير ذكاء باهرًا كذكاء «سنية».

غير أن «محسن» برغم كل هذا الذي استخرجه من الخطاب ظل قلق القلب ... كان يود أن تبثه بعض عواطفها نحوه. إنها نسيت أنه إنما يحيا هنا بذكراها، وذكرى تلك القبلة المطبوعة على خده، ونسيت أنها مهما فعلت من أجله فلن تزيل عنه القلق، ولن تمنحه الراحة التامة والاطمئنان. إنه في حاجة إلى عبارة تؤكد له بعض التأكيد، وتريحه بعض الراحة، وتطمئنه بعض الاطمئنان.

فعاد يتلوه تلاوة أخرى؛ ليستشف منه شيئًا آخر، غير تلك الدعابة التي ليس في حاجة إليها كبيرة، إلى أن بلغ عبارة «فإذا كنت تحب عمتك يا محسن» ... إلخ ... إلخ.

فوقفت عيناه عليها، واحمر وجهه؛ إذ بدا له أن هذه العبارة إنما تعبر عن عاطفة «سنية» التي كتبتها خلف ستار «زنوبة» ... نعم، هو ذاك، وإنها لولا الحياء لقالت: فإذا كنت تحب «سنية» يا «محسن» ... إلخ ... إلخ.

دق قلب «محسن» سريعًا لهذا التخيل، فتوقف قليلًا وأرسل نظراته الحالمة إلى ماء القناة الجاري تحت قدميه وقد أحس لذة وسعادة، ثم عاد إلى الخطاب بعد لحظة، وأخذ يتمعن تلك الجملة الساحرة، ويستنبط منها معاني جديدة، وينزل في أغوارها يستعصرها عواطف مستترة، «فإذا كنت تحب ... يا «محسن»، فلا تتأخر أكثر من ذلك فإن مصر بدونك مظلمة!»

– صحيح؟! ... مصر بدوني مظلمة في نظر «سنية»؟

هذا ما جعل محسن يهمس به لنفسه، وهو كالمجنون فرحًا واختلاجًا ... وطوى الخطاب باعتناء تام، بعد أن أدناه من شفتيه وقبله قبلات حارة، ودسه في جيبه بحرص، ثم نهض وقفل راجعًا إلى البيت، وهو يشعر كأنه لا يسير على الأرض؛ بل يمشي في الهواء.

دخل «محسن» البيت فقابلته والدته سائلة عن الخطاب الذي أخذه الساعة وانصرف به. فقال لها إنه من عمته، وأدخل يده في جيبه مترددًا. ولاحظته والدته، فمدت يدها إليه تريد الخطاب، ولعل ما ظهر لها من أمر «محسن» رابها قليلًا، ولم يطل تردد الفتى، فإنه أبرز الخطاب مضطرًّا إلى والدته، وابتسم، واحمر وجهه وقال في بعض تلعثم: عمتي بتسأل عن صحتك وصحة بابا ... وبس.

ثم فض الخطاب باحتراس وناوله لوالدته، وهي تلاحظ تغير وجهه، فلما أخذت الخطاب وطالعته استغربت إذ لم تجد في الخطاب شيئًا، وأعادته إلى الفتى وقد انفرج فمها عن ابتسامة؛ كأنما أدركت أن ما بدا من «محسن» ما كان سوى اهتمام صبياني بخطاب أتاه باسمه ... مهما كان الخطاب فارغًا وسخيفًا.

ولاحظت كذلك عناية «محسن» بإعادة الخطاب داخل الغلاف، ثم عنايته وتؤدته وحرصه وهو يضعه في جيبه ثانية، كأنما يضع شيئًا ثمينًا ... فابتسمت ابتسامة أخرى.

ولبث «محسن» هنيهة معها ساكتًا؛ وكأنما لا يجد ما يقول لها. أخيرًا تحرك يريد الانطلاق من جديد إلى الفضاء؛ ليخلو إلى نفسه، ولكنها استوقفته قائلة في عتب: إنت يا «محسن» دايمًا في الغيط؟ ... مش تقعد معايا شوية؟

فرجع وجلس، وهو يخفي تبرمه بابتسامة.

واقتربت منه والدته، وكانت تحس دائمًا أن ما يربطها بابنها إنما هي صلة تكاد تكون رسمية شرعية لا أكثر.

وطالما رأت ذلك منه ومن نفسها، ولا تعلم إن كان السبب افتراقه عنها منذ سنين، للالتحاق بمدارس «مصر»، تحت إشراف عمه «حنفي» المدرس، أو أن السبب اختلاف طبائعهما منذ بدأ الغلام يعقل، وأنها ما كانت ترى منه اتفاقًا معها في الميول ... وطالما رأته يؤثر الوحدة أو اللعب مع رفاقه الصغار على الجلوس إليها ... أو أن العيب عيبها هي، وعيب طبيعتها المنصرفة عن الأمومة وشئونها، إلى رغبات أخرى ومطامع! إنها لا تدري، وكل ما حملها على التفكير في هذا الآن إحساس بسيط غريب، لعله شيء من الغيرة أو الأثرة، وهي تلاحظ اهتمام الفتى بخطاب «زنوبة»؛ ذلك أنها قالت له بعد أن نظرت إليه طويلًا: أظن يا «محسن» انت تحب عمتك أكتر مني؟

فلم يُجِب الفتى؛ إذ كان ما يملأ فكره شيء آخر: أن ينطلق إلى الغيط، ويجلس هذه المرة في ظل الساقية الدائرة، ويقرأ الخطاب من جديد.

الفصل الثامن

لم يطق «محسن» صبرًا عن مصر دقيقة واحدة بعد اليوم، وما الذي يبقيه هنا الآن وقد تسلم الخطاب، وقرأه مائة مرة حتى حفظه عن ظهر قلب.

وأعلم والديه بعزمه على السفر وبميعاد سفره، وأخبرهما متلطفًا عما ينبغي حمله إلى أعمامه من هدايا الريف، وأفهمهما في كياسة أن يسخوا في الهدية هذه المرة، وكان يقصد في نفسه بهذا أن يجعل عمته «زنوبة» تقتطع من الهدية جزءًا تهديه إلى «سنية»، فما كان اليوم التالي حتى أخذ الكل يجهزون «محسن» للرحيل.

فهيئت السلال و«الطرود» مملوءة من «برام» الأرز ذات الحمام والفراخ، ومن «الكعك» و«المنين» و«البتاو الفلاحي»، والفطير «المشلتت»، يضاف إلى ذلك بلاصان من العسل النحل، وصفيحتان من المسلي «وفردان» من الإوز ونحو خمسمائة بيضة.

وقد اصطفت هذه الهدية الوافرة صفًّا طويلًا جعل يتأمله «محسن» في زهو وافتخار.

وجاء ميعاد الرحيل، ولبس «محسن» بذلته، وهو فرح مبتهج؛ إذ بعد ثلاث ساعات يكون في مصر. نعم بعد ثلاث ساعات فقط يصير في منزل أعمامه الملاصق لمنزل «سنية»، ولأول مرة ذكر «محسن» وأدرك أنه يسكن بجوار «سنية» ... لأول مرة أحس معنى هذا الجوار وقيمته، وكم من الحقائق تمر بالإنسان فلا يراها ولا يدركها إلا بعد زمن، وبعد أن تغدو تلك الحقائق صورًا، كأنما قُدر للإنسان ألا يرى من الحياة أيضًا إلا الأحلام والصور. نعم إنه يقطن دائمًا المنزل المجاور لمنزلها، ولكنه لم يفطن ولم يقدر ذلك إلا اليوم وهو بعيد.

وكان عندئذٍ يضع طربوشه أمام المرآة على رأسه، وعيناه تائهتان تتأمل هذه الخواطر، فما وصل إلى ذلك الإحساس: «أن ما بينه وبينها ليس إلا الحائط بين المنزلين» حتى شعر بالهناء يغمره، ووقعت عينه على صورته في المرآة، فهش لها، وأطال النظر إليها، ودخل

عليه والده فجأة والساعة في يده ينبهه إلى الوقت، فصحا «محسن» لنفسه مرتبكًا بعض الشيء، وجعل ينظر حوله؛ كمن يتأكد أنه لم ينسَ شيئًا من حوائجه، ثم اتجه إلى الباب في أثر والده.

وكانت والدته قد انتهت من الإشراف على نقل الأمتعة، وقد رؤي أن يسبق «العفش» «محسن» إلى «دمنهور»، على عربة نقل يجرها بغلان، وأن يقفو «محسن» أثرها في المركبة الفخمة بصحبة والده، وأقبلت والدة «محسن» فالتفت البك إلى ولده، وقال بلهجة سريعة: سلم على نينتك قوام ألا مفيش وقت.

فتقدم الفتى إلى والدته فعانقته وأوصته بالمواظبة على المكاتبة، ثم التفتت إلى زوجها وسألته عما إذا كان قد أعطى «محسن» «مصروفه»، فأجاب مسرعًا: في المحطة.

فقالت له وهي تومئ إليه إيماءة مصطلحًا عليها: اعطي له بس زي ما قلت لك؛ ألا يروح يعطي الفلوس لاعمامه.

فاستاء «محسن» ونظر إليها نظرة تأنيب؛ واحتج على الفلوس قائلًا: إن أعمامه ليسوا في حاجة إلى أخذ نقوده الخاصة، إنهم أطيب من ذلك قلبًا، ولا يدري الفتى لماذا أوجعته تلك الكلمة، ولا أي شعور بعثه على الدفاع عن أعمامه ورفاقه.

لاحظ والده ذلك فقال في هدوء بدون أن يغضب زوجته: إنه يرسل إلى «حنفي أفندي» كل شهر مبلغًا عاديًّا، في نظير إقامة «محسن» عنده. وإن هذا المبلغ غير مبالغ فيه … فقالت الست بلهجة جافة بعض الجفاف إنها تقصد القول بأن «محسن» لا يحب النقود، ولا يهتم لها منذ صغره، وإنها ما زالت تذكر أيام الأعياد، عندما كانت تعطيه ريالًا «عيدية»، حاسبة أنه سينفقه مثل غيره من الأطفال في شراء «زمارة» أو «أمبولة» أو «شيكولاتة»، ولكنه ما كان يفعل شيئًا من ذلك. بل كان يلعب بالقطعة الفضية قليلًا، ثم يعود بها إلى والدته ويردها، فتدهش وتسأله: جرى إيه يا «محسن»؟

فيجيبها: «خلاص».

فتلح في سؤاله متعجبة: خلاص إيه؟

فيقول لها: خلاص لعبت به وشبعت.

وسكتت الست قليلًا، فقال لها البك: لكن «محسن» النهارده ماطلبش شيء زيادة عن المعتاد كل شهر.

فغضبت السيدة، وقالت في حدة وبرود: طيب … طيب … عرفت … هو انا كفرت، أنا قصدي تمشي بالحساب علشان بعد كده ماتقولش إن العزايم هي اللي ناهبة المصاريف.

جاء القطار، وهجم عليه الخدم بالأمتعة والطرود، وركب «محسن»: وتحرك به القطار، وأشار لوالده على الرصيف إشارة الوداع، ثم جلس في مقعده، وخلا إلى نفسه يحاول أن يستذكر أثر الريف في نفسه، أو على الأقل آخر صورة لوالديه اللذين فارقهما منذ برهة، غير أنه لم يجد في رأسه الآن سوى صورة واحدة … «مصر — سنية»، ولا أثر في قلبه غير أثر واحد: الخطاب الذي في جيبه منها … هذا هو كل ماضيه، وكل مستقبله: «سنية» … خلا ذلك فليس بنفسه شيء حتى الساعة؛ كأنه لم يكن في الريف، ولا شاهد شيئًا، ولا لقي أحدًا.

كذلك لم يشأ «محسن» أن ينظر إلى المسافرين معه، ولا إلى ما يجري حوله، بل أخرج من جيبه الخطاب، وأخذ يقرؤه ويقرؤه متأملًا كل عبارة، حتى بلغ القاهرة والخطاب بيده، كان والد «محسن» قد أرسل تلغرافًا إلى «حنفي أفندي» عن ميعاد وصول القطار؛ حتى يجد من ينتظره بالمحطة، فما كاد يقف القطار حتى نهض «محسن» ونفض عنه الغبار، ثم أطل من النافذة، ونظر إلى الرصيف في سرور هائل؛ كي يشير إلى عمه «حنفي» … غير أنه لدهشته لم يجد فقط «حنفي»، وحده؛ بل وجد معه كذلك كل الرفاق «الشعب» جميعه: «عبده» و«سليم» و«مبروك» و«حنفي»، واقفين كلهم ينظرون إلى القطار الداخل عليهم يتبختر … و«مبروك» بسذاجته المضحكة يرفع ذراعه في الهواء، ويشير إشارة طائشة إلى المركبة التي يظن بها «محسن»، ولم يكن «لمحسن» الوقت الكافي، ولا العقل الهادئ في تلك اللحظة؛ ليتساءل في نفسه عن سبب مجيء الجميع لاستقباله؟ … أتراه الشوق إليه؟ … نعم إن الرفاق في الواقع شعروا كأنهم فقدوا شيئًا بغياب خامسهم؛ فما جاءتهم البرقية حتى أسرعوا إليه فرحين، ولكن ألهذا فقط؟ لم يعلم «محسن»، إلا أنه سُرَّ برؤيتهم، وما كاد نظره من نافذة القطار يقع على «مبروك» وهو يشير ويتكلم على طريقته المعهودة حتى امتلأ قلبه ضحكًا داخليًّا، وشعر كأنما قد عاد أخيرًا إلى مائه وجوه الذي يستطيع أن يعيش فيه.

الفصل التاسع

لم يكن المقام يسمح «لمحسن» بأكثر من تحية أولى سريعة؛ إذ إنه ذكر لهم ما معه من عفش كثير؛ فأقبلوا برمتهم على القطار و«مبروك» في مقدمتهم يحمل ما يستطيع حمله حتى بلغوا ساحة المحطة، فأوفدوا «مبروك» يتفق لهم مع صاحب عربة نقل، وما انتهوا من وضع العفش والطرود عليها، ومن وضع «مبروك» فوق العفش والطرد حتى قالوا للعربجي بعد أن أخذوا نمرته: سوق يا «أوسطى» على شارع سلامة نمرة ٣٥.

وقال «اليوزباشي سليم»: خد بالك كويس من العفش يا أوسطى.

وقال «عبده» وهو يعد الطرود: حاسب يا أوسطى ألا يقع منهم طرد في السكة.

وقال «حنفي»: إن تهت يا «أوسطى» عن البيت اسأل ناحية السيدة، ألف من يدلك.

فأجاب «العربجي» وهو يجذب اللجام ويقول: «شي … شي يا بتاع الكلب.»

– ماتخافش … أتوه ازاي؟ مش بتقولوا شارع سلامة في خط السيدة؟

فأضاف الرئيس «حنفي» مؤكدًا: وقدام البيت قهوة، بس انت ما عليك يا «أوسطى» إلا تسأل المعلم شحاتة صاحب القهوة.

وهنا صاح بهم «مبروك» من فوق العربة؛ محتجًا على إغفالهم وجوده: وانا يعني بلا قافية على العربية بصفة طرد؟

فضحك «محسن»، ورأى الحق في جانبه، والتفت «حنفي» إليه، وقال في لهجة الاعتذار: حقك علينا يا سي «مبروك» غلطنا، سوق يا أوسطى وان تهت ابقا اسأل «الأفندي» اللي فوق العفش.

ورفع الحوذي يده بالسوط، فسارت العربة تتهادى في ميدان باب الحديد؛ كالسكرى: بحمارها ذي الخلاخل النحاسية، و«مبروك» على قمتها يترنح من حركتها، وينظر خلفه

إلى الرفاق مبتسمًا، وهم يشيعونه بأنظارهم، وجعل يلوح لهم بيديه أن اسبقوا أنتم إلى المنزل توًّا.

واتجه الرفاق بعد ذلك إلى محطة الترام، وركبوا إلى حي «السيدة زينب»، وهم يسألون محسن طول الطريق عن أهله وعن «دمنهور» وعما رآه، وهو يجيبهم ناظرًا إلى وجوههم وأصواتهم؛ وكأنما يلاحظ فيها تغيرًا قليلًا، ورنينًا غير مألوف، لكنه ليس يدري بعدُ إن كان ما يلاحظ صحيحًا، أو أنه خيال مسافر قادم، إنه يلمح على وجوههم مسحة من كآبة هادئة، وفي أصواتهم خفوتًا ثم كثيرًا من الصمت؛ كأنما هم لا يبطنون فرحًا ولا ابتهاجًا، ومع ذلك شيء عجيب، إنه يحس ازدياد قربهم إليه، ويشعر كأنما كل ما يملكون من ابتهاج الساعة، إن كانوا يملكون، فإنما هو لعودته.

لم يستطع «محسن» أن يناقش نفسه الآن وهو في الترام في كل ذلك. غير أن هذا كان شعوره المباشر عند لقائهم، وطالما بدا له في الطريق أن يسألهم في ذلك، إلا أنه خشي أن يكون شعوره قد أخطأ، وأن يكون كل هذا من تأثير المقابلة الأولى، ثم إنه كان منهم في موقف المجيب على أسئلتهم، والحاكي لأخبار الرحلة، فلم يشأ تعجل الاستفسار منهم عما يريد أن يعلم، والوقت متسع أمامه، وهم أيضًا من جانبهم كانوا ساكتين عن إخباره بأمرهم؛ كأنما لا يريدون التعجل؛ أو كأنما هم لا يريدون الظهور بمظهر الاهتمام بأخبارهم.

وبلغوا المنزل. وما وقع بصر «محسن» على الدار المجاورة واللوحة النحاسية المنقوش عليها اسم «الدكتور أحمد حلمي»، حتى تغير وجهه ودق قلبه دقات سريعة. ولعل عبده وسليم كانا يرقبانه هذه اللحظة، فقد تبادلا النظر، واختلجا بشيء لا يعلم أحد أهو بعض الراحة، أم بعض الرأفة.

وصعد الجميع السلم، ومر «محسن» وهم يجتازون الطابق الأول بالشقة القاطن بها الجار «مصطفى بك» فابتسم وقد ذكر في الحال عمته «زنوبة»، ثم التفت إلى أحد رفاقه، وسأله عما إذا كان هذا الجار المثري ما زال ساكنًا هنا أم «عزل»؟ فتبودلت النظرتان من جديد، ثم سمع «سليم» يجيبه بلهجة غريبة: ساكن يا سيدي.

ووصلوا أخيرًا إلى طابقهم، ودخلوا الشقة المعهودة، فقابلتهم «زنوبة» مهللة مكبرة، ترحب بعودة «محسن»، تسأله عن صحة والديه، وتنظر إليه، وتقول: إنت كنت عندنا محفض سمين.

ثم جعلت ترقيه وتدعو له الله وأم هاشم … و«محسن» يجيل بصره في البيت، يتعرف ما تركه منذ أسبوع؛ كأنما مضى عليه عام، وينظر إلى المائدة الممدودة وسط الردهة،

ويستذكر اجتماعهم حولها. ثم مد رأسه لينظر حجرة النوم ذات الأسرَّة الأربعة المصطفة جنبًا إلى جنب، ثم أدار رأسه يتفقد سلم السطح المؤدي إلى حيث التقى «بسنية» لأول مرة. ثم التفت إلى حجرة «زنوبة» والشلتة الكرنبي، المفروشة على الأرض فوق الكليم الأحمر القديم، حيث تجلس عمته، ويجلس بجوارها يتحايل ويتخابث؛ ليعلم منها أخبار «سنية» بدون أن يستثير ريبتها، كل ذلك رآه ومر بخاطره في لمح البصر. ولم يجد شيئًا تغير عن ذي قبل، لا في نظام الشقة، ولا في الأثاث.

نعم لا شيء تغير، ومع ذلك فإن إحساسًا دقيقًا يحدثه بأن شيئًا تغير، ولكن ما هو؟ التفت «محسن» إلى وجوه رفاقه يستفسرها، لكنه ألفاهم ساكتين غامضين!

فالتفت إلى «زنوبة»، فلم يستطع بادئ الأمر أن يقرأ في وجهها شيئًا غريبًا، ولا أن يرى في صوتها أو حركاتها ما يوحي إليه بإحساس خاص، غير أنه لم يفته، وقد أمعن النظر إلى عينيها، أن يجد فيها شيئًا يتعارض وتلك الابتسامة الفرحة، وذلك الابتهاج الذي استقبلته به … نعم في عينيها أيضًا تلك الكآبة، ولكنها أرخت بصرها في الحال، إذ نظر إليها هذه النظرة الفاحصة، ثم سألته عما إذا كان جائعًا؟ فأجابها أنه لن يأكل إلا مع أعمامه وعند حضور العفش؛ لأنه يحمل إليهم «برام» أرز بالحمام والدجاج.

فأظهر الجميع الابتهاج، وهللوا لحظة، وهشُّوا لذكر الحمام والدجاج … فقالت «زنوبة» «لمحسن» أن يخلع ملابسه ريثما يأتي العفش، فذهب «محسن» إلى القاعة «العمومية» ذات الأسرَّة، واقترب من الدولاب الكبير المشترك وفتحه، وألقى نظرة على ما يحويه من ملابس مختلفة الأحجام والألوان، تُذكِّر بمعروضات سوق «الكانتو»، ثم اتجه إلى سريره المجاور لسرير «الرئيس حنفي»، وهو يفك أزرار ثيابه، فقال «حنفي» مرحِّبًا باشًّا: أهلًا بجاري.

وأومأ «اليوزباشي سليم» بيده إلى القاعة والأسرَّة، ثم قال «لمحسن» ملاطفًا، ولكن في لهجة تشوبها رنة غامضة قلقة: رجعت «للعنبر» يا بطل.

فقال «حنفي» باسمًا: العنبر دلوقت كامل العدد.

ثم طفق يتحدث قائلًا إنه كلما ذكر أن سرير «محسن» خالٍ بدا له أن شيئًا ينقص، وهذا الشعور بالنقص كان يمنعه من النوم بعض الأحيان … فضحك «محسن» والتفت إلى «حنفي» وقال: يمنعك من النوم، مش ممكن، مفيش حاجة تمنعك من النوم أبدًا … فاكر يوم ما نمت في المحطة، وضيعت لي القطر؟

والتفت إلى الجميع يريد أن يحكي لهم ما حصل؛ كي يشركهم في الضحك، غير أن «حنفي» أومأ إليه إيماءة خفيَّة؛ متوسلًا إليه ألا ينشر الخبر «بين الشعب».

ودب الصمت بينهم لحظة قطعها «عبده» الذي لم ينبس بحرف منذ دخوله قائلًا: «مبروك» غاب.

وحولت هذه العبارة أفكار الجميع إلى جهة أخرى، فنهضوا ينظرون من النافذة مجيء العربة التي فوقها «مبروك»، ونزل «حنفي» من فوق سريره الذي كان جالسًا عليه، وهو يقول: لازم تاهوا، هي ما دام فيها «مبروك» حاتوصل؟ أنا أراهن إن ما كان وقع من فوق العربية، والعربجي مش واخد باله وفضل سايق.

وخطر «لمحسن» خاطر سريع، فعدل عن خلع ملابسه، وعاد «يزرر» سترته، ذلك أنه رأى الهدية عما قليل ستأتي، وأنه قد يذهب للقاء «سنية»، نعم إنه يقوم المحال إذا ظن أنه يستطيع صبرًا على رؤيتها حتى الغد.

ما كاد «محسن» ينتهي من تنظيم هندامه حتى سمع رفاقه يصيحون في النافذة معلنين: ظهرت.

ثم عقب ذلك لغط أثاره «حنفي» الرئيس، وهو يزاحم الرفاق على النافذة، ويضع منظاره على أنفه، ويسدد عينيه إلى حيث نظر الزملاء، ويقول مؤكدًا بأن العربة ظهرت حقيقة، عند آخر الشارع، وتهتز وتتراقص؛ كالسفينة الغرقى وهي تجتاز حفر ونقر الطريق، ومن فوقها «مبروك» يقب ويغطس لناظريه عن بعد، وهو تارة تظهر منه يد أو ذراع: يشير للعربجي إلى المنزل، وتارة يظهر منه نصفه الأعلى كله وقد احتضن طردًا صغيرًا.

وبلغت العربة المنزل أخيرًا، ووقفت ببابه، فاقترح «عبده» أن ينزل الجميع لمعاونة «مبروك» في إصعاد العفش، وما كاد يقول، حتى اتجه إلى باب الشقة، وأخذ ينهب الأرض نهبًا وباقي الشعب في أثره بما فيه «الرئيس شرف»، ولاحظ «محسن» نشاط «حنفي أفندي» العجيب، وهو ينزل السلم مستعدًّا للعمل، فضحك في نفسه وقد أدرك السر: والله ما حرك العم «حنفي» اليوم إلا برام الأرز.

وكانت «زنوبة» وقتئذٍ في حجرتها تنتظر فراغ محسن من خلع ملابسه، فلما سمعت جلبة الجميع في السلم، خرجت إليه وأشرفت عليهم من علٍ، وسألت عن الخبر فأجابها «الرئيس حنفي» في اغتباط ساذج، وهو يدافع منكب «سليم» على الدرجة الأخيرة من السلم: العربية جت، حضري القصع والحلل والصواني.

ما مرت عشر دقائق، حتى صُفَّت الطرود في ردهة المائدة واجتمع الشعب بأكمله، بعد أن صرفوا الحوذي وعربته، وتقدمت «زنوبة»، وقد فوضوا إليها الأمر في فتح الأشياء

وتوزيعها وحفظها، والتصرف فيها بمقتضى الحكمة والعدل، فتناولت سكينًا وجعلت تقطع وتفك أربطة السلال، وتخرج ما فيها من الكعك المسمى «منين» و«بتاو» و«غريبة» في طشت غسيل كبير.

بينا «مبروك» ينظر إلى حركة يدها المتنقلة بين السلة والطشت ثم يحدق في البتاو، ولعابه يسيل. وأخيرًا تجرأ وقال، ولم يطق صبرًا على الانتظار: أما اقول لك يا «ست زنوبة»، صلي على النبي.

فلم تُجِب «زنوبة»، وظلت منهمكة في عملها، لا تلتفت إليه، فسكت قليلًا على مضض، ثم تردد وتنحنح، وتقدم إليها أخيرًا قائلًا: أنا ماليش دعوة بكم بلا قافية، أعطيني أنا منابي وقولي لي روح في داهية.

فرفعت رأسها شزرًا، دون أن تنقطع عن عملها وقالت: النبي تتلهي.

غير أن «عبده» رأى الحق في جانب «مبروك»، فاقترح أن يُعَد البتاو كله ثم يقسم بينهم بالتساوي، فلا يأخذ فرد من الشعب بتاوة واحدة أكثر من رفيقه، وأن ينطلق كلٌّ بنصيبه يصنع به ما شاء، ويكون كلٌّ حرًّا في أن يأكل نصيبه بأكمله في يوم واحد أو على أيام، فأعجبت الفكرة الجميع، وصاح «الرئيس حنفي» متحمسًا: أهو دا العدل.

فأذعنت «زنوبة» وأخذت تعد البتاو والمنين، توطئة لتوزيعه بين الجميع بالتساوي، ولكن «محسن» ذكر أن «سنية» لها قسط من الهدية، فارتبك وتحير، وأخيرًا تشجع وقال في بعض اضطراب: أظن واجب يا عمتي تبعتي شوية لبيت الجيران، ألا طبعًا هم عارفين ... إني جيت من الأرياف ومعايا.

وغص حلقه بباقي الجملة؛ إذ لاحظ في وجوه الرفاق، وبالأخص في وجه عمته تغيرًا فجائيًّا عجيبًا، وتمتمت «زنوبة» بلهجة فيها رائحة الاستنكار: الجيران؟

فأحس «محسن» انقباضًا في صدره، والتفت إلى الرفاق يستجليهم الأمر. فألفاهم متبرمين متوجسين؛ كأنهم ما كانوا يريدون التعجيل بتعكير صفوهم في لحظة كهذه، ولمح «سليم» لأول مرة منذ قدومه، يفتل شاربه المعهود، غير أنه في هذه المرة يفتله فتل ساهم «مكبوس» لا كما كان قبلًا، فتل تعاجُب وخُيلاء، ولاحظ كذلك لأول مرة أن شارب «سليم» قد تغير، لم يعد بعدُ ذلك الشارب اللامع «الزنهار» بل غدا متهدل الأطراف مسدولًا؛ كأنما كف عن استعمال «الكوزماتيك» منذ زمن طويل، التفت إلى عمته «زنوبة» فرأى شفتيها تهتزان وترتجفان؛ كأنما تريد أن تنفجر بكلام، وقد سكتت يداها عن العمل، فلما رأت صمت الجميع تجرأت ورددت في لهجة نارية: جيران! ... مين هم الجيران دول؟!

شعر «محسن» كأن مصيبة تتهيأ، وتتكون لتنقضَّ على رأسه. فنظر إلى رفاقه بأعين زائغة؛ وعندئذٍ رفع «عبده» رأسه وأشار بيده «لزنوبة» إشارة عصبية، وقال في صوت جاف مغضب: اسكتي دلوقت مفيش لزوم.

ولكن «زنوبة» كان يكفيها أن تلمس في هذا الموضوع لينفغر فمها بالكلام الذي لم تنقطع عنه منذ أسبوع. وكانت كلما تكلمت فيه تحس أنها تشفي غلتها؛ لذلك ما التقت بأحد من معارفها القريبين أو البعيدين إلا قالت له هذا القول الذي صاحت به الساعة: جيران من دول يا ادلعدي؟ بيت «الدكتور حلمي» أبو قرنين، بيت «سنية» الشرموطة!

غير أن «عبده» ارتعد غيظًا وصاح بها: قلت لك اسكتي، كفاية تشنيع.

وقال «سليم» متكلفًا عدم الاكتراث، وهو يفتل «شاربه» بكبرياء المدحور: مفيش لزوم نهتم بمسألة زي دي، مهمة قوي يعني «سنية» بتاعتك؟ أنا والله عمري ما نزلت لي من زور.

فحدجه «عبده» على الرغم من هياجه العصبي بنظرة ساخرة؛ وكأنه يقول له: «التعلب من عجزه قال إن العنب حصرم.»

وأشارت «زنوبة» بيدها إلى «عبده» و«سليم» كأنما تقول لهما أن يتركاها وشأنها، وهي تصرخ: يوه ... مش اقول «لمحسن» على اللي جرى؟

نعم تقول «لمحسن» ماذا حدث في غيابه، لو أن «محسن» الساعة من الأحياء، أو ممن تسمح له حالته بالاستماع، فإن «محسن» ما كاد يتلقى في صميم قلبه عبارتها: «سنية الشرموطة» حتى بهت لونه وبرد جسمه، وذهل عن كل شيء حوله، وأمسك بطرف المائدة يتقوى بها على الوقوف، وقد حدق «بالمشمع» الباهت القديم المفروش عليه. وتحجرت نظرته، ولم يعد يسمع شيئًا من تلك الجلبة والثرثرة والصراخ والتهويل الذي كانت تثيره «زنوبة» في المكان بقصتها الطويلة المفصلة، عما حدث في هذا الأسبوع المشئوم.

الفصل العاشر

لم ينم «محسن» تلك الليلة إلا نومًا متقطعًا لا فائدة منه للجسم. ولقد كانت أحيانًا تأخذه الإغفاءة من تأثير تعب هذا النهار المملوء سفرًا وغمًّا، فيدب النوم في مفاصله ويهمد كل شيء فيه، ولكن ذلك الهمود والنوم العميق ما كان يدوم غير دقائق، وإذا بشيء كالصفير المستطيل أو الصراخ الحاد يخترق طبلتي أذنيه ويتبينه، فإذا هو صوت يقول: «سنية الشرموطة! ... «سنية» الشرموطة».

فما أسرع ما يطير النوم، ويحس كأن قلبه قد خُطف أو سقط من بين قدميه وغاص في الأرض، فيفتح عينين متسعتين حمراوين من الأرق، وعندئذٍ يستعرض ما وقع هذا النهار، ويستذكر «زنوبة» وملامح وجهها المتقلص غيظًا وهي تُرغي وتُزبد ساردة ما حدث، قائلة له فيما كانت تقول، وهو لا يعي إلا نصف وعي: من يوم سفرك يا «محسن» وهي تشاغله من البلكون.

ثم قولها بعد ذلك: ليت الأمر اقتصر على مجرد المغازلة من الشرفات، فإن ما بينهما الآن قد وصل إلى حد تبادل المكاتبات والمراسيل، وما يمضي يوم دون أن ترى جارية «سنية» ملتفة في إزارها تجيء خلسة إلى «مصطفى بك» وتظل في مسكنه «بالشقة السفلى»؛ مقدار ما تسلمه الرسالة ويدفع هو إليها الرد.

إنها تكتب إليه، تكتب إليه رسائل وخطابات كل يوم، و«محسن» الذي كان ينتظر خطابًا واحدًا منها في «دمنهور».

وعندئذٍ ذكر تلك الحقيقة التي سودت الدنيا في وجهه، وذكر الخطاب الذي جاءه بالعزبة وحفظه عن ظهر قلب، وذكر قول «زنوبة» عندما صحا لنفسه وتجلد وسألها: أمال يا عمتي، الجواب اللي وصلني منك مين كان كتبه لك؟ مش سنية؟

فكان جواب «زنوبة»: سنية؟! هي فاضيالنا، والا فاضية للراجل الفلاتي الخباص اللي تحت!

فتمالك الفتى كل قوته الخائرة وسألها أيضًا في يأس.

– مين بس اللي كتبه؟

فأجابت: كتبه العرضحالجي اللي قدام محكمة السيدة.

– عرضحالجي؟

نعم، لم يكتف غيظ زنوبة وحقدها بفضح «سنية» والتشهير بها عند الناس بمناسبة وغير مناسبة؛ بل دفعها الغيظ والحقد إلى الذهاب إلى عرضحالجي محكمة السيدة زينب تستكتبه خطابًا غفلًا تبعث به إلى «والد سنية» الوقور؛ كي تفضح البنت عند أبيها وتثير في بيتها عاصفة ... كل ذلك لأن «مصطفى بك» علق بسنية، ولم يلتفت إليها هي البادئة بمغازلته، لهذا غدت «سنية» لديها «شرموطة» وغدا «مصطفى بك» رجلًا فلاتيًّا خباصًا.

هكذا كان الغرض الأصلي من ذهابها إلى كاتب عمومي محكمة السيدة وانتهزت فرصة وجودها عنده لتستكتبه «فوق البيعة» خطابًا صغيرًا، ترسله إلى «محسن».

هذه هي حقيقة الخطاب العزيز الذي يحفظه محسن عن ظهر قلب، كما وضحت لعينه الآن؛ أي أن «سنية» لم تخطَّ إليه كلمة واحدة ولا علم لها بشيء عنه، ولا يهمها إن كان حضر أو لم يحضر.

لم يطق «محسن» تلك الفكرة، واستوى في سريره؛ كأنما استقبل طعنة باغتة، وجعل يضرب رأسه بيديه كمن يريد أن ينهي حياته، وما فائدة حياته الآن؟! ماذا يصنع بها وهي خالية من ...!

لم يجرؤ على ذكر اسمها؛ بل لفظ آهةً كادت ترن في الغرفة، لو لم يكتم فمه باللحاف، ثم نظر حوله في قلق؛ فألفى الجميع نيامًا وجاره «حنفي» يغط في سريره غطيط خلي الفؤاد، وباقي الشعب يرقد هادئًا؛ لكنه هدوء المستسلم المذعن، فهل يستطيع أن يذعن هو أيضًا وقد فقد من الحياة كل شيء، لماذا ينام ولماذا يصحو غدًا؟

وغطى وجهه وجسده باللحاف وقد تفصَّد جبينه عرقًا، وجعل يدعو الله في حرارة أن ينام فلا يصحو إلى الأبد، وأغمض عينيه بعزم عصبي جنوني؛ كأنما يريد أن يقنع الله بقوة إرادته، وظل لحظة ينتظر الموت ويستحثه حتى وافاه النوم، فنام نومًا عميقًا رأى فيه حلمًا هو أجمل ما حلم في حياته: رأى أول الأمر كأن ما سمع البارحة عن «سنية» كذب واختلاق، وأن «مصطفى بك» قد غادر المنزل والحي ومصر كلها، وذهب إلى أرضه

بالأقاليم حيث تزوج ابنة أحد الأعيان من أقاربه، وأن «محسن» لبس بذلته الجديدة وذهب إلى «سنية» بالهدية التي جاء بها فاستقبلته من أعلى السلم بملابس خضراء حريرية، تترجرج كأنما نسيم خفي يهزها، ومدت ذراعها إليه، وقبلته قبلة على خده الأيمن أحس معها أريجًا يملأ أنفه، لا يدري أهو أريج يعطر ثيابها أم أن المكان كله يتضوع بعطر جميل، ثم رنَت إليه بأهدابها السوداء الطويلة رنوًّا انتهى بارتخاء تلك الأهداب، كأنها أطراف مروحة دقيقة من حرير هبطت على صفحة خدها، وجعلت تداعب أزرار سترته ولا تنظر إليه كأنما تعتب عليه، وأخيرًا سمعها تهمس إليه: مش قلت لك إن كنت تحبني ماتتأخرش عن مصر أكثر من كده.

فأفاق: «محسن» من نشوة القبلة قليلًا، وقال لها إنه لم يتأخر، وإنه ما كاد يستلم خطابها العزيز الذي يحفظه في صدره دائمًا أينما ذهب، ما كاد يتلوه ويتلوه حتى عزم على الرحيل وحزم أمتعته وأتى مصر، فبدا كأنها اقتنعت نصف اقتناع، وأخيرًا قادته إلى حجرة «البيانو» وضربت له بأناملها الرشيقة، ودخلت الجارية تحمل أكواب الشربات الأحمر، وما كاد «محسن» يرى الجارية حتى ارتعد قليلًا، لا يدري لماذا، ولكنه شرب هنيئًا، وخرجت الجارية وهو يتبعها بنظرة خائفة ثم التفت فجأة إلى «سنية» فألفاها ترنو إليه خلسة ذلك الرنو الطويل. فما رأت نظرته تباغتها حتى أرخت عينيها بأهدابها الطويلة السوداء، وسكتت، فخفق قلب «محسن» وسكر.

ونهضت «سنية» بغتة، وقفزت إلى «البيانو» تريد أن تضرب له شيئًا آخر، بعد أن تأوهت في رقة، وابتسمت له في سحر، وقالت بصوت الهامس، وهي تعود إلى الرنو إليه: آه يا «محسن» لو كنت صحيح تحبني قد ما أحبك.

لم يدرِ الفتى ماذا يجيب، ولعله لم يقدر على الجواب، فإنه ذهل حتى عن نفسه وعنها، ولم يدرك إلا شيئًا واحدًا أن كنوز الأرض كلها وكنوز العوالم الأخرى لا تساوي عنده ما ظفر بهذه الجملة الصغيرة، وأن السعادة … السعادة التي يصفونها ولا يدركونها، ها هي ذي يلمسها بيده، بل ها هي ملء كفه، وها هو يضعها في جيبه، بل في قلبه، إنها تملأ قلبه على سعته. بل تثقله؛ كأنما هي من الذهب الإبريز هذه السعادة … نعم إنها تثقل جسمه أيضًا الآن، إنها تتمشى في جسمه كله الآن متدفقة، ويحس جسمه يحشى بها حشوًا، كما تحشى زكيبة بالذهب، وها هو ذا يكاد يخنقه الفرح، تخنقه السعادة، إنها بلغت حلقومه، إن الفرح سيخنقه إن لم يفض قليلًا، والسعادة تكاد تثب من فمه، إنها تنفخ صدره وبطنه باحثة عن منفذ … نعم، إنه في حاجة إلى أن يقيء بعضًا منها، نفسه تضيق، ما أثقل وزن هذا الذهب على صدره!

وتقلب «محسن» في فراشه باسم الثغر، مفتوح الفم، يلهث من عبء السعادة، ويريد أن يفعل أي شيء، أن يجري، أن ينهض يخبر ... يخبر الناس ... أن يتكلم ... أن يثرثر ... أن يقفز ... أن يتمرغ في التراب ... أن يتدحرج على الأرض. وهذا الشيء الأخير هو الذي ... هو الذي استطاعه «محسن» وعمله فعلًا: أن تدحرج على سريره دحرجة انتهت برأسه إلى حافة السرير، ففتح عينيه، فإذا رأسه يطل من الفراش على أرض الغرفة وفمه مفتوح؛ كما لو أنه يقيء.

وكانت تباشير النهار قد ظهرت من النافذة، وأن شعاعًا من الشمس يتسلط على «الدولاب» الكبير المشترك.

وفجأة ذكر «محسن» المسكين كل شيء.

وعادت إليه الحقيقة برمتها وقسوتها، وعلم أن سعادته حلم، ولم يبقَ منه شيء، لقد قاءه واستفرغه من قلبه كله الآن عند طلوع النهار، ولم يفضل له منه نطفة يتغذى بها ويحيا، واسودت الغرفة في عينيه من جديد، ونظر إلى قرص الشمس، وقد ظهر كله، فخيل إليه أنه قرص أسود ... أسود من الأبنوس، وأسود من الشعر.

إن الشمس لا تلقي على العالم نهارًا وبياضًا، بل سوادًا، سوادًا.

وذكر أنه طلب الموت في الليل خوفًا من هذا النهار، فأعطاه الله بدل الموت حلمًا لذيذًا؛ كي يزيد عذابه عندما يصحو، وتبدو له الحقيقة، ومرت بمخيلته صورة «سنية» في ذلك الحلم الجميل، والقبلة، والرنو، والأهداب. ثم «سنية» الآن التي لا تعرفه، المشغولة بحبها لـ «مصطفى» والتي لا تعلم، ولا تريد أن تعلم حتى بحضوره، وتجسم لديه هذا الفرق الهائل بين الحلم واليقظة، فجأر في نفسه كالمذبوح، ودس رأسه تحت الوسادة، وهو يزفر متوسلًا إلى ربه في عتب مؤلم: «حرام ... حرام ... حرام!»

الفصل الحادي عشر

مر بخاطر «محسن» أن «الشعب» عما قليل يستيقظ ويراه على تلك الحال، فأسرع بالنهوض، وارتدى ملابسه في بضع دقائق، ثم خرج من المنزل قاصدًا مدرسته، بدون أن يتناول طعام الإفطار واجتاز في طريقه باب «الدكتور حلمي»، فأطرق في ألم؛ ولم ينظر إليه، ومر تحت تلك الشرفة المشهورة فلم يرفع إليها رأسه؛ كأنما لم يعد يملك حق إمتاع نظره، حتى إلى شرفتها الخشبية، التي طالما وقف فيها بجانبها، وأطل منها معها يشاهدان الشارع والقهوة الصغيرة المواجهة، وهنا فجأة تذكر آخر يوم رآها، وقد ذهب إليها يودعها قبيل سفره إلى «دمنهور»، وكيف أنها حقيقة كانت ترمق القهوة في اهتمام أوجسه، وأدخل في نفسه الشك؛ ذلك أن «مصطفى بك» يومئذٍ كان جالسًا على الرصيف، يخالس هو الآخر شرفتها بالنظر.

إن قلبه في ذلك اليوم حدثه بشر، ولكنها عرفت كيف تبدد ريبه، وأبدت له ما جعله أسعد إنسان يومئذٍ، نعم، تلك القبلة التي ما زال يحس طابعها على وجهه، أتراها كانت ماكرة تتخابث عليه؟ وهذه الدمعة التي ذرفتها له، ألم تكن صادقة خالصة؟ لا يمكن ذلك، إنه لا يتصور أنها كانت تخادعه، ليكن من أمرها الآن ما يكون، فإنه لا يستطيع أن يرتاب لحظة في نبل خلقها؛ إذن ما الذي حدث؟ ما الذي غيَّرها عليه بهذه السرعة؟

عندئذٍ بدت لـ «محسن» فكرة، ومضت في قلبه ببريق أمل: لماذا يحكم عليها من قبل أن يراها؟ ولماذا لا يذهب إليها يستفسرها لعلها تكذب كل أو بعض ما سمع، أو لعلها إذا رأته تذكر أو تندم أو ترفق أو.

نعم ليذهب ... وتنفس ببعض الراحة لأول مرة منذ علمه بكارثته، غير أن هذا البريق لم يلبث أن محته سحابة سوداء، سرعان ما تكونت، ما أبسطه غلامًا، أهو يظن «سنية» اليوم مثلها بالأمس، وهل بعد هذه الصلة الوثيقة بينها وبين «مصطفى» ورسائل الحب

يستطيع هو أن يطمع في شيء، أو أن يتوهم أي حق له عندها؟ حتى ولا حق الزيارة المجردة.

ثم شيء آخر، كيف يذهب؟ وبأي حجة والعلاقات الآن مقطوعة بين المنزلين؟ قطعتها عمته «زنوبة» بغيرتها.

إن «سنية» الآن غدت أبعد من كواكب السماء.

وهكذا سار في الطرق يتخبط بين تلك الخواطر المتضاربة، يخرج من أمل ليدخل في يأس، دون أن يترك له القدر إحدى الراحتين، حتى بلغ أخيرًا المدرسة ودخل فناءها مطرقًا، فانتحى ناحية بعيدًا عن التلاميذ؛ كي ينقطع لنفسه إلى أن يدق جرس دخول الفصول.

وكان بين آنٍ وآخر يرفع رأسه، ويلقي نظرة على تلك الزرافات من الطلبة المجتمعة في حلقات عدة، كل حلقة تجمع فئة من الإخوان يتضاحكون ويتمازحون، ويقصون ما رأوا من غريب وطريف أثناء العطلة، أو يسردون ما فعلوا أثناءها وكيف قضوها.

وكان غالبًا ما يتوسط كل حلقة تلميذ، لعله أكبر الباقين سنًّا أو أذكاهم فؤادًا، أو أظرفهم حديثًا وأفكههم نكتة، هو الذي يدير دفة الكلام ويقص ويحكي والجميع يصغون إليه ضاحكين مستحسنين مسرورين بكل كلمة يقولها.

وذكر «محسن» أنه كان دائمًا بين تلاميذ فصله ذلك المعبود اللذيذ الذي كانوا يحيطون به، مستمعين، وعن يمينه صديقه وأمينه «عباس»، الذي يمده بقوة الثقة والإيمان، والتصديق الأعمى، والتحمس المطلق لكل ما يقول.

وذكر «محسن» فسحة الظهر التي كان هو و«عباس» والملتفون حولهما، يشغلونها بمطارحة الشعر بجوار جدار المدرسة تحت السلم الكبير، حتى إذا ما فرغت جعبتهم من الشعر انقلب «محسن» خطيبًا مفوَّهًا، يتبارى بالطلاقة والتمثيل وحسن الإشارة، في هذا الجمهور الصغير من المعجبين، وحانت منه التفاتة إلى مكان الجدار تحت السلم فألفى دهشًا رهطًا من تلاميذ فصله بينهم «عباس»، وكأنهم بما يبدو على وجوههم من كثرة التطلع جهة باب المدرسة ينتظرون أحدًا، ومن عسى ينتظرون الساعة غير «محسن»؟ ولكن ما الذي يستطيع «محسن» أن يقوله لهم اليوم؟ … هو الذي تركهم قبيل العطلة على أهنأ ما يكون إنسان، وها هو ذا اليوم يعود إليهم بعدها إنسانًا آخر، وخشي أن ينتهي بهم الأمر أن يلمحوه، فانتقى مكانًا قصيًّا، ومكث به حتى دق الجرس واصطفت التلاميذ صفوفًا في فناء المدرسة، وتحرك «الطابور» قاصدًا الفصول، وعندئذٍ جرى «محسن» مسرعًا، والتحق بذيل صفه، دون أن يشعر به أحد، حتى دخل الفصل آخرهم، فالتفتوا

فعرفوه وصاحوا به، وأقبل عليه «عباس» مهرولًا و«محسن» يتكلف السرور والابتسام، ويحاول مضاحكتهم، ويدعو الله في نفسه أن يعجل بمجيء المدرس، حتى يوفر على نفسه مئونة التصنع، ويسكت الفصل عنه.

ولم يلبث المدرس أن حضر، وترك التلاميذ «محسن» يذهب إلى مكانه، ووقف الكل احترامًا للمدرس، غير أن «عباس» الجالس خلف «محسن» لم ينفك يغمزه بذراعه، ويحثه على مكالمته غير صابر حتى انتهاء الحصة، و«محسن» يتغاضى عنه في رفق حتى بدأ المدرس يلقي درسه وسط الهدوء التام … وكان هذا الهدوء التام خير بيئة منعشة لأفكار «محسن» وخواطره، فسرعان ما غرق في بحار نفسه، ونسي الحصة والدرس والمدرس، وأخذ المدرس يناقش تلاميذه فيما ألقاه حتى أتى دور «محسن»؛ ولمحسن حتى اليوم مكانة عند الأساتذة كما عند أقرانه؛ فهو معروف بالجد والذكاء والالتفات، فما كاد يسأله المدرس اليوم فيما ألقى حتى تبين في الحال عدم وعيه لشيء مما قيل الساعة، فدهش أستاذه، وعجب أن يكون هذا من «محسن»، وسأله مستغربًا مستنكرًا: جرى إيه يا «محسن»؟ انت كنت سارح في إيه؟

فأجاب الفتى، وقد هب واقفًا متلعثمًا كالصاحي من نوم: ولا حاجة يا افندي، ولا حاجة.

ولطف المدرس من لهجته، وقال: الطالب يرجع من الإجازة نشط منشرح منتعش مستعد للدرس مشتاق للتحصيل، والا إيه يا «محسن»؟

فأطرق الفتى خجلًا مرتبكا متألمًا، وقد نظر إليه الفصل بأكمله، وسمع «عباس» خلفه يهمس؛ كالراثي له أو الحزين المغضب الذي لا يود حدوث ذلك لصديقه الذي يقدسه، ويعتقد فيه العصمة والكمال، وكان هذا ما أوجع «محسن»، فجلس مهمومًا يائسًا، ووطن العزم على الالتفات إلى الدرس ما دام في الفصل، وسلط إرادة قوية في حركة عصبية قانطة على عضلات عينيه، ففتحها واسعة، ونظر إلى «التختة» نظرات ثابتة طويلة، وجرد فكره للانتباه إلى المدرس وحده مهما كلفه الأمر، ومكث يجاهد من أجل ذلك وملامحه متقلصة والعرق يتصبب منه.

لم تفد إرادة «محسن» شيئًا، ولم يستطع المسكين التغلب على فكره الشارد؛ فقد كان ذلك أقوى منه، ومضى النهار وانصرف التلاميذ، وانصرف هو مطرقًا، يجر أذياله بعد أن ترك أثرًا سيئًا في نفوس أساتذته وأغلب رفاقه، إنهم ولا شك يستغربون أمره وما دهاه. وكان استغراب صديقه «عباس» بالغًا النهاية، خصوصًا عندما اقترب منه، يخبره

أن والده للأسف لم يوافق على التحاقه بالقسم الأدبي، وأنه لذلك مضطر إلى مخالفة عهد «محسن»، وكان «عباس» يتوقع غضب صديقه أو كدره وحزنه على الأقل ولكن كم كانت دهشته إذ رأى «محسن» لم يتحرك للخبر، ولم يبدُ على وجهه أي اهتمام.

لم يكن في رأس «محسن» غير شيء واحد: هذه الحياة التي أصبحت فارغة أمامه، كيف يملؤها؟ والمستقبل الفسيح والأيام الطويلة الآتية بأي صبر يستطيع اجتيازها؟ وسمع في نفسه هازئًا يجيبه في سخرية: وقبل أن تحب ماذا كنت تصنع؟ عد كما كنت قبلًا.

فابتسم الفتى ابتسامة مرة ونظر إلى السماء نظرة الساخط الثائر وكأنه يقول صائحًا في أعماقه: ارجع إلى ما كنت قبلًا؟ نعم إني عشت من غير حب وعشت سعيدًا، ولكنها سعادة الأعمى الذي لم ير الجمال، ولم ير النور، ولم ير الحياة، ولكنك فتحت أعين الأعمى وجعلته يبصر وينبهر، فهل تحسبه إذا أرجعته بعد ذلك إلى ظلامه الأول مستطيعًا أن يجد سعادته الأولى؟

ورأى «محسن» نفسه فجأة في ميدان «السيدة» فارتعد إذ ذكر أنه مضطر للعودة إلى المنزل، حيث يجلس إلى أعمامه الرفاق، وعمته، وسيدركون، ولا شك من وجهه ما به، فوقف مترددًا لا يدري ما يصنع. وإذا بغتة نظره يقع على دكان حلاق السيدة زينب، وفجأة اصفر كالأموات ومكث بلا حراك، ذلك أنه لمح «مصطفى بك» خارجًا منه و«البودرة» البيضاء لا تزال تزين ذقنه، وشاربه الأشقر الذهبي الصغير مقصوص على الطراز الأخير، وهو يختال في بذلة جميلة، وبيده منديل حريري في لون البذلة يضعه في رشاقة في جيب الصدر الأيسر مظهرًا طرفه، وعلى وجهه البسطة والانشراح طافحان.

واسود الميدان في نظر «محسن» فلم يشعر إلا أنه اتجه إلى المسجد، وفي قلبه شبه هلع أن يكون هذا الرجل قد رآه، وخلع نعليه بسرعة وارتجاف، وسار على بساط الجامع حتى بلغ المقام، فانزوى في ركن من أركان الضريح المظلمة، التي لا يأتيها النور إلا من «نجف» كبير يتدلى من أعلى تلك القبة الفخمة الشاهقة، وتناول «محسن» بيده قضبان الحاجز النحاسية، وجعل يهمس ملهوفًا من صميم قلبه، بصوت عصبي متقطع: يا سيدة زينب! يا سيدة زينب! يا سيدة زينب!

وانفجر باكيًا، وتساقطت دموعه على بساط المقام، وهو يكتم شهقاته في صدره، حتى لا يسمعها الزوار حوله.

الفصل الثاني عشر

في نفس الساعة كان «عبده» في مدرسته أمام لوحة الرسم يشتغل بتصميم هندسي مطلوب منه، والواقع أنه من يوم حكاية «سنية» وقد تحول يأسه إلى عمل، فاتجه إليه بكليته لا يعكر عليه سوى صورة «مصطفى» كلما مرت بخاطره؛ لهذا ما كان يطيق أن تذكر أمامه تلك الحكاية، ولا أن يلفظ اسم «مصطفى» فقد كان يشعر عندئذٍ أن عزته قد ذلت فيعتريه هياج، ويصيح بمن فتح الموضوع أمامه: اقفلوا الموضوع ده يا ناس، دماغي وجعني.

ثم يترك المكان في الحال بحركة عصبية!

إنه حتى آخر لحظة ما كانت تسمح له كبرياؤه أن يتصور «سليم» الدعي «الفشار» جديرًا بالفوز عليه، وبرغم ما حدث يوم إصلاح البيانو، وما قاله وادعاه «سليم» فما كان ذلك ليقنع «عبده» … أما الغلام «محسن» فهو أصغر من أن يحسب له حساب، ولبث على هذا التصور إلى يوم أن ظهر في الميدان الشاب الثري الجميل «مصطفى بك»، فانهارت ثقته بنفسه بعض الانهيار، وظل يُرغي في نفسه ويُزبد، متوعدًا دون أن يستطيع تنفيذ وعيده، إنه تنقصه عاطفة الشر الحقيقية، وإن كل هذا الزبد الطافي لا يخفي إلا ماء صافيًا، وانتهى به الأمر أن انكب بعد أيام على العمل متناسيًا بقوة إرادة عصبية صارمة.

وانقلب هزؤه بسليم عطفًا وتضامنًا؛ كما كان الحال بينهما قبل التنافس والتزاحم، غير أنه برغم كل ذلك ما برح يحس كأن شيئًا من النور في نفسه قد أطفئ، وأنه لا العمل ولا سواه يستطيع أن يعوضه عن ذلك الأمل الحلو، والقليل من الخيال الجميل الذي كان يرفق حياته الجافة الصلبة.

وخطرت له الساعة صورة «سنية»، فلم يتمالك أن رمى بالقلم من يده، وترك اللوحة وخرج ساخطًا يسير في حدائق الجيزة المحيطة بالمدرسة، وقد أدرك أن حياته ينقصها

شيء ... أدرك ذلك بإحساسه العميق الخفي فقط، دون أن يجسر العقل ولا الفم على القول بذلك، لهذا عزا ضيقه وسخطه وخروجه إلى الحدائق على هذا النحو إلى شيء آخر، نفاقًا منه وكذبًا على نفسه؛ فلقد مشى يقول لنفسه هائجًا ثائرًا متبرمًا: أف! ... الشغل ... الشغل ... الشغل، مفيش في الحياة غير شغل! خلقنا بس للشغل، زي الحمير؟!

ومر بحقل أخضر مزروع خسًّا، وامتلأت عيناه بالاخضرار فارتعد، وذكر في الحال يوم ذهب إلى بيت الجيران لإصلاح أسلاك الكهرباء، فرأى «سنية» تهف بين آنٍ وآنٍ أمام ناظريه بثوبها الحريري الأخضر، وكيف كانت كأنها تبدي له نفسها عن بعدٍ قصدًا، ثم صوتها الرقيق وهي تتساءل عما إذا كان «عبده بك» يحب الشربات أو القهوة، وجلس «عبده» على مقعد حجري قابله، وأطلق نفسه تحلم بالماضي وتصوره كما تشاء، مفرطة في تكبير الصور كما تشتهي.

إنه يحفظ جيدًا ما قالته من كلمات، ويعي رنة صوتها، كل ما فيها يومئذٍ كان يدل على اهتمامها به وبمقدمه، ولعل مسألة سلك الكهرباء ما كانت سوى حجة مخترعة.

إنه لا يذكر أن رآها رؤية ملية طويلة؛ فالمرة الأولى كانت يوم أن اختلس النظر إليها مع رفاقه من ثقب باب حجرة «زنوبة»، والمرة الأخيرة كانت يوم إصلاح سلك الكهرباء المعهود، ولقد كانت فرصة سانحة يومئذٍ ليملأ عينيه منها، ولو أنها كانت تخطر من وراء الأبواب كالريم المنفلت، ولقد أطلت برأسها وأطالت الوقوف مرة، غير أنه أسدل عينيه انبهارًا وقد التقت بعينيها ... ما أجملها! على الرغم من رؤيته القصيرة لها، فإنه يذكر شعوره الأول يوم رآها، وشعوره الأخير يوم غادرها: إنها أجمل امرأة شاهدها. وهنا ارتجف «عبده» إذ ذكر أن هذه المرأة هي الآن لرجل واحد، رجل أجنبي عنهم جميعًا وأنها فضلته عنهم جميعًا، وأحبته، وتكاتبه ويكاتبها، والمراسيل بينهما ذاهبة آيبة.

نهض «عبده» مستويًا فجأة وكأنما بدا له أن يذهب توًّا إلى «مصطفى» هذا، ويشبعه ضربًا ولكمًا، أو أن يذهب إلى مالك المنزل ويطلب إليه طرد هذا الرجل؛ أو أن يفعل أي شيء يؤذي به هذا الشخص.

وسار في طريقه إلى حي «السيدة» وأضعف طول الطريق من سورته، وبردت حدته، وطفق يتكلم بلسان العقل قليلًا، متسائلًا: لماذا يسيء إلى «مصطفى»؟ وما ذنب هذا الرجل إذا كانت هي تحبه؟ أويعلم هو بحبهم لها؟ وإذا كان يعلم فماذا يصنع إذا كانت هي اختارته؟

وانقلب «عبده» عندئذٍ عليها هي، وجعل يقول في غيظ: كيف استطاعت هذه الفتاة أن تنكرهم، هم الذين يتصلون بها وبأسرتها طول تلك المدة، وتتعلق برجل بعيد عنها وعن أسرتها ولا معرفة لها به؟

ونسي «عبده» في تلك اللحظة غيظه من «سليم» و«محسن» ذلك الغيظ الذي كان يشعر به نحوهما كلما اختلفا إلى منزل «سنية» بأي حجة، وأحس الساعة أنه كان أحب إليه ألف مرة أن تختار «سنية» واحدًا منهما من أن تختار هذا الغريب ... وشعر بعطف وحنو ورابطة اتحاد تصله برفاقه المنكوبين مثله. ولاحظ أنه وهو يتكلم ويثور إنما يتكلم باسمهم جميعًا، لا باسمه وحده فقط.

ولأول مرة أحس الحاجة إلى القرب منهم والكلام معهم في هذا الأمر؛ فالعاطفة بينهم مشتركة، وكل شيء مشترك، وكذلك الخيبة والألم.

في تلك الساعة أيضًا كان «سليم» في قهوة الجندي «فوق»، وكان قد عاد إليها ذلك اليوم بعد أن أيقن أن لا فائدة من بيت الجيران، وحاول «سليم» أن يقنع «الشعب» بأن بيت الجيران لم يكن يهمه قط، وأن «سنية» إن هي إلا فتاة ككل الفتيات، لا شأن لها عنده ولا يلتفت مثله إليها، غير أنه إن استطاع إقناع سواه بهذا الكلام فهو أحوج الناس إلى إقناع نفسه به أولًا.

وهكذا مضى «سليم» إلى قهوة الجندي، حاسبًا أنه قد محا كل شيء بهذا الثمن البخس، وهو يدخل السرور والعزاء على نفسه بقوله: فين «سنية»؟ وإيش تكون من المدموازيلات والوظووظات الخفافي دول؟!

أخذ مجلسه، وهو يلتفت يَمنة ويَسرة يتعرف المكان، ويستذكر ماضيه فيه، ذلك الماضي المملوء سرورًا ومرحًا، وجعل يتصفح وجوه الآنسات الجالسات إلى «الزبائن»، أو الرائحات الغاديات، أو المنتظرات موعدًا، أو العاطلات المتربصات للفرص؛ وكأنه لا يعرف منهن واحدة، وهو الذي ما كان يجهل امرأة تدخل هذا المكان، أيام أن كان الزبون المواظب المستديم.

غير أنه ما لبث أن لمحته واحدة جالسة بمفردها إلى مائدة فعرفته، وابتسمت له تدعوه إليها، فنهض في الحال وأقبل عليها يفتل شاربه مختالًا، ومد يده إليها مسلمًا في لهجة الصاحب القديم: إزيك يا «مارية».

وما كاد يجلس بجوارها حتى أحاطت به «الجرسونات»، فرفع رأسه إليهم، وقال متجهمًا: خبر ايه؟

ولكنه تمالك نفسه في الحال؛ إذ عرفهم وذكر ظهوره أمامهم بمظهر الثري، فغير لهجته وقال لأحدهم، وهو نوبي ممتلئ: إنت لسه عايش يا «فسدق»!

– أمال يا سعادة البك، خدامك.

فانتفخ «سليم» قليلًا، وأشار إلى صاحبته، ثم قال «لفسدق»: شوف المدموازيل تطلب إيه؟

فانحنى «الجرسون» على المرأة يتلقى أمرها، وجعلت هي تفكر لحظة، و«سليم» ينتظر نطقها في قلق؛ كمن ينتظر نطقًا بالحكم عليه بغرامة.

و«سليم» ليس له من رأس مال سوى التظاهر والادعاء الكاذب و«الفشر»؛ بهذا استطاع أن يختلف إلى هذا المشرب في الماضي، ويجعل له شخصية بارزة بين رواده وزائريه، وأخيرًا نطقت «المدموازيل» قائلة للخادم: اديني واحد كونياك مارتل بالصودا.

فتركها «فسدق»، والتفت إلى «سليم» في احترام: والبك؟

فحك «سليم» رأسه، وتظاهر بالتفكير والحيرة لحظة، ثم قال: أنا؟ ... أنا هات لي واحد صودا بس، وعليها شوية شربات ورد صغيرة، إنت عارف معدتي يا فسدق.

فتردد الخادم قليلًا، ثم لم ير بدًّا من الانصراف؛ ليأتي بالطلبات، وعندئذٍ التفتت المرأة إلى «سليم» وقالت: «سليم بك»! ... دايمًا المعدة بتاعك عيان؟

– أعمل إيه يا «مارية»، ألا على فكرة، فين امال «كتينة» واختها «آديل»؟

وأخذ يحادثها في مختلف الموضوعات التافهة ويلاطفها ويداعبها ويضاحكها في قوة وضجة وحماسة وعربدة لم تعهدها فيه؛ وكأنما هو يتشفى اليوم، ويثأر لنفسه المدحورة في الميدان الآخر.

ودخل زبون جديد عليه سيما النعمة الحقيقية؛ وصفق بيديه فسرعان ما اتجهت أنظار النساء إليه، وانصرفت «ماري» عن حديث «سليم» وظلت ترمق هذا الزبون الجديد، وأخيرًا نهضت مستأذنة في الذهاب لحظة إلى دورة المياه، ومشت تتهادى قرب الزبون الجديد تاركة «سليم» «مع الطلبات» ... وسكن «سليم» إلى نفسه، وانقشع عنه غبار هذا المرح الكاذب الذي أثاره في قلبه متعمدًا، ورسبت الكآبة والخيبة التي كان يحاول عبثًا سترها عن نفسه، وانقلبت ابتسامة السرور على شفتيه إلى ابتسامة ازدراء مرة، والتفت إلى أولئك الفتيات، وجعل يتأمل أصابعهن التي تسيل بفعل العرق على وجوههن الشاحبة، وينظر إلى تلك الحركات، واللهجات المتكلفة والضحكات والغمزات واللمزات المتصنعة، ولأول مرة ساءل نفسه كيف استطاع غشيان هذا المكان؟ وكيف أن هاته العاهرات كن يعجبنه؟

وعادت إليه «ماري» بعد قليل؛ إذ لم يعبأ بها الزبون الجديد وجالس أخرى.

فألفت «سليم» ساهمًا متجهم الوجه، مفكرًا، فقالت دهشة: إيه! … سليم، مش مبسوط كتير؟

فرفع رأسه إليها، وسدد نحوها نظرات جامدة جافية، وأجاب في برود: مبسوط كتير؟

ثم تركها والتفت توًّا إلى كوب الصودا الوردي، فاشتغل به عنها … ومكثت هي تنظر إليه لحظة، ثم أشاحت بوجهها عنه، وهزت أكتافها خفيفًا، وجعل «سليم» يحرك الملعقة في الكوب، وينظر خلال لونه مستذكرًا يوم شرب «شربات» الورد عند «سنية»، حينما ذهب لفحص «البيانو» … إنه أخطأ إذ حسب تلك الفتاة لم تترك في نفسه أثرًا، إن ما فعلته به لأكثر من مجرد ترك أثر، ها هو ذا اليوم يزدري بعدها هاته النسوة، وأيقظت في نفسه عاطفة جديدة لم يكن يعرفها قبلًا، عاطفة الإعجاب النبيل، وأن ذلك التقزز والاشمئزاز الذي يحسه الآن نحو هاته «المدموازيلات»، إنما يبعثه تذكُّره جمال «سنية» الرفيع، وظرفها غير المبتذل، وإحساسها الصادق، لقد أدرك «سليم» الآن أن قد حرمت عليه عاهرة بعد اليوم، إنه يحس أن قلبه قد ارتفع، بل يحس أن قد أصبح له قلب يضن به على العاهرات.

«سليم اليوزباشي» يحس هذا الإحساس الآن؟! … شدَّ ما تغير! وهو نفسه استغرب من نفسه الآن ذلك الإحساس العالي، وعلم أن «سنية» جعلته يعرف من نفسه أشياء، ويستكشف فيها مناطق مجهولة، وهل كان يعلم قبل اليوم هذا «اليوزباشي» أن في نفسه عواطف طاهرة، بل هل كان مثله يعلم معنًى لتلك الكلمات «طهارة … نبل! …» إنه هو نفسه ما كان يفهم حبه «لسنية» إلا أنه حب طائش خفيف مبتذل؛ كحبه للشامية في بورسعيد، ولهاته النسوان من قبل، ذلك أنه ما كان يعرف في نفسه قدرة ولا إدراكًا لحب أرفع، وجرع «سليم» جرعة واحدة من كوبه ثم بصق، وأقصاه عنه بطرف أصبعه، وصفق فأتى النوبي «فسدق» ووقع بصره على كوب «سليم» الملآن، فالتفت إليه يسأله بعينيه: لماذا لم يشرب، فارتسمت على فم «سليم» علامة اشمئزاز وقال: ريحته وحشة.

أراد «الجرسون» اعتراضًا فأشار له بيده أن كفى، ولا لزوم للكلام، ثم دس يده في جيبه، وأخرج له ثمن ما طلب، وثمن ما طلبت «المدموازيل» أي الكونياك والصودا مضافًا إليه بقشيشه، ثم نهض وانصرف، بعد أن أشار بعلامة تحية مختصرة للمرأة، وعجبت

المرأة لأمره، ولبثت تشيعه بأنظار المستغرب حتى نزل السلم، فهزت كتفها في شبه غيظ، ولفظت ضحكة استهزاء.

ومشى «سليم» في الشارع، واستقبل الهواء الطلق برئتيه، فشعر بارتياح، وخُيل إليه أنه كان يتنفس هواء فاسدًا كريه الرائحة في ذلك المكان.

الفصل الثالث عشر

عاد «سليم» إلى المنزل فلقي «مبروك» الخادم في الردهة يشير إليه بالسكون، ثم يشير مبتسمًا في خبث إلى حجرة «زنوبة» الموصدة، فارتجف سليم، وتردد قليلًا، ثم هجم على الحجرة برفق، سائرًا على أطراف قدميه ونظر في ثقب الباب.

وعندئذٍ ظهر «عبده» قافلًا من الخارج هو الآخر، فاستقبله «مبروك» بنفس الإشارة والابتسامة، ويكفي «عبده» أن يرى «سليم» منكبًا على ثقب الباب ليحدث في قلبه ما حدث لـ «سليم» وأشد، ولفوره اتجه إلى الباب، وزاحم «اليوزباشي» بمنكبيه، وقلبه يدق دقًّا متواصلًا، ولكن «سليم» ما لبث أن استوى، تاركًا لـ «عبده» الثقب في ابتسامة مرة.

والتفت إلى «مبروك» وسأله هامسًا: مين دي الحرمة اللي جوه؟

واستوى «عبده» أيضًا، عقب ذلك في خيبة رجاء، ووقف بجانب «سليم»؛ كأنه متضامن معه في السؤال، ومنتظر معه جواب «مبروك»، ونظر إليهما «مبروك»، وفهم قصدهما من النظر خلال الثقب، فلفظ آهة صادقة؛ كأنه هو أيضًا بإخلاص يدرك ويحسن نفس إحساسهما، وطفق يقول: أيام زمان ما تعودشي، أيام زمان ما تعودشي خلاص.

ولكنهما استعجلاه في الجواب، وأعاد عليه «عبده» بصبر نافد: مين الحرمة دي؟

فتنحنح «مبروك»، واقترب منهما، وهمس سريعًا: امرأة الحانوتي.

فردد الاثنان معًا في دهشة: حانوتي؟

وبدا عليهما عدم الفهم، فجذبهما «مبروك» بعيدًا إلى غرفة النوم العمومية، ذات الأسرَّة، وجعل يقص عليهما في لهجة التشفي والرضا أن هذه المرأة هي امرأة حانوتي خط السيدة زينب، وهي التي ستحضر لهم قبضة من تراب ميت، لم يمضِ على دفنه ثلاث ليالٍ.

فقال له عبده بقوة: ليه؟ ... علشان إيه؟

فأجاب «مبروك» بنفس لهجة التشفي: علشان «العمل» اللي رايحين نرشه على عتبة الراجل «مصطفى».

فهز «عبده» رأسه، وقد أدرك كل شيء، وعاد فسأل «مبروك» قائلًا: طبعًا دي أفكار «زنوبة»؟

فأجاب «مبروك» بالإيجاب في فخر، وزاد على ذلك بقوله: إن «زنوبة» استشارت في هذه الوصفة، أشهر «عالم»، وأنها مجربة، ولا خوف من الفشل، وإذا لم يمت «مصطفى» بعد ثلاثة أيام فإن «العالم صاحب الوصفة» لا يستحق أجرًا، وهو الذي اشترط ذلك على نفسه، بعد أن أخذ فقط مبلغ «رمي البياض».

وقد ذهب — أي «مبروك» — منذ أيام يبحث عن امرأة الحانوتي، يستدعيها لزنوبة تتفق معها، فلم يظفر بها إلا اليوم. وسكت «مبروك» لحظة، ونظر إليهما؛ كأنما ينتظر منهما كلمة موافقة أو تشجيع، غير أنهما لزما الصمت … وغرق «عبده» في تأمل عميق، وقد بدا له أن: بينا هم قد أسلموا الأمر لله ولم يستطيعوا عمل شيء، إذا «زنوبة» لا تفتأ تعمل ولا يوافقها دين ولا ضمير في سبيل غايتها، تود أن يموت «مصطفى» بعد ثلاثة أيام؟ … وتعمل هي على موته، موت إنسان لا ذنب له إلا أنه لم يحبها هي، يا للوحشية! أهذه هي المرأة؟ إذا أحبت وخاب أملها في الحب تصبح هكذا حيوانًا مفترسًا؟

ثم خطرت لـ «عبده» فكرة أظلمت لديها الدنيا في عينيه … ومن غريب الاتفاق أن خطر لـ «سليم» ما خطر له، وإذا «سليم» يلتفت في قلق وشك إلى «مبروك» سائلًا: إنت متأكد ان «العمل» ده علشان «مصطفى»، بس وحده؟

وأضاف «عبده» في لهجة عصبية أشبه بالصياح: مش معقول «زنوبة» تموت «مصطفى» وتسيب «سنية»!

وأدرك «مبروك» هذا فجأة، فاختلج قلبه هو أيضًا، وقال بصوت قلق مبحوح؛ كأنما يخاطب نفسه أيضًا: هي قالت لي على «مصطفى» بس، ماعرفش، يمكن كمان.

وعندئذٍ جعل «سليم» يوضح لهما ما يظنه قصد «زنوبة»، قائلًا: إنها لا يمكن أن تكون قصدت «بمصطفى» شرًّا، وإن الشر كله مقصود به «سنية» لا سواها، هذا هو المعقول، وهذه هي مصلحة «زنوبة» نفسها، إنها تتمنى موت «سنية» لأنها منافستها وغريمتها، غير أنها كي تشرك «مبروك» الساذج معها في العمل، أخفت عنه القصد الحقيقي، وأفهمته أن المقصود بالشر «مصطفى» لا سواه. وما بلغ «سليم» هذا الحد حتى سمع باب الشقة يفتح ويغلق، فأيقنوا أن الزائرة قد خرجت فهبوا إلى «زنوبة»، وصاح بها «عبده» قائلًا: مين الحرمة اللي كانت هنا؟

فارتبكت «زنوبة» قليلًا من وقع لهجته الشديدة، ولكنها تمالكت، وابتسمت، وأقبلت عليهم تقص ما قاله «مبروك» منذ قليل، فصاح بها «عبده» في غضب مخيف: إنتي يعني مش ناوية تبطلي أمور السحر بتاعتك دي؟

وأردف «سليم» قائلًا: نفرض طيب انك عاملة العمل لـ «مصطفى»، تقتلي راجل؟! ... تموتي بني آدم؟! وضميرك يرضى بكده؟!

فأطرقت قليلًا، وهي تغلي غيظًا، ثم رفعت رأسها في عنف وصاحت فيهم: أنا ماقدرش اقعد طرطورة في البيت ده، أشوف المراسيل داخلة خارجة.

ثم التفتت إلى «عبده» وقالت: أعمل ايه؟ ... أنا غلبت اقول لك روح لصاحب الملك فهمه ورسِّيه، وقول له ييجي يعزل الساكن العازب ده اللي قلب البيت كرخانة.

فصعد الدم إلى رأس «عبده»، وقد وخزته هذه الألفاظ البذيئة ... مهما كان من صلة «سنية» «بمصطفى» فهي ما زالت شريفة لا يصح أن تُنعت بهذه النعوت القذرة، ولا يدري «عبده» لماذا كانت تجرحه هذه النعوت القذرة وهي توجه إلى «سنية»، أتُراه ما زال يحترمها ويرى فيها مثله الأعلى، ولا يقبل من أحد أن يدنس هذا التمثال المرمري البديع، ولو أنه ليس له؟

أعجب من هذا أن «سليم» نفسه أدار ظهره لـ «زنوبة»؛ مشمئزًّا هو الآخر.

وسمع الباب يفتح ثم يغلق، وظهر «محسن»، فالتفت إليه الجميع وهالهم ما رأوا: وجهًا باهتًا، وجفونًا حمراء، وساقين لا تكادان تحملانه، فلم تتمالك «زنوبة» أن ابتدرته: محسن! ... ما لك؟!

فرفع رأسه، وأراد أن يقول لهم أن لا شيء، غير أنه قبل أن ينبس بادروه متسائلين: عيان؟

فرأى أن يقول لهم: أيوه.

ثم سار إلى سريره، وخلع ملابسه، واندس في فراشه. بينا «عبده» و«سليم» يرقبانه؛ وكأنهما أدركا ما به، فتقطع قلباهما رأفة به، وذهبا في سكون وجلسا على حافة سريره، وكأنما يريدان لو يستطيعان له عزاء، أو تخفيفًا، غير أنهما خشيا أن يسيء فهمهما، ويصدم ذلك إحساسه، ففضلا الصمت، غير أنهما أحسا نحوه عطفًا ومحبة، لم تبلغ في يوم مبلغها ذلك اليوم، وأطرقا وقد شاهداه يطبق عينيه تعبًا، وكأنهما حزرا مبلغ ألمه، وقارناه بما عندهما فأكبراه، وشعرا لأول مرة بأنهما دونه، وأنه يمتاز عليهما بقلبه النادر.

الفصل الرابع عشر

لم يكن أحد من الجيران المحيطين «بمصطفى» يعلم عنه شيئًا أكثر من أنه فتى ميسور الحال، ولعل أول من تحرى عنه «زنوبة»؛ فإنه منذ هبط المنزل في أول تلك السنة احتالت حتى سألت خادمه عنه، وعما يعمل، ولم تكن بعدُ مدفوعة إلا بحب الاستطلاع عن جار جديد، فأجابها الخادم على عجل وهو يشتغل بنقل «عزال» مختصر، تحمله عربة نقل ذات بغل بالباب: صنعته؟ ... من الأعيان.

وصعد الخادم منهمكًا بالعمل، لاهيًا عنها، فلم تستطع أن تسأله من أعيان أي بلد، وهل هو من مصر أم من الأرياف أم البنادر؟ ولمحته «زنوبة» بعدئذٍ من النافذة بالقهوة التي أمام المنزل واستملحته، ولكنها لم تستطع أن تعلم عنه أكثر مما علمت، لعل الحياء كان يمنعها أو خشية الاضطراب أن يبدو عليها، وقد أصبح الشخص يهمها أو لعل المصادفة لم تمكنها من ذلك الخادم الذي ما كان يُرى إلا قليلًا، والواقع أن «مصطفى» نفسه، في أول عهده بالمنزل، كان كثير التغيب، وإذا كان يُرى بقهوة «الحاج شحاتة» يومًا فإنه كان يختفي عن الحي أيامًا كأنما هو في سفر، وكذلك خادمه.

ومع ذلك فلم يكن في سلوك هذا الشاب ما يسترعي التفات أحد من الجيران؛ فقد كان الهدوء شاملًا مسكنه، والسكينة مخيمة على بابه، وكان يدخل ويخرج، فلا يشعر به أحد؛ كأنما كان يتوخى حسن السمعة بين الجيران، أو على الأقل دفع تلك الشُّبَه التي تلتصق بكل أعزب يسكن بمفرده ... ولعل معرفته الشخصية بصاحب المِلك، والثقة التي وضعها هذا الأخير فيه إذ رضي التأجير له بغير شرط ولا قيد، جعلت «مصطفى» يبالغ في الحرص على سمعته وعلى إيثار العزلة والسكينة.

غير أن شيئًا ما آخر كان يحمل هذا الشاب الموسر على تجنب مصر بضجيجها وملاهيها؛ لينزوي في قهوة «الحاج شحاتة»، يقضي فيها الساعات الطوال؛ لم يكن سبب

جلوسه وتردده الوحيد مشاهدة سليم أفندي أيام أن كان يغازل من بالشرفة، هذا لم يكن عند «مصطفى» سوى فصل مضحك يأتيه عفوًا ليرفه عنه ... إن «مصطفى» ذاك الوقت كان ضجرًا غير منشرح الصدر لشيء؛ فقد عاد إلى «القاهرة» يحسبها كما غادرها منذ خمس سنوات، إنه كان تلميذًا بمدرسة محمد علي التي يرى بابها الخشبي الكبير وهو جالس بمكانه من القهوة، ثم كان طالبًا بمدرسة وادي النيل الثانوية التي ما زال يمر بها كلما سار في شارع الدواوين، ثم كان قاطنًا هذا الحي عينه الذي يتنفس هواءه الآن، لم يتغير شيء إلا المنزل الذي كان يسكنه وقتئذٍ بالبغالة ... للأسف لم يستطع الظفر بالشقة التي كان يقطنها مع أخيه وأخته وزوج أخته الموظف بالمالية ... لقد وجدها مشغولة منذ زمن طويل، غير أن صاحب الملك اشترى منزلًا آخر في نفس الحي بشارع سلامة هو رقم ٣٥ هذا، فلم ير بدًّا من أن يسكن عنده، على أي حال صاحب الملك هو هو كذلك لم يتغير، لكن «مصطفى» مع ذلك ضجر كئيب النفس، وقد أحس خيبة أمله في «القاهرة»، فما الذي تغير إذن في نظره؟

كان «مصطفى» يجلس بقهوة «الحاج شحاتة»، يفكر في ماضيه بهذا الحي؛ وبأيام الدراسة وبأصدقائه، وبلعبهم الكرة بجوار المنيل، ونزههم الصيفية في قوارب النيل والقمر طالع، وقد أخذوا معهم طعامًا وفاكهة من بطيخ وشمام فيأكلون ويشربون ويغنون حتى يقترب بهم القارب من «جسر عباس» خلف قصر العيني، فيتركون المجاديف ويدعون القارب يسير كما يشاء في تلك المياه الهادئة الساكنة تحت الجسر، وقد صور القمر على الماء أشكالًا من الضوء والظل جميلة، وكان يصمت النيل حولهم إلا من صوت طائر ليلي يصفر، أو من صوت سمكة تقفز فجأة في الماء بجوارهم، وهي تداعب سيقان العشب والغاب الناتئ قرب الشاطئ، وإذا هم الصاخبون الضاجون المتضاحكون، يصمتون في لحظات؛ كأن ما حولهم من منظر شعري أثار فيهم شيئًا من العواطف الطيبة الكامنة فيهم، أو شيئًا من الإحساس العميق بالجمال السامي، وإن للشباب على القلب حقًّا، وإنهم لفي تلك السن الذهبية التي ينبغي أن يثور فيها القلب ثورته الأولى والأخيرة لينكشف فيها للنفس تحت ضوء اللهب ما اندفن في النفس من قوي وكنوز، ولكن يا للأسف، أنى لهذا الشباب أن يضيء قلبه وهو لا يعرف المرأة! لم يكن واحد من عصبة الفتيان في القارب قد أتاحت له الظروف أن يعرف المرأة ... المرأة ذات القلب، ذات النفس، تلك التي توحي بعظائم الأعمال، لا المرأة العاهر التي يرونها كل ليلة جمعة في مقابل عشرين قرشًا.

لذلك لم تدم لحظات الصمت هذه التي استرقها منهم هذا المنظر الرائع في شعره … ولا استطاعت أن تصل كثيرًا إلى تلك النفوس التي سممتها وأماتتها أنفاس العاهرات المملوءة بجراثيم المادة السافلة.

وحرك القمر والماء والنسيم أكثرهم شاعرية، فهبَّ يردد أبياتًا من شعر برنامج البكالوريا المقرر عليهم، في ذلك العام، فاستقبله زملاؤه بالمزاح الثقيل والنكات البذيئة، فسكت خجلًا.

ثم انقلب معهم بعد قليل يجاريهم في هذرهم الأحمق وصخبهم البهيمي، وقد تناسى ذلك البريق من سمو الخيال وسمو الإحساس الذي لمع في قلبه منذ لحظة، وهكذا كانت تنطفئ في نفوس أولئك الفتية المملوئين حياة تلك الذرات من قبس العظمة.

واستأنفوا نزهتهم وسط الغناء المبتذل والضحك الحيواني، حتى إذا انتصف الليل عادوا إلى منازلهم يتخبطون في حارات البغالة الخالية من المصابيح، وقد ازداد صياحهم كالسكارى.

غير أن «مصطفى» ما كان يستذكر الماضي على هذا النحو؛ بل كان يراه عهد الشباب الأول السعيد بمرحه ولعبه، واجتماع شمل الإخوان، فأين هم الآن هؤلاء الإخوان؟ من يدري، لعل منهم الطبيب في مركز، والملاحظ في بندر، والموظف في مديرية، والعاطل الشارد، حتى أخوه الذي كان من العصبة قد سافر من أعوام لإتمام الدراسة في فرنسا، ولم يرجع بعد، ولا يريد أن يرجع … حتى حين دعوه لمناسبة ظروف خطيرة، ومع ذلك فقد بحث «مصطفى» عن إخوان الماضي من ساعة وصوله إلى القاهرة، فوجد بعضهم، فلاقاهم ولاقوه بشوق كبير أول يوم، واستفسر منهم عن حالهم، فإذا هم موظفون في مصالح الحكومة، واستفسروا هم عنه، وعما قطع بينهم وبينه كل هذه المدة، فأخبرهم أن والده أراده بعد نواله «البكالوريا» على العمل معه في محل تجارتهم «المانيفاتورة» المشهورة بالمحلة الكبرى، وقد مكث مرغمًا بالمحلة الكبرى، طول هذه الأعوام، حتى توفي والده أول هذه السنة فلم يضيع وقتًا، ولبث فقط مقدار ما قام بالواجب نحو الرجل، ثم جهز نفسه على عجلٍ للسفر؛ مصطحبًا خادمًا ومتاعًا بسيطًا، تاركًا محل «المانيفاتورة» الكبير في عهدة المستخدمين، وقد وطن العزم على ترك التجارة والسعي للتوظف في أحد دواوين الحكومة؛ حتى يكون في القاهرة دائمًا، غير أنه للأسف لم يجد القاهرة التي كان يحن إليها دائمًا، وأنه للأسف لا يكاد يعرف فيها بلد الماضي؛ وكأن كل شيء فيها تغير، مع أن لا شيء فيها تغير.

نعم، لقد استطاع من وجدهم من الإخوان أن يبددوا عنه تلك الكآبة أول يوم؛ فلقد قادوه معهم يجوسون خلال المدينة ليرى ما استجد فيها من ملاهٍ ولعب، ومضوا به في الليل إلى المشارب ثم إلى دور الدعارة، فأخذت «مصطفى» ذلك اليوم بهرة العاصمة، وما شاهده من جديد بعد الغيبة عنها، وشغله ذلك قليلًا عن شعوره الخفي الكئيب، لكن أصدقاءه كرروا معه تلك النزهة، واستطاع «مصطفى» أن يلاحظ بعدئذٍ فيهم تغيرًا هائلًا في أخلاقهم؛ فلقد رأى بادئ بدء أنهم لا يقصدون في صلتهم به بعث ود قد تم ولا أنهم يستظرفونه أو يصاحبونه لنفسه كما كانوا يفعلون قبلًا، بل إنهم إنما يريدون استغلاله والتقرب منه؛ لينفق عليهم من ما له الذي ورثه عن والده … هذا ما فهمه منهم ومن سلوكهم معه، فانقطع في الحال عن هؤلاء الصحاب مستنكرًا ذلك الخلق منهم، مستغربًا تغير إخوان الشباب هذا التغير.

لهذا فضل الوحدة في قهوة «الحاج شحاتة»، موقنًا أن بعث الماضي كما كان ضربٌ من المحال، وانصرف عن تلك الكآبة شيئًا فشيئًا إلى التفكير فيما يصنع، أيعود إلى «المحلة الكبرى» ويباشر إدارة المحل ويخلف والده المثابر النشيط، أم يظل على فكرته الأولى، راغبًا في الالتحاق بوظيفة في القاهرة بعد أن يصفي المحل، ويقسم التركة بين الورثة: هو وأخوه وأخته؟

إن أخته فوضت له الأمر، وقد وصله خطاب من الفيوم حيث تقيم وزوجها الموظف الآن بإدارة المديرية، وكذلك أخوه أرسل إليه من فرنسا يقول له: «افعل ما شئت، على شرط ألا تطلب إليَّ الحضور إلى مصر، وألا تمس مصروفي الشهري بنقص ما.»

ثم هو نفسه لا يريد بعد الآن الاستقرار في المحلة الكبرى، ولا الارتباط بهذا المحل، وما أهون عليه تصفيته وبيعه إلى فرع محل الخواجة «ك. س. كازولي»، وقد عرض هذا الأخير عليه الشراء من يوم أن شم رائحة الرغبة في التصفية، ومن يوم أن علم بسفر «مصطفى» إلى القاهرة بعد وفاة والده.

نعم لم يكن «مصطفى» إلا شابًّا فاقد الهمة، إنه ليس فاسد الطبيعة ولا سافل الخلق، وإن في نفسه لكثيرًا من الخير والفضيلة، لكن هذا الخير دفين تحت جليد الخمول وخور العزيمة.

لقد استشار نفسه كثيرًا في أمر «المانيفاتورة» … وسافر مرارًا إلى «المحلة» ثم سافر هو وخادمه، ثم عاد، ثم كان يرسل خادمه إليها، يوافيه بأخبار المحل، وقد حسب أنها أيسر وأحسن طريقة لإدارته. لكن كل هذا لم يزده إلا يقينًا بأنه لا يقوى على متاعب التجارة ومسئولية العمل الحر … إن المحل من يوم سفره في نزول مستمر، وإيراده

ينقص باطراد، وهو لا يدري إن كان ذلك لضعف المراقبة على المستخدمين، وقد تركهم وأتى يجلس بقهوة «الحاج شحاتة»، أو أن ذلك من ضعف الإدارة وعدم الجد والكدح. على أي حال: ما له ولهذا كله، ولماذا لا يتخلص من هذا المشكل، ببيع المحل للخواجه «كازولي»؟ … أحسن طريقة.

لم يكن أحد يعارضه في هذه الفكرة، فوالدته متوفاة، غير أن له خالًا من كبار تجار القطن، سمع ما شاع عن تصفية المحل وبيعه «لكازولي»، فذهب إلى ابن أخته مستغربًا مستنكرًا، ونصحه ألا يفعل، وتوسل إليه في إشفاق، فإنها خسارة كبرى.

ولكن «مصطفى بك» ضحك هازئًا، وقال في اطمئنان: خسارة، هو احنا بس عايشين بالمحل ده؟

فأجاب خاله: يا بني البركة كلها في المحل ده! هو المحل ده اللي جاب الأطيان والأملاك كلها؟

صحيح، لم يكن ميراث «مصطفى» وإخوته مقصورًا على المحل، بل ترك لهم والدهم المرحوم «…» أملاكًا أخرى وأطيانًا؛ لذلك لم يهتم «مصطفى»، كثيرًا بالمحل، غير أن خاله قال له في أسف: إن هذا لا يصح من ابن تاجر، ويا ويل التجار إذن، إذا كان سيخلفهم أبناء يتركون المهنة، ويسعون إلى وظائف صغيرة، بل ويا للعار على وطني يترك محل تجارته لأجنبي يحتله، ويصبح محل «مانيفاتورة راجي» الشهير فرعًا للخواجة «كازولي الرومي».

ولكن أين لهذا القلب الخامد أن يتأثر بهذا الكلام؟

الفصل الخامس عشر

لولا «زنوبة» لما اتجه التفات «سنية» إلى قهوة «الحاج شحاتة» الصغيرة، ولما وقع نظرها على هذا الشاب اللطيف ذي الشارب الأشقر الصغير، وهو ساكن هادئ منعزل في ركنه، لا يبالي بشيء حوله إلا بحركات «اليوزباشي سليم» المضحكة أمامه.

وفي نفس اليوم الذي شاهدته فيه جاءها «محسن»، وكاشفها بحكاية المنديل الحريري، وأساء السرد بما جعلها تفهم بادئ الأمر أن الريح قد تكون حملت المنديل إلى أحد الجيران، فقامت من ساعتها إلى النافذة، فرأت أن الشقة السفلى التي يقطنها «مصطفى» لها شرفة صغيرة مكشوفة، تكاد تجاور نافذة حجرتها الخاصة، فخامرها شك أن يكون المنديل لدى «مصطفى» وأنه حفظه لأمر في نفسه.

غير أن هذه الفكرة لم تلبث أن زالت عند مقابلتها التالية «لمحسن» حيث اعترف لها بالحقيقة، إلا أنها ظلت ترقب «مصطفى» كلما جلس بالقهوة، لا لشيء سوى أنها تحس شيئًا، يدفعها إلى النظر إليه، ولا تدري لماذا؟

وكان يوم وداع «محسن» وما وقع فيه، وكانت صادقة مخلصة في كل ما أبدت من علامات التعطف والتأثر، وسافر «محسن» فماذا حدث؟ لا شيء سوى أنها استمرت تتسلى بالنظر إلى القهوة من خلف نافذة الشرفة الخشبية، فكانت ترى «مصطفى» في مكانه المعتاد، وقد ازداد في انعكافه وعزلته، بعد انقطاع «سليم» عن القهوة، وبدت على وجهه كآبة وتفكير، لا يخفف الآن من مظهرهما القاتم تلك الضحكات المكتومة والابتسامات التي كان يثيرها فيه وجود «سليم» بشواربه المفتولة، وعرض أكتافه وأمره ونهيه، وضجته المختالة بالكذب، ونظراته المرتفعة إلى الشرفة الخشبية.

غير أن ما كان يحير «سنية» هو أن «مصطفى» ما كان ينظر قط إلى الشرفة الخشبية، حتى أيام «سليم» وحتى وقد فطن إلى سبب حركاته ونظراته، فإنه هو لم

يكن يرفع بصره إلى الشرفة إلا قليلًا، وفي تأدب وتحفظ؟ كمن لا غرض له إلا تتبع خبر «سليم».

وهجر «سليم» القهوة؛ وظل «مصطفى» يختلف إليها مدفوعًا بالعادة وبأنها خير من البيت الخاوي ... على الأقل فيها يستطيع شرب فنجان من الشاي بغير جهد ولا عمل، ثم هي فوق ذلك مكان صالح للتفكير في شأنه وما ينبغي أن يعزم عليه في مستقبله، إلا أنه لم يكن ينظر إلى الشرفة الخشبية، ولم يفعل؛ ومن يذكره بها وقد اختفى «سليم» عنه؟! لهذا أخذت «سنية» — بعد سفر «محسن» — تقضي أغلب وقتها تراقبه، فلا تظفر منه بنظرة إلى شرفتها، فتساءلت في نفسها مستغربة ما يفعله مثله في قهوة كهذه ... وفيمَ يفكر؟ ولماذا لا ينظر إلى الشرفة ... وبلغ بها هذا التساؤل والعجب إلى حد الاهتمام، فجعلت تلبس أبهر أثوابها ألوانًا وتذهب إلى «البيانو»، فتضرب دورًا شائعًا مما ذاعت نغمته بين الناس، بعد أن تكون قد فتحت كل نوافذ الشرفة، عسى أن يبلغ الصوت الطريق، فإذا ما انتهت وقفت بالنافذة، وهي تتظاهر بمعالجة فتحها أو غلقها في قوة وجلبة، بل بلغ بها الأمر أن بات لا يحلو لها مناداة جاريتها بصوت عالٍ، أو الحديث أو الضحك المرتفع إلا قرب النافذة ... لهذا كله نشبت المعركة بينها وبين «زنوبة» التي كانت تزورها، فترى منها هذه الأفعال، فلما تأكد «لزنوبة» أن «سنية» إنما غرضها لفت نظر «مصطفى» لم تطق سكوتًا ونهرتها ناهية، ولكن في لهجة اهتمام أثارت شك «سنية» في الحال وفطنت إلى ما في نفس «زنوبة».

فقهقهت ضاحكة في سخرية: حتى انتي ياللي تولدي قدي؟

كلمة هائلة، ما فاهت بها حتى صاحت «زنوبة» هادرة كالناقة المغتلمة، تسب وتشتم أفظع وأبذأ سب، ثم ارتدت ملاءتها «اللف» السوداء التي جاءت بها، وخرجت الخرجة التي لا رجعة بعدها، و«سنية» تنظر ساكنة واجمة لا تستطيع ردًّا ولا حركة، وجاءت الجارية على صوت الصياح، فسمعت بعضًا من ألفاظ «زنوبة»، وعندئذٍ التفتت «سنية» إليها، وقالت في هدوء: شاهدة يا دادة «بخيتة»؟

فأجابت الجارية مستنكرة: إخص عليه! ... ست قبيح خالص.

وكانت والدة «سنية» في حجرتها تصلي العصر، فختمت الصلاة بسرعة لدى سماع الضجة، وهرعت ترى الخبر، فلحقت «زنوبة» تنزل السلم فاستوقفتها في لهفة، ولكن «زنوبة» لم تقف، واستمرت في النزول وهي تقول من أسفل السلم بصوت مرتفع صارخ: روحي ربي بنتك الشرموطة!

فوجمت والدة «سنية» وذهلت قليلًا، ولكنها انتبهت في الحال، وغلى الدم في وجهها، فأجابت وهي تطل من أعلى السلم مشرئبة: قطع لسان اللي يقول على «سنية» كده.

ولكن «زنوبة» خرجت، واختفت وهي تدمدم وتردد: حرم عليَّ بيتكم، حرام عليَّ بيتكم العمر كله.

وظلت الأم جامدة لحظة، ثم تذكرت ابنتها فجرت إليها، فألفتها باهتة اللون باردة الأطراف، فهدأت من روعها وهياجها ثم سألتها عما حدث.

فأخبرتها «سنية» بكل شيء: بمجيء «زنوبة» ونظرها إلى القهوة كلما جاءت، وأنها تهتم بأمر جارٍ لها يدعى «مصطفى» يجلس دائمًا بالقهوة، وقد حدث منذ شهر أن نظرت إليه «زنوبة» فوجدته وحيدًا بالقهوة فتناولت ملاءتها وهرولت نازلة، ولم تشك «سنية» يومئذٍ في أمرها، ولكنها اليوم وقبل اليوم كانت تلاحظ أن «زنوبة» لا تطيق رؤيتها بجانب النافذة. واليوم كل ما حدث أنها أرادت النظر من الشرفة، فلم يرق ذلك «لزنوبة» وثارت وانتهى بها الأمر إلى السب والشتم والخروج على هذا الشكل.

فأطرقت الأم قليلًا، ثم قالت كأنما تخاطب نفسها: يا ندامة، هي صغيرة على الأمور دي؟

فرفعت «سنية» رأسها، وأردفت على الفور: قلت لها كده يا نينة قامت زعلت واتغاظت.

وظهرت «بخيتة» الجارية، فأسرعت «سنية» إلى أمها قائلة، وهي تشير إلى «بخيتة» الجارية: «دادة بخيتة» شاهدة، اسأليها يا نينة كمان.

فقالت الجارية في الحال: إخص عليه، ست قليل أدب خالص، واحد قبيح خالص.

وهكذا ختمت مسألة الشجار، فتناولت الأم رأس ابنتها، وأوسدتها صدرها، وهي تسكِّن خاطرها وتناشدها ألا تعكر صفوها من أجل امرأة «كزنوبة»، ولا من أجل شيء في الدنيا، فوضعت «سنية» منديلها على عينيها؛ كأنما تكفكف عبراتها امتثالًا لتوسلات أمها، ثم تخلصت بلطف من بين ذراعيها، واتجهت إلى الشرفة ومنديلها في يدها؛ كمروحة تطرد به الحر عن وجهها المورد، وهي تلفظ آهة الضيق؛ كأنما هي ذاهبة إلى النافذة لا لشيء إلا لتستقبل الهواء الطلق العليل، ولكن ما كاد نظر «سنية» يقع على هذه القهوة، حتى رأت «مصطفى» ينظر إلى الشرفة؛ كأنما كان يتربص لظهور أحد فيها، فارتدَّت في الحال، وتوارت عنه، وقد خالجتها دهشة، وخفقت بشيء من السرور الخفي، وليس في الحقيقة محل للدهشة لو علمت أن صوت الشجار بينها وبين زنوبة قد وصل إلى القهوة، وعقبه بقليل خروج هذه الأخيرة، وهي تُرغي وتُزبد وتشير بحركات مهتاجة، حتى دخلت

منزلها رقم ٣٥ الذي يقطن الطابق الأول منه «مصطفى»، وقد رأى كل ذلك «مصطفى» وهو جالس بمكانه من القهوة ... وتساءل في نفسه عن هذا الصوت الآتي من الشرفة، وعن هذه المرأة المنفعلة الخارجة من هذا البيت، الداخلة المنزل الذي يقطنه، ودفعه حب الاستطلاع إلى استراق السمع والنظر في اتجاه الشرفة، وفجأة تقابلت عيناه المترصدتان — في غير اكتراث — بعينين سوداوين جميلتين، فارتجف في الحال، وإذا منظر غادة باهرة الحسن، ما كادت تطلع عليه، حتى نكصت وتوارت.

منظر بسيط لم يدُم أكثر من خمس ثوان، ومع ذلك أحس «مصطفى» بعده كأن عالمًا آخر بأجمعه قد انكشف لعينيه بغتة، وتولد فيه شعور خفي بأن الدنيا أصبح لها طعم آخر، وأن حياته قد اتخذت اتجاهًا آخر في لمح البصر ... نعم خمس ثوان في حياة شخص هي لا شيء، ومع ذلك قد تكون أحيانًا هي كل شيء، قد ينقضي عمر شخص كله دون أن ينحرف أساس حياته أنملة، وقد تأتي خمس ثوان فقط، فتستطيع أن تغير هذا الأساس أو أن تقلبه رأسًا على عقب.

ماذا رأى «مصطفى» غير فتاة برزت ثم اختفت كسنا البرق؟ كسنا البرق أضاء كل أرجاء قلبه المظلم، خمس ثوان لمح فيها «مصطفى» لأول مرة في حياته جمالًا هز قلبه، ولم يكن يعرف أن كل هذا في هذا البيت.

وتنبه أخيرًا من سكرة الصدمة، وجعل يقول في نفسه: المصيبة اني هنا من أول السنة، ولا عنديش خبر.

وأخذته نشوة فرحِ مَن لقي لُقيا فنزل على نفسه يؤنبها: أما مغفل، حمار، أعمى!

وكأنما صدره يكاد يثب ... فنظر إلى الشرفة نظرة مؤدبة قانعة فلم يرَ بها أحدًا، فنهض بغير يأس، وسار في الطرقات مبتهجًا يريد لو يقطع القاهرة كلها طولًا وعرضًا بخطاه الواسعة الفرحة ... وذكر فجأة ساعة مجيئه القهوة، وقارن حالته إذ ذاك بساعة مغادرته لها الآن، ولم يمضِ بين الساعتين وقت طويل، فأنكر شخصيته الماضية؛ وكأنما غدا رجلًا آخر.

في تلك اللحظة كانت «سنية» في قلب الغرفة تسترجع في مخيلتها نفس الأثر، هي أيضًا أخذتها — غير الدهشة — رجفة عندما تقابلت عيناهما وقد ارتدت في الحال لأنها لم تكن تتوقع أن ستتقابل عيناهما فجأة، ولا أنها ستراه ناظرًا إلى الشرفة — ذلك الشاب المنعزل الساهم!

وأخذت تناجي نفسها في ابتهاج أولًا، ولكنها بغتة؛ كأنما اعتراها خجل من نفسها.

عادت تقول متكلفة التجهم، متصنعة الحدة والغضب: لماذا ينظر هذا الرجل إلى الشرفة؟ وبأي حق وبأي جرأة وأي جسارة يستبيح هذا الشاب لنفسه النظر إليها؟

وخُيل لها لو أن باستطاعتها أن تزجره وتؤنبه على ذلك، وأن تغلظ له القول، ومع ذلك لم يمضِ على حدتها وهياجها لحظة حتى اتجهت إلى الشرفة، لا لشيء سوى أن تعلم إذا كان هذا الشاب الجسور ما زال ينظر إليها أو إلى الشرفة ... واقتربت «سنية» من النافذة، بعد أن رتبت بسرعة وباعتناء شعرها البديع أمام المرآة، وكم كانت دهشتها عندما رأت أن ذلك الذي تتهمه بالجرأة والجسارة، والذي تحسبه جالسًا يتأمل شرفتها، ليس له أثر بالقهوة، ومكانه خالٍ، وأنه ما امتنع فقط عن معاودة النظر إليها؛ بل إنه ترك لها القهوة بما فيها ومن فيها.

هذا ما بدا إلى ذهنها، يا لخيبة الأمل!

شعرت عندئذٍ الفتاة بألم ثم بغيظ، فأغلقت النافذة بحركة غضب قوية، وذهبت ذهاب من أقسم ألا ينظر من النافذة بعد الآن، وذلت كبرياء الأنثى فيها، فشعرت كأن الدموع ستنحدر من مآقيها، ولكنها تجلدت؛ إذ ذكرت أن ليس بينها وبين هذا الشخص ما ترجوه منه أو تيئس ... ومن هو؟ وما قيمته؟ وما شأنه عندها حتى تهتم به إلى هذا الحد؟ وقامت إلى «البيانو» وجعلت توقع عليه متناسية كل شيء.

وعندئذٍ مر بخاطرها طيف «محسن» الباهت.

ما أحسنها فرصة لو عاد إليها «محسن» تلك اللحظة! ... تلك هي الساعة المثلى لكسب رضاء امرأة، ولكن وا أسفاه! كان «محسن» في تلك اللحظة بالضيعة، بين حقول البرسيم الأخضر، ينتظر خطابها الذي لن تكتبه.

الفصل السادس عشر

في اليوم التالي أتى «مصطفى» القهوة كعادته، لكن في هيئة لو رآها صاحب القهوة أو أحد ممن اعتاد رؤيته كل يوم لأيقن أنه قد اعتنى بملبسه اليوم على نحو خاص، وأنه ولا شك وقف أمام المرآة زمنًا غير قصير قبل أن يأتي.

وأخذ «مصطفى» مكانه، غير أنه أحس كأنه يغشى القهوة لأول مرة؛ فقد أجال بصره فيها في شيء من الحياء، وقد خيل إليه أن جميع من بها — حتى «الحاج شحاتة» وصبيانه — ينظرون إليه، ويعلمون ما جاء به اليوم، أو على الأقل يدركون لماذا يعتني اليوم بمنظره … إلا أنه ألفى نفسه وحيدًا كالعادة، على رصيف القهوة لا ينظر إليه أحد، فاطمأن ولبث لحظة؛ كأنما يقاوم نفسه، وأخيرًا رفع بصره إلى شرفة «الدكتور حلمي» في تورع وأدب ووجفة، ثم خفض في الحال عينيه على صوت أحد صبيان القهوة يسأله عما يطلب، فطلب قدحًا من الشاي، بلهجة ميكانيكية سريعة، ثم عاد فنادى الغلام ناسخًا ما قال، وطلب زجاجة غازوزة «سباتس» … وهو لا يدري لماذا عدل عن الشاي اليوم، ولماذا بدل به الغازوزة؟ إلا أن تكون فكرة التغير السابحة في مجاهل نفسه أوحت بذلك وهو لا يعي، ولم يكن صبي القهوة أقل منه دهشة، لا لأن «الزبون المعتاد» فقط غيَّر طلبه فجأة. بل أيضًا؛ لأن كلمة «سباتس» في هذه القهوة شبه البلدي ليست على لسان زبائن المحل كثيرًا … وأن هذا الصبي لم يعتد نطقها كما اعتاد نطق «واحد شيشة» أو «واحد سادة» أو «واحد شاي»، حتى واحد «لكوم»، أو واحد «بسطة»؛ لذلك أدار ظهره واكتفى بأن صاح قائلًا: واحد كازوزة.

وعاد «مصطفى» إلى نفسه يسائلها، وقد علم من نظرته إلى الشرفة أن ليس بها أحد، وأن نوافذها مغلقة.

ترى أيأمل في رؤيتها مرة أخرى أم كانت مصادفة مرت أمس ولن تعود؟ ومن ذا الذي يضمن له أنها ستبرز مرة أخرى؟ ومن يدريه؟ فقد يمكث شهورًا دون أن يراها في الشرفة؟ ألم يسبق أن جلس في هذه القهوة شهورًا فلم يلمحها إلا أمس؟ أين كانت طول تلك المدة؟ وأين كان هو؟ ... وإذا كان ما فات مات، ولا داعي لإثارة الندم على الماضي فهل يأمل في المستقبل؟

واضطرب لذكر كلمة المستقبل؛ إذ أدرك فجأة الآن أن لهذه الكلمة حقيقة ملموسة، إلا أن الشك والقلق عاوداه، وخطر له أنها قد تكون زائرة جاءت أمس هذا البيت، وانصرفت على ألا تعود، وإن عادت فمن ذا يعلمه؟ إنه لا يعرف بعدُ من هي؟ واسودَّ لهذا الخاطر وجهه ... إذن لن يراها اليوم، وإذن جلوسه الآن بالقهوة على غير جدوى، وانتظاره عبث.

فتململ في مكانه، وأخرج منديل الصدر الذي بلون بذلته، فمسح به جبينه، ثم شمر عن معصمه الأيسر ونظر في ساعة اليد الذهبية، وقد خيل إليه أنه جلس قرنًا، ثم تأكدت في رأسه فكرة أنه لن يراها اليوم، فتحرك في كرسيه قائلًا في نفسه، إنه ما دام يعلم ذلك فلماذا يجلس بالقهوة الآن؟!

ونسي «مصطفى» أنه كان يجلس بالقهوة دائمًا بغير ما غرض، وأنه كان ينفق فيها الساعات الطوال، فما تململ كما فعل اليوم، ولما يمضِ على جلوسه ساعة.

وأخذ يضيق ذرعه، ويشتد يأسه كلما مر الوقت ... وآلمه الانتظار وهو يقسم أنه سينهض بعد خمس دقائق إن لم تظهر، وتمضي الدقائق الخمس فيُطمعه الأمل فيجدد المدة ويمد الأجل، فلا تظهر؛ فييئس ويتحرك للقيام، ثم يعود يجدد المدة ويمد الأجل مرة ثالثة ورابعة وخامسة.

ويتعلل تارة «بالغازوزة» التي يتمهل عمدًا في شربها، وتارة بأن الوقت فسيح، وأن ساعة القهوة لم تدق بعد النصف، وأنها متى دقت النصف قام ... يقوم إلى أين؟ وهو الذي في مثل هذه الساعة دائمًا بالقهوة لا يفارقها؟ لا يدري ... المهم، لا بد من القيام؛ لأنه انتظر فوق ما ينبغي، وأن لعذاب الانتظار حدًّا، وإن لم يكن من قبل يفكر في القيام بهذه السرعة، فلأنه لم يكن ينتظر شيئًا، ومن لا ينتظر شيئًا يستطيع أن يقعد العمر حتى العفن، وحتى يأكله الدود وهو في مكانه؛ إلا أن تنهضه الرغبة، فينشط، ويدب فيه الإحساس بالزمن والحياة.

من لا ينتظر شيئًا، ومن لا يرغب في شيء هو الميت وحده؛ لذلك ما تأخر «مصطفى»، ودس يده في جيبه مخرجًا النقود لصبي القهوة إنفاذًا لإرادة صبره النافد، وعندئذٍ بلغ

مسمعه صوت نافذة تفتح بعنف، وآذان «مصطفى» الآن كآذان القط؛ متربصة لقنص كل صوت، مهما دق؛ لا سيما صوت النوافذ والشرفات.

فرفع بصره إلى شرفة «الدكتور حلمي» في حركة غريزية، فإذا هو يراها «هي»، وكان ذلك فجأة، وكان ذلك في ساعة يأسه وقلقه، فما تمالك قلبه أن دق، وابتسم لها ابتسامة ارتسمت رغمًا عنه؛ كأنما هي دفعة الفرح والخلاص من شكه الذي حمله على ذلك، والواقع أنها كانت ابتسامة خالصة صادقة، فيها معنى الابتهاج الشريف لا المغازلة المبتذلة، وليس أدل على ذلك من صدورها عن غير وعيه، كأنما انطلقت تعبر عن شعور داخلي قوي؛ فهو لم ينتبه لها ولا لنفسه، إلا ساعة أن رأى النافذة تغلق في وجهه جوابًا عليها.

يا لسوء الطالع! أهو مجنون يبتسم فيضيع كل شيء؟ ما أحمقه، ولكنه لم يتعمد شيئًا، إنه معذور، هو سوء الحظ لا أكثر ولا أقل.

أسف «مصطفى» كثيرًا، وأنَّب نفسه كثيرًا، وخشي أن يكون قد نفَّرها منه، وود أنها لم تبرز اليوم، ومع ذلك فقد أحس «مصطفى» ارتياحًا في أعماق قلبه: لقد زال شكه قطعًا، وأيقن أنها ليست زائرة ولا غريبة، بل هي في البيت دائمًا، في هذا البيت الذي يراه أمامه ويقطن بجواره، وله شرفة مكشوفة صغيرة تحاذي إحدى نوافذه، حسْبه هذا سعادةً اليوم. وإذا كان قد أغضبها بابتسامة فعساها تصفو يومًا.

على أي حال هو مبتهج اليوم بهذه النتيجة: إنها في هذا البيت دائمًا، وإنها تفتح نافذة الشرفة غالبًا، وستفتحها كالعادة، طبعًا إنها لن تحرم نفسها النور والهواء، من أجل «مغفل» ابتسم لها من قهوة «الحاج شحاتة» الحقيرة! ... قهوة «الحاج شحاتة» الحقيرة؟ ... للمرة الأولى خطر لـ «مصطفى» فكرة احتقار تلك القهوة، وإذا هو يفتح عينيه حواليه، وينظر نظرة المنتقد المشمئز، إلى موائدها الخشبية وكراسيها القديمة، وذلك المصباح الغازي الكبير «الكلوب» المتدلي فوق «يافطة» قد محاها التراب والزمن، فلم يبقَ من «قهوة النجاح الكبرى لصاحبها شحاتة محمد» سوى كلمة «شحاتة» وكلمة «قهوة».

وألقى نظرة شاملة داخلها، من خلال العوارض الزجاجية المكسور أغلبها، فرأى الزبائن الجلوس وضجيجهم وصوت حجر «الطاولة» و«الضمنو»، فدهش كيف أنه استطاع، طول تلك المدة الجلوس بجوار هذا المزاج الخليط بين أفندي ومعلم وملبد؛ كلهم من أهل الطبقة الصغرى، وإذا صوت «المعلم شحاتة» يصيح في الداخل: «ولعة للشيشة يا جدع!»

وإذا أحد الصبيان يمر أمامه لابسًا «العنتري» البلدي و«اللاسة»؛ ولكي يبرهن على رقي القهوة أضاف إلى هذا الزي «فوطة»، ووضع في أذنه اليسرى وردة، وقطعة من العتر الأخضر.

وحانت من «مصطفى» التفاتة إلى ما فوق المائدة أمامه: الصينية الصفيح وعليها كوب مرسوم عليه أزهار ملونة محاها كذلك القدم وكثرة الغسيل، ثم زجاجة الـ «سباتس» المزعومة؛ فأيقن أنها قهوة «شلق» صحيح.

ولكنه ذكر قرب القهوة من منزله، فأدرك سبب اختلافه إليها. وفي تلك الثانية مرت برأسه صورة كان قد نسيها ... صورة ذلك الأفندي الطويل العريض، ذي الشوارب السوداء المنتصبة، الذي كان يتردد على نفس القهوة، ويأخذ مجلسه أمامه منتفخًا كالديك، ولا يزال طول مكثه يملأ الدنيا ضجة كاذبة بأمره ونهيه، وحركات العجرفة والتيه المتكلفة المضحكة، ولا يزال يرفع بصره إلى الشرفة الخاوية حتى ييئس فيقوم.

ضحك «مصطفى» في نفسه لذكرى تلك الصور التي طالما سرته وألهته لكنه ما عتم أن أظلم وجهه قليلًا في الحال، وأصابته خشية؛ إذ أدرك الآن لمن كان يأتي هذا الرجل! ... رآها مرة كما رآها هو أمس؛ إن هذا الرجل يقطن نفس المنزل الذي يقطنه هو، وقد قابله يومًا في السلم نازلًا من الطابق العلوي، إذن مركزه هو كمركز هذا الرجل تمامًا من كل الوجوه ... فقط، قد سبقه هذا الرجل في ترصُّد الشرفة، وها هو هذا الرجل يختفي منذ زمن هاجرًا القهوة، ولعله لم يصب منها غير الخيبة واليأس ... وإذا كان هذا السابق قد خاب أفلا يخيب هو اللاحق أيضًا؟ هذا مؤكد، وقد بدت تباشير الخيبة ولما يمضِ على فرحته ثمان وأربعون ساعة؛ ألم تغلق في وجهه النافذة اليوم!

دب شيء من القنوط في قلب «مصطفى» ... و«مصطفى» ككل شاب لم يعرف المرأة، ما استطاع أن يرى فيما حدث إلا إعراضًا وصدًّا يوجبان القنوط، فأطرق لحظة في كآبة يسائل نفسه عما يصنع، وهل يترك الأمل قطعًا؟ وما الذي يصير إليه إذا أيقن ألا محيص من الرجوع إلى ما كان عليه من حياة فارغة؟ وهاله مجرد تصور حياته الماضية؛ كما لو أن ما بينه وبينها هوة، مع أن ما يفصله الآن عنها لا يزيد على يوم.

أيعود فيعيش كما كان يعيش قبلًا؛ ميتًا لا ينتظر شيئًا، ولا يأمل في شيء ولا يخفق قلبه لشيء؟ هل هذه تسمى حياة، أوَيستطيع العودة إليها بعد أن علم أن عذره إذ تحملها فيما مضى كان الجهل؟ ... أما وقد رأى بعينيه أن هناك نورًا ... ورفع يده في حركة ضيق، ونادى صبي القهوة، ودفع إليه ثمن ما شرب، ثم نهض بدون أن ينظر إلى الشرفة؛

نظرة أخيرة، وكأنما منع نفسه من النظر بكل إرادته، وسار على غير وجهة مقصودة؛ مطرقًا ويداه في جيبه، وهو يسائل نفسه مرددًا: إن مصيري ومصير الرجل «إياه» واحد، ولا بد يومًا من الاختفاء بدوري، وهجر القهوة.

إلا أن الأمل ما لبث أن عاوده ... وجعلت النفس المتملقة تخلق له كل ما يسره ويطمئنه من أسباب، فأخذ يستعرض في مخيلته صور «سليم» المضحكة، مكبرًا مجسمًا ما فيها من هزل وهزء، حتى بدا لعينيه شخصًا غير خليق بعطف فتاة جميلة رقيقة ... وأخذ يقيس نفسه به، ويقارن ما بينهما من وجوه شبه ومن فوارق، إلى أن خرج من ذلك كله بنتيجة في مصلحته: أن هذا الرجل لا يشبهه في شيء، ولا يمكن أن يجري عليه ما جرى على هذا الرجل؛ إنه ليس مثله ولا نظيره، ولو كان كذلك حقًّا لألقى بنفسه في البحر من زمن طويل ... نعم، لكان ألقى بنفسه في البحر من زمان.

وكأنما أعجبته هذه الجملة؛ وكأنما استراح عليها، فجعل يرددها لنفسه بنطق واضح واقتناع: صحيح كنت رميت نفسي في النيل من زمان.

وهكذا استطاع هذا الإنسان القلق، بجملة كهذه، أن يعيد إلى نفسه بعض الاطمئنان والراحة، ويتخيل النور قد بزغ أمام بصره من جديد.

الفصل السابع عشر

لو أن «مصطفى» ساعة أن ابتسم «لسنية» رفع بصره إلى نافذة جيرانه القاطنين فوقه، لأحس أشعة عيون نارية تنفذ إليه من خلال العوارض الخشبية؛ تلك عيون «زنوبة» التي ما فترت عن مراقبته ومراقبة «سنية» منذ يوم الشجار، ولعلها أول من رأى وأدرك تحسن هندام «مصطفى» وسببه في ذلك اليوم، ولعلها كذلك الوحيدة التي باغتت على شفتَي «مصطفى» تلك الابتسامة الموجهة إلى «سنية».

وهذا يكفيها: «مصطفى» يبتسم «لسنية» وهي تبتسم له! الله ... الله.

وانتظرت حتى اجتمع «الشعب» ما خلا «محسن» الغائب في «دمنهور»، وأخبرتهم بما رأت، مبالغةً في الخبر، مضيفة إليه كل ما تتصور أنه سيكون ... وهل بعد الابتسامة إلا المقابلة والمراسلة؟ لقد نهض «مصطفى» أمامها بعد ذلك، فإلى أين إن لم يكن إلى حيث يلقي من ابتسم لها الساعة؟ وتصادف بعد قيام «مصطفى» بقليل أن شاهدت «زنوبة» جارية «سنية» تخرج في إزارها لقضاء حاجة، فتصورت «زنوبة» أن «سنية» شيعت جاريتها وراء «مصطفى»، فأضافت ذلك إلى مجموعة ما رأت بعينيها، قائلة «لعبده» و«سليم» الساهمين: إنتم نايمين؟ طيب دي المراسيل رايحة جاية أربعة وعشرين قيراط «بالمفتشر» كده في الضهر الاحمر.

وهكذا أنزلت الطامة على هذين الأخيرين؛ كما أثارت الدهشة عند «حنفي» و«مبروك» اللذين استغربا إمكان حدوث كل هذا بتلك السرعة، لا سيما و«مصطفى» شاب لم يسمع له صوت، ولم يحس وجوده طول مدة إقامته.

وبعد أن استوثقت «زنوبة» من قوة الأثر الذي تركته فيهم، اقترحت عليهم تحرير خطاب إلى والد «سنية» المسئول عن سيرها شرعًا؛ حتى يوقفها عند حدها ... هذه هي الطريقة المثلى والوحيدة، وهذا هو الواجب عليهم معشر الجيران المخلصين ... والنبي

أوصى بسابع جار! ووافق «سليم» أولًا مدفوعًا بما طرأ عليه فجأة من غيظ، وقبل أن يكتب هو الخطاب … ولكن «عبده» هاج كامن غضبه العصي، وانفجر يصيح، وكأنه وجد منفذًا في هذا الصياح: مفيش جواب ينكتب … مفيش جوابات تروح! إن كنت صحيح راجل ويوزباشي انزل للراجل اللي تحت … قسمًا بالله العظيم ما ينكتب جواب … دا جبن … أنا لا أسمح بالجبن ده أبدًا … مفيش جواب. أنا أعرف شغلي.

فقال له «سليم»: تعرف شغلك ازاي؟ تعمل إيه؟ تضربه؟

وقالت «زنوبة»، وقد لمعت عيناها تشفيًا: إعمل اللي تشوفه، لكن برده الجواب ضروري.

فصرخ فيها «عبده»: اسكتي.

ثم التفت إلى «سليم» وقال: أنا بقول لك جبن … ندالة … دي أمور نسوان!

وأخيرًا اقتنع «سليم» بكلام «عبده»، وعبثًا حاولت «زنوبة» حملهم على كتابة ما تشتهي، وعند ذلك جاءتها الفكرة أن تستكتب، سرًّا، كاتبًا عموميًّا من أولئك المرابطين دائمًا، والناصبين خيامهم ومكاتبهم أمام محكمة السيدة … ولم تكذب، والتفَّت بإزارها الأسود، وخرجت عصر ذلك اليوم خُفيةً إلى ذلك الكاتب؛ وكيما تخفي عنه غرضها الأصلي جعلت كأن غايتها التي أتت من أجلها استكتاب خطاب عادي «لمحسن»، حتى إذا ما تم خطاب «محسن» تظاهرت بفكرة عارضة هي استكتاب الخطاب الغفل.

فتحت «سنية» عينيها في صباح اليوم التالي، وابتسمت للنهار، وظلت في فراشها تفكر فيما كان من أمرها أمس، وفي السعادة التي تنتظرها اليوم، وهل يمكن أن ينتظرها شيء غير السعادة منذ اليوم؟ إنها كانت تجهل أن الحياة حلوة هكذا، إنها عاشت سبعة عشر ربيعًا لم ينكشف لها أثناءها عن جمال الدنيا إلا اليوم، كل شيء جميل في هذا الصباح، وكل شيء يبتسم.

أكل هذا لأن «مصطفى» ابتسم؟

إنها رأت كثيرين يبتسمون لها في الطريق، أو في الترام وهي مصطحبة جاريتها «بخيتة» في ذهابها وإيابها إلى عيادة طبيب الأسنان، الذي يباشر حشو أضراسها التي أثر فيها أكل «الملبس» والحلوى. بل إنها رأت بالأقل بسمات «سليم» و«محسن» … ولكنها لم تحس ما أحست عند ابتسامة «مصطفى»؛ كأن هذه الابتسامة قلبت كل حياتها، وغيرت الدنيا في نظرها، فبات كل شيء يبتسم أمامها وحولها!

ومع ذلك قد استقبلتها بغلق النافذة في وجهه.

ضحكت «سنية» عن نواجذها اللؤلؤية لدى هذه الصورة.

وأفعمها ارتياح وسرور ولذة داخلية؛ إذ عاملته هذه المعاملة الخشنة، وتساءلت في نفسها مبتهجة عما عساه يقول عنها الآن؟ ثم ختمت ضحكها بأن قالت في صوت يتهدج لذة: مسكين!

ومع ذلك فقد كان يقاسم قلبها عاطفة أخرى متناقضة، هي عاطفة ندم وإشفاق وقلق، إنها تخشى أن تكون أساءته أكثر مما ينبغي، وأن تكون صدمت إحساسه على نحو عنيف.

ونمت عندها هذه العاطفة، فجعلت تؤنب نفسها أو تتظاهر بتأنيب نفسها؛ إذ في الواقع كانت عاطفة السرور بجفائها، واللذة بقسوتها ما زالت تداعب أطراف قلبها غير أنها وجدت الحل أخيرًا، أمكنها التوفيق بين هاتين العاطفتين المتضاربتين ظاهرًا: سوف تعوضه عن الإساءة، نعم سوف تُظهر له شيئًا من حسن المعاملة، أو على الأقل سوف لا تصدم شعوره بعد اليوم ... هذا الشاب المسكين اللطيف.

وابتسمت.

وبلغت أشعة الشمس وسادتها، ولمع في ضوئها شعرها الأبنوسي، وأحست الحرارة، فرفعت يدها الناصعة إلى رأسها تتقى بها حر الشمس، غير أنها ذكرت الوقت، وأدركت أنها تأخرت في فراشها اليوم على غير عادتها، فنهضت في الحال، وسارت بأقدامها البيضاء العارية على بساط الحجرة، ووقفت أمام المرآة في قميص نومها الحريري، وكان شعرها الذي لم يرتبه بعد مشط الصباح قد تدلى فاحمًا جميلًا، يغطي عينيها، فهزت رأسها هزة وضعته في مكانه، وانزاح عن بصرها ذلك الستار الكثيف، فرأت في المرآة صورة تأملتها طويلًا في عجب، وهي تقلبها ببطء على كل الأوضاع ... كيف؟ أهذا الجيد المرمري لها؟ وهذان النهدان القائمان يبدو ظلهما واضحًا خلف قميص الحرير، وهذا الخصر الذي تحوطه بيدها من فوق القميص لتتبين دقته في المرآة، يا للعجب! ما كانت تعلم أنها بهذا الجمال كله؟!

وابتسمت أيضًا لظلها.

ثم تناولت المشط وأعملته في شعرها وهي تتأمل وجهها وشفتيها راضية عما ترى، ثم طفقت تترنم بأغنية من الأغاني القصيرة المرحة المسماة: «طقاطيق»، وهي تخلع ثوب النوم لترتدي ثوب البيت.

وانتهت «سنية» من أمر ملبسها وزينتها، واستغرق ذلك منها اليوم زمنًا أطول من المعتاد، ونظرت إلى خيالها في المرآة نظرة أخيرة، ثم مشت إلى باب حجرتها في خطًا لطيفة، كخطا طائر جميل؛ وكأن كل شيء فيها قد لطف اليوم ورقَّ أضعاف ما كان عليه من قبل؛ فهي الآن — نفسًا وجسدًا —كالفراشة البديعة لا تتحمل اللمس، ولعله الابتهاج المضيء والسعادة النورانية ما يشعرها بخفة وزنها، وبأنها اليوم نفسٌ طائرة أكثر منها جسمًا كثيفًا.

ولكنها ما كادت تفتح باب حجرتها، وتخرج إلى الردهة حتى وقفت واجمة وساورها خوف لا تدري سببه؛ فقد سمعت لغطًا بين والدها ووالدتها ينبئ بغضب هائل!

وكان باب حجرة والدها التي ينبعث منها الصوت مغلقًا، فلم تستطع تمييز الكلام، إلا أنها كانت تسمع بوضوح بين آنٍ وآخر اسمها يردد، ثم كلمة «بنتك» يلفظها والدها في عنف مخاطبًا والدتها، فجمدت «سنية» في مكانها باهتة، وقد أيقنت أن شرًّا ينتظرها!

ولم يكن لديها وقت للتفكير ولا لتملك نفسها؛ فإن صوت والدها ما لبث أن تفجر في رعد مخيف، ثم فتح الباب بقوة كاد ينخلع منها، وبرز والدها وبيده خطاب، فما رآها أمامه في الردهة حتى صاح: إنتي هنا؟

ثم لم يلتفت إلى وجه ابنته الأصفر، ولم يمهلها حتى تجيب، بل مد في الحال يده إليها بالخطاب صارخًا: خدي … خدي اقري … اقري وقولي لي الكلام المكتوب هنا معناه إيه؟

فلم تتحرك «سنية» ولم تتناول الخطاب لأنها كانت لا تقوى على شيء، ولكن والدها الغضبان الهائج تقدم إليها وقد اشتدت ثورته، وعندئذٍ ظهرت الأم وصاحت به، وحاولت أن تجذبه القهقرى فلم تفلح، فأرادت أن تتوسط بينه وبين ابنته لتحميها، فدفعها عنه بعنف، واقترب من «سنية» وجذب ذراعها، وتناول يدها بخشونة، وأقبضها على الخطاب وهو يصرخ: قلت لك اقري الكلام المكتوب هنا، اقري الكلام المكتوب، أنا راجل عشت طول عمري بالشرف، أنا سافرت «السودان» وحضرت مواقع حربية.

ولم تستطع «سنية» احتمال أكثر من ذلك؛ فإن قواها تخاذلت، وكادت تسقط على الأرض؛ لو لم تسرع إليها أمها، وتتلقاها بين ذراعيها، وهي تنظر إلى زوجها شزرًا قائلة: ما تسكت بقا يا راجل، هي يا كبدي تقدر تستحمل الكلام ده كله؟

ولكن الوالد لم يسكت، بل ازداد ثورة، وعاد إلى ذراع ابنته المتخاذل يهزه بشده، ويدعوها أن تقرأ الخطاب، فأبعدت الأم يده عن ابنتها، ثم أخذتها وهي بين ذراعيها

إلى أقرب مقعد، وعندئذٍ دنا الوالد، ورفع الخطاب إلى عينيه، وقال صائحًا: مش راضية تقريه؟ أنا اقراه ... اسمعي:

حضرة المحترم الأمجد الدكتور حلمي، دام

بعد السلام: نخبركم أن علاقات الهيام سائرة على ما يرام، بين «سنية هانم» كريمتكم، وبين رجل من زباين القهوة التي أمام منزلكم العامر، والإشارات والمراسلات لا تنقطع بين البلكون والقهوة، وقد أحطناكم علمًا لما لنا فيكم من العشم، ولغيرتنا على حسن سمعتكم، وحرصنا على شرف اسمكم، والسلام ختام؟

كاتبه

صديق مخلص

وما جاء الوالد على آخر المكتوب حتى صرخ في ابنته: ضيعتي اسمي، دنستي شرفي ... شرفي العسكري، تضيعي لي اسمي بعد ما حضرت «موقعة» أم درمان؟

ولم يتم جملته؛ لأن «سنية» على ضعفها وهي مغمضة العينين، ورأسها على صدر أمها أخذت دموعها تسيل خطوطًا على خدها في صمت، ولمحت أمها تلك الدموع الصامتة فجأة، فتحرك فيها الحنو إلى حد هائل، فثارت في وجه زوجها، وصرخت: اسكت ... اسكت بقا بلا «أم درمان» بلا «أم عمران». يا راجل انت رايح تموِّت البنية اللي حيلتي وابقا افرح بك؟ دي اسم الله ماتستحملش كده أبدًا، حرام عليك.

ثم رفعت بصرها إلى السماء، ثم ألقته على زوجها، وقالت: والنبي مظلومة، واللي ظلمها يقعد له ويقعد لعياله. يقعد لك ويقعد لعيالك وعينك وعافيتك ببركة دي الصباح ياللي كتبت دي الجواب.

فقال الوالد بحدة: يعني بنتك ماوقفتش في البلكون؟

فأجابت الأم على الفور: أبدًا، أبدًا ... يا فتاح يا عليم ... بلكون؟ قطع لسان اللي يقول كده.

وكأن إلهامًا برق في رأسها؛ فقد خطر لها في الحال أن هذا الخطاب الغفل لا بد أن يكون من طرف «زنوبة» ... نعم لأن سبب الشجار بينها وبين «سنية» لم يكن غير ذلك؛ ولأن هذا الشجار لم يمضِ عليه وقت طويل، فيُنسى من القلوب. إذن هي «زنوبة» التي فعلت ذلك، مدفوعة بعامل السخط على «سنية»؛ وكأن الأم وجدت وجهًا للدفاع عن ابنتها

وبرهانًا قاطعًا على براءتها فأبرقت أسرَّتها، وانتصبت في جلستها، تمهيدًا للكلام القاطع، غير أن زوجها تذكَّر في نفس الوقت الخطاب الآخر الذي وقع في يده، وكان ممضًى باسم «اليوزباشي سليم»، ذلك الخطاب الذي لم يُطلع عليه ابنته، بل رده بالتالي إلى كاتبه ... لم يبقَ عنده شك إذن في صحة الخطاب الأخير؛ فإن أحد الخطابين يؤكد الآخر.

فالتفت عند ذاك إلى زوجته، وقال لها بعنف: طيب ... وجواب اليوزباشي، ناسياه؟

فبغتت الأم، وكانت على وشك الانتصار، ونظرت إلى زوجها قائلة في شيء من الحيرة: جواب اليوزباشي دا إيه راخر؟

ثم ذكرت ذهابها إلى «زنوبة» تشكو إليها قريبها «سليم»، بعد أن أطلعها زوجها على أمر خطابه، إذن ليس لها وجه للإنكار.

وتفكرت قليلًا، وفجأة لمعت عيناها؛ فقد وجدت ما تقول: إن المصائب كلها جاءت من «زنوبة» وأقارب «زنوبة»، وما الخطاب الأول والخطاب الثاني إلا من ناحية «زنوبة» النحس ... وهل جاءت كلمة واحدة أو رائحة خبر واحد من جهة أخرى، غير جهة «زنوبة»؟!

وما دام الأمر مقصورًا على «زنوبة»، وما دام قول «زنوبة» لا يعتد به؛ لأنها خصم، والعلاقة بها مقطوعة، فأي قيمة إذن لهذا الخطاب الغفل الذي هو منها بلا شك؟ ... وغير «زنوبة» لا يجرؤ على فعل هذا.

هذا خلاصة ما انفجرت به الأم، وما قالته لزوجها، بعد أن أخبرته تفصيلًا بأصل العلاقة «بزنوبة» وبسر القطيعة بينهما، وبأنها هي التي كانت تنظر إلى القهوة من البلكون، كلما جاءت زائرة حتى عنفتها «سنية» على ذلك ذات يوم، فغضبت وسبَّت وشتمت وانقطعت ... وها هي ذي أخيرًا تلجأ إلى إلصاق كل ما فيها «بسنية».

وختمت الأم قولها ودفاعها المفحم، بأن رفعت ذراعيها عاليًا نحو السماء، ودعت بحرارة: إلهي يوريكي يا «زنوبة»، إلهي يجازيكي على قد عملتك، ببركة دي الصباح الكريم.

هدأ ثائر الوالد، وبدا على وجهه الاقتناع، وجعل يقول عن «زنوبة» مرددًا: يا سلام، دي لازم واحدة شريرة.

فأردفت الأم على الفور: قوي، قوي ... معلوم، هي دي ربنا رايح يغضب عليها أكثر ما هو غضبان؟ ربنا ما يحكم على حد، دي لا جمال ولا مال ولا حلاوة لسان، عمرها النهارده فوق الاربعين، ولسه بسلامتها بنت بنوت.

وطفق الوالدان يتحدثان عن «زنوبة» برهة.

ثم التفت الوالد إلى ابنته، فرآها مغمضة العينين، فتناول يدها في لطف يجس نبضها، ثم همس إلى والدتها أن تنقلها إلى فراشها تستريح قليلًا؛ فهي في صحة جيدة، لكن ينقصها شيء من راحة النفس والجسم، وأعقب قوله هذا بتمزيق الخطاب الغفل إربًا إربًا ... وهو يستنزل اللعنة على تلك المرأة الشريرة «زنوبة» التي تسببت في كل هذا.

الفصل الثامن عشر

يا للعجب! مضى أسبوع كامل ولم يبدُ «لسنية» أثر في الشرفة الخشبية: ترى ماذا حل بها؟ أمريضة؟ أهي قد نفرت بتاتًا وانقطعت إلى الأبد بعد تلك الابتسامة الملعونة؟

هذا ما كان «مصطفى» اليائس يناجي به نفسه في القهوة، بعد مداومة الترقب والانتظار أسبوعًا كاملًا، على غير طائل ... صحيح! ... تجنبت «سنية» الشرفة طول هذه المدة، ولكن لا لأنها مريضة، ولا لأنها نفرت بتاتًا؛ بل لأن كلام والدها، وما جاء بالخطاب الغفل أثَّرَا في نفسها ... لقد ساءها أن تُدخل القلق على أبيها المتقاعد المطمئن، وأن تجعل هذا الشيخ العسكري في أواخر أيامه يحسب أن ابنته لم تحافظ على شرفه.

كل هذا من أجل ابتسامة رجل؟!

وتأملت أمرها طويلًا، فإذا هي تذكر أن هذا الرجل لا تربطها به صلة، ولا تدري شيئًا عن دخيلة قلبه ولا عن خلقه؛ بل إنها لا تعرف من هو؟ وماذا يصنع؟ إنه أجنبي عنها تمامًا؛ فلماذا تتجشم كل هذا من أجله؟ وما الذي صنعه هو من أجلها؟ إلا تلك الابتسامة؟ أفتاة شريفة تهتم برجل كهذا؟ وأحست شيئًا في نفسها لم تتبينه من قبل، إنها لم تعد تلك الفتاة الطائشة اللعوب، التي تنزع إلى المداعبة واللعب، مع كل رجل تصادفه، ولا تلك الفتاة التي تطالبها الطبيعة بحق الشباب الملتهب، ويدفعها القلب الناشئ، فتجري في كل مكان، ناظرة إلى كل شيء، باحثة قلقة غير مستقرة.

لا ... إن «سنية» الآن خطت هذا الطَّور، وانتهت من القلق إلى العقيدة، عقيدة المرأة في الغرض من الحياة، أدركت بوعيها لماذا تحيا المرأة؟ وبماذا تحيا؟

إن تربية «سنية» وثقافتها لا تزيد على تربية وثقافة زميلاتها المتخرجات معها في نفس مدرسة البنات، وقد تكون مطالعتها للقصص أفادتها بعض الفائدة، في إنماء مداركها وتجاريبها النظرية، غير أن العقيدة لا تُكتسب بالمطالعة وحدها؛ بل بالتجربة

والإحساس المباشر، ولقد قرأت «سنية» كثيرًا عن الشرف والفضيلة، فلم يبزغ أمام بصيرتها معناهما إلا اليوم، فإذا بوعيها يهتف لها بتلك الحقيقة: «ليست الفضيلة عند المرأة ألا تحب أبدًا؛ بل الفضيلة أن تحب حبًّا ساميًا رجلًا سامي القلب والأخلاق.»

ولكن هل «مصطفى» رجل سامي القلب والأخلاق؟ هذه هي المسألة، وهذا موضوع شكوكها الحاضرة، وما حملها على الابتعاد عن رجل تشك في أمره ولا تدري عنه إلا أنه ابتسم لها.

وهكذا تجنبت في الحقيقة الشرفة، وانعكفت أغلب وقتها تتأمل وتفكر وحيدة في حجرتها، وكثيرًا ما كانت الدموع تخفف عنها، وتمدها بالسلوة الوحيدة ... إنها كانت تبكي، لأنها لا تستطيع أن تجيب على سؤالها المتشكك، ولا تريد أن تبرز له، أو أن تستعمل تلك الأساليب الحمقى والدعايات والإشارات السخيفة؛ لأن ما أدركته اليوم من حقيقة قلبها يرفعها عن كل هذه الأشياء، ويجعلها لا ترى شيئًا خليقًا بنبل عواطفها غير العزلة والدموع.

للمرة الثالثة أقسم «مصطفى» أن يهجر القهوة إلى الأبد، إذا هو لم ير «سنية» وها قد أشرف على أسبوع جديد، فهل يبر بقسمه أو يحنث فيه كسابقه، ويمد الأجل أسبوعًا آخر؟ نعم لقد انتقل الآن تجديد الآجال ومدها من الساعات والأيام إلى الأسابيع، ولكنه في هذه المرة عزم العزم الأكيد على أن يكون هذا النهار آخر عهده بالقهوة.

نعم لا تردد ولا ضعف ولا هوادة بعد الآن؛ فقد تأمل هو الآخر أمره مليًّا، وذكر أنه يعلق أهمية صبيانية، وآمالًا سرابية على لا شيء، ماذا دهاه؟ وماذا حدث في حياته من تغيير؟ أمجرد أن يلمح فتاة في نافذتها — التي أغلقتها في الحال في وجهه — كافٍ أن يكرس كل هذا الزمن، وهذا الفكر في سبيلها؟ من هي؟ وأي صلة تربطها به؟ لا شيء ... حتى اسمها لا يعرفه، إن شعورها نحوه قد ظهر، إنها لم تلتفت إليه قط ولا ترى فيه إلا رجلًا وقحًا من أهل هذه القهوة الحقيرة؛ فلو أنها أبدت فقط إشارة صغيرة أو قرينة واحدة، على أنها أحست وجوده لكان اعتبر ذلك رباطًا وصلة بينهما؛ بل لكان عده عهدًا وميثاقًا، ولكن ماذا يقول لنفسه الآن؟ وبماذا يطمئن قلبه القلق، وقد انقطعت بعد غلق الشرفة الخشبية كل صلة، حتى صلة الهواء الذي ظن أنهما يستنشقانه سويًّا، فلأي شيء إذن يعلق أملًا عليها؟! ثم من يدريه؟ لعلها برغم جمالها من طراز أولئك الفتيات البله أو النزقات اللاتي لا يعرفن من شئون العاطفة العميقة شيئًا؛ فمن أين عرف أن لها قلبًا، وأنها تستطيع أن تفهمه وأن تفهم ما به؟

وانتهت به التأملات والشكوك إلى العزم على هجر القهوة، نعم، لا مناص من هجرة القهوة؛ كما هجرها ذلك الرجل ذو الأكتاف العريضة والشوارب القائمة، وعاودته مرة أخرى صورة هذا الرجل «سليم»، ولكنه في هذه المرة أحس نحو هذا الرجل بعض العطف والرثاء، وتخيله وقد اختفى يأسًا، بعد أن عالج لفت نظر «إلهة الشرفة»، بكل ما يستطيع من حيل وأساليب، وبكل ما حسبته عقليته القديمة ظرفًا ولباقة ... نعم إنه كان مضحكًا إلى حد المسخرة، ولكن أليس مسكينًا؟ أليس جديرًا بالرحمة هو أيضًا ... لأنه أحب ورجا وأمل، ثم خاب وقنط واختفى؟

وجاءت تلك الصورة مؤكِّدة عزم «مصطفى» فألقى على الشرفة المظلمة التي لم تُفتح منذ عشرة أيام آخر نظرة، ونادى صبي القهوة بصوت قاطع كصوت المقدِم على عمل خطير، ثم دفع إليه بحسابه، ونهض منتفضًا، ونظر يَمنة ويَسرة، يختار الطريقة في تردد؛ كما لو أنه يختار الطريق الذي لا رجعة له، ولكن فجأة، خطر له ذلك الخاطر الذي يأتيه دائمًا، كلما نهض هذه النهضة، فإذا هو يتراخى، وإذا العرق يسيل على جبينه، وإذا حماسته وحركته القوية وعزمه الأكيد يبدو له سرابًا، لا يقل استحالة عن السراب الذي يهرب منه! ... يهجر القهوة؟ حسن ولكن إلى أين؟ إلى أين يذهب؟ إلى المواخير والعاهرات، أم إلى صحبة أولئك الأصدقاء الذين لا يقلون سقوطًا عن الساقطات، وهو الذي أحس أخيرًا في قلبه نبلًا واستكشف في نفسه جمالًا ونقاء، ما كان يعلم بوجودهما؟ أم أنه يذهب إلى قهوة أخرى، من مقاهي «حي السيدة»، محاولًا خلع تلك الفتاة من قلبه؟ يخلعها من قلبه، إذا أمكن ... حسن، ولكن ما الذي تبقى له بعد ذلك، وهو الذي بدأ يفهم قيمة الحياة على ضوء المرأة؟ وما مصير قلبه الذي كان خامدًا؛ كالساعة العتيقة الواقفة؛ فإذا هو الآن يدق دقات الحياة؟ وهل ينسى لذة تلك الإحساسات الجديدة التي بعثتها فيه تلك الفتاة مذ ظهرت له؟ كلا، محال أن يذهب كل ذلك، وما أبسط عقله إذا حسب مجرد القيام أو دفع الحساب إلى صبي القهوة ينهي كل شيء، بل ولماذا هو يفكر في الذهاب؟ هي ولا شك ثورة الأمل الخائب، ولكن لماذا يأمل؟ ولماذا تنتابه الشكوك في شأنها؟ حسبه منها أنها أوحت إليه — سواء قصدت أو لم تقصد — بتلك العواطف الجميلة النبيلة، التي لم يوحِ بها إليه شيء أو إنسان قبلها، أنه سيمكث بالقهوة دائمًا لا لينظر إليها ويترصدها؛ بل ليغذي قلبه من جوارها: إن مجرد الفكر أنه بجوارها يكفي.

وعاد «مصطفى»، فجلس وهو مرتاح النفس لهذه النتيجة، غير أنه عجب: كيف أنه غدا هكذا «كالشعراء» في عرفة؟

ظل «مصطفى» يأتي القهوة كالمعتاد، غير آمل في شيء إلا في فضل الله وحسن المصادفة، فكان يرى النافذة ما زالت مغلقة، فلا ينزعج ولا يثور، إلى أن كان يوم، نام فيه بعد الغداء كعادته، فأرق، فقام، فارتدى ملابسه، ونزل إلى القهوة قبل ميعاده، يقتل فيها الوقت، ويتناول فنجانًا من القهوة، وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر؛ فما كاد الصبي يأتيه بالمشروب، وينصرف عنه حتى لمح «مصطفى» امرأتين تخرجان من منزل «الدكتور حلمي»، وكانت إحداهما تبدو صغيرة رشيقة في زي آخر طراز نسائي، بينما الأخرى التي تتبعها جارية ملتفة في إزار أسود، فلم يشك «مصطفى» في أنها هي وخادمة لها خارجتان، فدق قلبه سريعًا دقات متتالية، وتزاحمت في رأسه خواطر مختلفة فيما يجب أن يعمله، وارتبك واحتار ... ماذا يفعل؟ ورآهما تسيران في الطريق إلى ميدان «السيدة زينب»، فأخذ يستشير نفسه ملهوفًا متسائلًا عما يصنع؟ وهو يخشى أن تبتعدا وتختفيا عن نظره، قبل أن يبت في أمر، وخشي أيضًا أن تكون هذه فرصة سانحة قلَّ أن يأتي مثلها، وهو الذي ينتظر مجرد طيفها في الشرفة، منذ أسابيع؟ ... وأخيرًا لم ينته إلى قرار، ولكن عاطفته وحدها التي دفعته، فإذا هو يثب من كرسيه، تاركًا المشروب الذي طلبه، وانطلق في أثرهما بدون أن يعي، وبلغت المرأتان ميدان السيدة، وركبتا الترام الموصل إلى العتبة الخضراء، عن طريق شارع عبد العزيز، ووصل «مصطفى» بعدهما، ورآهما تصعدان المحل المخصص «للحريم»، فوقف مترددًا قليلًا، إلى أن صفَّر الكمساري، وتحرك الترام، فإذا أيضًا قلب «مصطفى» هو الذي يبت فجأة، وفي الحال قفز إلى نفس الترام، وهو لا يدري إلى أين ذاهب؟ ولماذا فعل ذلك؟ وما نتيجة هذا العمل؟ وأخذ تذكرة إلى العتبة الخضراء، إلا أنه قال في نفسه: «ومن يدريني أنها نازلة في العتبة؟!»

ثم تطرَّق من هذا إلى التساؤل والعجب من خروجها في مثل هذه الساعة ... ثم إلى أين؟ إلى أين تقصد؟ وهل هي معتادة الخروج في هذا الوقت من كل يوم، بينما هو راقد في سريره عقب الغداء؟ ولقد كان ينبغي له هذا الأرق اليوم؛ حتى يستطيع العلم بذلك؟ ما أبركه أرقًا!

ولكن المهم هو أن ينتبه جيدًا إلى نزولهما؛ حتى لا تنزلا في محطة غير العتبة وهو لاهٍ كالمغفل؛ لذلك وضع «مصطفى» نصب عينيه مكان «الحريم» وظل لا يتلفت إلا إليه، حتى بلغ الترام أول شارع عبد العزيز، فإذا هي وجاريتها تنزلان، ولم يكن «مصطفى» يتوقع ذلك؛ إذ حسبهما قاصدتين العتبة الخضراء، فلم ير نزولهما إلا بعد أن تحرك القطار به، فنهض كالمخبول، وقفز قفزة قوية، وأدار ظهره يبحث عنهما في لهفة، وإذا هو وجهًا لوجه أمام سنية! ... فاحمر وجهه خجلًا وخفق قلبه، وتنحى لهما عن الطريق

الذي كان سده عليهما بقفزته، ولم تكن «سنية» أقل انبهاتًا منه، ولا أقل احمرارًا، وقد رأته في مواجهتها فجأة، غير أن القناع الأسود والبيشة أخفى لون وجهها، أما هو فقد لاحظت هي تغيره، وسارت في طريقها تتبعها جاريتها، ووقف «مصطفى» في مكانه من أثر الصدمة، وقد تركهما يذهبان، بدون أن يشعر بذهابهما، إلى أن كادا يختفيان بين المارة، فذكرهما وذكر أنه يود أن يعلم إلى أين تذهبان، فانطلق مسرعًا يبحث عنهما إلى أن عثر بهما، فتمهل في مشيته يتبعهما عن كثب، إلى أن رآهما تدخلان عمارة في منتصف هذا الشارع.

وقف «مصطفى» لحظة أمام الباب حائرًا، يتساءل عما يريدانه في هذه العمارة، وعما إذا كان ينبغي له المضي في تعقبهما … ووقع نظره على لوحات نحاسية مختلفة بباب العمارة، تعلن عن طبيب ومحامٍ وتاجر، فما تردد، واقتحم الباب بسرعة، وصعد السلم وثبًا ليلحق بهما، فأدركهما أمام «شقة» بالطابق الثالث، والجارية تقرع جرسًا كهربائيًّا، ولم يلبث الباب أن فتح، ودخلت المرأتان، ورأى «مصطفى» الباب على وشك أن يغلق خلفهما، فهرع إليه ودفعه بيده ليحول دون غلقه، ودخل خافق القلب … لعله أيضًا تأثير الصعود السريع والوثب! وأجال بصره في المكان، فإذا هو في عيادة طبيب … علم ذلك من «التمرجي» الذي فتح الباب، وقاد السيدتين إلى حجرة انتظار السيدات، ونظر «مصطفى» إليهما تدخلان تلك الحجرة الخاصة بهن، فتولاه الامتعاض والحسرة، وجاءه الممرض يقوده بدوره إلى حجرة الرجال، فانقاد له بغير وعي.

لم يلبث «مصطفى» أن وجد نفسه بين بضعة أفندية وشيوخ ينتظرون، فأخذ مجلسه في أدب بعد أن أقرأ الجميع السلام بيده، وظل هو الآخر ينتظر في سكون.

ولكن ينتظر ماذا؟ في هذه اللحظة فقط تنبه «مصطفى» لموقفه، لماذا هو هنا في تلك الحجرة؟ إنه ليس مريضًا، وما العمل إذا جاء دوره الآن وأدخل على الطبيب؟ ثم أي طبيب هذا الذي هو في عيادته الآن؟ إنه لا يعرف حتى إن كان طبيبًا باطنيًّا أو جراحًا أو طبيب عيون أو اختصاصيًّا في الأذن والحنجرة؟

والتفت يَمنة ويَسرة في حيرة وارتباك؛ هل يسأل من حوله عن صفة هذا الطبيب؟ ولكنه لا يأمن أن يثير سؤاله دهشتهم، ويعجبوا لأمر هذا المريض الذي جاء ولا يعلم إلى أي طبيب جاء … ففضل الصمت … ومن الآن حتى المثول بين يدي الطبيب يأتي الله بالفرج، وأنه متى دخل حجرة الطبيب، رأى ما فيها من أدوات وآلات قد يتضح له اختصاص صناعته؛ لذلك لا خير من الانتظار.

ولكن شيئًا آخر خطر لذاكرته: إنه لم يأتِ هنا كي يرى الطبيب، ما له ولحجرته وأدواته وآلاته؟ أين هي جاريتها؟ أين المرأتان؟ وهبَّ ناهضًا على قدميه فجأة على نحو لفت أنظار المرضى المنتظرين، ولكنه لم يأبه، وسار نحو الباب، وخرج إلى الردهة، وأجال بصره فيها، فوجد حجرة السيدات بابها مفتوح، فاتجه إليها ومر ببابها سريعًا، ثم عاد فوقف ببابها لحظة يتصفح الوجوه كأنما له قريبة أو نسيبة يفتش عنها بين الحاضرات. وإذا فجأة يقع بصره على بصر «سنية»، وإذا هي ترنو إليه، ولكنها في الحال خفضت عينيها السوداوين إلى الأرض في حياء لذيذ، فابتعد «مصطفى» مسرعًا، وعاد إلى مكانه بحجرة الرجال وقد علا الدم إلى وجهه، وأطرق مبهوتًا تحت تأثير تلك النظرة.

إنها لا شك تعرفه، وأحست وجوده، وإلا فما معنى هذه النظرة الغريبة؟ نعم، إنها بدأت تلتفت إليه، وإنه يشعر بذلك، إنه ليشعر الآن بأن بينهما صلة، وأن هذا الشعاع من عينيها الخلابتين، الذي اخترق قلبه الساعة لأقوى رباطًا من سلاسل الحديد، إنه حسنًا فعل بمجيئه اليوم في أثرها، ولسوف يسير دائمًا في أثرها أينما ذهبت، ولكن، أتراها أتت هذا المكان للمرة الأولى؟ أم أنها كانت تختلف إليه منذ زمن وهو لا يعلم؟ أهي مريضة إذن؟ مسكينة تلك العزيزة، وبأي مرض يا ترى؟ وأيُّ ألم تشعر به؟ وهل يطيق هو أن يعلم بألمها، ولا يتألم كذلك؟ مستحيل، إنه يتألم مثلها، وإنه لمريض مثلها، وكفاه هناء وراحة أن يكون مريضًا مثلها وبنفس مرضها ... نعم، بنفس مرضها، فقط، لو يعلم بأي شيء هي مريضة؟ هذه هي المشكلة، ولكن الأمر بسيط: ما عليه إلا أن يعرف عيادة أي طبيب هذه؟

وبينما هو في هذه الخواطر والعواطف إذا رجل مريض يدخل عليهم، وقد وضع منديله على فكه، وأسفل خده الوارم. فما كاد «مصطفى» يراه، حتى أدرك صفة الطبيب، وقد كفاه الله مئونة السؤال، إنه الآن في عيادة طبيب أسنان، الحمد لله إذ ظهر أنه طبيب أسنان، لقد اطمأن «مصطفى» عليها الآن، وعلى نفسه ... الأسنان؟ كل شخص محتاج إلى العناية بأسنانه، ومن الناس المترفين الدقيقي المزاج من لا ينقطعون عن طبيب الأسنان، يتولى أمر أسنانهم على نحو شبه دائم. وما أسعدها فرصة إذا أتيح له رؤيتها دائمًا في العيادة، لماذا لا يعالج هو أيضًا أسنانه؟ ووضع في الحال أصبعه في فمه يبحث وينقب، عله يعثر على سن أو ضرس محتاج إلى إصلاح، فلم يجد سوى ضرس العقل يؤلمه قليلًا على حسب دعواه الآن كلما أكل أو شرب شيئًا باردًا.

ومر الوقت ولم يبقَ على مجيء دور «مصطفى» لملاقاة الطبيب سوى لحظة … وجاءه «التمرجي» منبهًا بذلك، مصبرًا إياه بقوله إنه سيدخل في الحال عقب خروج السيدة التي في حجرة الطبيب الساعة.

فنهض «مصطفى» للفور واتجه إلى الردهة وألقى نظرة سريعة على مكان «سنية» من حجرة السيدات، فلم يجدها، فأيقن أنها هي التي في حجرة الطبيب الساعة، إلا أن تكون خرجت قبل ذلك ولم يرها، ولم يضطرب «مصطفى»، ولم يحزن لأنه علم أنه سوف يقابلها كثيرًا في هذه العيادة، ولم يلبث أن أتاه «التمرجي» يدعوه إلى الدخول، فاستغرب قليلًا: كيف أنه لم ير أحدًا خرج من عند الطبيب، وسأل في ذلك، فقال له التمرجي: إن لحجرة الطبيب بابًا آخر يؤدي إلى السلم مباشرة.

دخل «مصطفى» أخيرًا، فاستقبله رجل قد وخطه الشيب، يرتدي شبه معطف أبيض من التيل، فعلم أنه الطبيب، فأشار له بالتحية فردها الطبيب سريعًا، وهو يشير إليه بالجلوس على كرسي المعالجة، وحاول «مصطفى» أن يتكلم ليبين له الضرس الذي يشكو منه، ولكن الطبيب لم يمهله، وفتح له فاه وتناول مسبارًا، وأخذ يحفر له جميع أسنانه، وبعد لحظة تركه، واستوى قائلًا لهذا «الزبون» الجديد: إن ما ينبغي علاجه لا يقل عن اثنتي عشرة سِنًّا وضرسًا!

أين وكيف وجد هذه الاثنتي عشرة؟ لا أحد يدري، وعبثًا حاول «مصطفى» أن يقنعه بأن أسنانه كلها سليمة، وأنه يأكل عليها جيدًا جدًّا منذ سنين، وأنه لا يشكو إلا من ضرس العقل فقط، وحتى هذا الضرس لا يشكو منه كثيرًا، ذهب كل هذا الكلام في الهواء، واضطر «مصطفى» أن يذعن أخيرًا لهذا الطبيب، فشمر هذا الأخير عن ساعديه وأدار آلة الحفر والنقر الكهربائية، وجعل يجرب في أسنان «مصطفى» السليمة وغير السليمة، على حد سواء.

وانتهى الطبيب فقاد مريضه إلى مكتبه، وأخذ يكتب له ورقة بمقدم الدفع ومؤخره، ثم بمواعيد الحضور. وهذا ما يهم «مصطفى» قبل كل شيء … مواعيد الحضور؛ إذ ينبغي أن تكون هذه المواعيد متفقة ومواعيد «سنية»؛ وإلا فما الفائدة إذن؟ ولكن كيف العمل، وهو لا يعرف مواعيد «سنية» بالتحقيق والضبط … وهل يستطيع أو يليق أن يقول للطبيب اجعل مواعيدي في نفس الساعة واليوم الذي تأتي فيه تلك السيدة «…»؟

لذلك حار «مصطفى» في الأمر وتردد، وظل الطبيب يعرض عليه أيامًا وساعات، وهو يتذرع بالشغل رفضًا في حيرة وتردد، وأخيرًا خطر له أن يختار الساعة الثالثة، ففي مثل

هذه الساعة جاءت «سنية» اليوم، ثم ذكر أن ميعاد «سنية» القادم ربما كان اليوم التالي بعد الغد؛ إذ لا علاج في يومين متتاليين، فطلب من ساعته إلى الطبيب أن يجعل ميعاده القادم في ذلك اليوم مؤكدًا عليه الساعة الثالثة تمامًا، فتوقف الطبيب لحظة وقلب سجلًّا أمامه، ثم رفع رأسه إلى «مصطفى» وقال له إنه لا يستطيع ذلك بعد غد؛ لأن السيدة التي خرجت الآن قبيل دخوله ستأتي في تلك الساعة من هذا اليوم، لتختم عنده علاجها الذي بدأته منذ شهرين، فإذا شاء «مصطفى» أتى في منتصف الرابعة: أي عقب خروجها، كما حدث اليوم، وله بعد ذلك أن يأتي في الثالثة تمامًا فيحل محل تلك السيدة التي انتهى علاجها.

«انتهى علاجها؟ ... من؟ يا لنكد الطالع! كانت تأتي منذ شهرين؟ أكان هو قد أتى اليوم ليأخذ محلها؟»

ورجف فؤاد «مصطفى»، وبهت لفكرة أنه لن يراها في العيادة، وأن علاجها انتهى أو سينتهي بعد غد، وأنه إنما جاء في آخر وقت، فلم يتمالك أن صاح مبغوتًا: الست الصغيرة اللي مع جاريتها؟

فرفع الطبيب بصره إلى «مصطفى» في دهشة قليلة، ثم أجاب بالإيجاب، وأردف «مصطفى» وكأنه يخاطب نفسه: انتهى علاجها؟ انتهى ازاي؟

فقال الطبيب مصححًا، وهو يبتسم: بعد بكرة آخر يوم في العلاج.

ودفع «مصطفى» المبلغ الذي طلب منه، واستلم ورقة المواعيد وهو لاهٍ واجمٌ ساهِم، وخرج يسائل نفسه كالمجنون. لماذا اتفق؟! ولماذا سيأتي؟! وكيف سيستطيع المجيء ما دامت هي لا تجيء؟! وما فائدة مجيئه؟!

وما كاد يبلغ السلم حتى سمع الطبيب خلفه، على باب حجرة العيادة، يقول له محذرًا إياه ألا يأكل منذ الآن طعامًا ساخنًا ولا باردًا ولا يابسًا، وأن يتوخى الحيطة التامة في المضغ حتى لا تهيج العروق، وأن يجعل غذاءه مقصورًا — إن أمكن — على السوائل، كالحساء واللبن وما إليهما، ولا بأس من لباب الخبز الطري مغموسًا في السوائل.

فاستشاط «مصطفى» غضبًا، ونزل السلم ساخطًا، يقول لنفسه: آدي اللي انا كسبته النهارده، ما نابني إلا كوني هرتمت اسناني.

الفصل التاسع عشر

عاد «مصطفى» إلى مسكنه محزونًا كئيب النفس وهو لا يفتر يتأمل ... كيف أنها كانت تختلف إلى طبيب الأسنان منذ شهرين وهو لا يعلم؟! فلما علم، إذا هي تختتم العلاج وتنقطع عن الذهاب، ليته لم يعلم! إنه دائمًا يعلم بعد فوات الوقت.

والآن ماذا يصنع كي يراها؟ ما كان أحسنها فرصةً أن يلقاها عند طبيب الأسنان، ويرافقها عن كثب في الذهاب والإياب ... أما الآن، وقد امتنعت هذه الوسيلة، فكيف العمل؟ إن بروزها في الشرفة أمر غير مضمون.

بات «مصطفى» وقام وهو على هذه الأفكار، وذكر في يأسه وكآبته أنها ستذهب إلى الطبيب في الغد لآخر مرة، وأنه مهما كان ويكون من أمره فأمامه فرصة رؤيتها هناك غدًا.

اطمأن قليلًا لهذا الخاطر، ولو أن خاطرًا آخر هتف به في الحال: أن ما قيمة رؤيتها مرة واحدة، يتبعها غيبة وفراق لا يعلم مداه؟!

ارتجف «مصطفى» قليلًا، وأحس عاطفة غريبة تتولد في نفسه؛ عاطفة الحرص عند اليأس، ولم يلبث أن وطَّن العزم على القيام بعمل جريء في الغد! إن ميعاد الغد عند الطبيب هو آخر فرصة تعطيها إياه الظروف؛ فينبغي له أن يحرص عليها ... نعم، وأي ظروف أخرى تتيح له القرب منها في مكان واحد؟ ووالله لو ضاع منه الغد لضاعت آماله كلها، فليتشبث بهذا اليوم الأخير، وليضرب ضربة القانط ولا يفكر في النتيجة.

ونهض من ساعته إلى المنضدة، وتناول ورقًا وقلمًا، وجعل يكتب ويكتب، والعرق يتصبب، وكان يُخرج الكلمة أو الجملة وكأن جزءًا منه يخرج معها، ومضى شطر كبير من ليلة الغد الأخيرة، وهو منكب منكفئ على الورق يراجع ما كتب، فيخيل إليه أنه ما أراد أن يكتب ذلك، ولكن أراد غيره وأكثر منه: أشياء في صدره يعرفها ويحسها زاخرة

مصطخبة، ولكن لم يخرج منها شيء على الورق ... وها هو مضطر بعد أن أعياه التعب والمراجعة المتكررة أن يترك ما كتب على علاته، على أنه ما يريد، ووضع المكتوب في غلاف أبيض نظيف، ثم ذهب إلى فراشه، وقد احمرت عيناه من فرط السهر والكتابة وتهيج المشاعر.

نهض «مصطفى» في الصباح، فكان أول ما فعل أن تناول الرسالة الطويلة التي خطها البارحة، فأعاد تلاوتها، ثم لبث برهة متفكرًا مترددًا، وأخيرًا انهال عليها يمزقها قطعًا، وألقى بها في سلة المطبخ.

لقد استيقظ فيه العقل منتعشًا مع الصباح، وبدا له أن العاطفة كادت تضله، لماذا يكتب كل هذا الكلام لهذه الفتاة؟ إن هذه الصفحات إليها صادقة، هذا صحيح ... إنه إنما يطلعها على جزء مما يحسه نحوها، هذا صحيح! ولكن ما لها ولكل ذلك؟ ولعلها لا تلام إذا قالت في نفسها بعد الاطلاع على رسالته: «ما الذي يرومه مني هذا الرجل؟ نعم، ما الذي يرومه بصفحاته المتدفقة عواطف؛ إنها أعجبته، ولا يتصور الحياة بغير صورتها، كما يقول! حسن، فليتزوجها، وبدل رسالة طويلة كهذه، فليذهب إلى والدها أو يوفد أحدًا من قبله إليه، أو إلى والدتها يخطبها ... يوفد من؟ لديه زوجة خاله، تقوم مقام والدته المرحومة «...» ولديه خاله مقام والده المرحوم «...» ثم انتقل فكره من هذا كله إلى حالته المالية وطريقة معيشته بعد الزواج، أيتخذ لها مسكنًا لائقًا في القاهرة بعد، أم يصفي أعماله بالمحلة الكبرى؟ لكن ما الذي يصنعه إذا لم يجد وظيفة في مصر؟ وما مركزه الاجتماعي؟ وهل تراها ترضى به ولا عمل له؟ ولكن لماذا يشغل باله بكل هذا؟ أمثله يعجز عن إيجاد عمل؟ ... المهم الآن هو أن يسلك الطريق المستقيم، ويخطبها إلى أهلها، ولا محل لمكاتبات فارغة، هذا ما أملاه عليه العقل، عقل الساعة العاشرة صباحًا، حيث ضجيج الحياة ونشاط القوى المادية المتجددة يجعل جميع المخلوقات راضخة لتأثير المنطق المادي.»

ولكن ما جاء الظهر، وبدأت حرارة الشمس تتخللها بسمات من نسيم النيل، وهمدت الحركة قليلًا، واستلقى الناس في الظل يطبِقون الجفون نصف إطباق، أمام وهج الضوء الراسم في الهواء أشكالًا متماوجة مرتعشة، وقت يبدأ فيه استيقاظ الخيال، ويتحول كل شيء من جديد تحت سيطرة العاطفة — حتى بدأ يتولد في «مصطفى» شعور ندم على تمزيقه الخطاب، ونظر في ساعته، فوجد أن لم يبقَ غير وقت قصير على ميعاد ذهاب «سنية» إلى الطبيب، وهذه آخر فرصة، وهذا اليوم آخر عهده بملاقاتها هناك، فماذا أعد لهذا الظرف السانح؟ وكيف يتكاسل ويتردد ويخور عزمه في دقيقة هامة كهذه؟

وهكذا عاد إليه المنطق الآخر العاطفي، يسير بمقتضاه بغير أن يشعر، وذهب لفوره إلى المنضدة وتناول ورقًا وقلمًا، ولكنه توقف إذ ذكر ما فعل في الصباح، غير أنه أقنع نفسه بقوله إنه لن يكتب صفحات عديدة كرسالة البارحة؛ بل يُفهمها إحساسه نحوها في كلمتين ... سطرين ... فقط، وكأنه ذكر كذلك حكاية خطبتها إلى أهلها، وأن الرسالة لا فائدة منها، فتردَّد قليلًا، ولكن ما لبث أن شعر بالحاجة إلى كتابة هذه الرسالة لها.

نعم، إنه سيخطبها وسيتزوجها إذا سمحت وشاء الله، ولكن كل هذا لا يمنع أن هذه الرسالة لا بد أن تقرأها، إنه في حاجة ماسة إلى أن يطلعها على ما يحس نحوها، وفي حاجة ماسة إلى معرفة رأيها في ذلك! المسألة ليست فقط مسألة بلوغ غاية مادية من طريق مباشر كما يزعم العقل، بل بجانب هذا توجد مسألة العاطفة والقلب الذي لا يطمئن ولا يهدأ، حتى يعلم هل هناك تبادل في الإحساس والعاطفة أو لا؟ أو بالأقل لا يهدأ ولا يستقر؛ حتى يصرح بما يكنُّه، ويتلقى الجواب عليه؛ «فمصطفى» يشعر بحاجة القلب هذه، وحتى على فرض أن الخطبة تمت والزواج تقرر؛ فإنه ما زال في حاجة هائلة إلى معرفة رأيها فيه. وهكذا اقتنع «مصطفى» كل الاقتناع؛ وكأنه أدرك أن منطق العقل غير منطق القلب، وكلاهما صحيح، وكلاهما ضروري، وانكب على الورقة يكتب بسرعة عدة أسطر، وضعها في الغلاف، ثم نادى خادمه طالبًا الغداء، وأكل في عجلة ثم نزل إلى القهوة متربصًا خروج الفتاة وجاريتها.

ما دقت الساعة الثالثة حتى ظهرت الجارية بالباب، فدق قلب «مصطفى» واستعد للقيام، إلا أن الجارية خطت بمفردها إلى الشارع واستوقفت عربة مارة، ولم تمضِ لحظة حتى خرجت «سنية»، واتجهت إلى العربة، وقبل أن تركب التفتت إلى ناحية القهوة، ونظرت إلى «مصطفى» ثم صعدت، وتبعتها جاريتها، وسارت بهما العربة.

وظل «مصطفى» واقفًا في مكانه مبهوتًا قليلًا، أولًا: لأنه كان يحسبهما ذاهبتين بالترام كالمرة السابقة، ولم يتوقع العربة. ثانيًا: من أثر تلك النظرة؛ ولو لم يكن النقاب يخفي ثغرها، للمح «مصطفي» عليه ابتسامة، ولكن العجيب أنه أدرك هذه الابتسامة من عينيها، إنها ابتسامة غريبة، فيها — لو درى «مصطفى» — معنى السرور والمداعبة والعاطفة العميقة كلها مجتمعة، ولكن لم يدرك منها إلا أنها غدت تحس وجوده وتلحظ اهتمامه بها، وفرح «مصطفى» وغابت العربة عن نظره، ففطن واختلج، وجرى مسرعًا يبحث عن عربة، وهو مضطرب خائف ألا يلحق بها، ولكنه تذكر أنه يعرف إلى أين هي ذاهبة ... فهدأ قليلًا، وركب مع ذلك عربة حتى لا يتأخر كثيرًا، وظل في الطريق يفكر فيها وفي نظرتها وفي ركوبها اليوم العربة.

نعم، لماذا ركبت عربة اليوم، وقد عرفت أنه يتبعها في الترام؟ لعلها نزلت متأخرة اليوم، أو لعلها كانت تذهب دائمًا بعربة، ولم تذهب بالترام إلا أول أمس مصادفة؟ أو لعلها تريد توفير الوقت؟ على كل حال هذه مسألة غير مهمة لا تدعو إلى كل هذا التفكير، ولا غرابة مطلقًا في تصرفها هذا، ماذا في سيدة ركبت عربة؟ أو لا يريدها أن تركب عربة؟ ولم ينقطع عن هذه الأفكار إلا بوصول عربته أمام عمارة الطبيب، فنزل وصعد مسرعًا، وكان أول ما فعل عند دخوله العيادة أن ذهب، وألقى نظرة على مكان «سنية» الذي كانت فيه أول أمس بحجرة السيدات، كأنها لا يمكن أن تغير هذا المكان، فلم يجدها فيه فارتعد، ونظر قانطًا إلى جهة أخرى من الحجرة فألفاها جالسة بجانب جاريتها، وقد نظرت إليه فاحمر خجلًا، واختفى في الحال من عينيها قاصدًا حجرة الرجال، حيث جعل ينتظر مفكرًا كيف يوصل إليها الرسالة؟

وخطرت له أخيرًا فكرة جميلة: هي أن يطلب إلى «التمرجي» أن يستدعي له الجارية المرافقة للسيدة من حجرة السيدات، وعندئذٍ يسلم الرسالة للجارية؛ كي توصلها إلى سيدتها، مفهمًا إياها أنها من الطبيب مثلًا ... ولكن هب «سنية» سألت «التمرجي» عمن يطلب جاريتها، فماذا يجيب؟ ثم ما معنى أن يرسل إليها الطبيب رسالة، وهو عما قليل يراها؟ وإذا أعطى «التمرجي» نفسه الرسالة ليوصلها إلى «سنية» فإنه يثير شبهة الرجل، ويعرض «سنية» ونفسه للقيل والقال، إن هذه الجارية الجاهلة كانت خير رسول، ولكن كيف يستدعيها إليه؟

لم يهتدِ «مصطفى» إلى حلٍّ مرضٍ، وخشي أن يفوت الوقت في هذا التردد والتصميم، ويأتي دور «سنية»، وتدخل هي وجاريتها إلى حجرة الطبيب، وتخرجان بعد ذلك من الباب الآخر فلا يراها، وتفلت الفرصة، فنهض بقوة مصرًّا على تنفيذ الفكرة، غير ناظر إلى ما يحدث، واستدعى «التمرجي» في الردهة، وطلب إليه استدعاء الجارية التي في حجرة السيدات، ولم يقل له أكثر من ذلك. ومضى الممرض من ساعته إلى الجارية، فأشار لها عن بعد أن تأتي إليه، فترددت قليلًا ونظرت إلى سيدتها، فقالت لها سيدتها: قومي يا «دادة بخيتة» شوفي التمرجي عايز إيه؟

فنهضت «بخيتة»، وسارت إليه فسحبها من يدها في صمت حتى أوصلها إلى «مصطفى»، فتنفس الشاب، وأخذها ناحية وأخرج الرسالة من جيبه، وأعطاها إياها قائلًا: سلمي دي لستك حالًا.

ولم يزد على ذلك، وقد أيقن أن قلة الكلام في هذه الظروف خير من كثرته، وتناولت الجارية الرسالة قائلة: هاضر يا سيدي.

ولم يخطر لها أن تسأله ممن؟

وما رآها «مصطفى» تذهب بالرسالة إلى «سنية» حتى اهتز فؤاده ابتهاجًا، وشعر كأنه نال كل ما أراد من هذا المكان، فخرج من العيادة توًّا، وكأنه لا يمشي على قدميه؛ بل تحمله أجنحة خيالية، وسار في «شارع عبد العزيز» ناسيًا أن دوره ينتظره عند طبيب الأسنان.

الفصل العشرون

اشتد حال «محسن» سوءًا، وأجمعت أساتذته بعد عجب طويل على ضياعه المحقق هذا العام، إن لم تنقذه أعجوبة، وشحب لونه وقل كلامه. فأشفق عليه أعمامه، وصاروا يخرجون به إلى النزهة إرغامًا ليروحوا عنه، فكانوا يسيرون بجانبه في صمت، غير مجترئين بعد على مفاتحته في الكلام! ...

ولعل العدوى انتقلت إلى «عبده» فأصبح أمره هو الآخر يشبه أمر «محسن»، وغدا لا يطيق كثرة الكلام حوله، ولا ذكر اسم «سنية» على الخصوص، وقد كانت «زنوبة» إلى عهد غير بعيد، كلما علمت خبرًا وشاهدت أمرًا من نافذتها يتعلق بالجيران بادرت تزفه إلى «الشعب» حال اجتماعه حول مائدة الطعام، ولكن «عبده» حرم عليها ذلك بتاتًا، وأرغمها على السكوت المطلق، بالأقل في حضرتهم، وهكذا غدا البيت كالمقبرة، وغدوا هم كالأشباح ... يدخلون ويخرجون في صمت، وضايق هذا بادئ الأمر «حنفي أفندي» و«مبروك» ... نعم ما ذنب «حنفي»؟! إن كان للآخرين عذر في السكوت، فما عذره هو يقبرونه معهم؟! وحاول أن يتكلم وأن يضاحكهم ويمازحهم، بحجة الترفية عنهم، فلم يجد منهم مصغيًا ولا مستظرفًا، فأجبر على السكوت.

لا ريب كان حزن «محسن» عظيمًا حتى استطاع ترك هذا الأثر فيمن حوله، فما كان يسمع هذا المسكين في الطريق صوت «بيانو» يضرب في أحد البيوت حتى يصفر ويخضر، ويعلو قلبه ويهبط، ويختل توازن مشيته، ويحاول المستحيل؛ ليضبط نفسه، ويخفي ما ألم به فجأة.

أيام مضت ولن تعود! ... كان فيها يسمع صوت البيانو. وهي بجانبه تعلمه التوقيع ممسكة يده بيدها الرقيقة، وكان هو يعلمها الغناء، وهي مصغية ترنو إليه في إعجاب، وهو ينشد:

قدك أمير الأغصان   مـن غـيـر مـكـابـر
وورد خدك سلطان   عــلــى الأزاهــر
الحب كله أشجان   يـا قـلـب حـاذر
الصد ويا الهجران   جـزا الـمـخـاطـر

كان يتمثل للفتى طيف تلك الأيام، فيتوقف وقد غلبته شهقة بكاء، ويقول لنفسه منفجرًا، في عزلة:

الحب كله أشجان   يـا قـلـب حـاذر
الصد ويا الهجران   جـزا الـمـخـاطـر

نعم، هو الذي كان يقول ذلك أمامها باسمًا في تلك الأيام السعيدة التي ذهبت، باسمًا لأنه كان يظن الأغنية أغنية، وأن ما فيها من التحذير والنذير مجرد كلمات ... وأين له العلم بأن كل ما سلف سينقضي بهذه السرعة؟ وأن كل هذا ينتظره؟

يا قلب آدي انت حبيت ورجعت تندم
ورحت تشكي ما لقيت لك حد يرحم

هكذا تقول الأغنية أيضًا.

نعم، «رحت تشتكي ما لقيت ...» ... حتى الشكوى هو محروم منها ... وهل تتدانى هي إلى سماع شكوى الآن؟ كلَّا ... مستحيل! ... أما الشكوى إلى رفاقه؛ فهو يحرم نفسه إياها، قد يكون فيها بعض التخفيف، ولكن ما الفائدة؟

كثيرًا ما يكون «عبده» و«سليم» برفقته، ويحس صلة قلبيهما بقلبه، ويدرك بمشاعره رغبة «سليم» المتأججة في مفاتحته وانتهازه الفرص للكلام في ذلك الموضوع، ولكن «محسن» كان يفضل السكوت، ومع ذلك فقد كانوا إذا لمحوا سيدة ذات ثوب أخضر، أو سمعوا صوت «بيانو»، أو جاء ذكر أسلاك الكهرباء؛ شعروا جميعًا برجفة تسري فيهم، وهذه كانت اللغة الوحيدة التي يتفاهمون بها.

العجيب أن «سليم» انقلب شخصًا آخر، وكأن قلب «محسن» الكبير فيه من النار المقدسة ما يكفي لملء قلب «سليم»، وتكملة الناقص من قلب «عبده» ... إن «سليم» بطبعه لم يكن قديرًا على إحساسات كهذه، وإن ما كان وما بينه وبين «سنية» لا يستلزم كل هذا، ولا شك أنه لو كان وحده في بلد ك «بور سعيد» وحدث ما حدث لما أفرد له هذا الاهتمام، أهي إذن العدوى؟ أم الوهم؟ أم الإلهام؟ أليس أن القلب مصدر قوى هائلة؟ وأن قلبًا واحدًا كبيرًا يكفي لإلهام قلوب شتى؟

هكذا بدأت عواطف «عبده» و«سليم» بالإعجاب والتأثر، وانتهت بالمشاركة والمشاطرة، وأصبحا كلما أوغل «محسن» في الألم، وكلما شاركاه فيه؛ يشعران أنهما ارتفعا عن مرتبتهما الأولى.

ومرت الأيام وإذا تلك الحياة بجوار «محسن»، واقتسام هذا الحزن الجميل يقتل فيهما كل عاطفة شر أو حقد نحو «سنية» أو «مصطفى»، بل أعجب من هذا أن «سنية» قد تغيرت في عين «سليم»، فنسي فيها المرأة المادية، ذات الجسم المغري، والثديين البرتقاليين الواقفين؛ فهو لا يذكر منها الآن إلا اسما معنويًّا، لا يدل إلا على معبود يتألمون كلهم من أجله، ويشاهدون ويرثون لعذاب هذا الصغير المؤثر في سبيله.

نعم، لو أن «محسن» ذكر الآن يوم رأى الفلاحين في الضيعة يكدون ويتألمون، وهم يغنون في سبيل المحصول؛ معبودهم المرتفع أكوامًا أكوامًا، وهم حوله العبيد بمناجلهم وأقدامهم وأجسادهم العارية التي قرحها القر والحر والعمل والظلم ... لقد فكر يومها هو الآخر في معبوده، وخطر له خاطر ارتعد له: «هل يستطيع أن يتألم هو أيضًا في سبيل ذلك المعبود، أو أنه ليس من دم هذا الفلاح؟»

لم يستطع «محسن» مطلقًا وبرغم ما حدث أن ينزع من فكره ذلك الخطاب الذي وصله في العزبة، والذي يحفظه دائمًا، ولم يستطع مطلقًا أن يتصور «سنية» لم تكتبه، ولا تعلم به، ولم تستطع حتى الحقيقة أن تهدم تلك الخيالات والأوهام، التي طالما بناها على ذلك الخطاب، والخيال أحيانًا أقوى من الحقيقة.

لذلك ما انفك «محسن» يُخرج في وحدته ذلك الخطاب ويتلوه، ويمعن فيه، مرددًا تلك الجمل التي توسَّع في تفسيرها، وأسبغ خياله عليها معاني لم تكن لها ... نعم، لقد كان يتذكر قول «زنوبة» إن هذا الخطاب إنما حرره كاتب عمومي أمام محكمة السيدة، ولكنه مع ذلك كان يعز عليه تمزيق هذا الخطاب، وكان يتمسك به وبعباراته المعهودة؛ كأنما الخيال واستمراره أعاره في نظره قوة الحقيقة، أم أن الوهم انقلب عقيدة ... وأنى للحقيقة أن تهزم العقيدة إلا أن يهزم العقل القلب؟

وفي ذات يوم باغت «سليم» «محسن» في سريره، وقد أخرج ذلك الخطاب من غلافه بعناية، وجعل يطالعه كالمعتاد في تأنٍّ خلف ستار «الناموسية» المسدلة، فلم يتمالك «سليم» أن خرج من صمته، وصاح صيحة فرح ملهوفًا: جواب! جواب من عندها!

فرفع «محسن» رأسه مبغوتًا، وحاول إخفاء الخطاب بحركة غريزية، وكان «رئيس الشرف حنفي» مستلقيًا على سريره بقربهما، يستعين بالنوم على تلك الأحزان التي ينال نصيبه فيها بغير مقتضٍ، فلما سمع صيحة الفرح التي لفظها «سليم»، ولم يكن قد سمع صوته منذ زمان أيقن أن ساعة الرحمة والفرج قد آذنت، فنفض عنه اللحاف بسرعة، وهبَّ منتصبًا في فراشه، وصاح بصوت فيه حرارة التحمس: بشروني يا اولاد.

ولم يلبث «سليم» أن ترك الحجرة وذهب يفتش في البيت مناديًا: عبده ... يا عبده ... يا عبده.

وعمت الضجة في البيت، ولو كانت «زنوبة» حاضرة لدهشت لهذا الانقلاب الفجائي في المنزل الصامت، وقد عادت إليه مظاهر الحياة، ولكنها كانت قد خرجت بصحبة «مبروك» لإحدى الزيارات كما تقول، ولعلها ذهبت حقيقة؛ ولكن لتُفشي كامن بغضها الذي لا يفتر، وتشيع ما تختلقه زورًا على غريمتها، أو لعلها كذبت وذهبت هي و«مبروك» للبحث عن سحرة البلد الحاذقين.

كان «عبده» في حجرة الاستقبال أمام لوحة الرسم، يعمل آنًا ليشغل نفسه، يقذف بالقلم في ضيق آنًا آخر ضجرًا ملولًا مستيئسًا من هذه الحالة، فلما سمع نداء «سليم» تغيرت في الحال أساريره، وهرع نحوه يرى الخبر.

ولم يمضِ قليل حتى ألفى «محسن» نفسه بين رفاقه، ينظرون إليه منتظرين، وعلى وجوههم ابتسامة أمل تأثر لها.

لم يستطع أن يسكت عنهم هذه المرة ... وقد فعل به منظر رجائهم وفرحهم، فمد يده تحت الوسادة، وأخرج الخطاب، إلا أنه تردد قليلًا وخجل؛ إذ ذكر أن هذا الخطاب قديم التاريخ، وأنهم لا شك يظنون أنه جديد وسيخيب أملهم، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يلزم خطة الصمت والعزلة عنهم بعد الآن، ولا بد أن يقاسمهم ذلك القليل الذي عنده وبقي له من آثار «سنية»، فمد يده إليهم بالخطاب، فتناوله «سليم»، ونشره تحت أعين «عبده»، ولبثا يطالعان و«محسن» يراقب ما يرتسم على وجهيهما، وأخيرًا ردَّا إليه الخطاب في سكون، وقد خاب أملهما، على نحو وجف له «محسن»، وسمع «عبده» يدمدم قائلًا: دا من عند «زنوبة»؟

ورفع «سليم» رأسه إلى «محسن»، وكأنه يسأله مستغربًا عما حمله على مطالعة خطاب كهذا.

فأجاب الفتى بصوت منخفض، وهو مطرق: هي اللي كتبته.

فسأل «سليم» في رفق، وصوت متأدب خافت: هي مين؟ «سنية»؟

فأشار «محسن» برأسه علامة الإيجاب، وعندئذٍ تناول «سليم» الخطاب مرة ثانية ليعيد قراءته من جديد، وعاد «عبده» إلى المطالعة أيضًا، من فوق كتف «سليم» ... وهنا أخذ «محسن» يشير لهما بأصبعه إلى العبارات المهمة في الخطاب، ويفسرها، ويشرح معانيها الخفية؛ كما فهمها هو، فما لبث «سليم» أن ردد هذه العبارات، وقابل بينها وبين التفسير الذي يزعمه «محسن»، ثم هز رأسه، وقال بصوت خافت يائس: لا، أبدًا، مش قصدها.

فامتقع لون «محسن» المسكين، فغمز «عبده» «سليم» بمرفقه، ثم أسرع قائلًا: قصدها كده تمام، اقرا تاني وانت تفهم.

ثم التفت إلى «محسن»، وقال في لطف: ماقابلتهاش بعد ما رجعت من السفر؟

فأجاب «محسن» للفور: أبدًا.

وهنا تذكر «محسن» أنه حقيقة لم يذهب إليها بعد عودته، ولم يرها قط مع أنها تستحثه، وتنتظر عودته بفارغ الصبر، وها خطابها وعباراتها تنبئ عن مبلغ هذا الانتظار.

وأعطاه هذا الخاطر شيئًا من الأمل والقوة، نعم إنه هو المذنب لأنه لم يذهب إليها توًّا، بل إنه هو الخائن لعهدها، وإنه الذي أساء معاملتها، وازداد فرحه بهذه الفكرة، فانفجر يحدث رفاقه عنها، وعما كان له معها قبل السفر، وعن المنديل الذي كان التقطه، ولكنها منحته إياه، بعد أن مسحت له به دموعه، وها هو ذا المنديل يحفظه للآن، ثم أسرع، فأبرز لهم المنديل الحريري، فتناوله «سليم» بسرعة، ولوح به «لحنفي»، وهو يصيح فرحًا: العاشق للنبي يصلي عليه.

فسأله «الرئيس حنفي» وهو يبحث عن منظاره؛ ليرى ما بيد «سليم»: إيه ده؟

فأجاب سليم، وهو يدني المنديل من عين «حنفي»: منديلها، منديلها، معانا منديلها.

فوقف «الرئيس حنفي» باحترام، وقال في صوت خطير: منديلها! ... الله أكبر.

ثم رفع عينيه إلى السماء، وقبَّل يديه وجهًا وظهرًا، وقال: الحمد لله! نعمة من الله ... بزيادة علينا، احنا عايزين ننهب؟!

وأردف «سليم» باغتباط بعد أن سلَّم المنديل «لعبده» ليتأمل بدوره: وقالت لنا تعالوا ولا رحناش.

فقال «حنفي» للفور صائحًا: احنا المحقوقين.

ثم «كبس» طاقيته حتى أذنيه، ووضع يديه في خاصرته، وجعل هذا «الرئيس شرف» يرقص ويقول مغنيًا: منديلها معانا ... معانا منديلها ... يا سيدي منديلها ... منديلها الحلو ... الحلو ... الحلو.

فانتهره «عبده» الذي خشي أن يقلب «حنفي» الموقف إلى هزل بهذا الهرج، ولكن «الرئيس» في الحقيقة ما كان يقصد هزؤًا، وإنما هو فرح محبوس؛ وكأنما طول الصمت والعبوس في هذا المنزل، واضطراره إلى مجاراة الرفاق زمنًا، وكتم طبيعته المرحة أثَّر فيه، فلما فهم أن الحياة في المنزل رجعت إلى مجاريها انطلق بكل نفسه؛ لذلك لم يسكت عن الضجيج والتهريج، فعاد «عبده» يصيح به: بس بقا من فضلك.

فسكت عن الغناء، ودنا من «عبده» وقال في ابتهاج: قالت لنا تعالوا ولا رحناش.

وعندئذٍ فجأة تقدم «سليم» إلى الجميع، وقد خطرت له فكرة: هس ... سمع ... كلكم، فيه اقتراح.

فالتفت إليه الجميع قائلين في وقت واحد: إيه؟

فقال «سليم» في تؤدة: أنا أقترح أن «محسن» يروح ... رأيكم إيه؟

فأشار الجميع بالموافقة.

وكان «محسن» يشاهد ما جرى أمامه، في ابتسام وسرور داخلي لعبارة «معانا منديلها» و«قالت لنا تعالوا ... إلخ ... إلخ» متأثرًا للفظة «نحن» والتي حلت محل لفظة «أنا» ... مرتاحًا إلى أن ما له خاصة أصبح ملكًا للجميع، وإلى أنه بات يدخل عليهم الرجاء والاغتباط أجمعين، وأحس منذ تلك اللحظة أنه مسئول عن هناء هذا «الشعب»، وأنه يجرؤ الآن على فعل كل شيء من أجلهم، وأنه لن يحرمهم بعد الآن أي شيء مما يخص به نفسه، ورضي أن يذهب لمقابلة «سنية» عله يأتي بنتيجة يفرح بها «الشعب».

الفصل الحادي والعشرون

سمعت «سنية» أذان العصر من مسجد السيدة، وهي في حجرتها منذ الظهر، لم تنم ولم تنقطع عن التفكير في أمر هذا الخطاب الذي تسلمته من جاريتها أمس في عيادة الطبيب، إنها من ساعة أن لمحته في يد «بخيتة» أحست ممن هو، ودقَّ قلبها في الحال، ولكنها تجلدت وتناولته ودسته في صدرها، إلى أن جاء الليل، ودخلت حجرتها، وأغلقت بابها، ففضته وأنفاسها معلقة، وقرأت وصدرها يرتفع وينخفض حتى انتهت، فإذا هي ترفع الخطاب إلى فمها بلا وعي تقبله، وقد نزلت دموعها حتى فمها، ونامت أو لم تنم في ليلتها، لا تدري. إلا أنها كانت في حالة لم تعرفها من قبل، وكان أول ما فعلت في الصباح أن طالعت الرسالة من جديد، وها هي الآن أيضًا منذ الغداء منفردة، وبابها مغلق عليها، والخطاب منشور بين يديها، وهي تتأمل سطوره القليلة التي استطاعت أن تعطيها في يوم وليلة أجمل سعادة عرفتها منذ ولدت.

كان الخطاب في هذا الأسلوب البسيط:

سيدتي …

اعذري جرأتي؛ إني فعلت ذلك مضطرًّا، منذ شهر تقريبًا خرجت مقاليد حياتي من يدي إلى يد أخرى، ولم أصبح وحدي الشخص المالك لزمام شئوني؛ فإذا تجرأت بالكتابة إليك؛ فلأني أريد طبعًا أن أعرف رأي ذلك الشخص الذي يتصرف الآن في أمر هنائي وشقائي، وربما مستقبلي! إني أعلق أهمية على رأيك؛ لأني لا أود أن أكون أنانيًّا، ولأني أحبك إلى درجة أنى أفضل الشقاء على رباط يأباه ميلك.

وتقبلي يا سيدتي احترامي.

المخلص
«مصطفى راجي»
شارع سلامة، رقم ٣٥: الدور الثاني

لا بد أن يكون هذا الرجل مخلصًا فيما يقول؛ لأنها هي أيضًا تحس نفس الإحساس: حياتها لم تعد ملكًا لها وحدها، شخص آخر عندها كذلك أصبح المسيطر على ما في تلك الحياة من ساعات هناء وساعات شقاء … العجيب أن عبارات هذا الخطاب إنما صنعت على قد إحساسها هي … وكأنها جاءت لتعبر عما يخالجها هي … أبعد ذلك دليل على صدق عاطفته؟ أوليس من القلب إلى القلب رسول كما يقولون؟

وجعلت تتمتم في سرور: صحيح، من القلب للقلب رسول.

شيء واحد فقط بعد ذلك ما كان يحيرها: ماذا تصنع؟ وكيف تصنع؟ أتتناول القلم وترد عليه؟ أم أنها برغم ثقتها ويقينها واقتناعها، وبرغم سعادتها وفرحها به؛ لا يصح لها ولا يليق بها كفتاة مخدرة شريفة أن تكاتب رجلًا هو غريب عنها على كل حال!

نظرت إلى الخطاب في يدها مرة أخرى، وراحت تفكر في هذه المسألة التي تشغلها منذ الصباح، ووقع نظرها على عبارة: «إني أعلق أهمية على رأيك»، ثم صعدت بصرها في السطر الذي قبله: إني أريد أن أعرف رأي ذلك الشخص الذي يتصرف الآن في أمر هنائي … إلخ … إلخ.

فأطرقت برهة، ثم تركت الخطاب على المقعد، ونهضت إلى المرآة وألقت عينيها على صورة وجهها المورد إلى حد الاحتقان، من تأثير الخوالج النفسية المطردة والتفكير المستمر، وابتسمت لنفسها ابتسامة المغتبط لأمره، ثم تساءلت بصوت خافت وكأنها تخاطب صورتها بلهجة المقتنع: «مصطفى ينتظر رأيي …! «مصطفى» له الحق يعرف، دا حق من حقوقه»، وانتصر منطق القلب مرة أخرى. ولكن خطر لها خاطر آخر: لو استطاعت أن تكلمه مباشرة؟ أو بالأقل أن تعجل له بابتسامة أو نظرة يكون فيها كل الرد؟ إنه قريب منها جدًّا، أليس يقول إنه يقطن الطابق الثاني من المنزل المجاور؟ إنها هي أيضًا في الطابق الثاني، نعم، ويا لحسن الحظ! إن شرفته المكشوفة الصغيرة تحاذي نافذة حجرتها ولم تفطن إلى ذلك، يا لها من مغفلة!

وتركت المرآة وهرعت إلى نافذتها وفتحتها لتتأكد من قرب شرفته منها … نعم، قريبة جدًّا، بينهما متران، لأن حجرتها تقع في آخر المنزل من الجهة الملاصقة للجار،

يا للفرحة! إذن ليست في حاجة إلى الشرفة الخشبية المقفلة، ولا إلى الذهاب كل ساعة إلى قاعة «البيانو»، فتلفت إليها أنظار والديها ... ما أعماها! كيف لم تعرف حسن موقع نافذتها من قبل؟ صحيح أن الشرفة الخشبية تطل مباشرة على القهوة، ولكن ما لها وللقهوة الآن؟! سوف تشير له من نافذتها كي يخرج إلى شرفته الصغيرة التي لم يبرز فيها مرة واحدة منذ قدومه، عند ذاك تستطيع أن تحادثه، وهي في حجرتها الخاصة في سكون الليل، ومتران بينهما ليسا بالمسافة الكبيرة.

وبينا هي في تلك الخواطر الجميلة إذ دق الباب، فأغلقت النافذة بسرعة، وذهبت ففتحت فإذا جاريتها «بخيتة» تخبرها أن «محسن» الصغير في قاعة «البيانو»، وقد سأل أولًا عن الست الكبيرة، ولكن الست الكبيرة في حجرتها تصلي العصر وملحقاته، فطلب رؤية الست الصغيرة!

دهشت «سنية» قليلًا، وقالت مدمدمة: «محسن»؟

ووقفت مترددة لحظة، ثم رفعت عينيها إلى «بخيتة» كأنما تسألها عن سبب مجيئه، وأخيرًا مشت بخطًا متثاقلة إلى حجرة «البيانو».

كان «محسن» في الحجرة جالسًا على كرسي منفرد، يحسب ألف حساب لظهور «سنية» ويصفر وجهه ويحمر لكل حركة تقترب، ويعلو قلبه ويهبط كلما خطر له أنه عما قليل يراها، وأنه سيحدثها بتلك الأحاديث الخطيرة التي جعل يهيئها في رأسه أيامًا قبل مجيئه اليوم.

وفجأة أحس حفيف ثوب بالباب، فانتفض ناهضًا، وقد شحب لونه، ووقف مرتبكًا، وألجم لسانه، ونظرت «سنية» إليه وهي بالعتبة نظرة استفهام جامدة، لكنها ما لبثت أن تقدمت نحوه؛ وكأنما أخذتها شفقة بمنظره، فمدت يدها له، وقالت متلطفة: ازيك يا «محسن».

فأجاب وهو يبلع ريقه مطرقًا: الله يسلمك.

ثم سكت، وسكتت هي أيضًا طبعًا، وكانت لا تزال مستغربة قدومه منتظرة معرفة السبب، وطال السكوت؛ وكأنها أدركت أخيرًا أن لا فائدة من انتظار بدئه بالكلام، فبدأت هي قائلة: بلغتك أعمال عمتك؟

وكان «محسن» توقع هذا السؤال من قبل وجهز له الإجابة، فما عليه الآن إلا أن يتكلم، ففتح فاه، ولفظ أولًا بضع عبارات مرتجفة مضطربة قائلًا إنه وجميع المنزل غاضب على عمته «زنوبة» لسلوكها هذا المسلك معها؛ غير أنه هو ما ذنبه؟! ولماذا تأخذه

«سنية» بذنب عمته «زنوبة»؟ فأجابت «سنية» للفور: ومين قال لك يا «محسن» إني زعلانة منك؟!

جاء هذا الجواب مهدئًا لروع «محسن»، فاطمأن قليلًا، وذهب خجله وخوفه بعض الشيء، وكأنما فسر جوابها هذا تفسيرًا أوسع من حقيقته، وفهم منه ما جعله يفرح، ويقول في صوت مرتجف قليلًا: صحيح مش زعلانة مني؟ أنا دايمًا عندك زي زمان؟ زي يوم قبل السفر؟

فقالت «سنية» وقد بدا عليها شيء من القلق: طبعًا، وانت ذنبك إيه؟

ولكن «محسن» لم يلتفت إلى ردها، واندفع يخبرها في حرارة صبيانية عن سفره، وعن انتظاره خطابها، وعن عودته، وعن رغبته في رؤيتها، وعن ذلك الخوف الذي كان يمنعه، من زيارتها، عقب رجوعه مباشرة، وتلك الفكرة المشئومة التي كانت مستحوذة عليه من أنها قد نسيته كل النسيان، وأنها لا تود رؤيته قط، وعن تلك الأيام السوداء التي قضاها بعيدًا عنها ... كل ذلك دون أن يجرؤ على ذكر «مصطفى» ودوره فيما حدث. وكانت «سنية» تستمع إليه شاردة الفكر، وكثيرًا ما كانت تطرق كلما تحدث «محسن» عن ألمه من البعد عنها. ثم حدثها عن منديلها الذي كان سلوته ورفيقه، ووضع يده على جيبه، وهنا أحس رزمة من الورق هي أشعار ورسائل نثرية، كان قد نظمها وكتبها طول تلك الأيام التي تلت يوم فكر هو وأعمامه في الذهاب إلى «سنية». منذ ذلك اليوم حتى هذه الزيارة، وهو هائم شارد في الحدائق والمتنزهات العمومية، وعلى ضفاف النيل، وقد امتزج يأسه بقليل من الأمل اللذيذ. و«محسن» بطبيعته الشاعرية قد سبق له نظم الأشعار والأزجال والمقطوعات الغنائية في ظروف مختلفة، فكيف بهذا الظرف الذي ملك كل كيانه؟ واليوم قبيل مجيئه خطر له أن يقدم لها كل ما كتبه فيها، حتى تعلم كل ما يحويه قلبه.

وانتهى الفتى من كلامه، وقد احمر وجهه، وجفَّ لعابه ونظر إليها منتظرًا ما تقول، ولكنها لم تستطع أو لم تجد شيئًا تقوله، وسكتت قليلًا حائرة، ثم نهضت في ضيق، وقالت: لا يا «محسن»، أنا مش زعلانة منك أبدًا.

كان هذا هو الجواب الوحيد الذي له عندها على كل ما قال.

بهت «محسن» قليلًا، ولكنه ظل ساكنًا منتظرًا في أمل أن تستمر في الكلام بعد ذلك.

ولكنها لم تتكلم، وعادت فجلست لحظة ثم تململت والتفتت إلى «محسن» المطرق المنتظر، ونهضت نصف نهوض كأنما تدعوه إلى الانصراف وقالت: أنا متشكرة على كل حال يا «محسن»، وتأكد إني مش زعلانة منك أبدًا.

هنا أحس «محسن» خيبة الأمل، وفُتحت عيناه أمام الحقيقة المخيفة، ولكنه ككل يائس أغمض عينيه على عجل، وتشبث بالمحال، وقال بصوت المتوسل: فاكرة دروس «البيانو؟».

فتحركت في مجلسها، وقالت في فتور: طبعًا فاكراها.

لكن أنا نسيت دروسي، ومحتاج لك تعيدي معايا كل اللي فات.

فأطرقت «سنية» ولم تحر جوابًا، ثم تمثل لها «مصطفى» ووقتها المشغول، وحياتها التي لا تستطيع أن تنفق منها دقيقة لغير «مصطفى» وذكره، فتحرك فيها الغضب، وقالت ببرود: أنا ماعنديش وقت.

فتجلد «محسن» أيضًا وقال في رجاء: مش عايزاني آجي؟

فلم تُجِب في الحال، ولكنها عادت، فقالت: أنا يا «محسن» عندي شغل كتير دلوقت.

فوهن جلد «محسن» وتصبب العرق من جسمه وأظلمت الدنيا في عينيه، ولكنه قال بصوت اليائس: يعني دي آخر مرة آجي فيها؟ دي آخر مرة اشوفك؟

ولم يملك ضبط نفسه، فتساقطت دموعه، وأجهش باكيًا، ولمحته «سنية»، وسمعت صوت نشيجه، فحولت رأسها عنه كالمتجاهلة، ولكنها رأت أن صوته قد أخذ يعلو، فنهضت واقفة، وترددت قليلًا، ثم التفتت إليه، وقالت في صوت متبرم جاف: جرى لك إيه يا «محسن»؟ انت صغير تعيط؟ انت مش صغير على العياط.

ولكن «محسن» لم يتمكن من كبح نفسه، وظل ينشج ويشهق ويتوسل بكلام متقطع، ويؤكد لها أنه إنما يطلب رؤيتها فقط. نعم، إنه أصبح لا يطمع إلا في القرب منها، لأنه يعيش على القرب، فلتحب «مصطفى» أو غيره؛ فإنه هو لا يحول ولن يحول بينها وبين سعادتها، بل إن سعادتها سعادته، فقط لا تحرمه رؤيتها ... وهل هذا شيء كثير أن تسمح له بذلك، بتلك الرؤية التي لا تكلفها شيئًا، وهي له كل حياته.

وهكذا ظل فمه ينطلق في قنوط، وعن نصف وعي بذلك الكلام الممزوج بالدموع، ورأت «سنية» أن لا حيلة في إسكاته وإيقافه، فتركته يتكلم ويهذي، وذهبت هي إلى الشرفة الخشبية، وفتحت نافذتها وأخذت تنظر منها غير سامعة كلمة واحدة مما يقول.

وتعب «محسن» قليلًا فسكت، ورفع رأسه فألفى تلك التي كان يحسبها على الأقل تنصت له، ألفاها تتراجع من النافذة حمراء الوجه، وقد ابتسمت ابتسامة ساحرة يعلم لمن طبعًا؟

عندئذٍ أدرك «محسن» أن المرأة التي أمامه ليست «سنية»، وأغلقت «سنية» النافذة، وعادت وصدرها يضطرب ابتهاجًا، فما رأت «محسن» في وجهها مبتل العينين حتى تجهمت وقالت متبرمة: إنت لسه هنا بتعيط؟ كنت جاي علشان كده؟

فوقف «محسن» وأحس أن انصرافه ضروري، وأن قد انتهى الأمر.

وتقدمت نحوه، وقالت بلهجة هادئة: مروح بيتكم؟

فجمع كل قوة جلده؛ ليستطيع أن يهدئ أعصابه، ويقول: أيوه مروح.

ولكنه ظل واقفًا كالتمثال لا يتحرك.

وكأن «سنية» خافت أن يعود فيتكلم ويبكي بحجة الوداع، فابتعدت عنه فجأة، ومشت ببطء؛ كأنما تقوده إلى الباب، ولكنها كانت تقود شخصًا وهميًّا؛ لأنه لم يتحرك من مكانه.

وبلغت العتبة ووقفت كالمنتظرة، وصحا «محسن» لنفسه ولموقفه فرأى أنها تدعوه ضمنًا؛ بل وشبه صراحة إلى الرحيل، ورأى وقفتها المنتظرة في تبرم ظاهر، أو بالأقل هي وقفة استحثاث واستعجال؛ فماذا ينتظر هو إذن؟ وما الذي يبقيه ويوقفه عن الانصراف من وجهها في الحال كما تريد هي؟ إن الحقيقة التي كان يحسها ويكتمها ويغالط نفسه ويعمي بصره حتى لا يعرفها قد بدت له الآن — على نحو لا يستطيع كتمه ولا تخطئته — واضحة عارية، إنها ليست فقط لا تحبه، بل إنها ما أحبته قط يومًا، ولئن تلطفت معه في الماضي إلى حدٍّ غرَّه وخدعه فلأنها كانت خالية القلب ميالة بطبعها — ككل فتاة — إلى المداعبة والمضاحكة، أما وقد شغلها الحب، فما أسرع نسيانها عهد الخلو الماضي! والمرأة إذا أحبت حسبت حياتها ابتدأت من تاريخ الحب، ونسيت ما قبل هذا التاريخ.

ولكن «محسن» لم يكن في السن التي يعلم فيها كل هذا عن المرأة، هذه بالذات كانت أولى تجاريبه، ومع إحساسه التام في تلك اللحظة بأن كل شيء انتهى، وأن اسم «سنية» يجب أن يمحى من ذاكرته إلى الأبد، فإنه ظل واقفًا لا يدري ماذا ينتظر، كما ظلت هي بالباب وقد بدا عليها التعب من الوقوف، ولم تشأ أن تفتح فمها بالكلام لئلا ينفتح موضوع جديد. إنها محتاجة للانفراد في حجرتها تتأمل خطاب «مصطفى»، ولسوء حظ «محسن» أنه جاءها في يوم هو أسعد أيامها، يوم ليس في عقلها ولا في كيانها محلٌّ لشخص ولا لشيء آخر سوى «مصطفى». يوم كهذا عند المرأة؛ عند المرأة الرقيقة، بل عند النبيَّة والقديسة، يصيرها قاسية غليظة الكبد إذا رأت ما يمس تلك السعادة. المرأة السعيدة المحبة أنانية إلى حد الوحشية.

أخيرًا رآها «محسن» وقد أسندت يدها إلى الباب، وبدَّلت رجلها لتستريح، فعلم أنه يضايقها بوقوفه ووجوده، فمشى إلى الباب ثم مد يده إليها في سكون، ثم دس يده في جيبه وأخرج منديلها الحريري فأعطاه إياها ورده إليها في صمت، فأخذته بغير كلام هي الأخرى، ثم قالت له في هدوء: متشكرة على الزيارة، وبالنيابة عن «ماما» أقول لك إنها متشكرة كمان قوي.

وتردد «محسن» قليلًا قبل الانصراف، وأخيرًا لا يدري لماذا، ولأية مناسبة أخرج من جيبه رزمة الشعر والنثر وأعطاها «سنية»، فأخذتها في دهشة، وهو يذهب بسرعة وينزل السلم على عجل، ولا يعلم إلا الله وحده سر قلب هذا الفتى في تلك الساعة.

الفصل الثاني والعشرون

لم يمضِ وقت طويل حتى انقلب حال شرفة «مصطفى» الصغيرة وبدت عليها مظاهر حياة أخرى، فبعد أن كانت مغلقة ليل نهار مهملة، تتراكم على أرضها وحاجزها الأتربة لا يذكر وجودها هو لقلة مكثه بالدار، ولا يشملها خادمه بنظرة لانصرافه إلى شئون أخرى؛ غدت الآن محل الاهتمام الأول، مفتوحة ليل نهار، وقد اصطفَّت فيها أصص الأزهار والرياحين وأصبح «مصطفى» ينفق فيها من وقته ما كان ينفقه بالقهوة.

منذ هذا التغير و«مصطفى» سعيد برؤية «سنية»، قلما يمر يوم لا يشاهدها فيه ولا يحادثها، ولكن أي سحر تسلط عليه ولن ينساه أبدًا، يوم سمع صوتها لأول مرة ترد عليه تحيته، مبتسمة من نافذتها في جوف الليل، ثم تلك الأحاديث المقتضبة اللذيذة في الأيام التالية! إنه ما كان يعلم أن هذه الفتاة على هذه الدرجة من الذكاء ... ما ألذ حديثها، وأحسن ردودها، وأظرف إيماءاتها! لقد أيقن «مصطفى» أنه استكشف فيها بعد محادثتها مواطن جمال أخرى، تضاف إلى جمال الهيئة والجسد: أجمال روح؟ ... لا يدري! إنه فقط يعلم أنه بات يحبها ألف مرة، أشد من ذي قبل، ولا يطيق يومًا يمر دون أن يسمع صوتها؛ لذلك هو ينتظر الليل بفروغ صبر، يسترهما الظلام عن أنظار المارة.

ولكن، إذا كانت عيون المحبين ساهرة فإن عين «العذول» لا تنام؛ فما أسرع ما استكشفت «زنوبة» ما جدَّ في شرفة «مصطفى»! وهذا متيسر لها؛ فإن إحدى نوافذ حجرة الاستقبال تقع في أعلى شرفة «مصطفى»، تمامًا، وتطل عليها مباشرة، فما كان على «زنوبة» إلا أن تنظر منها إلى تحت فترى وتسمع كل ما يدور.

لذلك مضى عليها أيام وهي تغافل الجميع، وتدخل حجرة الاستقبال ليلًا وتظل ملازمة لها حتى تنتهي المحادثة تحتها؛ وكأنما لم تحتمل طويلًا كتمان ما ترى فما لبثت أن أسرَّت ذلك إلى «مبروك»، وأشركته معها في المشاهدة والمراقبة؛ لأنه الوحيد الذي لن

يستطيع معارضتها، والذي يتقبل دعوتها وشركتها بغير مناقشة ولا شجار؛ لا سيما وقد بدت أخيرًا على الآخرين وفي مقدمتهم الصغير «محسن» أعراض هدوء غريبة ومخيفة. نعم، تخيفها، لا تدري؟ وتشعر معها بأنه مستحيل أن تفاتحهم في هذا الأمر.

وهكذا كلما جاء الموعد غمزت «مبروك» وذهبا إلى مركزيهما من النافذة، وأخذا يتتبعان ... و«زنوبة» تهمس في أذن الخادم، بين فترة وأخرى، وهي تشير إلى ما يجري من حديث: سامع يا «مبروك»؟

فيهز لها رأسه وينظر كمُشاهد سينما، لا يريد أن يقاطعه أحد، ولكن في كل آونة تغمزه «زنوبة» وتلكمه في كتفه قائلة في غيظ: شايف المسخوطة؟

وأخيرًا اشتد هياج «زنوبة» وثارت عاطفة الشر عند المرأة الغيرى، فأبت إلا أن تعكر صفوهما بأي طريقة، وقالت «لمبروك» أن يذهب ويأتي «بالزعفة» والمكنسة وأن يتظاهر بتنظيف النافذة كي يتساقط على «مصطفى» التراب والغبار. فأجابها الخادم مستنكرًا: حد ينفض الشبابيك بالليل؟

فصاحت به: أهو احنا كده، حد شريكنا؟!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل امتد إلى قذف الأقذار والأوراق وقشور الفاكهة والخضر من نافذة حجرة الاستقبال خصوصًا لتسقط على شرفة «مصطفى» ... وتختار «زنوبة» وقت الليل أولًا، لأنه وقت الميعاد، وثانيًا كي تحتج إذا عارض أحد بأنها إنما تقذف هذه الأشياء إلى الطريق ليلًا وهو خالٍ، حتى يكسحها الكناس في الصباح.

لذلك ما كانت تنتهي من الطعام حتى تذكر «زنوبة» قائلة: خليك فاكر، اجمع قشر الخيار.

فيجيبها الخادم غامزًا بعينه: واخد بالي؛ علشان نرميه للبط؟

ولكن هذا كله ما كان طبعًا ليحول دون خروج «مصطفى» إلى الشرفة؛ غير أن ما كان يغيظه هو أنه لم يكن ليستطيع الاعتراض ... لقد منعته «سنية» منعًا باتًّا أن ينبس بكلمة؛ فلقد فهمت «سنية» هذا التحرش، ورأت الأصوب الصمت والتظاهر بعدم الالتفات؛ فهي تعرف أن «زنوبة» لا تُغلب في مضمار الشجار، وأنها لا شك تود فتح بابه بأي ثمن، فلماذا التعرض لها وللسانها البذيء؟! ... إذن ... الاحتمال والسكوت المطلق عنها.

نعم أدركت «سنية» منذ البداية أن هذه أعمال «زنوبة» وحدها؛ فليس من إخوتها وأقاربها من يفكر في عمل كهذا، حتى «محسن» الذي قست عليه «سنية» وأساءت معاملته، وأخرجته شبه مطرود في ذلك اليوم لا يستطيع برغم هذا أن يفعل ذلك.

من الغريب أن هذا الخاطر ذكَّر «سنية» في لحظة «بمحسن» وبرزمته التي سلمها إياها قبيل رحيله، وألقت بها في غرفتها لا تدري أين؟ ودعاها ذلك إلى القيام للبحث عنها وقراءتها، وقد مضى عليها زمن وهي منسية مهملة.

فتحتها فتساقطت منها أوراق الشعر والنثر، فجعلت تطالع وتصادف اسمها مقرونًا بصفات الحب والعبادة، مرفوعًا في مخيلة هذا التلميذ الشاعر، وفي قلب هذا الصبي الصغير إلى مراتب الآلهة ثم قرأت قطعًا كالمذكرات يبثها فيها آلامه ... استغربت «سنية» كيف استطاعت أن تجازيه على ذلك بهذه المعاملة الوحشية؟ وذكرت بكاءه أمامها وانصرافها عنه وقتئذٍ إلى التفكير في حبها هي، ثم كيف أنها دعته إلى الانصراف على نحو مذلٍّ؛ أهي تفعل كل هذا؟! هي التي على الأقل تعرف اللياقة؟! أهكذا المرأة إذا أحبت تنسى حتى اللياقة؟! ... نعم إنها ظلمت هذا الفتى، هي لا تنكر ذلك، وتود لو تستطيع إصلاح ما حدث، لو تستطيع أن تخفف عنه؟ إن ضميرها يؤنبها، وتحس بوقر هذا الإجحاف، ولكن كيف؟ إنها امرأة تحب، وإنها لا تستطيع أن تتصرف في جزء صغير من قلبها، ولا من فكرها لشخص آخر غير ...

هنا تزايل الظلم والمظلوم، ولم يبقَ «لمحسن» ولا لشعره ونثره أثر في نفسها، وقامت لساعتها إلى المرآة ثم نظرت إلى السماء، ثم إلى المنبه الصغير فوق منضدة السرير لترى ما بقي من الوقت على الليل.

برز القمر مستديرًا في ليلة التمام، ودقت الساعة العاشرة، ونام أهل المنزل، وسكنت الحركة، فنهضت «سنية» من مقعدها الطويل، وارتدت في الظلام فوق قميصها الحرير «روب دي شامبر» من الموسلين الوردي، ورتبت بكفيها شعرها الجميل على عجل، ثم ذهبت إلى النافذة ففتحتها، فتدفق في وجهها نور القمر، فبغتت وتراجعت إلى قلب الحجرة مسرعة، ولكنها لم تلبث أن ابتسمت إذ رأت أنه نور الكوكب الفضي يضيء أرجاء الحجرة المظلمة ... وعادت فتقدمت بغير خوف إلى النافذة فإذا «مصطفى» يضحك؛ كأنما رأى وفهم سر ذعرها اللذيذ ... كان الشاب يرتدي «بيجاما» ياقوتية اللون، موشاة بشرائط ذهبية، تلمع في الضوء؛ كما كان يلمع شعره الكستني المتموج ... كان كل ما فيه تلك الليلة الجميلة يدل على الثراء والجمال، وكانت هي صامتة ومبتسمة، تتأمل القمر في استدارته يطل عليهما من سماء «شارع سلامة» الهادئ تلك الساعة، فيعتريها فرح داخلي فتضحك ضحكة رقيقة يبدو من خلالها ماس أسنانها يبرق في شعاع القمر؛ وكأنما بهرها النور أخيرًا، فإذا هي ترفع يديها، وتفرك عينيها جذلة ... و«مصطفى» يرنو إليها، مسندًا

ذراعيه إلى حاجز الشرفة، وكأن قلبه فاض فجأة! فمد عينيه إليها، وقال بلهجة التأنيب تلطفها نبرة حب متهدجة: إنتي اتأخرتي الليلة نص ساعة.

فأجابت مبتسمة: صحيح!

– إيه بقا السبب؟

فنظرت إليه بخبث، ثم قالت ضاحكة: السبب؟ ... عايزة اقطع عليك مناجاة القمر.

فقال لها على الفور: أي قمر؟

ثم أشار بأصبعه إلى نافذتها التي هي فيها، وقال: القمر الوحيد اللي اعرفه يطلع من الشباك ده.

فضحكت، وهي مطرقة في شبه حياء، وأرادت أن تقول شيئًا فأسرعت على نحو فجائي محسوس تقول: «مصطفى»، الليلة حر قوي!

فلم يجبها «مصطفى»؛ كأنما أمعضه هروبها بالحديث إلى ناحية أخرى لا معنى لها، غير أن هذه الجملة من «سنية» ككل جملها، لها كل القيمة عنده، وجعل «مصطفى» ينظر إلى الليل حوله ... نعم كان الهواء ساكنًا، كأنه يكتم أنفاسه كي لا يعكر عليهما الهدوء ... وذكر «مصطفى» أنهما الآن في أوائل «شهر مارس»، فقال وهو يستقبل بوجهه النور العائم الراقص في هذا الجو الراكد: ابتدا الربيع!

وهنا تنفس الهواء قليلًا، فهب نسيم رقيق داعب شعر «سنية» البديع، وبعثر خصلة منه على صدغها، وفوق جزء من إحدى عينيها، فرمقها «مصطفى» وهو يتقطع غرامًا، ويود لو يلثم تلك الخصلة على تلك العين، وباغتت «سنية» منه تلك النظرة الطويلة، فارتجفت، وخفضت بصرها في لذة داخلية، ثم عادت في شيء من الارتباك، فرفعت رأسها وأصلحت ترتيب شعرها الذي بعثره النسيم، ونظرت إلى السماء، وقالت ضاحكة في دلال ورقة: في الربيع — على رأي الروايات — تمطر السما بدل الميه والثلج ورد وأزهار.

ولم تكد «سنية» تتم جملتها حتى سقط على رأس «مصطفى» من السماء قشر كرنب وخيار.

فرفع رأسه إلى فوق وهو يصيح: أهي مطرت، وبدل الورد والأزهار، قشر كرنب وخيار!

ولم تتمالك «سنية» أن أدارت وجهها، وانفجرت ضاحكة ... وأراد «مصطفى» أن يتوجه بالكلام إلى النافذة التي فوقه والتي سقط منها الكرنب، لكنه ذكر تنبيه «سنية» ومنعها إياه، فالتفت إليها، وأشار لها بيده سائلًا: أسكت كمان المرة دي؟

فأجابته «سنية» مشيرة بأصبعها وعلى فمها علامة الصمت.

فتمتم «مصطفى»، قائلًا: أمرك.

ولكن خطرت له فكرة فجائية، فأشار إلى «سنية» بالانتظار قليلًا في مكانها، ثم دخل وغاب لحظة، ثم عاد حاملًا مظلة في يده، فتحها ووضعها فوق رأسه يتقي بها …

فما رأت «سنية» ذلك حتى أغرقت في الضحك، وهي تحاول ألا يرتفع صوتها.

في هذه اللحظة أيضًا غمزت «زنوبة» «مبروك» المتعب المتثائب من الوقوف والسهر والمراقبة، ولفتت نظره إلى مظلة «مصطفى» هامسة: شوف يا «مبروك»، شوف المضروب طالع لنا بتقليعة جديدة.

فنظر «مبروك»، وحملق إلى المظلة، ثم قال: دي بلا قافية عاملة زي الشمسية.

– ما هي شمسية … جاتك خيبة، أمال هي إيه؟

فنظر «مبروك» إلى القمر الوهاج، ثم قال: لازم خايف تصيبه ضربة شمس.

فصاحت به «زنوبة» في همس: جاتك نيلة، دا القمر.

فقال «مبروك»: زي بعضه، دي حتى من غير مؤاخذة ضربة القمر أقوى.

فقالت «زنوبة» بقلب خافق، وهي ممسكة بقشرة قلقاس كبيرة، ستضرب بها رأس «مصطفى»: ضربة أنهي قمر يا «مبروك»؟

قالت ذلك بصوت متغير خافت، التفت له «مبروك» في الحال، ونظر إليها وإلى القشرة التي بيدها، وفهم ما تريد بجملتها هذه. فقال في نفسه: يا حفيظ!

فألحت عليه «زنوبة» وهي تهم بالضربة: ضربة أنهي قمر؟

فأجاب «مبروك» في الحال كالمتملق: القمر أبو قلقاس.

فضحكت «زنوبة» متكلفة الرقة، وقد أعجبها قول «مبروك» وصدقته، وقالت متلطفة ممازحة: آه يا كدَّاب.

وقذفت بقشرة القلقاس على مظلة «مصطفى»، وهي تقول: هو ده بيحس بضربة حد؟

ثم دست يدها في «صفيحة الزبالة» بجانبها، وغمزت «مبروك» وهمست: إياك يا «مبروك» تهمد والا تنام، الصفيحة لسه مليانة.

فأجابها الخادم: هدي خاطرك انتي وروقي بالك وروحي نامي … ألا بلا قافية ما تروحي انتي تنامي.

فنظرت إليه «زنوبة» نظرة شك وارتياب، وقالت: يعني اتكل على الله وعليك، واروح انا؟

فأجاب «مبروك» على الفور: قوي ... قوي، حطي في بطنك «قشرة» بطيخة صيفي، أنا وشرفك ما اتحرك من هنا إلا بعد ما افرغ صفيحة الزبالة بحالها على راسهم.

فمشت «زنوبة» وقد أنهكها التعب والوقوف هي أيضًا، ولكنها التفتت إليه قبل أن تبرح الحجرة، وقالت منبهة: أظنك رايح تدلقها مرة واحدة وتمشي، قشرة قشرة زي ما علمتك، فاهم؟

– حاضر، على راسي، قشرة قشرة. روحي انتي بقا من غير مطرود!

وترددت «زنوبة» ووقفت غير مؤمنة «بمبروك»، وقالت في نفسها من يضمن لها تنفيذ المهمة على ما يرام. إنها تريد أن يقطع عليهما الحديث بهذا الرذاذ «الكرنبي» حتى ينتهيا دائمًا إلى لا شيء ولا يتم بينهما كلام أو اتفاق.

فعادت أدراجها إلى «مبروك» تكلمه في ذلك، فضاق الخادم بها ذرعًا، وصاح بها: ودي شغلة إيه دي؟ مش لك عليَّ من غير مؤاخذة أفركش لك شملهم الليلة؟ وحياتك عندي لاخليها عليهم آخر ليلة في دي البلكون. روحي نامي بس!

فاطمأنت «زنوبة» قليلًا للهجة «مبروك» القوية، ورددت مستبشرة: آخر ليلة لهم، طب أما اشوف شطارتك، والنبي دا يبقى لك عندي الحلاوة.

وسارت إلى الباب في بطء وتمهل، و«مبروك» ينظر إليها مستحثًّا ويقول: أيوه كده زقي عجلك.

وخرجت «زنوبة» أخيرًا من الحجرة، وتركت «مبروك» يتنفس الصُّعَداء، ويقول ناظرًا إلى حيث ذهبت: إن شا الله تنقرضي، يعني يا ربي مش حرام عليكي كل ده؟

ونظر من النافذة تحت — في احتراس وتأمل — هذين المتحابين الجميلين، وتحرك فيه إحساس الإنسان إذ يرى حمامتين أو عصفورين جميلين، ذكرًا وأنثى يتناجيان؛ ولعله الإحساس بالجمال، إحساس التناسق.

لا شك أن هذا الإحساس هو الذي جعل «مبروك» يقول، وهو ينظر إليهما، وضوء القمر الجميل يظلهما بجناحه: وحياة النبي حلوين، الله يهنيهم ببعض.

ثم ترك الحجرة حاملًا صفيحة الزبالة، ومشى على أطراف قدميه، حتى وصل إلى نافذة المرحاض التي تطل على حارة صغيرة خلف المنزل، فألقى ما بها من قشر، ثم ذهب إلى فراشه، فوق مائدة الطعام في هدوء، وهو يقول لنفسه: هو كان الجدع انعمى لما يبص بلا قافية، لوش الحصان «زنوبة»، اللي ما هي عاجباني انا يا فقير.

وهكذا انقطع المطر عن «مصطفى»، غير أن هذا لم يمنعه من القلق، ومن نشر المظلة فوق رأسه، وأنى له أن يدري أن لا محل للخوف منذ الآن؟

ورأت «سنية» قلقه، فقالت له في لهجة جد أزعجته وأغضبته: أحسن طريقة انك تعزل من البيت ده.

ولكنه اكتفى بأن رمقها بنظرة حزن وغضب وتقريع.

غير أنها تجاهلت، وقالت في خبث: إلا إذا كانت أجرته رخيصة.

فثار «مصطفى»، وقال منفعلًا: أجرته؟

فقالت في هدوء وابتسام ومكر: طيب ماتزعلش، بلاش أجرته ... قريب لشغلك.

فلم يُجِب «مصطفى»، وأطرق قليلًا، ثم رفع رأسه وقال: بالعكس.

فقالت متظاهرة باستغراب: بعيد عن شغلك؟

فقال «مصطفى» على الفور: جدًّا، جدًّا، جدًّا!

فقالت «سنية» في الحال: وليه تسكن بعيد عن شغلك؟

فأجاب «مصطفى» فورًا، وفي شبه احتجاج: عايزاني أسكن في المحلة؟ ... مستحيل.

– المحلة؟

– أيوه المحلة، المحلة الكبرى.

شغلك في المحلة الكبرى وساكن هنا؟ انت صنعتك إيه؟

– صنعتي؟ ... صنعتي؟

– إذا كنت مكسوف تقول، بلاش.

– أبويا صاحب محل «مانيفاتورة راجي» بالمحلة الكبرى.

– وانت؟

– أنا؟

– «صاحب كيف» تقعد على «قهوة شحاتة»؟!

قالت ذلك متخابثة ومتقاسية، وهي تخفي فمها بكمها الحريري الواسع؛ حتى تخفي ابتسامتها. وصمت «مصطفى» قليلًا مبغوتًا، ونظر إليها ... إلى عينيها السوداوين الظاهرتين فوق كمها ... وحسب لأول وهلة أنها تهزأ به، فغلى دمه وانفجر يحدثها بكل تاريخه، وبكل شئونه في صدق وإخلاص، فأعلمها برغبته في تصفية المحل أو بيعه للخواجة «كازولي»، وعن ميله إلى الالتحاق بوظيفة في إحدى مصالح الحكومة حتى يظل في «القاهرة»، وأنه لم يقدم على خطبتها من أهلها حتى الآن لأنه لم ينفذ خطته بعد، وأنه متى حصل على الوظيفة، وأقام في مصر، فأول ما يفعل أن يبحث عن منزل آخر لائق في حي حديث، ويبعث امرأة خاله تاجر القطن، تخطب «سنية» إلى أمها؟

أصغت «سنية» إلى كلامه الطويل، ولم تكن تجهل أغلبه ... إنها بذكائها قد أدركت من قبل، ولكنها أرادت أن تعلم من فمه حقيقة أمره، فاحتالت حتى استدرجته على هذا النحو.

وعندما أتم كلامه وصمت مطرقًا أخفت «سنية» رأسها بين ذراعيها وأفرغت كل ما في نفسها من ضحك وسرور، ثم رفعت رأسها متظاهرة بالتجهم والغضب، وقالت: كل اللي فهمته منك دلوقت، إنك وارث، زي الوارثين العاطلين، اللي بنقرا عنهم في الكتب.

فالتفت إليها مأخوذًا.

وابتعدت «سنية» قليلًا عن نافذتها، وقالت في لهجة غضب وازدراء: حضرتك طالب وظيفة، وكمان كنت عايز تخطبني؟

ارتعد «مصطفى» ونظر إلى وجهها المكفهر وشفتيها المرتسم عليهما الاحتقار، فخيل إليه أنه لا يفهم شيئًا، وأن «سنية» تغيرت في لحظة على نحو يرعب؛ وأراد أن يتكلم ويستوضح، أو يتوسل ويستعطف، ولكنها لم تمهله، بل أمسكت بعارضتَي نافذتها، وقالت: كنت فاكراك أحسن من كده!

ولم تزد، وأغلقت النافذة في وجهه.

فاسود كل شيء في عين «مصطفى».

الفصل الثالث والعشرون

جاءت الليلة التالية، وخرج «مصطفى» إلى شرفته ينتظر «سنية»، وهو في أشد حالات القلق؛ خائفًا أن تكون جادة فيما فعلت البارحة، وأنه لن يراها، وظلت الساعات تمر وهو مصوب عينيه إلى نافذتها المغلقة؛ في شبه تضرع، وكلما ذهب من الليل جزء اهتز يأسًا، وطلب إلى الله في حرارة أن يمن عليه برؤيتها الليلة ولو دقيقة واحدة ... لأن غيبتها عنه أمر لا يطاق، ولأن غيابها الليلة بعد ما حدث بالأمس، له معنًى مخيف.

فلتبرز الليلة كي يطمئن، ولتغب مرة أخرى إذا شاءت ... إنه ليشتري منها اللحظة من هذه الليلة بأي ثمن.

لم تفد شيئًا هذه التضرعات التي لم تخرج من حدود صدره الضائق، ولم يعرها أحد اهتمامًا، ولم يعلم بها حتى الليل الساكن حوله الذي مضى أكثره وهو ما زال ينتظر في أمل.

مرت ثلاث ليال على هذا النحو خالها «مصطفى» ثلاثة أعوام. أي جحيم هو فيه الآن؟! لقد كان في «الفردوس» ولا يدري، وخرج منه لا إلى الأرض فقط، بل إلى الجحيم مباشرة.

وما الذي جناه؟! ما هي تلك الشجرة المحرمة التي عصاها فيها؛ حتى تخرجه وتطرده من الهناء الذي كان فيه، وتمنع عنه نورها الذي كان ينبثق من هذه النافذة؟

وجعل «مصطفى» يسترجع في ذهنه كل عباراتها الأخيرة، عسى أن يهتدي إلى سبب غضبها؛ إذ من ساعة غيبتها لم يكن يفكر إلا في شيء واحد: وحشته القاتلة بدونها.

أتراها ازدرته لأنه وارث عاطل، ولكنه قال لها إنه يبحث عن وظيفة؛ أم تراها ازدرته لأنه ترك محل تجارته وعمله وجاء يقطن القاهرة، وذكر قولها: «وانت «صاحب كيف»، تقعد على قهوة شحاتة؟!» إنه ليس يدري قصدها تمامًا، ولكن إحساسًا خفيًّا هتف به

أنه حقيقةً وارث عاطل، وأنه يستحق في الواقع احتقارها، إن مثله أمامه عمل هائل بدأه أبوه، وكان ينبغي له أن يستمر فيه ... لو أنه شيء آخر غير وارث عاطل كسلان واهن الهمة ... ولأول مرة أحس احتقاره لنفسه، ودب فيه فجأة شيء من القوة والعزم، ولمعت عيناه؛ وكأن حجابًا من الغمام انقشع عن بصره، فرأى الحقائق واضحة، وإذا هو يقول في نفسه: أما انا مغفل صحيح، وظيفة بعشرة جنيه، مع إن المحل لو اعتني به يكسبني على الأقل ١٠٠ جنيه إيراد شهري؟

ثم ذكر قولها: «حضرتك طالب وظيفة؟ وكمان كنت عايز تخطبني!»

أتراها احتقرته لأنه يبحث عن وظيفة حقيرة، مع أن لديه عملًا أهم وأجدى ... نعم لقد فهم الآن، أوليس لها كل الحق في احتقاره واتهامه بالغفلة، أو على الأقل بنقص في الرجولة والنشاط؟

– أنا كنت فاكرة إنك أحسن من كده!

هذا كان آخر ما قالت له.

وهنا نهض «مصطفى» كأن قوةً دفعته، وصاح بخادمه أن يهيئ حقيبة السفر، وازدحمت في رأسه الأفكار والمشاريع والأعمال، وأحس قوًى في نفسه قد انكشفت له.

وبرق في رأسه خاطر: أترى غضبتها عليه مدبرة؟ كي تستثير فيه وتستحث ذلك النشاط الخامد؟ من يدري؟! إنها في غاية الذكاء؛ وأحس رغبة هائلة في رؤيتها، على أي حال لن يستطيع مغادرة المكان بدون إخبارها بما اعتزم ... إنه مستعد لفعل العجب والمحال من أجلها ... كذلك لا بد له أن يعلم منها شيئًا عن أمر مستقبلهما؛ كما علمت هي عن ماضيه وحاضره، إنه لا يحجم عن سكنى «المحلة الكبرى»، بل أقاصي الصعيد ما دامت هي معه.

ولكن كيف يراها؟

وفجأة بدا لـ «مصطفى» أن نافذتها المغلقة لا يمكن أن تظل مغلقة طول الليل والنهار ... إنها لا شك تفتحها في الصباح المبكر. عند نهوضها من الفراش؛ كي يدخل الهواء والنور حجرتها، فلماذا لا يتربص لها في الصباح المبكر؟

ثم عاد فخطر له خاطر آخر ... إن الليل حار، ولا يمكن أن تظل في حجرتها محرومة الهواء طول الليل ... إنها بلا ريب تغلق نافذتها خصوصًا في ساعات الموعد فقط، حتى إذا ما مر الهزيع الأول من الليل قامت وفتحتها ... وانتهى «مصطفى» من كل ذلك إلى شيء: إنه سيسهر الليل بأكمله في الشرفة يرقب النافذة، إن لديه الآن من العزيمة ما يفعل به أكثر من ذلك.

وجاء الليل، ومضى الموعد، فأتى «مصطفى» بمعطف ثقيل تدثر به، و«كوفية» ولفها حول رقبته، وأتى بمظلته التي لا تفارقه من يوم قشر الكرنب والقلقاس؛ زيادة في الاحتياط، وأخرج إلى الشرفة كرسيًّا كبيرًا، وجلس فوقه القرفصاء، ناشرًا المظلة على رأسه وأخذ يتربص.

على أن «مصطفى» لو درى، لاطمأن من جهة «زنوبة» فإنها سرعان ما أدركت غيبة «سنية»، وأنها أول من فرح في مصيبة «مصطفى» بهذا الغياب، غير أن «زنوبة» كانت تعزو سر هذه الفرقة بين المتحابين إلى «مبروك» ومهارة «مبروك» الشخصية، وقد ارتفع قدره في عينيها من ذلك اليوم، أليس هو الذي قال لها: روحي نامي، وحياتك لتكون آخر ليلة لهم!

إنه وعدها بذلك، وها هو «مبروك» نفذ وعده، وكانت تلك حقيقة آخر ليلة لهما معًا، وأخذت «زنوبة» تستجوب «مبروك»، معجبة بما فعل حتى أحدث هذه النتيجة الباهرة: وحياة أبوك يا «مبروك» قل لي بس عملت إيه؟

ولكن «مبروك»، كان أكثر وأشد دهشة: عملت إيه؟ … مين؟ أنا؟!

غير أنه كان مضطرًّا إلى إخفاء دهشته، متسائلًا في حيرة وارتباك: أقول لها إيه؟ وأنا بلا قافية رميت الصفيحة من شباك «المرتفق».

وذكر عطفه على هذين المتحابين، فعجب لما صار إليه، وأخذ يتساءل عن سبب ما بينهما من جفاء في شبه كآبة؛ كأن الأمر يهمه.

وأخيرًا نظر إلى «زنوبة» بطرف عينيه، وقال في سره: كله من عين وش النحس … حسدتهم!

ولم تمهله «زنوبة» فأعادت الكرة: بس عملت إيه يا «مبروك» بعد ما سبتك؟ مش تقولي وتريح قلبي؟

فالتفت إليها «مبروك» وفكر لحظة ليخترع شيئًا، وفي النهاية قال: أقول لك الحق، والا ابن عمه؟

– لأ، الحق.

– الحق، بقيت امسك قشرة القلقاس والا الكرنب واقرا عليها بلا قافية عدية يس، وارميها بينهم!

فابتسمت، وقالت له في إعجاب وحماسه: إلهي ما تعدم عينك وحيلك يا «مبروك»! دا انت أتابيك ناصح وراسي، عيني عليك باردة.

في تلك اللحظة كانت «سنية» بجانب والدتها، تحادثها، وتضاحكها، متظاهرة بعدم الاكتراث لشيء، ولكنها في الواقع كانت تريد استدراجها إلى موضوع يهمها.

تناولت «سنية» يد والدتها، وقالت لها: إنتي تحبيني يا نينة؟

فرفعت الأم رأسها إلى ابنتها، وقالت: حد يكره ضناه؟!

فقالت «سنية» في خبث: علشان كده يا نينة لما طلبوني الخطَّاب السنة اللي فاتت قلتي لهم: ماعندناش بنات تسافر وتتغرب؟

فقالت الأم: معلوم يا بنتي، وأنا حيلتي غيرك؟! أنا عايزة أفرح بك جانبي.

فقالت «سنية» بلهجة معنوية: صحيح يا نينة؟ إنتي دايمًا على فكرك القديم.

وسكتت برهة، ثم فجأة سألت في رفق: إنتي رحتي مع «بابا» «السودان»؟

فأجابت الأم: يا بنتي أبوكي راح قبل ما يتجوزني.

فقالت «سنية» مصرة: افرضي انه كان راح بعد ما اتجوزك، كنتي رحتي معاه السودان؟

فأجابت الأم على الفور: يا ندامة! الواحدة مش تبع جوزها مطرح ما يروح تروح.

فقالت «سنية» متخابثة: ووالدتك كانت ترضى تسيبك تروحي؟

فأجابت الأم: أمي؟ ... أمي ماتت وأنا صغيرة.

– افرضي إنها كانت موجودة؟

فأجابت الأم: الله يرحمها كانت ست أميرة وعاقلة.

فقالت «سنية» على الفور: زيك مش كده؟

وصمتت الفتاة لحظة ... ثم استأنفت الحديث في لباقة، وهي تتدرج به من طبقة إلى أخرى، حتى بلغت به حيث استطاعت أن تفهم والدتها عن طريق غير مباشر أنها مخطئة إذا كانت تظل تشترط إقامة ابنتها في مصر بجانبها أساسًا للزواج، وأنها إنما تشترط ذلك بدافع الاستئثار بابنتها مع المصلحة. وواجب الأم أن تكون أقل أثرة وأنانية في سبيل مستقبل ابنتها وهنائها، كما أن واجب الزوجة أن تتبع زوجها أينما حل — كما قالت أمها نفسها منذ لحظة — وأن ترافقه إلى البلد الذي تدعوه إليه مصالحه وأعماله.

لم تكن «سنية» فتاة من الطراز القديم ... إنها تريد أن تهتم بعمل زوجها وأن تدفعه إلى الاهتمام به، إنها كانت تدرك على وجه التقريب أن لمثل «مصطفى» مصالح وأعمالًا في الأرياف، على الأقل مزارع وأطيان ورثها عن أبيه؛ لذلك لم تتردد في التفكير في الذهاب معه، والمعيشة وإياه في الأرياف إذا اقتضى الأمر.

فتحت «سنية» نافذتها في صباح اليوم التالي، فإذا هي أمام منظر غريب مضحك في شرفة «مصطفي»؛ منظر رجل قد التف كالكرنبة في معطف كبير، وتدثر فوقه بغطاء سميك «بطانية»، وجعل خلف رأسه الملفوف بالكوفية وسادة صغيرة مسندة إلى الحائط، وفوق كل ذلك وسادة مفتوحة قد انكبت على رأسه، فأخفت جزءًا من وجهه، وهو نائم يغط.

عرفته «سنية» فضحكت من قلبها، إنه «مصطفى»، وكل الدلائل تجمع على أنه أمضى ليلته في الشرفة هكذا ... مسكين، إنه ولا شك كان ساهرًا في انتظارها، ولكن ساعة الصباح ونسيم الفجر لفح جفونه، فأرداه نائمًا يغط رغم أنفه.

ترددت «سنية» قليلًا، أتوقظه أم تتركه؟ ولكن تغلَّب عليها حب الدعابة، فتركت النافذة مفتوحة، واختبأت خلف الستائر؛ لترى ما يكون منه، وارتفع النهار، وتسلطت الشمس على وجه «مصطفى» ففتح عينيه، وفي الحال تذكر أنه جاء لانتظار ساعة فتح النافذة، فالتفت إليها بسرعة البرق فإذا هي مفتوحة ولا أحد بها، فضرب رأسه بيده يأسًا وشد شعره غيظًا، وهو يقول: جت، وفتحت، وراحت، وأنا نايم زي الجحش!

وسمعت «سنية» ذلك من مكمنها فضحكت في نفسها مسرورة، وهمت بالظهور له، لكنها رأته جمع أمتعته وأرديته ومظلته، وغادر الشرفة يائسًا، فرأت أن تسكت، وتنظر ماذا يصنع بعد ذلك، واعتزمت مراقبته عن كثب وهي مختفية عنه.

أدرك «مصطفى» أن النوم الملعون لا بد غالبه، إذا أراد السهر طول الليل، وأن أشد ما يهاجمه ذلك النوم ساعة الفجر، وقرب بزوغ الصبح، فماذا يفعل له؟ فكر قليلًا، وأخيرًا اهتدى.

فما جاءت الليلة القادمة حتى خرج «مصطفى» إلى الشرفة بمتاعه المعتاد، وأرديته ووسائده ومظلته، كما فعل الليلة السابقة التي ضاعت منه، إلا أنه أتى معه بمنبه ذي جرس هيأه على الساعة التي يريد الاستيقاظ فيها إذا ما غلبه النوم، وجلس القرفصاء على الكرسي الكبير بعد أن التف اللفة المعهودة ونشر المظلة المنكبة، ووضع المنبه على جدار الحاجز أمامه، مقسمًا ألا تفوته الفرصة بعد الآن.

ونظرت «سنية» إلى كل هذا من خلف نافذتها فأضحكها هذا المنبه الواقف على جدار الشرفة، وودت لو تستطيع صبرًا حتى الصباح، لترى كيف يدق هذا الجرس من الشرفة، وماذا عسى المارة في الطريق ساعة الصباح يقولون إذا سمعوا جرس المنبه، ورفعوا رءوسهم وأبصروا ذلك «الأفندي» النائم بمتاعه ومظلته ومنظره الغريب في الشرفة؟

ولكنها ذكرت نومة «مصطفى» ليلة الأمس، والبرد الذي يتعرض له في الفجر من أجلها، فكرهت أن تتركه يبيت في الشرفة الليلة أيضًا لتتمتع هي بالمنظر المسلي.

وقاربت الساعة منتصف الليل، ففتحت النافذة محدثة — عمدًا — بعض الصوت، فهب «مصطفى» ناهضًا على قدميه؛ كالخفير النائم إذا دهمه ضابط «نوبتجي». وما كاد «مصطفى» يتبينها ويدرك أنها هي «سنية» التي فتحت النافذة، وأنها هي لا طيفها، وأن يأسه من رؤيتها كابوس زال؛ حتى لمع وجهه ببريق أمل وفرح غريب، وأقبل نحوها باندفاع، حال دونه حاجز الشرفة؛ كأنما نسي أن بينهما فاصلًا من الفضاء.

ولكن «سنية» كتمت إحساسها، وتظاهرت بالجد، وقالت: إنت لسه ماسافرتش المحلة؟

فردد «مصطفى» في استغراب: المحلة؟

– أيوه المحلة.

فأجاب «مصطفى» بصوت مملوء عاطفة: اسأليني إذا كنت تحركت من البلكون ده من ليلتها.

فأخفت «سنية» ابتسامة، وقالت في لهجة الغضب والتهديد: يعني عايزني اقفل الشباك مرة تانية؟

فتقدم إليها في تضرع: لأن المرة الثانية رايح ابات في المستشفى.

فقالت ملطفة من لهجتها قليلًا: وإذا كنت تروح تبات في المحلة؛ مش يكون أحسن؟ مش تهتم بأشغالك يا «مصطفى»؟

فخفق قلب الشاب لهذه الجملة الأخيرة خفقة شديدة، ورفع رأسه بعد قليل، ونظر إليها نظرة طويلة، ثم قال بعد فترة بصوت عزم قاطع: «سنية!»

ثم سكت، ثم استطرد فجأة: أنا مسافر بكرة المحلة.

فقالت بفرح: مسافر؟

فأجاب على الفور: لكن بشرط.

ووقف، ثم قال بغتة: رايح ابعت امراة خالي بأول قطر.

فأطرقت «سنية»، واحمر وجهها.

الفصل الرابع والعشرون

لقد صدق نظر الأثري الفرنسي.

«أمة أتت في فجر الإنسانية بمعجزة «الأهرام» لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى أو معجزات ... أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون، ولا يرون قلبها العظيم بارزًا نحو السماء بين رمال الجيزة ... لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الأبد!»

لعل هذا الأثري الذي يحيا في الماضي كان يرى مستقبل مصر أكثر من أي إنسان.

«في شهر مارس» ... مبدأ الربيع ... فصل الخلق والبعث والحياة. اخضرت الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الأثمار.

وكذلك مصر أيضًا، قد حبلت وحملت في بطنها مولودًا هائلًا، وها هي مصر التي نامت قرونًا تنهض على أقدامها في يوم واحد، إنها كانت تنتظر — كما قال الفرنسي — تنتظر ابنها المعبود رمز آلامها وآمالها المدفونة يبعث من جديد ... وبعث هذا المعبود من صلب الفلاح.

كان «محسن» في صباح اليوم المشهود في فصله، وإذا أحد التلاميذ قد أقبل وهو يلهث، وكلما صادف في طريقه فئة لفظ بضع كلمات سريعة بلهجة خطيرة، فتتغير وجوه السامعين ... حتى بلغ الخبر مسامع «محسن»، وما كاد يفكر فيه وفي معناه حتى ألفى المدرسة بأجمعها حوله تتهامس وتتناقش وتتساءل، ودق جرس الدخول فلم يأبه له أحد، أمر عجيب إذ ذاك في تاريخ المدارس: أن يحتشد الطلبة هكذا، وفي ملامحهم معنًى واحد هائل، ويُدعون إلى الدرس فلا يجيبون؛ كأنما هو يوم القيامة!

كان الجميع يتحدثون عن رجل لم يسمع به «محسن» من قبل، ولكنه أحس في لحظة أن حياته يجب أن تعطى لهذا الرجل، وإذا الحماسة تبلغ إلى حد الهتاف في رفاقه

التلاميذ أن اتركوا المدرسة واخرجوا لملاقاة زملائكم طلبة المدارس الأخرى؛ فإن الأمر أجلُّ من أن نشتغل بغيره الساعة، ولعل هذا كان نفس إحساس رفاقه، فإذا الجميع يهرعون إلى باب المدرسة، ولم تمضِ دقائق معدودة حتى كانت المدرسة بأجمعها سائرة في الطريق، وخطر لـ «محسن» أن يذهبوا لملاقاة مدرسة الهندسة؛ حتى يجتمع بـ «عبده»؛ ولأن هذه المدرسة قريبة منهم، إنهم ما كادوا يسيرون قليلًا حتى لمحوا حشدًا من الطلبة مقبلًا عليهم، فتبينوه فإذا هم طلبة الهندسة خرجوا أيضًا، وإذا «محسن» — لدهشته — يرى على رأسهم عمه «عبده» يلوح بذراعيه، ويهتف صائحًا وقد احمر وجهه، وقطب حاجبيه، وفي رنين صوته ما يدل على هياج عصبي عظيم … وانضمت المدرستان إحداهما إلى الأخرى، وسار الكل لملاقاة المدارس الأخرى، واقترب «محسن» من «عبده»، ووضع ذراعه تحت إبطه، وسارا معًا يهتفان. وبين الضجيج والأصوات الراعدة كان «عبده» يسأل «محسن»: خرجتم ازاي؟

فيجيبه «محسن» بكل بساطة: زي ما خرجتم انتم.

ولعل هذا السؤال وذاك الجواب تبودلا مرارًا عدة بين جميع الطلبة وجميع المدارس، وبين كل طبقات الشعب، إن كل فئة وطائفة كانت تحسب نفسها البادئة بالقيام، الشاعرة بالعاطفة الملهمة الجديدة. ولم يفهم أحد إذ ذاك أن هذه العاطفة انفجرت في قلوبهم جميعًا في لحظة واحدة؛ لأنهم كلهم أبناء مصر، لهم قلب واحد.

ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار، وإذا أربعة عشر مليونًا من الأنفس لا تفكر إلا في شيء واحد: الرجل الذي يعبر عن إحساسها، والذي نهض يطالب بحقها في الحرية والحياة؛ قد أُخذ، وسُجن، ونُفي في جزيرة وسط البحار!

كذلك «أوزوريس» الذي نزل يصلح أرض مصر ويعطيها الحياة والنور، أُخذ وسُجن في صندوق، ونُفي مقطعًا إربًا في أعماق البحار.

وانقلبت القاهرة رأسًا على عقب، فأُغلقت الحوانيت والمقاهي والبيوت وقُطعت المواصلات، وعمَّت المظاهرات، وقام نفس الهياج في جميع أرجاء الأقاليم والأرياف … وإن الفلاحين لأشد من أهل المدن في إظهار احتجاجهم وغضبهم؛ فلقد قطعوا الخطوط الحديدية ليمنعوا وصول القطارات المسلحة، وأحرقوا دور الشرطة (البوليس).

وعاد «محسن» إلى المنزل، فألفى «الرئيس حنفي» يحدث «زنوبة» بما وقع؛ ويشرح لها الأسباب والعلل؛ وهو يفرك ركبتيه تعبًا وجهدًا؛ فلقد مشى هو أيضًا في مظاهرات عدة طول النهار، ولم يلبث «سليم» أن عاد كذلك، وقد اندمج في جموع أخرى، وجعل كلٌّ يتحدث بما رأى وسمع، ويتنبأ بما سيحدث ويروي ما تتناقله الإشاعات التي تكثر في هذه الظروف، وجاء «مبروك» فقال أيضًا إنه اشترك في مظاهرة كبيرة بميدان السيدة؛ وإنه كان برفقة الجزار وصبيه والخباز وبائع البرتقال ... فكسروا وحطموا مصابيح الغاز وحواجز الأشجار، وتسلحوا بالحجارة والعصي الغليظة والهراوات والسكاكين، وحكى أن الخنادق قد حُفرت هناك، وأنه حفر معهم خندقًا عمقه متران وعرضه ثلاثة.

وأصبح هذا حديث البيت، ولعله الحديث العام في كل البيوت. وحضر «عبده» وطلب العشاء على عجل؛ لأنه خارج ليلًا إلى حي الأزهر حيث يعقد اجتماع كبير في المسجد، وسيخطب الخطباء في الحالة الحاضرة.

وإذا الجميع ما عدا الرئيس «حنفي» — التعب الطالب النوم — يوافقون «عبده» ويبدون الرغبة في مرافقته.

وما جاء موعد الاجتماع حتى كان الأمر قد تفاقم ... فإذا «الأزهر» محاصر، وإذا المتظاهرون قد أقاموا المتاريس يتحصنون خلفها، وإذا هذا الحي، والحي المسمى «طولون» قد أصبحا ميدانًا لمواقع دموية، وقيل إن كثيرًا من المصريين كشفوا عن صدورهم للمدافع الرشاشة في بسالة مدهشة، وقيل إن مصريًّا سودانيًّا تقدم في جرأة إلى مدفع رشاش مصوب جهته، فانتزعه بيده، وجعل يضرب به أعداءه ضرب العصا.

ولم يحجم «عبده» ورفاقه، بل احتالوا حتى اجتازوا مناطق الحصار من حارات ضيقة مجهولة، وحضروا الاجتماع.

كان الناظر إلى القاهرة وشوارعها أثناء ذلك الوقت يرى منظرًا عجيبًا ... في وسط المظاهرات والهتافات، كانت ترفرف الأعلام المصرية وقد رُسم فيها الهلال يحتضن الصليب؛ ذلك أن مصر أدركت في لحظة أن الهلال والصليب ذراعان في جسد واحد له قلب واحد (مصر).

اشتدت الحالة حرجًا ... غير أن المدهش أن «عبده» و«محسن» و«سليم» اندفعوا وانغمسوا في الثورة على نحو يقلق، ولعل «زنوبة» هي الوحيدة التي لاحظت ذلك ... وقد خيل

إليها أنها فهمت قليلًا سر ذلك: إن هؤلاء الثلاثة الذين كانوا منذ قليل ساكتين كأصحاب «بنك» أفلس، تخنقهم الكآبة والضيق كأنهم في سجن من نفوسهم لا يستطيعون منه خلاصًا ... هؤلاء الثلاثة ما كادت الثورة تنفجر حتى انفجروا معًا، وإذا هم يروحون ويغدون منهمكين فيها وفي حوادثها المتجددة المثيرة للحواس، وإذا هم قد ذهب انقباضهم ووحشتهم، وحل محله الاهتمام والكفاح والتحمس، ولعل الصغير «محسن» كان أظهرهم تأثرًا بذلك الحادث التاريخي؛ فقد استحال كل ما كان في قلبه من حب خاب فيه بقسوة، إلى عواطف وطنية حارة ... وكل عواطف التضحية التي كان مستعدًّا لبذلها في سبيل معبود قلبه، إلى عواطف تضحية جريئة من أجل معبود وطنه. هذا ما حدث أيضًا لـ «عبده» و«سليم»، بمقدار أقل.

عجبًا! أترى كان لا بد من تلك الثورة لتصريف عواطف هؤلاء المنكوبين في عواطفهم؟

ثم شيء آخر، أتراها هي الأعجوبة التي كان لا بد منها كي لا يسقط «محسن» في امتحان هذا العام؟! في الواقع لم يكن ثمة أمل في «محسن» بإجماع أساتذته، وهو نفسه ما كان يفكر في موضوع الامتحان، ولا في شهادة الكفاءة هذه السنة، ولكن ها هي الثورة أغلقت المدارس، وألغت الامتحانات، وها هو قد نجا من وصمة الفشل بأعجوبة. غير أن «محسن» لم يعلق أهمية كبيرة على هذه المسألة، ولم ينظر إلى الثورة بهذه العين الخاصة ... هي عواطفه القوية التي تحولت إلى وطنية، ما كانت تملك كل كيانه، وتصرفه عن كل شيء آخر حتى عن سلامته في تلك الظروف الخطرة.

لم يكد «مصطفى» يسافر إلى «المحلة الكبرى» ويبلغها حتى برَّ بوعده، وبعث امرأة خاله بصحبة خادمه إلى مصر، على أن تمضي نهارًا واحدًا، تذهب فيه إلى منزل «الدكتور حلمي»، وتخطب «سنية» إلى أمها.

وقد تم الاتفاق مبدئيًّا، وعادت امرأة الخال إلى «المحلة» تزف للخطيب البشرى، وتخبره بما فعلت، وبما ينبغي له أن يفعل ... ولقد أعجبتها «سنية»، فجعلت تصف لـ «مصطفى» محاسنها، و«مصطفى» يصغي إليها، في فرح وابتهاج، وأخبرته كذلك أن «سنية» هي التي كانت تسهل الأمور، ولولاها لما تم شيء بهذه السرعة ... والواقع، ما كادت امرأة الخال تنصرف، حتى تنفست «سنية» مسرورة سعيدة، تعد الأيام على أصابعها، وتتوقع حضور «مصطفى» من يوم لآخر لإنهاء الأمر ... ولكن وا أسفاه، كان اليوم التالي لسفر الخالة الخاطبة هو اليوم المشهود ... وما انتهى النهار حتى قُطعت السكة الحديدية ما بين مصر وطنطا والمحلة الكبرى، وتعذَّر على «مصطفى» السفر إلى «القاهرة»، بل تعذر عليه حتى الكتابة إلى «سنية» يهدئ من روعها ... ولا أحد يستطيع وصف قلق

«مصطفى» وضيقه ... أفي هذا الوقت الذي يستطيع أن يراها فيه علانية، ويكاتبها كما يشاء علنًا، ينقطع الاتصال بينهما؟! ولكن أسف «سنية» كان أشد وقلقها وحزنها أروع، وخطر لها فجأة شبح «محسن»، وهتف في أعماق نفسها هاتف: أليست هذه العقبة جزاء لها على إذلالها «محسن» المسكين على ذلك النحو؟

ليس يدري أحد على التحقيق أكان الثلاثة — «عبده» و«محسن» و«سليم» — قد اندمجوا في سلك جمعية سرية أم ماذا؟ لقد أصبحت حجرة السطح مستودعًا لرزم هائلة مكدسة من المنشورات الثورية، وكانت تقف في كل مساء بالباب «رقم ٣٥ شارع سلامة» عربة نقل يجرها حمار، عليها صندوق خشبي كبير، يصعده السائق بمساعدة «مبروك»، تحت إشراف «عبده» إلى حجرة السطح، وبعد أن يفرغ ما فيه من رزم يعاد إلى العربة، ولا يدري أحد بالضبط من أين تأتي هذه العربة، ولا إلى أين تذهب الرزم؟ هذا سر كان الثلاثة يفضلون الموت على إفشائه.

وفي ذات يوم سرت في البلد إشاعة: التفتيش جارٍ وأن كل مارٍّ في الشارع والطرقات، وكل مختلِف إلى مقهى أو مشرب معرض للتفتيش في أي وقت، ومن يُعثر في جيبه على سلاح أو ورقة مشتبه فيها يساق إلى السجن في الحال ... ولكن، للأسف، جاءت ... جاءت الإشاعة بعد فوات الأوان؛ ففي تلك الساعة كان «محسن» و«عبده» في قهوة «الشيشة الكبرى»، وجيوبهما محشوة بالمنشورات يوزعانها يمينًا وشمالًا؛ فلم يشعرا إلا وضابطان إنجليزيان اقتحما المكان شاهرين المسدسات، وخلفهما جنود مسلحون، وفُتش «عبده» و«محسن»، وأُخرجت من جيوبهما المنشورات، وفُتش بعد ذلك منزلهما، وعُثر على حجرة السطح ورزمها المكدسة ... هذا يكفي بالطبع للقبض على البيت بأكمله، وذلك أقل ما يُعمل في ظرف كهذا ... قُبض حتى على «الرئيس حنفي» والخادم «مبروك»، وأُخذ «حنفي» من سريره وهو يفرك عينيه، ويقسم أنه لا يعرف شيئًا، والواقع كان «حنفي» مظلومًا لأنه لا يدري بما في حجرة السطح، ولكنه دائمًا مظلوم، وكونه مظلومًا دائمًا لا يخليه قط من تحمُّل نصيبه من المسئولية.

لم يستثنَ غير «زنوبة» ... كل الدلائل تبرئها من التهمة، إنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة، ولا علم لها بشيء، فتركوها وحدها في البيت ... وحدها فقط، وساقوا الباقين جميعًا إلى سجن القلعة ... وقد ظل «مبروك» يغمز «اليوزباشي سليم» بيده طول الطريق،

ويهمس له في سخط: كله منك يا «سي سليم»، قعدت تفتش لحد بلا قافية ما فتشونا، وعلى رأي المثل ...

ولم يُتم ... لأن الجنود المرافقين لهم منعوه من الاسترسال في الثرثرة، ولوحوا له بالبنادق، فوضع يده على فمه، وقال مرتجفًا: يا جناب العسكر، مفيش لزوم للبنادق ... قطعت لساني خلاص ... العمر مش بعزقة.

الفصل الخامس والعشرون

زُجَّ بالخمسة في قاعة واحدة من السجن، فناموا ليلتهم من فرط التعب، فلما أصبح النهار قام «مبروك» قبلهم، وأخذ يتأمل المكان، ويتبين أرجاءه فوجد شباكًا عاليًا في ركن؛ كأنه برج بارز، فاحتال حتى ارتفع إليه، ونظر من بين قضبانه، فرأى ساحة فأجال بصره فيها، فإذا في وسطها «عقلة» منصوبة، وبجانبها «متوازيان» من الخشب؛ لعلهما وُضعا لتمرين الضباط والجنود على الألعاب الرياضية، غير أن «مبروك» لا يعرف ذلك؛ فما كاد يرى هذه الأشياء حتى نزل يصيح: نصبوا المشنقة!

فما سمعه «الرئيس شرف حنفي» حتى فتح عينيه في الحال، وانتفض هلعًا، ثم انتصب قائمًا على قدميه يقول: المشنقة، هي حصلت المشنقة، هم رايحين يشنقونا؟! لا ... دا كلامماينفعش!

ونظر إلى «عبده» و«محسن» و«سليم» فإذا هم نيام أو متناومون في هدوء تام، فهزهم صائحًا: قوموا، قوموا يا اولاد! ... دي داهيتنا تقيلة ولا احناش عارفين.

فلم يجبه أحد، فقال مغتاظًا: يعني دلوقت النوم حلو.

فلم يسمع سوى صدى صوته فوق الأسفلت، فقال كأنه يخاطب نفسه، ويندب حظه: آه، النهار باين من أوله، والله عملتوها يا غجر وفضلتم ورايا لحد ما وديتوني معاكم المشنقة!

ثم سكت قليلًا ... وكأنما كلمة «مشنقة» وهو يلفظها أشعرته أن الموقف قد يكون جدًّا لا هزل فيه، فارتعد: لأ ... دي المسألة مافيهاش هزار.

وصمت قليلًا أيضًا يفكر في هول ما ينتظرهم ... وفجأة قفز إلى الرفاق النائمين؛ كأنما لم يطق مجرد التفكير، وجعل يقول بصوت التوسل والخوف: شوفوا لنا طريقة يا اخواننا، اعملوا معروف، ينوبكم فيَّ ثواب ... قوم يا «سليم» انته يوزباشي، وتفهم في

الموضوع ده ... ماتعرفلناش واد ظابط صاحبك ابن حلال هنا يشوف لنا مخرج؟ ... لكن لأ ... دا انت بحق مرفوت، وواقعتك طين! ... نعمل إيه بس يا رب! ... «عبده» ... يا «عبده»! قوم شوف لنا سلك، والا اختراع نهرب به! ... نايمين برده؟! إخص عليكم ... كده؟! انتم ما تفلحوا إلا في الهلس!

ويئس منهم فتركهم، والتفت إلى «مبروك» المطرق المفكر كذلك في الآخرة، ولسان حاله يقول «جالك الموت يا تارك الصلاة»، فهزه «الرئيس حنفي»، وقال له في إلحاح: إنت متأكد يا «مبروك» انها مشنقة بصحيح؟

فرفع الخادم رأسه إليه في حزن، وقال: آه، مشنقة بصحيح ... أمال كده وكده؟

فقال «حنفي» كأنما يخاطب نفسه: آهي دي المصيبة اللي بصحيح ... لكن بس يشنقونا من قبل ما يحاكمونا؟! ولو مجلس عسكري يا مسلمين!

– وجنسها إيه المشنقة يا «مبروك»؟

فقال «مبروك»، وهو مطرق: كويسة.

فمكث «الرئيس حنفي» وأخذ يقطع القاعة جيئة وذهابًا بخطًا عصبية. ويفكر، ويستعرض، ويناقش نفسه، ويقول بين آنٍ وآخر: «مش معقول! ... مش معقول أبدًا.»

وأخيرًا وقف، والتفت إلى «مبروك» وطلب إليه أن يصعد ثانية ويصف له ما يرى في الخارج بالتفصيل.

ولبى الخادم، وأعاد النظر إلى «العقلة» الطويلة المنصوبة، ثم إلى «المتوازيين» القصير والصغير بجوارها، وقال: ناصبين بلا قافية مشنقة كبيرة، وجنبها مشنقة صغيرة؟

فردد «حنفي» في شيء من الشك والارتياب، وقد أحس أن «مبروك» يهزل: إيه هي اللي صغيرة وكبيرة، مشنقة كبيرة ومشنقة صغيرة؟ إيه الكلام ده؟! انزل يا شيخ بلاش عبط!

فألقى «مبروك» نظرة أخرى على «المتوازيين» الصغير، ثم قال مقتنعًا ومعللًا: وحياة دقن النبي كده، لازم الصغيرة دي علشان من غير مؤاخذة سي «محسن».

وعندئذٍ رن في المكان صوت انفجار ضحك، وإذا الثلاثة النيام أو المتناومون قد جلسوا القرفصاء، كلٌّ في فراشه يضحكون من قول «مبروك» ومن خوف «حنفي»، والتفت «سليم» إلى «محسن»، وقال له ضاحكًا: سامع! ... ناصبين لك مشنقة «نونو» على قدك.

فأجاب الفتى باسمًا: أشكرهم على كل حال، لكن أنا أفضل انشنق معاكم على المشنقة الكبيرة.

فقال الرئيس «حنفي» على الفور: تبادلني؟ أنا والله راضي بالصغيرة.

كان أول ما فعلته «زنوبة» بعد القبض على «الشعب» أن التفَّت في إزارها وذهبت إلى مكتب التلغراف، وبعثت تخبر والد «محسن» في «دمنهور» بما جرى: وكانت طرق المواصلات قد أصلحت على الأقل خط «مصر–إسكندرية» وأصبح الانتقال على طول هذا الخط ممكنًا، ولكن بقيود، وتذاكر شخصية تصدرها المحافظة، ونزل الخبر على والد «محسن» ووالدته نزول الصاعقة، وجعلت والدته تندب مصيبتها من يوم أن وافقت على إرساله إلى مصر بين أعمامه ... نعم إن «دمنهور» ليس بها مدرسة ثانوية، ولكن أما كان ينبغي لها أن تفكر في طريقة أخرى، غير استئمان أعمامه! إنما اللوم كله على والده الذي ظن خيرًا في إخوته بالقاهرة، وحسب أنهم سيحافظون على ابنه. وهكذا طفقت تلطم وجهها، مشبعة زوجها وإخوته لومًا وتقريعًا، وتصيح: «هاتوا لي ابني ... هاتوا لي ابني!»

ولم ينتظر والد «محسن» حتى الصباح، بل جهز حقيبته، وركب أول قطار استطاع أن ينقله إلى القاهرة، وهناك جعل كالمجنون يقابل أصحاب الأمر والنهي، ويسأل ويتوسل على غير جدوى، وأخيرًا خطر له أن يذهب إلى مفتش الري الإنجليزي، الذي يعرفه، عله يساعده لدى السلطات العليا. فكانت فكرة موفقة؛ إذ قابله الرجل مقابلةً بعثت فيه الأمل، واهتم بالأمر غاية الاهتمام؛ لأنه ذكر رؤية الصغير «محسن» يوم مأدبة الريف، وإعجابه به. وقد كلمه بالإنجليزية في لطف، إلا أنه بعد التحري اتضح له أن المسألة دقيقة لأنها بين أيدي السلطة العسكرية! ولذلك لا يستطاع حلها دفعة واحدة. فرجاه والد «محسن» في يأس أن يتوسط، ولو في إطلاق سراح «محسن» فقط على حدة، ولينتظر الباقون حتى تهدأ الأمور، فراح المفتش ينظر في ذلك الشأن ... في تلك الساعة تحصَّل الوالد على إذن بزيارة «الشعب» في سجن القلعة، فما رآهم ورأى «محسن» بينهم حتى دهش لمظهرهم الهادئ المرح. وبعد أن استعلم منهم عن كل ما حدث، وقاربت الزيارة الانتهاء، أخذ «محسن» ناحية، وأفهمه أن يتشجع، ويصبر يومًا أو اثنين فقط؛ فإن المساعي مبذولة لإخراجه وحده الآن. ولم يكد الفتى الصغير يسمع ذلك حتى تراجع أحمر الوجه، غضبًا وغيظًا، وصاح قائلًا: فاهم إني أرضى أخرج وأعمامي هنا؟!

فبهت الوالد قليلًا، والتفت إلى الباقين في حيرة وارتباك، ثم توجَّه إليهم بالكلام، مخبرًا إياهم عن استحالة إطلاقهم الآن، وأن كل ما أمكن الحصول عليه هو ربما إطلاق «محسن» فقط، وطلب إليهم المساعدة في إقناع الفتى الصغير؛ نظرًا لأن سنه وصحته لا تسمحان له بحياة السجن، فأقبلوا جميعهم على «محسن» يطلبون إليه في إخلاص، وفي أصوات حارة صادقة، أن يمتثل ويرضى بالخروج؛ لأنه صغير وليس في سنهم ... و... و...

ولكن «محسن» له أحيانًا، وفي هذه المسألة على الخصوص، عزم لا يلين.

وانتهت الزيارة على ذلك، فخرج الوالد وقد خطرت له فكرة ابتسم لها: إنه متى صدر الأمر بالإفراج عن «محسن» فإن رضاءه أو رفضه لا يفيدان شيئًا؛ لأن التنفيذ بقوة الجنود.

منذ تلك الزيارة انقلب حال «محسن» وأصبح كئيبًا، يتوقع في كل لحظة أن يفتح الباب، ويجبروه على الانفصال عن رفاقه، وظل هكذا في قلق، وأحيانًا في خجل داخلي كلما ذكر أنه سيفلت بفضل مساعي والده، ويترك أعمامه و«مبروك» بلا معين … ثم أي لذة للحياة بمفرده في «دمنهور»، أو في أي مكان آخر، وهو الذي يحس الغبطة بمشاركة رفاقه «الشعب»، في كل تقلبات الظروف والأوقات؟

إن الألم نفسه مهما عظم يتضاءل كلما اشتركوا فيه جميعًا، ويخف حمله كلما حملوه معًا، بل إنه أحيانًا ينقلب عزاء مثلجًا للصدور، لذيذًا، فماذا يريد به أبوه وأمه غير الوحدة والأنانية؟! وجعل في سره، ومن أعماق نفسه يدعو الله أن يخفق مساعي والده.

وكأن الله استجاب الدعاء الحار: رجع المفتش الإنجليزي آسفًا حزينًا؛ لأنه بعد جهد حقيقي لم يستطع أن يفعل سوى شيء واحد الآن: أن ينقل المسجون الصغير، أو هو ومن معه إلى مستشفى السجن، حيث المعاملة أرقُّ والمعيشة والراحة أوفر.

وقال للوالد الواله: اطمئن؛ فهم في مستشفى السجن كأنهم في فندق؛ أو كأنهم في منازلهم، هذا خير مكان يمضون فيه وقتهم براحة، بعيدًا عن هياج المدينة حتى يأتي يوم إطلاقهم، طبعًا المسألة عسيرة الآن؛ لأن الحالة في البلد ما زالت خطيرة، ولكن بعد بضعة أيام أخرى من يدري؟ ثق أنهم أول من يخرج، بمجرد أن تستقر الحالة، إنهم فقط محجوزون مؤقتًا، لأجل معلوم … إني لن أتركهم، ثق بذلك، إنك تستطيع العودة إلى بلدك مطمئنًّا مكتفيًا بالاعتماد عليَّ.

وهدأ والد «محسن» قليلًا لقول المفتش الكريم، ثم قال مترددًا: يعني أسافر واقول لوالدته؟

فأجابه المفتش بصوت قاطع وبلهجة الواثق المطمئن: سافر، أنا موجود هنا.

وتم نقل «الشعب» إلى المستشفى.

وفي نفس اليوم، ذهب والد «محسن» بصحبة المفتش لزيارة «محسن» ورفاقه، في مقرهم الجديد.

وجعل الوالد يتأمل النظام الجميل حوله، والأسرَّة المصطفة النظيفة، والحديقة التي يتنزه فيها من يريد أو من في دور النقاهة، والمكتبة وما تحتويه من كتب حسنة التنسيق، وقاعات الانتظار والاستقبال بكراسيها وأرائكها الجلد.

فسُرَّ في نفسه، ولاحظه المفتش فوضع كفه على كتفه بلطف وقال له: يخيل لي أننا نطمئن على وجودهم هنا أكثر من منزلهم، على الأقل هم هنا بعيدون عن الاضطرابات والخطر، والمستشفى مسئول عنهم.

اطمأن «حامد بك» والد «محسن» تمامًا، وعزم على العودة إلى «دمنهور»، ليطمئن زوجته القلقة، ويخبرها بما يحوط «محسن» من أمان وراحة وسلام، وبعد أن شكر المفتش الإنجليزي على مروءته غادره ليأخذ حقيبته، ويأخذ زنوبة معه إلى دمنهور؛ إذ لا معنى لإقامتها بمفردها وسط هياج القاهرة.

وحزمت «زنوبة» صرر متاعها، ولكنها لم تشأ أن تسافر قبل رؤية إخوتها و«محسن» في المستشفى، فوافقها «حامد بك»، وفي الصباح صحبها إليهم، فدخلت عليهم وكانوا في «عنبر» النوم في أسرَّة خمسة مصطفة، الواحد بجانب الآخر، فوقفت دهشة قليلًا للمنظر، منظرهم لم يتغير؛ وكأنهم في قاعة النوم «العمومية» بمنزل «شارع سلامة».

ثم وقع بصرها على «مبروك» ممددًا في سرير بجوار سرير «حنفي»، وهو يتمطى في أغطيته وفرشه البيضاء الناصعة النظيفة الجديدة، فلم تتمالك «زنوبة» أن صاحت في استغراب صيحة خفيفة: جاتك نيلة يا «مبروك»، صبرت ونلت ونمت على آخر الزمن في سرير بحق وحقيق.

فنظر إليها «مبروك» بغير أن يتحرك من رقدته، وقال باسمًا: إنتي واخدة بالك؟

ثم نهض نصف نهضة في سريره؛ متكئًا على مرفقه، وقال: بقا اما اقول لك: أنا خلاص جتتي خدت على نوم السراير، وشرفك وشرف أمي ما انام بعد النهارده على الطرابيزة الخشب اياها، إنتم بلا قافية استغفلتوني وحسبتوها عليَّ سرير.

في هذه الأثناء كان «حامد بك» والد «محسن» في الردهة الخارجية حيث استوقف طبيبًا يعرفه، وأخذ يحادثه، بعد أن أشار إلى «زنوبة» على العنبر الذي فيه إخوتها حتى تسبقه إليهم، وانتقلت «زنوبة» من حديثها مع «مبروك» إلى التحدث مع الباقين، وقد علمت من كلامها مع «الرئيس حنفي» أنه مسرور بالمستشفى، وعلى الأخص النوم في هذا العنبر، لا لشيء إلا لأن الهدوء تام شامل؛ فإن «الشعب» لا يجسر على الضجيج و«الشوشرة»، لأنه يخضع هنا لأوامر رئيس «التمرجية»، لا «لرئيس الشرف».

وسألها «سليم» عما جرى بالحي، وبالأخص أخبار الحوادث الأخيرة وتأثيرها على … السكان … أو … الجيران.

وفهمت «زنوبة» مغزى سؤاله، فابتسمت ابتسامة صفراء، وقالت متنهدة، وبلهجة كلها تلميح: عقبال عندك، كتب كتاب أكيد، وأفراح عن قريب.

فسكت، ولم يحر جوابًا!

وتقلب «محسن» على جنبه الأيسر، والتفت إلى ناحية سرير «عبده» عن يساره يحدثه في شيء تافه؛ ليخفي انقباضه في قلبه، فأجابه «عبده» هو الآخر على حديثه التافه بانتباه مصطنع، وفي عينيه مرارة ممزوجة بالاستياء إلى حد الغضب، إنه لا يريد أن يتذكر.

نعم أصبح أكيدًا عقد زواج «مصطفى راجي» و«سنية حلمي»؛ فقد حضر «مصطفى» إلى القاهرة من يوم أن فتح طريق المواصلات الذي كان ينتظره بصبر نافد، وقابل والد «سنية» «الدكتور أحمد حلمي»، واتفقا على إنجاز العقد والتأهيل يوم تهدأ الحالة، بإعادة المنفي العظيم إلى مصر الوالهة.

وهكذا … قد يتفق يوم خروج «محسن» ورفاقه من السجن مع يوم زفاف «سنية» إلى «مصطفى».

من غريب المصادفات أن الطبيب الذي استوقفه «حامد بك» في الردهة، والذي يعرفه مذ كان طبيبًا بالأرياف نواحي «دمنهور البحيرة» كان هو نفس الطبيب الذي عاد «الشعبَ» في منزلهم «بشارع سلامة»، أيام أن أصابتهم كلهم حملة الحمى الإسبانيولية، ويومئذٍ دهش الطبيب لمنظرهم وهم مجتمعون كلهم في حجرة واحدة صُفَّت فيها الأسرَّة، الواحد تلو الآخر؛ كأنهم في عنبر ثكنة أو مستشفى؛ حتى إنه لم يتمالك «هذا الطبيب» وقتئذٍ أن صاح بهم: لا، دا مش بيت … دا مستشفى!

وهو الذي ابتسم مستغربًا انضمام «مبروك الخادم» إليهم على «طرابيزة» الأكل المنقلبة سريرًا، وتساءل يومها دهشًا عما حدا بهم إلى هذا الحشر في حجرة واحدة، قائلًا في نفسه: أتراهم فلاحين من أهل الأرياف، اعتادوا المبيت هم ومواشيهم في قاعة واحدة؟!

كان «حامد بك» والد «محسن» في حديثه مع الطبيب بالردهة، قد استفسر منه عن سبب وجوده بالمكان، فعلم أنه الآن طبيب بالمستشفى، فانتهز الفرصة، وأوصاه خيرًا بابنه وإخوته.

ودخل الطبيب العنبر، فوقع نظره على «الشعب»، راقدين الواحد تلو الآخر، وتبين السِّحَن والوجوه فإذا هو يذكرهم، ويذكر «عنبر» منزلهم، فوقف دهشًا لحظة، ثم صاح مبتسمًا: هو انتم؟! ... وبرده هنا كمان جنب بعضكم؟! ... الواحد جنب اخوه؟!

باريس، «جامبتا»، سنة ١٩٢٧م.

هنداوي